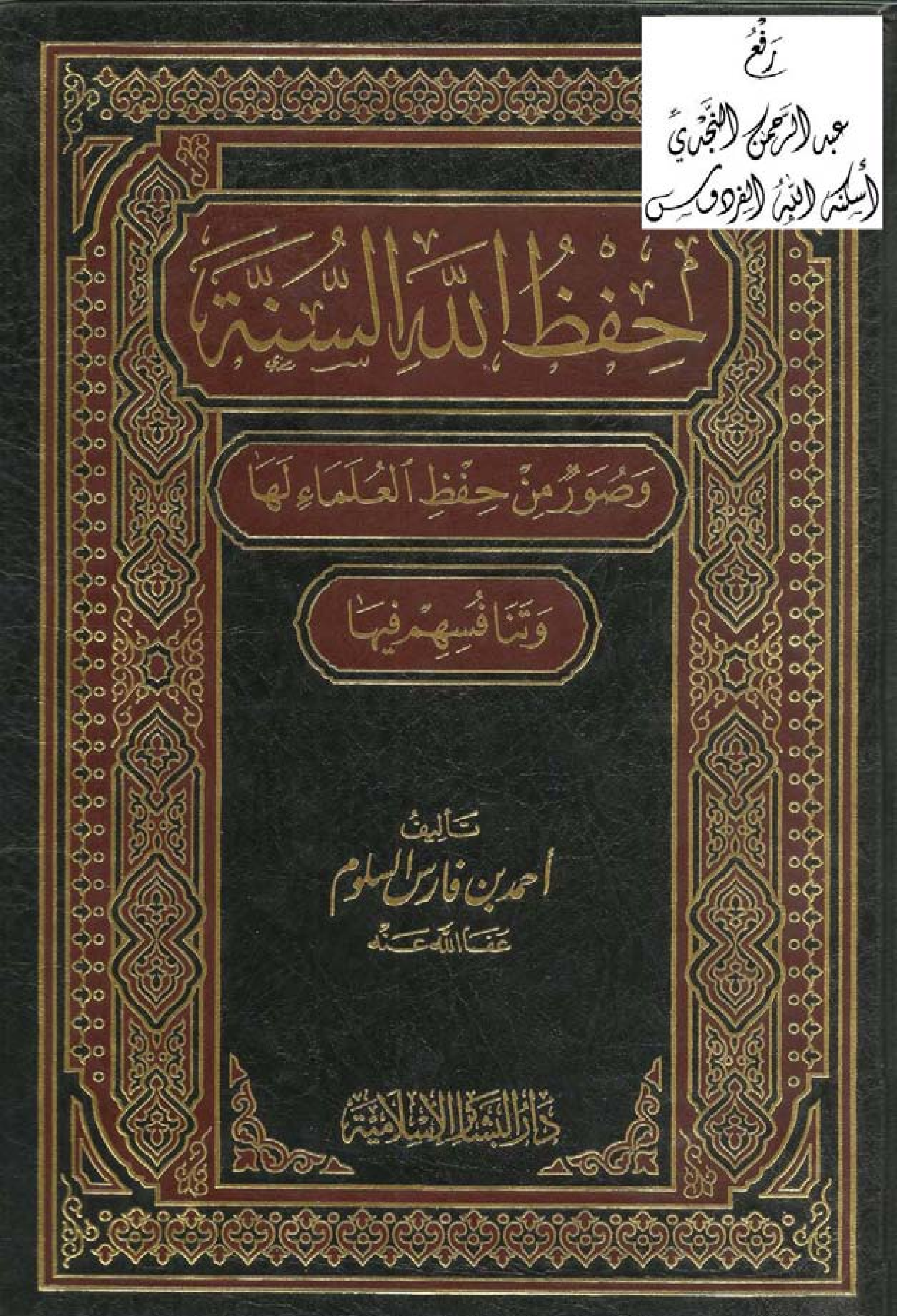

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
حفظ الله السنة
وصور من حفظ العلماء لها
وتنافسهم فيها
تأليف
أحمد بن فارس السلوم
عفا الله عنه
دار البشائر الإسلامية

حفظ الله السنة

وصور من حفظ العلماء لها
وتنافسهم فيها

الطَّبْعَةُ الأولى
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

شركة دار البشائر الإسلاميّة
لِلطّباعةِ والنّشرِ والتّوزيع ش.م.م
أسسها الشيخ رمزي دمشقية رحمه الله تعالى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م
بيروت - لبنان ص.ب: ١٤/٥٩٥٥ هاتف: ٧٠٢٨٥٧
فاكس: ٠٠٩٦١١/٧٠٤٩٦٣ e-mail: bashaer@cyberia.net.lb

حفظ الله السنة

وصور من حفظ العلماء لها وتنافسهم فيها

تأليف
أحمد بن فارس السلوم
عفا الله عنه

دار البشائر الإسلامية



رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

المقـدّمَة

بسم الله الرحمن الرحيم

اللَّـٰهُمَّ إنـا نحمدك عـلى مـا جُدتَ بـه مـن عطايا، وحفظتَ من رزايا، ومننتَ مـن نِعَم؛ جعلتنا خير أمـةٍ أخـرجت للناس، وحفظت لنـا ديـنـنا مـن الدثور والاندراس، وكنتَ أتممتَ علينا المنةَ مِنْ قَبْلُ بِبِعثَةِ محمد ﷺ مُعلماً ومُزكِّياً ورَسولاً نَبيًّا، فبدَّدتَ بـه ديـاجير الظلم، وأحييتَ بـه عُـلـوَّ الهمم، وأثَرتَ كوامننا للانتباه إلى مـا جـاء بـه مـن حِكَم، ورفعتنا بـدينه إلى القِمَم، وانْتَشَلْتَنَا باتِّبَاعِهِ مِنْ مَهاوي الخزي والنَّدم، ومهـمـا عدَّدنا نعمك علينا فلن نُحصيَها عَدًّا، أو نبلغَها شُكراً وحَمْداً:

وفضـــلُ الله جـــمٌّ لا يعيـــهِ	جِنـانُ فتًــى فينظُمَـه خِطـابـا
ولا يسطيـــعُ إنســانٌ قــؤولٌ	وإن فَتحـت لـه الكلمـاتُ بَـابـا
وإن سَـالَـت لـه الأمـواجُ حِبـراً	وأُعطِـيَ حكمـةً وكـذا صـوابـا
وإن صـارتْ لـه الأشجـارُ طُـرًّا	يَـراعـاً كَـي يُـؤَلِّفَـه كِتـابـا
بـأن يُحصـي مَـديحـاً أو ثَنـاءً	فيبلــغَ حقَّــه فينــا ثَــوابــا
ولكــن نســأل الــرحمــن حفظـاً	وتــوفيقـاً يجنِّبنـا المَعـابـا

وأشهد أن لا إلـه إلاَّ الله، تكفَّل بحفظ الدِّين، وصان شرعه عن انتحال المبطلين، وافتراءات الجاهلين، وتحريفات الغالين.

وأشهد أن محمَّداً عبده ورسوله، اختصَّه الله بالذِّكر والهدى، ما ضَلَّ وما غوى، وما ينطق عن الهوى، إن هو إلاَّ وحيٌ يوحى.

أنزل الله عليه وحياً من السماء يُتلى، وأدرج بين جنبيه وحياً يُنقل ويُروى، فنفى بهما عن أمَّته الضلالة والغيّ، وفتح الله بهما أعيناً عُمْياً، وآذاناً صُمًّا، وقُلوباً غُلْفاً.

اللَّـهُمَّ صلِّ عليه وعلى آله وصحبه، ومن تتبَّع سُنَّته، وبلَّغ حديثه، وحفظ آثاره إلى يوم الدين.

أما بعد:

فما زلتُ منذ انفتقت أفهامي مشدوهاً أمام ما يُذكر في تراجم السادة المحدِّثين من حفظٍ تقصر دونه الآمال، وإن ساعدتها الآجال، وكنتُ كلما أدرت قِصَصَهُم في تلافِيفِ مُخِّي، وحكَكْتها بجُذَيِّل عَقلي، ازددت حيرةً من شدة حفظهم، وأيقنت أنهم صنيعةً إلهيةً شاءها الباري عزَّ وجلّ ليحفظ بهم هذا الدين، ويوصله إلى الآخِرين، وكنت أعلم أنهم ـ بالرغم عن ما يروى عنهم ـ لا يعدوا أنْ يكونوا حالاتٍ بشرية لم تتصف بعدُ بأيِّ شيء من الصفات الأخروية، وإنما صقلهم الاصطناع على عين الربِّ، والاصطفاء لنفسه ودينه، ليحقِّق بذلك وعده الخالد في كتابه المُعْجِز: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

ولذا كُلَّما كان الناظر في سيرهم وأخبارهم لاحظاً هذه المعاني اللطيفة، والتدابير الخفيّة، كان أدعى لتقوية يقينه، واطمئنان قلبه، وهضم حقوق نفسه، وعَلِم لم كان النظر في تراجم الرجال أحبَّ إلى كثيرين من النظر في كتب المسائل؟ فالعلم بالأحوال مثيرٌ للأعمال.

ولقد جرَّني الشغفُ بهم وبتراجمهم إلى تتبُّع أحوالهم، والتنقير عن

أخبارهم، وتقييد ما يتعلق بالحفظ والمذاكرة، قاصداً من وراء ذلك بعثَ الروح في همَّتي المتطامنة، وإحياء الجدِّ في طلبـي المتواني.

فتخلَّصتْ عندي قُصَاصَاتٍ كثيرة، وكَرَاريسَ عدة، مليئةً بالإحالات إلى مواطن الحفظ من تراجم الأعلام، وغصَّ بها سِفْطٌ كنت أعددته لمثل هذه المسوَّدات.

وكنت على طول طريق المطالعة لا أكادُ أقف على شيءٍ من ذلك إلاَّ قيَّدْتُه وألحقتُه بموضعه من السِّفط، ثم حانت منِّي همَّةٌ التفتت إلى هذا السِّفط وصنَّفت محتوياته في أضابير بحسب موضوعاتها.

وكنت كثيراً ما أقف عند بعض الأخبار والحكايات، كأني لم أكن قرأتها من قبل، وكأن كاتبها غيري!!.

ولم يكن تردَّد في تجاويف النفس أن أهذِّب هذه القُصاصات وأن أخرجها في ضميمةٍ تروى وتنشر، إلى أن وقع إليّ كتاب الشيخ العلاّمة عبد الفتّاح أبو غدّة الحلبـي رحمه الله تعالى المسمَّى: «صفحاتٌ من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل»، فأعجبني حسن اختياره، وجَودة ترتيبه، وحرَّك فيَّ رغبة في إظهار جانب آخر متصلٍ بالحياة العلمية لسلفنا الصالح رضي الله عنهم، تظهر فيه حَصِيلة هذا الشظف الذي عانوه، والنَّصب الذي رغبوه، وليعلم النَّاس أن زرعهم الحنظل قد جنوه ورداً، وأن صبرهم قد أثمر مَجْداً، وقديماً قيل: من جدّ وجد.

فبدأتْ فِكرةُ تأليفِهِ تدور في خَلدي، وتكبرُ حيناً بعد حين، وزادَ من عزيمتي في إخراجه مُذَاكراتٌ مع بعض شباب الدعوة المباركة، يسألون فيها عن السُّنة إنْ كانت مشمولةً بالحفظ الإلـٰهي أم لا؟ وعن كيفية حفظها؟ وطرق ضبطها؟

وكان أن قال أحدهم: إن بعض الناس يزعم أن السنة غير مشمولةٍ بحفظ الله عزَّ وجلّ، وليست داخلةً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، وأورد ما زعموه أدلةً، وهو في الحقيقة شُبَهٌ واهيةٌ كبيت العنكبوت، ورؤًى كاذبةٌ كسمادير المهوِّسين، فثارت فيَّ حميَّة عربيَّةٌ، وغضبةٌ مُضَريةٌ، تعصبتُ فيها للسنة المحمدية ولصاحبها محمد ﷺ من أن يأتي متفرِّغٌ فيزعم أنَّ كلامه الشريف تسفّه الريح، وتطويه الدهور، ولا يحفظ إلى باقي الأمة الذين أرسل إليهم ﷺ.

وتعصبتُ للحفّاظ والمحدِّثين، الذين كانوا دُرَّةً في صفحة تاريخنا، وتاجاً مرصَّعاً بالصبر والتضحية على جبين أمتنا، من أن يأتي سفيهٌ فيجحد فضلهم، وينكر عزمهم، ويُصيِّر جهودهم هباء منثوراً. وتعصَّبت لعلم الحديث من أن يُعتقد به نقصٌ أو ضياعٌ.

فاتجهَتِ الهمَّةُ، وتحقَّقت النِّيَّة، بإخراجِ هذا الكتاب وتقسيمه إلى قسمين:

الأول: تنظيري، والثاني: تمثيلي.

أتناول في الأول معنى الحفظ، ومعنى كون السنة محفوظة، وأدلة هذا الحفظ المثبت، وشبه المعترض مع نقضها، وبيان أصل هذه الشبهة ومصدرها الذي انفصلت عنه، ثم أرسم لطالب الحفظ منهجيةً مستقاةً من سير الحفاظ والمحدِّثين تعين على الحِفظ، وترشد إلى مقوِّماته، وتحرِّك في النفوس مولِّداته، ومنهجية أخرى في تدوين السنة وكتابتها، وفي تحقيق دواوينها.

وأقدِّم في الثاني صفحاتٍ من حفظ العلماء، وطرفاً من مذاكراتهم، ومَنْ حفظ من أَوَّل سَمْعةٍ، ومَنْ غلبَ الحديثُ على عقله، وذهب بلُبِّه وتفكيره، فكان ذهوله إليه، وذهابه له.

وأبتدىء ما قصدت تأليفه وجمعه، عائذاً بالله من الخَطَل والزلل، ومن العيِّ والحصر، ومن التكلُّف لما لا أُحسن، داعياً بدعوة النمر بن تولب:

أعذني رب من حصر وعيٍّ ... ومن نفسٍ أعالجها غِلاباً

اللَّهُمَّ آمين، اللَّهُمَّ آمين.

❑ ❑ ❑



أولاً
القسم التنظيري



فصل
في تعريف الحفظ

الحفظ: أصل يدل على مراعاة الشيء، قاله ابن فارس[(١)].

وهو يطلق تارةً لهيئة النفس التي بها يثبت ما يؤدِّي إلى الفهم، وتارة لضبط الشيء في النفس، ويضاده النسيان، وتارة لاستعمال تلك القوة، فيقال: حفظت كذا حفظاً[(٢)].

والمحافظة على الشيء بمعنى المواظبة عليه، قال عزَّ وجلّ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾[(٣)].

واستحفظته الشيء: بمعنى استرعيته إيّاه، ومنه قوله عزَّ وجلّ: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾، أي: استودعوا وائتمنوا عليه[(٤)].

والتحفُّظ: قلة الغفلة في الأمور والكلام والتيقُّظُ من السَّقطةِ، قال:

إنـي لأبغـض عـاشقـاً متحفِّظـاً ... لـم تَتَّهِمْـه أعيـنٌ وقلـوبُ[(٥)]

(١) معجم مقاييس اللغة ٢/ ٨٧.
(٢) المفردات، للراغب ص ٢٤٤.
(٣) أساس البلاغة، للزمخشري ص ٨٨.
(٤) لسان العرب ٧/ ٤٤١.
(٥) المصدر السابق.

قال مقيده: إذا لم يصل العاشق إلى درجة الوَلَه، وعدم القدرة على التحفظ تجاه المحبوب، فهو مبغوض، لأنه ماذق عند هذا الشاعر، ولكن متى ترك التحفظ غلبةً من الهوى على التطبُّع.

والمعروف في رواية البيت ـ كما أنشده أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب ـ :

إنـي لأبغـض عـاشقـاً متستـراً لـم تتهمـه أعيـنٌ وقلـوبُ[1]

وتحفظت الكتاب: بمعنى استظهرته شيئاً بعد شيء، وحفّظته إياه إذا حملته على حفظه.

من هم الحفاظ:

قال الأزهري: رجلٌ حافظ، وقومٌ حفاظ، هم الذين رزقوا حفظ ما سمعوا، وقلما ينسون شيئاً يعونه[2].

الحفيظ من أسماء الباري عزَّ وجلّ:

قال مقيده: من أسماء الباري عزَّ وجلّ: (الحفيظ) و (الحافظ)، جاء في التنزيل: ﴿ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا﴾، وقرىء: حفظاً.

قال العلاَّمة حمد بن سليمان الخطابي: الحفيظ والحافظ واحد، فعيل بمعنى فاعل، والمعنى: يحفظ السماوات والأرض وما فيهما لتبقى مدة بقائها فلا تزول ولا تندثر.

وقال الحليمي: الحافظ: الصائن عبده من أسباب الهلكة في أمور دينه

---

(١) ذيل الأمالي والنوادر، لأبي علي القالي ص ١٨.

(٢) لسان العرب ٧/ ٤٤١.

ودنياه، والحفيظ: الموثوق فيه بترك التضييع[١].

قال أبو جعفر بن جرير: الحفيظ: لا يعزب عنه علم شيء منه، وهو مُجازٍ جميعهم يوم القيامة بما كسبوا في الدنيا من خير وشر[٢].

وقال في موضع آخر: الحفيظ يحصي عليهم أفعالهم، ويحفظ أعمالهم ليجازيهم بها يوم القيامة[٣].

وهو معنى قول الحليمي، فإن من لوازم عدم التضييع الإحصاء في الدنيا، والمجازاة في الآخرة، ولذا قال ابن منظور: الحفيظ من صفات الله عزَّ وجلّ، لا يعزب عن حفظه الأشياء كلها، مثقال ذرة في السماوات والأرض، وقد حفظ على خلقه وعباده ما يعملون من خير أو شر، وقد حفظ السماوات والأرض بقدرته، ولا يؤوده حفظهما وهو العلي العظيم[٤].

الملائكة الحافظون:

وقد سمى الله عزَّ وجلّ ملائكته الموكلين بالإحصاء على الخلق حافظين، فقال: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝١١ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝١٢﴾، فهؤلاء الملائكة حافظون لأعمال البشر، وثَمَّ آخرون منهم يحفظون البشر أنفسهم بأقدار الله تعالى، كما قال عزَّ وجلّ: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

قال العلاَّمة أبو عبد الله القرطبي المفسِّر:

﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي لله ملائكة يتعاقبون بالليل والنهار، فإذا صعدت

---

(١) الأسماء والصفات، للبيهقي ص ٦٩.

(٢) تفسير ابن جرير ١٠/ ٣٧١.

(٣) المصدر السابق ١١/ ١٢٩.

(٤) لسان العرب ٧/ ٤٤١.

ملائكة الليل أعقبتها ملائكة النهار. . . ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، اختلف في هذا الحفظ؛ فقيل: يحتمل أن يكون توكيل الملائكة بهم لحفظهم من الوحوش والهوام والأشياء المضرة، لطفاً منه به، فإذا جاء القدر خلّوا بينه وبينه؛ قاله ابن عباس وعلي بن أبـي طالب رضي الله عنهما.

قال أبو مجلز: جاء رجل من مُرادٍ إلى عليّ فقال: احترس فإنَّ ناساً من مُراد يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدَّر، فإذا جاء القدر خلَّيا بينه وبين قدر الله، وإن الأجل حصن حصينة.

وعلى هذا ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾: أي بأمر الله وبإذنه، فـ (من) بمعنى الباء، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وقيل: (من) بمعنى (عن)، أي يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول. . .

وقيل: يحفظونه من ملائكة العذاب حتى لا تحل به عقوبة، وقيل: يحفظونه من الجن، قال كعب: لولا أن الله وكَّل بكم ملائكةً يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم؛ لتخطفتكم الجنُّ وملائكة العذاب من أمر الله. . .[(١)].

وذلك ما عنى الشاعر بقوله:

أمامُ وخلف المرء من لطف ربه ... كَوَالِىءُ تَزوي عنه ما هو يحذر[(٢)]

قال القرطبي: قال العلماء رضي الله عليهم: إنَّ الله سبحانه جعل أوامره على وجهين:

أحدهما: قضى حلوله ووقوعه بصاحبه، فذلك لا يدفعه أحد ولا يغيره.

---

(١) تفسير القرطبي ٩/ ٢٩١ ـ ٢٩٢.

(٢) أنشده الحافظ في فتح الباري ١/ ١٨٣، ولم يعزه لقائل.

والآخر: قضى مجيئه ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظ[1].

الكتاب الحافظ:

قال مقيده: ولتضمُّن الحفظ معنى الإحصاء سمَّى الله عزَّ وجلّ الكتاب المشتمل على كل شيء: حفيظاً، قال عزَّ وجلّ: ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤﴾.

قال ابن كثير: أي حافظ لذلك، فالعلم شامل، والكتاب فيه كل الأشياء مضبوطة[2].



(١) تفسير القرطبي ٩/ ٢٩٤.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/ ٢٢٢.

فصل
في محلِّ الحفظ

القلبُ محلُّ الفكر، ووعاء العلم، وقد يعبَّرُ عنه بالفؤاد كما في قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾[1]، وقد يعبَّرُ عنه بالصَّدْر كما في قوله: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾، وقد يعبر عنه بالعقل، كما في قوله: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ ﴾[2].

قال العلاَّمة القرطبي: أي عقل، لأن القلب محل العقل في قول الأكثرين، والفؤاد محل القلب، والصدر محل الفؤاد[3].

قال أبو محمد ابن حزم: أراد بذلك العقل، وأما المضغة المسماة قلباً فهي لكل أحد متذكر وغير متذكر، ولكن لمَّا لم ينتفع غير العاقل بقُلبه صار كمن لا قلب له، قال تعالى ــ شاهداً لما قلنا ــ: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾.

وقال بعض السلف: ترى الرجل لبيباً داهياً فطناً ولا عقل له، فالعاقل من أطاع الله[4].

---

(١) تفسير القرطبي ١/ ١٨٩، لسان العرب ص ٦٨٧.

(٢) قاله الفراء كما في تفسير القرطبي ١/ ٦٨٧.

(٣) تفسير القرطبي ١/ ١٨٩، المفردات، للراغب ص ٦٤٦، وهذا منقول عن ابن قتيبة رحمه الله، قال: (لمن كان له قلب): أي عقل، لأن القلب موضع العقل، فكنى عنه به (تأويل مشكل القرآن ص ١٢٥).

(٤) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٩.

=

ما هو القلب:

والقلب: بضعة صغيرة على هيئة الصنوبرة، خلقها الله تعالى في الآدمي، وجَعَلها مَحِلاًّ للعلم، فيحصي به العبد من العلوم ما لا يسع في أسفار، يكتبه الله تعالى فيه بالخط الإلهي، ويضبطه فيه بالضبط الرباني، حتى يحصيه ولا ينسى منه شيئاً[١].

اعتقاد جاهلي:

كانت العرب في جاهليتها تعتقد أن كل ذي بداهةٍ وحفظٍ شديدين له قلبان في جوفه، ويُسمّون من هذه حاله: ذا القلبين، فأكذب الله عزَّ وجلّ دعواهم تلك بقوله: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾.

ذو القلبين:

قال جماعة من أهل العلم بالتفسير: نزلت هذ الآية في رجل من قريش، يُدعى جميل بن معمر، وكان حافظاً لما يسمع، فقالت قريش: ما يحفظ هذه الأشياء إلاَّ وله قلبان، فكان يقول: لي قلبان أعقل بهما أفضل من عقل محمد.

فلما هزم الله المشركين يوم بدر ومعهم جميل بن معمر رآه أبو سفيان في العير، وهو معلِّق إحدى نعليه في يده والأخرى في رجله، فقال أبو سفيان: ما حال الناس؟ قال: انهزموا، قال: ما بال إحدى نعليك في يدك والأخرى في رجلك، قال: ما شعرتُ إلاَّ أنهما في رجلي.

= وليس في ما ذكر تناقض مع أبي عبد الله القرطبي، ذلك لأن القلب المضغة يشترك فيها كل أحد، ولكن القلب العاقل الحافظ اللبيب هو مجال التفاضل والتباين.

(١) تفسير القرطبي ١٤/١١٧.

فعرفوا يومئذٍ أنه لو كان له قلبان لما نسي نعله في يده[١].

قلتُ: هكذا ذكر غالب المفسرين أن ذا القلبين هو جميل بن معمر الجمحي، وذكر أبو بكر بن دريد رحمه الله تعالى أن ذا القلبين هو وهب بن معمر الجمحي، وقال: كان من أحفظ الناس، وكانوا يقولون: له قلبان من حفظه، فأنزل الله عزَّ وجلّ: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ﴾، فأقبل يوم بدر منهزماً. . . ، ثم ساق القصة نحو ما ذكرنا.

قال: وجميل بن معمر كان من أَنَمِّ قريش، لا يكتم شيئاً، ولما أسلم عمر جاء جميل فأخبر قريشاً أنه قد صبأ[٢]. والذي ذكره ابن دريد أثبت، وإنما اختلطا لأنَّهما من جرثومة واحدة، فاشتبها على المفسرين، وإن كان جميل أكثر الرجلين شهرة، وفيه يقول الشاعر:

وكيف ثوائي في المدينة بعد ما ... قضى وطراً منها جميل بن معمر

شهرة العرب بالحفظ:

وقد اشتهر العرب بالحفظ، وأشهر العرب بذلك قبيلة كلب، روى الأصمعي عن عوانة بن الحكم قال: لقي رجل أعرابيًّا، فقال له: ممن الرجل؟ قال: من قوم إذا نسي الناس علمَهم حفظوه عليهم، قال: أنت إذاً من كلب، قال: أجل[٣].

❑ ❑ ❑

(١) المصدر السابق ١٤/١١٦.

(٢) الاشتقاق، لابن دريد ص ١٣٠.

(٣) معجم الأدباء، لياقوت الحموي ٤/ ٥١٤.

فصل
في شروط الحافظ عند المحدثين

وصفُ الحافظ يختص بالمحدثين:

قال أبو بكر الخطيب:

الوصف بالحفظ على الإطلاق ينصرف إلى أهل الحديث خاصة، وهو سِمةٌ لهم لا يتعداهم، ولا يوصف بها أحد سواهم، لأن الراوي يقول: أخبرنا فلان الحافظ، فيحسن منه إطلاق ذلك، إذ كان مستعملاً عندهم، يوصف به علماء أهل النقل ونُقَّادهم.

ولا يقول القارىء: لقَّنني فلانٌ الحافظ، ولا يقول الفقيه: درَّسني فلان الحافظ، ولا يقول النحوي: علَّمني فلان الحافظ، فهي أعلى صفات المحدثين، وأسمى درجات الناقلين، من وُجِدت فيه قُبلت أقاويلُه، وسُلِّم له تصحيح الحديث وتعليله، غير أن المستحقين لها يقل معدودهم، ويعزُّ بل يتعذر وجودهم[1].

شروط الحافظ:

قال مقيده: يتكرر عند المحدثين وصفهم الرجل أنه كان حافظاً، وللراوي عندهم شروط متى اجتمعت فيه عدُّوه حافظاً، وهي:

(١) جامع الخطيب ٢/ ١٧٢.

أوّلاً: الشهرة بالطلب.

ثانياً: الأخذ من أفواه الرجال لا الصحف[1].

ثالثاً: المعرفة بطبقات الرواة ومراتبهم.

رابعاً: المعرفة بالتجريح والتعديل.

فهذه الشروط ذكرها الحافظ ابن حجر[2]، ويزاد عليها:

خامساً: كثرة سماع الحديث، وتعاطي حفظه وكتابته.

ثعلب يصنف مع الحفاظ بكثرة السماع:

ولهذا ذكر السيوطي في طبقات الحفاظ[3] ترجمة لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب الإمام اللغوي مع أنه ليس في الأصل ـ أي تذكرة الحفاظ للذهبي ـ، وعلل ذلك بقوله: قد جاء عن ثعلب أنه قال: سمعت من عبد الله القواريري مائة ألف حديث، ثم نقل عن الخطيب أنه كان مشهوراً، فاستحق لكثرة هذا السماع أن يدخل في تراجم الحفاظ.

وهكذا العلاّمة المتبحّر ابن الجوزي، فقد قيل إنه يدخل في الحفاظ مراعاة لكثرة سماعاته ومطالعاته وكتاباته.

سادساً: السلامة من الخطأ في الواضحات.

القاسم ابن عساكر يخطىء في ضبط راوٍ معروف:

ذكر الحافظ أبو عبد الله الذهبي رحمه الله في ترجمة القاسم ابن

---

(١) قد عد ابن أبي حاتم الأخذ عن الصحف نوع جرح في الرواة، وتناولت ذلك في أنواع أخرى من جرح الرواة في شرحي على المدخل إلى الإكليل للحاكم أبي عبد الله.

(٢) النكت على ابن الصلاح ١/٢٦٨، وانظر: الجامع، للخطيب ٢/١٧٣ ـ ١٧٤.

(٣) ص ٢٩٤.

الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن عساكر أنَّ قارئاً قرأ عليه: ثنا ابن لهيعة، فرده القاسم بالضم ـ أي في اللام ـ فراجعه القارىء فلم يرجع.

قال الذهبي: من ضم مثل هذا ضمه إلى الشيوخ لا إلى الحفاظ[1]، ثم اعتذر عن وصفه بالحافظ بأنه بقي عليه لقباً، وبأنه نسخ تاريخ والده الكبير.

المعرفة فوق الحفظ:

فإذا ضم إلى تلك الشروط المذكورة المعرفة والدراية فذلك أعلى رتبة، وأسنى منزلة، قال أبو علي الحافظ النيسابوري: لم يكن بالعراق في أقران أبي محمد بن صاعد أحد في فهمه، والفهم عندنا أجل من الحفظ[2].

مقدار ما يحفظه الحافظ وما يكتبه:

ثم في تحديد المقدار من الحفظ الذي يصبح به الرجل حافظاً، ما هو؟ فقد سَألَ أحمد بن العباس النسوي أحمد بن حنبل فقال: الرجل يكون معه مائة ألف حديث، يقال إنه صاحب حديث؟ فقال: لا، قلت له: عنده مائتا ألف حديث، يقال إنه صاحب حديث؟ قال: لا، قلت له: ثلاثمائة ألف حديث؟ فقال بيده هكذا، يروح يَمنة ويَسرة[3].

وقد روى الأرغياني عن أبي علي الضرير: قلت لأحمد بن حنبل: كم يكفي الرجل من الحديث للفتوى، مائة ألف؟ قال: لا، قلت: مائتا ألف؟ قال: لا، قلت: ثلاثمائة ألف؟ قال: لا، قلت: أربع مائة ألف؟ قال: لا،

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٣٦٧.

(٢) السير ١٤/ ٥٠٤.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٧٧.

قلت: خمسمائة ألف؟ قال: أرجو[1].

وفي كثرة الكتابة، قال أبو زرعة الرازي: سمعت أبا بكر بن أبـي شيبة يقول: من لم يكتب عشرين ألف حديث إملاء لم يعد صاحب حديث[2].

وفي هذا تنبيه على ضرورة الأخذ من المشايخ.

قال الصوري: سمعت أبا بكر بن نوح، سمعت أبا أحمد العسَّال، سمعت صالح جزرة يقول: يحتاج المحدث أن يكتب مائة ألف ومائة ألف ــ فلم يزل يقول: ومائة ألف ويرفع رأسه إلى فوق حتى كادت قلنسوته أن تسقط ــ حديث بعلو، ومائة ألف ومائة ألف ــ وجعل يخفض رأسه حتى عادت القلنسوة ــ حديث بنزول، حتى يقال إنه صاحب حديث[3].

الحافظ الضعيف:

قال مقيده: متى اجتمعت هذه الأوصاف العزيزة في رجل عدُّوه حافظاً، إلاَّ أن ذلك لا يعني السلامة من النقد والتخطئة، فمن شأن أهل الحديث أنهم يعرفون الرجال بالحق، ولا يعرفون الحق بالرجال[4]، فقد

---

(١) السير ١٤/ ٤٢٤.

(٢) المصدر السابق ١/ ٧٧

(٣) السير ١٤/ ٣٣.

قال مقيده: لو طبقنا ما قاله العلماء في هذا الفصل على محدِّثي زماننا ما سلم منهم أحد، وما أردت بهذا الفصل أن أثبط الهمم، ولا أوعر الدرب، ولكن لتعلم كيف وصل القوم.

(٤) إلاَّ إن خُتِمَ لإمام مجمع عليه بالحق، فإنهم يعرفون أهل الحق به وبموالاته واتباعه بالعدل، وعلى هذا كان ابن طاهر المقدسي ينشد:

أضحى ابن حنبل محنة محمودة ... وبحب أحمد يعرف المتنسِّك

وإذا رأيت لأحمد متنقصاً ... فاعلم بأن ستوره ستُهتك=

يبلغ إنسان هذه الدرجة العالية من الحفظ والمعرفة، ثم تبدر منه أمور تشكك في مصداقيته، أو تقلل من تحرِّيه، فيضعَّف لأجل ذلك، وهذا لعمر الله غاية الحفظ للسنة، ومنتهى صيانتها.

فمن الحفاظ الذين ضُعِّفوا[1]:

* علي بن سعيد الرحال: كان حافظاً كبيراً، ولكن لأمر ما قال الدارقطني: ليس بذاك، وأشار ابن يونس المصري إلى تضعيفهم إياه، فقال: تكلموا فيه.

* عمر بن هارون البلخي: قال ابن حجر: متروك، وكان حافظاً[2].

* محمد بن حميد الرازي: كان حافظاً كبيراً يناطح الكبار في المذاكرة، ولكنه اتهم، فضعفوه ثم أنصفوه، وقالوا: حافظ ضعيف.

= ومثله قول عبد الرحمن بن مهدي: إذا رأيت حجازياً يحب مالك بن أنس فهو صاحب سنة (تقدمة الجرح والتعديل ١/ ٢٥).

قال أبو محمد ابن قتيبة: وأما الاتساء فبالعلماء المبرزين، والفقهاء المتقدمين، والعباد المجتهدين، الذين لا يجارون، ولا يبلغ شأوهم، مثل: سفيان الثوري، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وشعبة، والليث بن سعد، وعلماء الأمصار، وكإبراهيم بن أدهم، ومسلم الخواص، والفضيل بن عياض، وداود الطائي، ومحمد بن النضر الحارثي، وأحمد بن حنبل، وبشر الحافي، وأمثال هؤلاء ممن قرب من زماننا، فأما المتقدمون فأكثر من أن يبلغهم الإحصاء ويحوزهم العدد، ثم بسواد الناس ودهمائهم وعوامهم، في كل مصر وفي كل عصر، فإن من أمارات الحق إطباق قلوبهم على الرضاء به. (تأويل مختلف الحديث ص ١٧).

(١) على سبيل التمثيل لا الحصر.

(٢) من تقريب التهذيب.

المؤدِّي:

وعكس الحافظ عندهم: المؤدِّي، فإذا قالوا: فلان مؤدٍّ، أرادوا أنه لا يحفظ، كما قال سفيان الثوري في ابن أبي ليلى ـ وهو سيِّء الحفظ ـ: كان ابن أبي ليلى مؤدِّياً.

قال أبو محمد ابن أبي حاتم: يعني أنه لم يكن حافظاً[1].

❑ ❑ ❑

(١) الجرح والتعديل ١/ ٨١.

فصل

في ما اشترط في رجال الصحيح من الحفظ

اشترط بعض أهل العلم في رجال الحديث الصحيح أن يكونوا حفاظاً لما يروون، على ما يقتضيه كلام الحافظ الحجَّة تقي الدين ابن الصلاح رحمه الله تعالى، فإنه قال:

تعذَّر في هذه الأعصار الاستقلال بإدراك الصحيح بمجرد اعتبار الأسانيد، لأنه ما من إسناد من ذلك إلاَّ وتجد في رجاله من اعتمد في روايته على ما في كتابه عريًّا عمّا يشترط في الصحيح من الحفظ والضبط والإتقان...

تنكيت ابن حجر على ابن الصلاح:

ولم يرضه الحافظ ابن حجر، فنكت عليه قائلا: فيه نظر، لأن الحفظ لم يعده أحد من أئمة الحديث شرطاً للصحيح، وإن كان حكي عن بعض المتقدمين من الفقهاء.

الانتصار لابن الصلاح:

قلت: بل النظر في قول ابن حجر رحمه الله، فإنَّ مراد ابن الصلاح الصحيح المجمع عليه، وجعل ابن حجر ذلك قول الفقهاء دون أئمة الحديث متعقب، أولاً بابن الصلاح فإنه إمام منظِّر لأهل الحديث، ومن قبله طائفة من

أهل الحديث معتبرة اشترطت ذلك، ومراعاة لهم عدَّ الإمام أبو عبد الله الحاكم رواية من لا يحفظ حديثه في القسم الرابع من الصحيح المختلف فيه عند المحدثين[1]!!

فأين هذا من قول ابن حجر: لم يشترطه أحد من أئمة الحديث.

قال الحاكم[2]: القسم الرابع من الصحيح المختلف فيه، روايات محدث صحيح السماع، صحيح الكتاب، معروف بالسماع، ظاهر العدالة، غير أنه لا يعرف ما يحدث به ولا يحفظه، كأكثر محدثي زماننا هذا، فإن هذا القسم محتج به عند أكثر أهل الحديث.

فأما أبو حنيفة ومالك بن أنس، رحمهما الله، فلا يريان الحجة به.

ـ أما الرواية فيه عن أبي حنيفة:

فحدثناه أبو أحمد محمد بن أحمد بن شعيب العدل، ثنا أسد بن نوح الفقيه، ثنا أبو عبد الله محمد بن سلمة عن بشر بن الوليد عن أبي يوسف عن أبي حنيفة أنه قال: لا يحل للرجل أن يروي الحديث إلاَّ إذا سمعه من فم المحدث فيحفظه ثم يحدث به.

ـ وأما الرواية فيه عن مالك بن أنس:

فحدثناه أبو عبد الله الحسين بن الحسن بن أيوب الطوسي، ثنا أبو حاتم الرازي، ثنا إبراهيم بن المنذر الحزامي، ثنا معن بن عيسى قال: سمعت مالك بن أنس يقول: لا يؤخذ العلم ممن لا يعرف ما يحدث به، قال مالك: ولقد أدركت بهذه المدينة أقواماً لهم فضل وصلاح ما أخذت عن واحد منهم حرفاً، قيل: ولم يا أبا عبد الله؟ قال: لأنهم كانوا لا يعرفون ما يحدثون به.

---

(١) وقدم عليه المرسل والمدلّس..

(٢) المدخل إلى كتاب الإكليل ص ٨٣.

وكذلك أثبت الخلاف بين المحدثين الحافظ أبو بكر البغدادي[1]، وروى عن مالك ما سطَّرناه آنفاً.

والمختار من المذهبين: أن كل من حفظ حديثه وضبط روايته، سواء كان في الصدر أو في القِمَطر، فهو جائز الحديث مقبول الرواية، والله أعلم.

وجه الجرح في غير الحفاظ من الرواة:

قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى: الوجه الرابع ـ من أوجه الجرح في نقلة الأخبار ـ ينفرد به نقلة الأخبار دون الشهود في الأحكام، وهو ألا يكون المحدِّث إلاَّ فقيهاً فيما روى، أي حافظاً، لأن النص الوارد في قَبول نذارة النافر للتفقه إنما هو بشرط أن يتفقه في العلم، ومن لم يحفظ ما روى فلم يتفقه[2].

وفي هذه المسألة التي سطرناها يظهر شرف أهل الحفظ، وسُمُوهم على من سواهم، فهم الذين لا خلاف فيهم، وما يستوي الذين يحفظون والذين لا يحفظون.

مثل الحفاظ بين العلماء:

قال مقيده: وكانت منزلة الحفاظ بين الناس كمنزلة الأرض الطيبة الحافظة لما استقبلت من الخير، الباذلة ما في مكنوناتها من الذخائر، بين كافة القيعان، على ما جاء من تقسيم الناس على لسان الصادق المصدوق ﷺ

---

(1) الكفاية، للخطيب البغدادي ص ١٤٤، ١٩١، ١٩٢.
وفيه أيضاً ص ٢٦٣: عن عبد الله بن عبد الحكم قال: قال أشهب: وسئل مالك أيؤخذ ممن لا يحفظ وهو ثقة صحيح؟ أيؤخذ عنه الأحاديث؟ فقال: لا يؤخذ منه، أخاف أن يزاد في كتبه بالليل.

(2) الإحكام في أصول الأحكام ١/١٣٧.

في قوله في الحديث المشهور: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا ورعوا، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، فعَلِم وعلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»(١).

قال أبو محمد علي ابن حزم رحمه الله تعالى: فقد جمع رسول الله ﷺ في هذا الحديث مراتب أهل العلم دون أن يشذّ منها شيء، فالأرض الطيبة النقية هي مثل الفقيه الضابط لما روى، الفهم للمعاني التي يقتضيها فهم النص، المتنبه على رد ما اختلف فيه الناس إلى نص حكم القرآن وسنة رسول الله ﷺ.

وأما الأجادب الممسكة للماء التي يستقي الناس منها، فهي مثل الطائفة التي حفظت ما سمعت أو ضبطته بالكتاب وأمسكته، حتى أدته إلى غيرها غير مغير، ولم يكن لها تنبه على معاني ألفاظ ما روت، ولا معرفة بكيفية رد ما اختلف الناس فيه إلى نص القرآن والسنة التي روت، لكن نفع الله بهم في التبليغ، فبلغوه إلى من هو أفهم بذلك، فقد أنذر الرسول ﷺ بهذا إذ يقول: «فَرُبَّ مُبَلَّغٍ أوعى مِن سامع»، وكما روي عنه عليه السلام: «فَرُبَّ حامل فقهٍ ليس بفَقِيه».

قال أبو محمد: فمن لم يحفظ ما سمع ولا ضبطه، فليس مثل الأرض

---

(١) متفق عليه من حديث بُريد عن أبي بردة عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، البخاري ح ٧٩، ومسلم ح ٢٢٨٢.

الطيبـة، ولا مثـل الأجـادب الممسكـة للمـاء، بـل هـو محـروم معـذور أو مسخوط، بمنزلة القيعان التي لا تنبت الكلأ ولا تمسك الماء، وفي هذا كفاية بيان، وبالله تعالى التوفيق.

قال أبو محمد: فمن استطاع منكم فليكن من أمثال الأرض الطيبة، فمن حرم ذلك فمن الأجادب، وليس بعد ذلك درجة في الفضل والبسوق، ونعوذ بالله من أن نكون من القيعان، لكن من استقى من الأجادب ورعى من الطيبة فقد نجا، وبالله التوفيق[1].



(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ١٣٠ ـ ١٣١.

فصل
في الحفظ الإلهي للذكر الحكيم

قال الباري عزَّ وجلّ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾، فالذكر هو القرآن، والضمير في (له) عائد عليه، وما قيل من أنه عائد إلى محمد ﷺ فقيده في بدع التفاسير.

قال شيخ الإسلام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى: المعنى: إنَّا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطلٌ ما ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه.

. . . قال قتادة: حفظه الله من أن يزيد فيه الشيطان باطلاً أو ينقص منه حقًّا.

دلالة آية الحفظ:

قال مقيده عفا الله عنه: في الآية تكذيب لفرقتين من الناس:

الأولى: زعمت أن القرآن صنع محمد ﷺ، وأنه عمل أيدٍ بشرية.

والثانية: وهي مترتبة على الأولى؛ كونه صنعاً بشريًّا فهو لم يوجد للخلود والأبدية، لأن البشر وصنائعهم للفناء.

وتلك حال قريش ومن شابههم، فإنهم قالوا في القرآن ما لا يخفى،

فزعموا مرة أنه أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً، وأخرى أنه إنما يعلِّمه بشر أعجمي كانوا يلحدون إليه، وربما أثبتوا القضية متعلقة بمجهول، وقالوا: ﴿ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ﴾.

وفي اعتقادهم أن القرآن سيموت بموت محمد ﷺ، فقالوا: ﴿ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ ﴾، فأبطل الله جلَّ ذكره الأولى بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ ﴾، والثانية بقوله: ﴿ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾.

وإنك إن تتأمل ما يقذفه المستشرقون وأذنابهم من المستغربين من شبهٍ حول القرآن فلن تجدها إلاَّ تخرج من هاتين الزعمتين، فإن عقول المتأخرين ليست في الجدل والمراء مثل عقول المتقدمين، وما لهؤلاء إلاَّ التحسين والتزيين: ﴿ أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾.

مراتب التعهد بالحفظ:

وهذا الحفظ الذي تكفل به الرب عزَّ وجلّ عام لأمة محمد ﷺ، فسيبقى بينها القرآن يُتلى ويُقرأ، محفوظاً مصوناً، حتى يُسرى عليه بليل في آخر الزمان فيُرفع إلى قائله، وهناك حفظ أخص، كامنٌ في قلب محمد الشريف ﷺ، يتجلى في الوعد القرآني أن سنُقرئك الكتاب ثم لن تنسَ مِنْهُ شيئاً، قال تعالى: ﴿ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ ﴾.

وبذلك طمأن الله تعالى نبيّه محمَّداً ﷺ، وأراحه من الشدَّة التي كان يعالجها ليحفظ ما يُلقى عليه من الكتاب.

قال عزَّ وجلّ: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان النبي ﷺ إذا نزل جبريل عليه بالوحي، وكان مما يحرك به لسانه وشفتيه، فيشتد عليه، وكان يعرف منه، فأنزل الله: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ

﴿عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾، قال: علينا أن نجمعه في صدرك وقرآنه، ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ۝١٨﴾، فإذا أنزلناه فاستمع: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ۝١٩﴾ علينا أن نبيِّنه بلسانك، قال: فكان إذا أتاه جبريل أطرق، فإذا ذهب قرأه كما وعده الله[1].

وفي رواية: كان النبي ﷺ إذا نزل عليه القرآن تعجل به يريد حفظه فأنزل الله عليه هذه الآيات، وفي لفظ: إن ذلك كان يشتد عليه حتى يعرف في وجهه[2].

قال أبو جعفر بن جرير: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ۝١٧﴾، أي: إنَّ علينا جمع هذا القرآن في صدرك يا محمد حتى نثبته فيه، وقرآنه، أي: قرآنه حين تقرأه بعد أن جمعناه في صدرك[3].

ثم بعد هذين الحفظين بقي هناك وعد عام بتيسير القرآن للذكر، وتسهيله للحفظ لمن رام ذلك، فصدق علينا الوصف في الكتب السابقة: إننا أمة أناجيلها في صدورها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لولا أن الله يسَّره على لسان الآدميين ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلام الله عزَّ وجلّ[4].

قال أبو عبد الله القرطبي: أي سهَّلناه للحفظ، وأعنَّا عليه من أراد حفظه، فهل من طالب لحفظه فيعان عليه؟.

سبب افتتان اليهود بعُزَير:

قال: وقال سعيد بن جبير: ليس من كتب الله كتاب يقرأ ظاهراً إلاَّ

---

(١) رواه البخاري في الصحيح ح ٤٩٢٩.

(٢) تفسير ابن جرير ١٢/٣٣٨ ـ ٣٣٩.

(٣) تفسير ابن جرير ١٢/٣٤٠.

(٤) تفسير ابن كثير ٤/٣٦٤.

القرآن، وقال غيره: ولم يكن هذا لبني إسرائيل، ولم يكونوا يقرأون التوراة إلَّا نظراً، غير موسى وهارون ويوشع بن نون وعزير صلوات الله عليهم، ومن أجل ذلك افتتنوا بعزير لما كتب لهم التوراة عن ظهر قلبه حين أحرقت، على ما تقدم من سورة براءة.

فيسَّر الله تعالى على هذه الأمة حفظ كتابه ليذَّكَّروا ما فيه، أي يفتعلوا الذكر، والافتعال هو أن ينجع فيهم ذلك، حتى يصير كالذات وكالتركيب فيهم[1].

قلت: وبهذا التيسير استطاع الغلام والجارية أن يحفظوه، والأعجمي كذلك، دون أن يفهم معناه.

قال ابن الجوزي رحمه الله: إن الله عزَّ وجلّ خص أمتنا بحفظ القرآن والعلم، ولقد كان مَن قبلنا يقرأون كتبهم من الصحف ولا يقدرون على الحفظ، فلما جاء عزير فقرأ التوراة من حفظه قالوا: هو ابن الله، فكيف نقوم بشكر من خولنا أن ابن سبع سنين منا يقرأ القرآن عن ظهر قلب؟[2].

﴿ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾.

حفظ الكتب السابقة:

وأما الكتب السابقة فقد أوكل الله عزَّ وجلّ حفظها لأهاليها، ففرطوا في ذلك، فوقع فيها تغيير وتبديل، وتحريف كثير، قال تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا۟ لِلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ عَلَيْهِ شُهَدَآءَ ۚ ﴾.

---

(١) تفسير القرطبي ١٧/ ١٣٤

(٢) الحث على حفظ العلم ص ١١.

قال أهل العلم بالتأويل: المعنى: يحكم النبيّون الذين أسلموا بحكم التوراة، والربانيون والأحبار يحكمون بما استودعوا علمه من كتاب التوراة، فالباء في قوله (بما) متعلقة بالربانيين والأحبار، كأنه قال: . . . والعلماء بما استحفظوا، أو تكون متعلقة بـ (يحكم)، أي يحكمون بما استحفظوا. . . ، قال القاضي الشوكاني رحمه الله: الباء للسببية، واستحفظوا أمر بالحفظ، أي أمرهم الأنبياء بحفظ التوراة عن التغيير والتبديل. . .[1].

قال مقيده: فلما استودعوا تلك الكتب القيمة فرَّطوا، وثقل عليهم حفظها، وتجارت بهم الأهواء، واجتالتهم الشياطين، فزادوا إلى نسيانهم القدري تحريفاً وتبديلاً كثيراً مما تعمدته أيديهم، واختلقته أمزجتهم الفاسدة، فضلُّوا كثيراً، وأضلُّوا كثيراً، وضلُّوا عن سواء السبيل.

أما قرآننا فقد حفظه الله عزَّ وجلّ من الزيادة والنقصان، ومن التحريف والتغيير، ومن اعتقد به غير ذلك فقد كفر بالله العظيم، وليس هو في اعتقاده هذا معذوراً بالجهل إن ادعى ذلك، فإن هذا الأمر معلوم من الدين بالضرورة، وهو من لوازم الإيمان بالله تعالى، ومن اعتقد ذلك فقد كذَّب الباري عزَّ وجلّ بقوله: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩ ﴾، ولم يكتف بالتكذيب حتى أضاف النقص إلى صفة من صفات الله عزَّ وجلّ، ذلك لأن القرآن العظيم من صفات الرب عزَّ وجلّ، فمن زعم أنَّ فيه نقصاً وتحريفاً فقد زعم ذلك بصفات الرب أجمع، تعالى عن ذلك وتنزَّه، وعلى هذا المعتقد عامة الروافض، فإنهم لم يكتفوا بتكذيب الرب في قرآنه؛ حتى رجعوا باتهامه بالعجز دون إرادته، والخلف فيما تكفل به، وادَّعوا في القرآن ما توصل يهودي إلى إبطاله، وإثبات خلافه.

---

(١) فتح القدير ٢/ ٥٠.

قصة اليهودي الذي حرَّف في القرآن:

قال القرطبـي: أنبأنا الشيخ الفقيه الإمام أبو القاسم عبد الله عن أبيه الشيخ الفقيه الإمام المحدث أبـي الحسن علي بن خلف بن معزوز الكومي التلمساني، قال: قرىء على الشيخة العالمة فخر النساء شهدة بنت أبـي نصر أحمد بن الفرج الدينوري، وذلك بمنزلها بدار السلام في آخر جمادى الآخرة من سنة أربع وستين وخمسمائة (٥٦٤)، قيل لها: أخبركم الشيخ الأجل العامل نقيب النقباء أبو الفوارس طراد بن محمد الزينبـي قراءة عليه وأنت تسمعين سنة تسعين وأربعمائة (٤٩٠)، أخبرنا علي بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا أبو علي عيسى بن محمد بن أحمد بن عمر بن عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج المعروف بالطوماري، حدثنا الحسين بن فهم قال: سمعت يحيـى بن أكثم يقول:

كان للمأمون ــ وهو أمير إذ ذاك ــ مجلس نظر، فدخل في جملة الناس رجل يهودي حسن الثوب حسن الوجه طيب الرائحة، قال: فتكلم فأحسن الكلام والعبارة، قال: فلما تقوَّض المجلس دعاه المأمون فقال له: إسرائيلي؟ قال: نعم، قال لَه: أسلم حتى أفعل بك وأصنع، ووعده، فقال: ديني ودين آبائي، وانصرف.

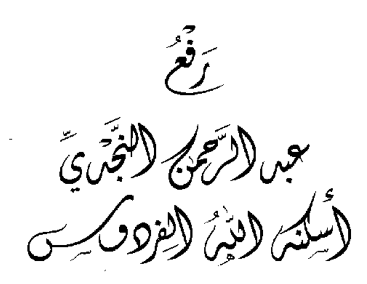
فلما كان بعد سنة جاءنا مسلماً، قال فتكلم على الفقه فأحسن الكلام، فلما تقوض المجلس دعاه المأمون وقال: ألست صاحبنا بالأمس؟ قال له: بلى، قال: فما كان سبب إسلامك؟ قال: انصرفت من حضرتك فأحببت أن أمتحن الأديان، وأنت مع ما تراني حسن الخط، فعمدت إلى التوراة فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيه ونقصت، وأدخلتها الكنيسة فاشتريت مني، وعمدت إلى الإنجيل فكتبت ثلاث نسخ فزدت فيها ونقصت، وأدخلتها البيعة فاشتريت مني، فعمدت إلى القرآن فعملت منه ثلاث نسخ وزدت فيها

ونقصت، وأدخلتها الوراقين فتصفحوها، فلما أن وجدوا فيها الزيادة والنقصان رموا بها فلم يشتروها، فعلمت أن هذا كتاب محفوظ، فكان هذا سبب إسلامي.

قال يحيى بن أكثم: فحججت تلك السنة فلقيت سفيان بن عيينة فذكرت له الخبر، فقال لي: مصداق هذا في كتاب الله عزَّ وجلّ، قال: قلت في أي موضع؟ قال: في قوله الله تبارك وتعالى في التوراة والإنجيل: ﴿بِمَا ٱسْتُحْفِظُواْ مِن كِتَٰبِ﴾، فجعل حفظه إليهم فضاع، وقال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، فحفظه الله عزَّ وجلّ علينا فلم يضع[1].

❑ ❑ ❑

(١) تفسير القرطبي ١٠/ ٥ ــ ٦.



فصل
في حفظ الله عزّ وجلّ السنّة وأدلة ذلك

قال ابن الجوزي: اعلموا إخواني وفقكم الله، أنه ليس بمحفوظ سوى ما في كتاب الله المنزه عن التحريف وسنة الرسول ﷺ[1].

ما هي السنة المحفوظة:

قال مقيده: السنّة التي نثبت لها الحفظ والصون هي: ما روي إلينا مضافاً للنبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير، وما انضاف إلى ذلك من سيرته وسَيره وحركاته وسكناته.

وإنما استمدت قدسيتها من القرآن العظيم حين أمرنا بالأخذ بما فيها: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾، وحين أخبرنا أن كلامه وحي منزه عن الهوى، فقال مؤكِّداً ذلك بالقسم ـ فكأنه يشير إلى من سيخالف في ذلك ـ: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

وقد أتت السنة المطهرة على هذا المعنى:

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص في حديث كتابته حديث النبي ﷺ في الغضب والرضا، فلامته قريش، وقالوا: إن النبي بشر يغضب كما

(١) مقدمة الموضوعات ١/٥، وسيأتي عن ابن حزم نص في ذلك.

يغضبون، فأعلم النبي ﷺ فقال: «أكتب فو الذي نفسي بيده لا يخرج منِّي إلاَّ حقًّا، وفي لفظ: «لا أقول إلاَّ حقًّا»[1]، بأبي هو وأمي ﷺ.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجل ليس بنبي مثل الحيين أو مثل أحد الحيين ربيعة ومضر»، فقال رجل: يا رسول الله، أوَما ربيعة من مضر؟ فقال ﷺ: «إنما أَقُول ما أُقوّل»[2]، في أحاديث كثيرة تفيد هذا المعنى، وتثبت أن السنّة وحي إلهي أجراه الله على لسان محمَّد ﷺ.

وهذا هو **الدليل الأول** على حفظ السنة:

١ ــ أنها من الذكر الذي تكفل الله بحفظه في قوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، ومما يثبت كونها منه:

* ما مرَّ من الآيات والأحاديث.

* أنَّ الذِّكْر مصدر من (ذَكَرَ، يَذكر) والذي يذكر عندنا ــ نحن المسلمين ــ إنما هو الكتاب والسنّة، كما في موعظة الله عزَّ وجلّ أمهات المؤمنين: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾، فآيات الله: القرآن، والحكمة: السنّة، لا أعلم في ذلك خلافاً معتبراً، وإن اختلفوا في المعاني التي يحتملها لفظ الذكر.

قال القرطبي: لفظ الذِّكْر يحتمل ثلاثة معان:

أحدها: أي اذكرن موضع النعمة إذ صيَّركن الله في بيوت تتلى فيها آيات الله والحكمة.

---

(١) رواه أحمد في المسند ٢/٢٠٧، بإسناد صحيح، واستوعب الطحاوي أحاديث الباب في شرح معاني الآثار ٤/٣١٩.
(٢) المسند ٥/٢٥٧، ٢٦١.

الثاني: اذكرن آيات الله واقدرن قدرها، وفكِّرن فيها حتى تكون منكن على بال، لتتعظن بمواعظ الله تعالى، ومن كانت هذه حاله ينبغي أن تحسن أفعاله.

الثالث: اذكرن بمعنى احفظن واقرأن والزمنه الألسنة، فكأنه يقول: احفظن أوامر الله تعالى ونواهيه، وذلك هو الذي يتلى في بيوتكن من آيات الله، فأمر الله سبحانه وتعالى أن يخبرن بما نزل من القرآن في بيوتهن، وما يرين من أفعال النبي عليه الصلاة والسلام، ويسمعن أقواله حتى يبلغن ذلك إلى الناس، فيعملوا ويقتدوا[1].

قلت: ولا مانع من حمل الآية على المعاني كلها، إذ أن الآية تحتملها كلها، وليس بينها تناقض، والشاهد أن الله تعالى سوَّى بين آياته وبين الحكمة (أي السنة) من حيث هما ذكر يتلى، والله أعلم.

* ما روي عن كثير من السلف: أنَّ جبريل عليه السلام كان ينزل بالسنة على قلب محمد كما ينزل بالقرآن[2].

وربما ظن الغمر أن هذا مبالغ فيه ولكن الوقائع تثبته، فكم مرة أعرض النبي ﷺ عن السائل ثم أجابه بعد بغير قرآن، كما في الذي سأله: هل يأتي الخير بالشر؟ وفي المحرم الذي أصاب زعفراناً وطيباً... وغيرها مما يطول الكتاب في تقصيها، فهذه المهلة التي بين السؤال والجواب هي وقت نزول جبريل الأمين على قلبه وانفصاله عنه، أو الإلقاء بالرَّوع أو غير ذلك من طرق تحصيل الرسل للعلم من مُرْسِلهم سبحانه وتعالى، ولذلك ربما صرح

---

(١) تفسير القرطبي ١٤/ ١٨٤.

(٢) في مقدمة سنن الدارمي آثار كثيرة من هذا القبيل، فانظرها إن شئت، وسيأتي بعضها.

النبي ﷺ بنزول جبريل عليه بالجواب، كما في حديث: «يغفر له إلاَّ الدَّين، أخبرني بذلك جبريل آنفاً».

قال الإمام ابن قتيبة الدِّينَوري رحمه الله تعالى: لم يكن الرسول ﷺ يعلم من حكم الله تعالى إلاَّ ما أعلمه الله عزَّ وجلّ، ولا كان الله تبارك وتعالى يعرِّفه ذلك جملة بل ينزله شيئاً بعد شيء، ويأتيه جبريل بالسنن كما كان يأتيه بالقرآن، ولذلك قال: «أوتيت القرآن ومثله معه»، يعني السنة[1].

ولأجل ذلك أمرنا القرآن الكريم أن نأخذ ما آتانا النبي ﷺ، وننتهي عما نهانا عنه، قال إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (ت ١٣١هـ): ينبغي لنا أن نحفظ حديث رسول الله ﷺ كما نحفظ القرآن الكريم، لأن الله يقول: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾[2].

* قد علمنا أن الله عزَّ وجلّ عاتب نبيه ﷺ في أمور عملها، واجتهادات صدر عنها، وسكت عن بقية أعماله وأقواله، فدل على رضاه عن المسكوت عنه، وقد عُلِم من المصطلح أن ما فعله الصحابي بِعِلم النبي ﷺ وإقراره يُعَدُّ سنة، وبعضهم سمَّاها: السنة التقريرية، وكذلك حال النبي ﷺ مع ربه، لأن الصحابة كانوا يأخذون عن النبي، والنبي إنما يأخذ عن الله عزَّ وجلّ، وإن شئت سمِّه: الوحي التقريري، ما دام أن الله رضيه وقبله.

* قال أبو محمد ابن حزم رحمه الله تعالى: لما بينا أن القرآن هو الأصل المرجوع إليه في الشرائع، نظرنا فيه فوجدنا فيه إيجاب طاعة ما أمرنا به رسول الله ﷺ، ووجدناه عزَّ وجلّ يقول فيه واصفاً لرسوله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٦٦.

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب ٤/ ١٧٠٢.

فصح لنا بذلك أن الوحي ينقسم من الله عزَّ وجلّ إلى رسوله ﷺ على قسمين:

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفاً معجز النظام، وهو القرآن.

والثاني: وحي مرويٌّ منقول غير مؤلف ولا معجز النظام ولا متلو لكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله ﷺ، وهو المبين عن الله عزَّ وجلّ مراده منا، قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، ووجدناه قد أوجب طاعة هذا الثاني كما أوجب طاعة القسم الأول، الذي هو القرآن، ولا فرق، فقال تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾، وصح لنا بنص القرآن أن الأخبار هي أحد الأصلين المرجوع إليهما عند التنازع، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾.

ثم قال: وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾، وقال: ﴿قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ﴾، فأخبر تعالى كما قدَّمنا أنَّ كلام نبيّه ﷺ وحي، والوحي بلا خلاف ذكر، والذكر محفوظ، فصح بذلك أنَّ كلامه ﷺ كله محفوظ بحفظ الله عزَّ وجلّ، مضمون لنا أنه لا يضيع منه شيء، إذ ما حفظ الله تعالى فهو باليقين لا سبيل إلى أن يضيع منه شيء فهو منقول إلينا كله، فللّه الحجة البالغة[1].

---

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٩٣ ــ ٩٥.

وفي ص ٩٦ نص آخر من هذا الإمام يثبت أن السنة من الوحي، وأنها داخلة في عموم قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ۝٨٢﴾ [النساء ٨٢]، قال:

فصح بهذه الآية صحة ضرورية أن القرآن والحديث الصحيح متفقان، هما شيء واحد، لا تعارض بينهما ولا اختلاف، يوفق الله تعالى لفهم ذلك من شاء من عباده ويحرمه من شاء، لا إله إلاّ هو، كما يؤتي الفهم والذكاء والصبر على =

وقال ابن الوزير: قال تعالى في وصف رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝﴾، وقال عزَّ وجلّ فيما أوحاه إلى رسوله: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝﴾، وهـذا يقتضـي أن شـريعة رسول الله ﷺ لا تزال محفوظة، وسنته لا تبرح محروسة، فكيف ينكر هذا المعترض على أهل السنة ويشوش الراغبين في حفظها، ويوعر الطريق على السالكين إلى معرفة معناها ولفظها[1]؟

قال مقيده: فهذا الذي ذكرت دليل واضح على كون السنة من الذكر الذي وعد الله بحفظه، وهو الدليل الأول من أدلة حفظ السنة.

الدليل الثاني:

إن الحفظ التام الذي أراده الله تبارك وتعالى لكتابه ليس مجرد حفظ الحروف دون معرفة معاني المباني، ومن المعلوم أن الله تبارك وتعالى أوكل مهمة تبيين هذا الذكر إلى النبي ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ. . .﴾، وأشباهها من الآيات الكريمات.

معنى كون السنة قاضية على الكتاب:

ولذلك كانت السنّة النبويّة مفسِّرة وموضحة لكتاب الله تعالى، وكان

= الطلب للخير من شاء، ويؤتي البُلَدة وبُعد الفهم والكسل من شاء، نسأل الله من هبته ما يقرب منه ويزلف لديه، آمين.

قال ابن فارس: كيف لو علم أبو محمد أن البُلَدة صار لهم في هذا الزمان ألسن يلوكون بها، وأفهام يقارعون بها!!، وما قنعوا أن جهلوا حتى صاروا يحملون الناس على ما عندهم، وأصبح أهل الأفهام والنظر والعلم أعيا الناس من قلة من يسمع لهم ويأخذ عنهم، فواغربتاه، وإلى الله المشتكى، ولا حول ولا قوة إلاّ به.

(١) الروض الباسم، لابن الوزير ١/ ٣٢.

أفضل طرق التفسير بعد تفسير القرآن بالقرآن تفسيره بالسنة، وهو معنى قول بعض السلف: السنة قاضية على كتاب الله[1].

قال ابن قتيبة الدينوري: أراد أنها مبينة للكتاب، ومنبئة عما أراد الله تعالى منه[2].

قال مقيده عفا الله عنه: إذا كانت السنة مُفَسِّرَة لكتاب الله تعالى، كان من تمام حفظ المُفَسَّر (الذي هو القرآن) أن يحفظ له المفسِّر (الذي هو السنة)، وهو المقصود إثباته.

الدليل الثالث:

قد أمرنا الله عزَّ وجلّ أن نتأسى بنبيه تأسِّياً مطلقاً في جميع أفعاله وأقواله، كما في قوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، ولا يمكن لبقية الأمة أن يتأسوا به ﷺ إذا لم تصلهم سنته، ولو لم يحفظ الله عزَّ وجلّ سنة نبيه لكان كلامه في هذه الآية وأشباهها عبث، وتكليف بما لا يطاق، إذ كيف يكلف العباد بما لا يمكن ولا حيلة لهم في تحصيله، لأنه ضاع واندثر من قرون، والله تعالى منزه عن مثل هذا، ولذا فقد حقق لنا إمكانية التأسي والتفاضل في هذا الباب حين حفظ سنة نبيه ﷺ، فله الحمد والشكر.

---

(١) سنن الدارمي، كتاب الإيمان، باب: في اتباع السنة، وقد جاء عن بعض العلماء التورع عن إطلاق مثل هذا اللفظ في جانب القرآن، لأن القرآن من صفات الله تعالى، ففي الكفاية للخطيب البغدادي ص ٣٠: إن أحمد بن حنبل سئل عن ذلك فقال: ما أجسر على هذا أن أقوله، ولكن السنة تفسر الكتاب وتعرف الكتاب وتبينه. اهـ.

قال مقيده: إنما استجاز من قال ذلك أن يقوله في باب الرد على منتقصي السنة ومن لا يحتج بها، كالخوارج مثلاً، فأراد بعبارته تلك أن يبين أهمية السنة، ويلفت النظر إلى عظم خطرها، والله أعلم.

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ١٩٩.

وكذا في قوله عزَّ وجلّ: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ ﴾، فإن الله عزَّ وجلّ قد نفى الإيمان عمن لا يُحَكِّم محمَّداً ﷺ نفياً مؤكداً بالقسم، ونحن في هذا النفي على ظاهره دون تأويل، وكيف نُـأَوِّله وقد أكده الله عزَّ وجلّ بالقسم، وعليه فلو لم يحفظ الله عزَّ وجلّ لنا سنة نبينا وأحكامه في أقضيته لكان قدَّر علينا ألا نؤمن به، ولآل أمرنا إلى ما آل إليه أمر بني إسرائيل من الاختلاف والفرقة والكفر، وأمتنا مصونة عن ذلك، إذ لا يزال منها طائفة على الحق منصورة.

وما قلناه في الآيتين السابقتين، نقوله في ما يشابههما من الآيات الكريمات، كقوله تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ﴾.

قال أبو محمد ابن حزم: وجدنا الله تعالى يردنا إلى كلام نبيه ﷺ على ما قدمنا آنفاً، فلم يسع مسلماً يقر بالتوحيد أن يرجع عند التنازع إلى غير القرآن والخبر على رسول الله ﷺ، ولا أن يأتي عمَّا وجد فيهما، فإن فعل ذلك بعد قيام الحجة عليه فهو فاسق، وأما من فعله مستحلاً للخروج عن أمرهما، وموجباً لطاعة أحد دونهما، فهو كافر لا شك عندنا في ذلك[1].

فلولا أن الله عزَّ وجلّ حفظ لنا سنّة نبيّه لما أطقنا الرجوع إليها عند التنازع، ولتردد أمر المسلمين بين الفسق والكفر، على ما ذكر أبو محمد، وكيف يكون ذلك وأمتنا خير أمة أُخْرِجت للناس؟ بل حفظ الله لنا السنّة، وحقَّق لنا بفضله ورحمته الرد إليها عند التنازع، ولن نضل بإذن الله ما رجعنا إليها، قال ﷺ: «تركت لكم ما لن تضلوا بعدي أبداً، كتاب الله وسنّتي».

---

(١) الإحكام ١/٩٥.

الدليل الرابع:

بعثة النبـي ﷺ العامة لأهل قرنه ولمن أتى بعدهم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وانقطاع الرسل بعده وختمهم به، يلزم منه لكي تقوم الحجة على المتأخرين أن تحفظ لهم أقواله وأفعاله وشرحه للقرآن وتبيانه له، كي يتعبدوا بذلك.

عموميّة بعثة النبـي ﷺ:

فقد كان النبـي قبل نبيّنا يبعث إلى قومه خاصة؛ ثم إن كذَّبوا ــ وهو الغالب ــ يهلكهم الله تعالى، كقوم عاد وثمود، وكقرون بين ذلك كثيراً، وإن آمنوا وصدَّقوا فإن النبـي كان يُعقب بنبـي، كما حصل مع بني إسرائيل، ابتدأوا بموسى وخُتموا بعيسى، وبينهم أنبياء لا يحصيهم إلاَّ الله عزَّ وجلّ، عليهم الصلاة والسلام، قال ﷺ: «كانت بني إسرائيل تسوسهم أنبياؤهم كلما هلك نبـي قام فيهم نبـي»[1]، ولذلك لم يحتاجوا إلى سنّة أنبيائهم السابقين، لاستغنائهم باللاحقين، فقامت الحجة عليهم بذلك.

وهذا كما علمت ممتنع في هذه الأمة، إذ ختمت بنبيِّها النبوات، وبشريعته الشرائع، ولو لم يحفظ الله لها سنة نبيها لما قامت عليها الحجة على الوجه، لا سيما مع استعجام ألسنة وقلوب كثيرين من أهل الملة في هذا الزمان، ومن أزمان سابقة.

الدليل الخامس:

خِطابه ﷺ الموجّه إلى من لم يكونوا حاضرين من أهل القرون المتأخرة، كحثهم على التمسك بالسنة زمن الغربة، واستغفاره لجيش القسطنطينية، وإحرازه عصابة تغزو الهند، وأخرى تكون مع المسيح عليه

---

(١) متفق عليه، رواه البخاري ح ٣٤٥٥، ومسلم ح ١٨٤٢.

السلام من النار، وإخباره بأيام الفتن، وأشراط الساعة، وعن أصناف من أمته لم يرها في زمانه، ونحو ذلك من الأخبار التي فيها نوع مخاطبة من تعنيهم مباشرة، وهم أهل القرون المتأخرة، فلو لم يكن هناك حفظ إلهي علمه النبي ﷺ، لكان من العبث واللغو أن يتفوه بهذا فمه الطاهر، لا سيما وأن أصحابه غير محتاجين لذلك، ومقام النبوة مصون عن مثل هذا.

أمر النبي ﷺ أصحابه بالتبليغ:

ولما علم النبي ذلك أمر أصحابه بالتبليغ، كي يصل العلم بهذه الأخبار إلى أهلها، كقوله ﷺ: «بَلِّغوا عَنِّي ولو آية»، فإنه أمر لا يجوز للأمة إلاَّ أن تقوم به، وإلاَّ كانت عاصية، ولكنها حقَّقته على الوجه الأكمل، ولله الحمد.

وكقوله: «تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم»، وهو أمر بصيغة الإخبار، متضمن كلا الأمرين.

قال العلائي: هذا من معجزاته التي وعد بوقوعها أمته، وأوصى أصحابه أن يكرموا نقلة العلم، وقد امتثلت الصحابة أمره، ولم يزل ينقل عنه أفعاله وأقواله، وتلقى ذلك عنهم التابعون، ونقلوه إلى أتباعهم، واستمر العمل على ذلك في كل عصر إلى الآن[1].

الدليل السادس:

إنَّ العنصر البشري والتأييد الإلـهي، القائمين بحفظ القرآن، هما نفسهما القائمين بحفظ السنّة، وإنما حفظ القرآن بنفس الطريقة التي حفظت بها السنّة، وهو الإسناد المتصل بالنبي ﷺ، ولذلك كان الإسناد من الدين،

---

(١) فيض القدير ٣/ ٢٤٥.

كما قاله طائفة من السلف[1].

فلماذا فرقت بين متشابهين ومَرْوِيين بطريقة واحدة، فأثبت الحفظ لأحدهما دون الآخر؟

فإن كان لأن القرآن مروي بالتواتر ففي السنة متواتر كثير، والمعترض لا يفرق في هذه القضية بين متواتر وغيره، وإذا ثبت الخلف في دعوى المعترض ثبت بطلان ما ذهب إليه، والله أعلم.

الدليل السابع:

الواقع، فإنَّ دواوين السنّة زاخرة بأخباره ﷺ، وها هي مسانيدها منذ صُنِّفت في العصور المفضلة وإلى زماننا هذا مضبوطة تمام الضبط، مصونة حق الصيانة، لم يزد فيها حرف، ولم ينتقص منها كلمة، وانظر إلى صحيح

---

(١) الإسناد في الأصل، خصيصة فاضلة من خصائص هذه الأمة، وسنة بالغة من السنن المؤكدة، قال أبو العباس ابن تيمية: وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد ﷺ، وجعله سُلَّماً إلى الدراية، فأما أهل الكتاب فلا إسناد لهم يأثرون به المنقولات، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة من أهل الضلالات، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنة، أهل الإسلام والسنة، يفرقون به بين الصحيح والسقيم، والمعوج والقويم، وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد، وعليها من دينهم الاعتماد، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل. (مجموع الفتاوى ١/ ٩).

قلت: ليس لأهل الكتاب إسناد متصل يأثرونه عن سلفهم، بل ولا نسخ معتمدة من التوراة والإنجيل مثبت إسنادها، وأقدم ما لديهم من النسخ اليونانية يرجع تاريخه إلى القرن الرابع.

انظر: شرف أصحاب الحديث ص ٤٠، الفتح المغيث ٣/ ٣٣١ ــ ٣٣٢، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة ص ٩٩، السنة المفترى عليها، لسالم البهنساوي ص ٣٦.

البخاري كمثال لما أقول، فكما دوَّنه مؤلفه ذاع وانتشر، وشرَّق وغرَّب وبلغ الآفاق، مع اتِّفاق عامة النسخ في مشارق الأرض ومغاربها في الحديث الواحد، وعليه فقس عامة كتب السنّة، وسيزداد قلبك اطمئناناً ويقيناً إذا طالعت ما يختص بضبط النسخ الحديثية وكيفية روايتها من كتب المصطلح.

فرع:

ومن أدلَّة الواقع: أن كل ما يحتاج إليه المسلم في أمور دينه ودنياه ففي السنة بيانه، ثم إن هذا المقدار المحتاج إليه قد حُصر، ونقل إلينا بالإسناد الصحيح، ولست أقوله جزافاً، ولا من باب التعصب للحرفة، فإليك شهادة إمامَي المحدثين، صاحبَي الصحيحين، وهما من علمت مكانة، وخبرت علماً، ورضيت حالاً:

الأول منهما: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، فقد رَوى عنه ورَّاقه محمد بن أبي حاتم أنه قال: لا أعلم شيئاً يحتاج إليه إلاَّ وفي الكتاب والسنّة خبر عنه، قال ورَّاقه: فقلت له: يمكن معرفة ذلك كله؟ قال: نعم[1].

والآخر: أبو الحسين مسلم بن الحجاج النيسابوري رحمه الله، قال: مع أن الأخبار الصحاح من رواية الثقات وأهل القناعة أكثر من أن يضطر إلى نقل من ليس بثقة ولا مقنع[2].

قال مقيده: هذا باب لو أردت استقصاءه من أقوال الأئمة ذوي الاختصاص لطال، فحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق.

---

(١) سير أعلام النبلاء، للذهبي ١٢/ ٤١٢.

(٢) مقدمة صحيح مسلم ص ٢٨.

فرع آخر:

ومن أدلَّة الواقع: أنَّ السنّة لم ترو لنا على حال واحدة، ولا درجة متساوية من القَبول والرِّضا، ففيها الصحيح والضعيف، والمقبول والمردود، والثابت والمختلق.

ولما ثبت أمام كل حديث ما يناسبه من الحكم عليه، ودُوِّن في ضمائمه المتلائمة معه، وعلمت الأمة ذلك؛ وتعاملت مع كل بما يناسبه، وما يقتضيه الحال، وكانت على هذا المنوال منذ بزوغ فجر الإسلام وإلى زماننا هذا، ولم نسمع ولا بلغنا أن الأمة أجمعت في العصور الأولى على تضعيف حديث فبان لنا خلافه، ولا العكس، كان هذا التمايز بين النقيضين (الصحيح والضعيف، والمقبول والمردود) دليلاً على عدم اختلاط السنّة، وعلى بقائها غضة طرية، لم تشبها شائبة، ولم يكدرها قذى.

وما يقال عن المروي يقال عن الراوي ــ حذوك القذة بالقذة ــ فإن الأمة فرَّقت بين القوي والضعيف، والثقة والمتهم، والحافظ والغافل، وما أجمعت على تضعيف غير الضعيف، ولا على توثيق غير الثقة، وهذا من إلهام الله عزَّ وجلّ لهم، وإعانته إياهم فيما انتدبهم له.

وكان ينبغي على قول المعترض ــ حتى يصح قوله ــ أن يكون المروي والراوي عند أهل العلم على وتيرة واحدة، وحكم واحد، لكي يتم له ما أراد من اختلاط السنّة صحيحها بضعيفها، ومقبولها بمردودها، ولكن الله أكذبه وخذله، ويأبى الله ورسوله والمسلمون إلاَّ حفظ السنة.

الدليل الثامن:

تَلَقِّي الأمة بالقَبول لحديث الصحيحين، وإجماعهم على ذلك، وهاك بعض ما قالوه في هذا الشأن:

قال التقيّ ابن الصلاح رحمه الله تعالى: وهذا القسم ــ يعني أحاديث الصحيحين غير المتفق عليها ــ مقطوع بصحته، والعلم اليقيني النظري واقع به . . . ، والأمة في إجماعها معصومة من الخطأ[1].

وقال الحافظ أبو نصر عبيد الله بن سعد الوائلي البكري السجزي (ت ٤٤٤): أجمع أهل العلم الفقهاء وغيرهم على أنَّ رجلاً لو حلف بالطلاق أنَّ جميع ما في البخاري مما روي عن النبي ﷺ قد صحَّ عنه، ورسول الله ﷺ قاله، لا شك فيه، أنه لا يحنث، والمرأة بحالها في حبالته[2].

وقال إمام الحرمين أبو المعالي الجويني: لو حلف إنسان بطلاق امرأته أن ما في كتابي البخاري ومسلم مما حكما بصحته من قول النبي ﷺ لما ألزمْتُه الطلاق ولا حنثته، لإجماع علماء المسلمين على صحتهما[3].

الاستدلال بهذا الإجماع على المعترض:

قال مقيده: في هذا القَبول التام، والركون المطمئن إلى الصحيحين، وفي هذا الإجماع الحاصل به الثقة لدى العلماء بثبوت أحاديثهما عن النبي ﷺ، دليل على أنَّ السنّة محفوظة، ولو على الأقل هذا الجزء منها، المروي في الصحيحين[4].

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٨، صيانة صحيح مسلم ص ٨٥.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٦.

(٣) صيانة صحيح مسلم ص ٨٥ ــ ٨٦، وعنه السيوطي في تدريب الراوي ١/ ١٣١ ــ ١٣٢.

(٤) لا يعني هذا أنه لا يصح غير ما في الصحيحين، وتلك مقولة كانت نافقة في حقبة من التاريخ، عالجها أبو عبد الله الحاكم في كتابيه المدخل إلى الصحيح، والمدخل إلى الإكليل، وردَّ في الثاني منهما على من زعم أن الصحيح المحفوظ =

. . . .

= من السنة هو ما اقتصر عليه الشيخان، واستدل على ذلك بدلالة الواقع والحال، قال في بيان النوع الأول من الصحيح المجمع عليه ــ وهو ما كان على شرط الشيخين ــ (لاحظ قوله: المجمع عليه):

فهذه الدرجة الأولى من الصحيح، والأحاديث المروية بهذه الشريطة لا يبلغ عددها عشرة آلاف حديث، وقد كان مسلم بن الحجاج أراد أن يخرج الصحيح على ثلاثة أقسام في الرواة، ولما فرغ من هذا القسم الأول أدركته المنية رحمة الله عليه وهو في حد الكهولة.

وكيف يجوز أن يقال: حديث رسول الله ﷺ لا يبلغ عشرة آلاف حديث، وقد روى عنه من أصحابه أربعة آلاف رجل وامرأة، صحبوه نيفاً وعشرين سنة بمكة قبل الهجرة ثم بالمدينة بعد الهجرة، حفظوا عنه أقواله وأفعاله، ونومه ويقظته، وحركاته وسكونه، وقيامه وقعوده، واجتهاده وعبادته، ومسيره ومغازيه وسراياه، ومزاحه وزجره، وخطبه، وأكله وشربه، ومشيه وسكوته، وملاعبته أهله وتأديبه فرسه، وكتبه إلى المسلمين والمشركين، وعهوده ومواثيقه، وألحاظه وأنفاسه وصفاته.

هذا سوى ما حفظوا عنه من أحكام الشريعة وما سألوه عن العبادات والحلال والحرام وتحاكموا فيه إليه.

وقد نقل إلينا أنه ﷺ: كان يسير العنق، فإذا وجد فجوة نص، وأنه مشى عن زميل له، وأنه مازح صبياً فقال عليه السلام: يا أبا عمير ما فعل النُّغير؟ ومازح عجوزاً فقال: إن الجنة لا تدخلها عجوز، وأنه ﷺ كان يغط إذا نام، وأنه ﷺ كان يرفع الحسين بن علي برجليه فيقول: حُزُقَّة حُزقة ترقَّ عين بقة، وأنه ﷺ شرب وهو قائم، وأنه ﷺ بال قائماً من جرح كان بمأبضه، في أخبار كثيرة من هذا النوع يطول شرحه، وهؤلاء الصحابة الراوون عنه ﷺ سوى من صحبوه وماتوا قبله وقتلوا بين يديه في الصفوف أو تبددوا ولم تظهر لهم رواية ولا حديث، وأنه ﷺ وقف عام الفتح بمكة وبين يديه خمسة عشر ألف عنان.

وقد كان الواحد من الحفاظ يحفظ خمسمائة ألف حديث، سمعت أبا جعفر

ودليل أيضاً على فساد ما أملته سمادير الضلال على أربابها من أن السنّة غير محفوظة، وذلك لأنهم في غيِّهم ادعوا سلباً كاملاً، وإجماع المؤمنين قام بإيجاب جزئي ـ هو في الحقيقة مقدار عظيم ـ فانتقض بذلك السلب المزعوم، وعلى هؤلاء إن كانوا مؤمنين أن يدخلوا في سلك الجماعة، ولا يشذُّوا عن إجماعهم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدْخُلُواْ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً ﴾، فاتبعوا سبيل المؤمنين تهتدوا، ومن أبى: ﴿ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾ ﴾.

= محمد بن أحمد بن سعيد الرازي يقول: سمعت أبا عبد الله محمد بن مسلم بن وارة يقول: كنت عند إسحاق بن إبراهيم بنيسابور فقال رجل من أهل العراق سمعت أحمد بن حنبل يقول: صح من الحديث سبعمائة ألف حديث وكسر، وهذا الفتى يعني أبا زرعة الرازي قد حفظ ستمائة ألف.

سمعت أبا بكر محمد بن جعفر المزكي يقول: سمعت محمد بن إسحاق بن خزيمة يقول: سمعت علي بن خشرم يقول: كان إسحاق بن إبراهيم بن راهويه يملي سبعين ألف حديث حفظاً.

سمعت أبا بكر بن أبي دارم الحافظ بالكوفة يقول: سمعت أبا العباس أحمد بن محمد بن سعيد الحافظ يقول: أحفظ لأهل البيت ثلاثمائة ألف حديث.

سمعت أبا علي الحافظ يقول: سمعت أبا العباس بن سعيد يقول: ظهر لأبي كُريب بالكوفة ثلاثمائة ألف حديث.

سمعت أبا بكر بن أبي دارم الحافظ يقول: كتبت بأصابعي عن أبي جعفر الحضرمي مطيّن مائة ألف حديث.

سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى يقول: سمعت محمد بن المسيب الأرغياني يقول: كنت أمشي بمصر وفي كمي مائة جزء في كل جزء ألف حديث.

قال الحاكم رحمه الله: وقد كان في عصرنا جماعة بلغ المسند المصنف له على تراجم الرجال لكل واحد منهم ألف جزء، منهم: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن حمزة الأصبهاني، وأبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الماسرجسي.

الدليل التاسع:

وهو مسوق من قول أبـي محمد ابن حزم في سياق احتجاجه على منكر خبر الآحاد، بأن التكفل بالحفظ عاصم لهم من الخطأ، قال:

وأيضاً فإن الله عزَّ وجلّ يقول: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾، وقال تعالى: ﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ﴾.

قال أبو محمد: فنقول لمن جوَّز أن يكون ما أمر الله تعالى به نبيه عليه السلام من بيان شريعة الإسلام لنا غير محفوظ، وأنه يجوز فيه التبديل، وأن يختلط بالكذب الموضوع اختلاطاً لا يتميز أبداً، أخبرونا عن إكمال الله ديناً ورضاه الإسلام لنا ديناً، ومنعه تعالى من قبول كل دين حاش الإسلام، أكلُّ ذلك باق علينا ولنا إلى يوم القيامة؟ أم إنما كان ذلك للصحابة رضوان الله عليهم فقط؟ أم لا للصحابة ولا لنا؟ ولا بد من أحد هذه الوجوه.

ثم بيّن فساد الثاني والثالث وأن القائل بهما يتوصل إلى الكذب، ولم يبق من سبره وتقسيمه إلاَّ القسم الأول: إن كل ذلك باق لنا إلى يوم القيامة، قال: صاروا إلى قولنا ضرورة، وصح أن شرائع الإسلام كلها كاملة، والنعمة بذلك علينا تامة.

وهذا برهان ضروري قاطع على أن كل ما قاله رسول الله ﷺ في الدين، وفي بيان ما يلزم، محفوظ لا يختلط به أبداً ما لم يكن منه(١).

---

(١) الإحكام ١/١١٨ ــ ١١٩.

وبعد: فتلك هي أهم الأدلة على الحفظ، وهو في الأصل من المعلوم من الدين بالضرورة، ومنكره على خطر عظيم، ولو ألزمناه بلازم قوله لمرق من الدين، ومن العجب والتكلف أن يُستدلّ على مثل هذه الأمور المسلَّمة في ديننا:

وكيف يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليلِ

خاتمة الفصل

نقلٌ عن أبي محمد ابن حزم

وأختم هذا الفصل بنقل عن أبي محمد ابن حزم، يثبت فيه ما رمنا إثباته، بأبلغ عبارة، وأقوى برهان، يرمي فيه المعترض بأسهم الحق، فيصيب شواه، ويحز مفصله.

قال رحمه الله: قال الله عزَّ وجلّ عن نبيّه ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾، وقال تعالى آمرا لنبيه عليه الصلاة والسلام أن يقول: ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ۝٩﴾، وقال تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فصح أنَّ كلام رسول الله ﷺ كله في الدِّين وحي من عند الله عزَّ وجلّ، لا شك في ذلك، ولا خلاف بين أحد من أهل اللغة والشريعة في أن كل وحي نزل من عند الله تعالى فهو ذكر منزل، فالوحي كله محفوظ بحفظ الله تعالى بيقين، وكل ما تكفل الله بحفظه فمضمون ألاَّ يضيع منه، وألاَّ يحرف منه شيء أبداً تحريفاً لا يأتي البيان ببطلانه، إذ لو جاز غير ذلك لكان كلام الله تعالى كذباً وضمانه خائساً، وهذا لا يخطر ببال ذي مسكة عقل، فوجب أن الدين الذي أتانا به محمد ﷺ محفوظ بتولي الله تعالى حفظه، مبلَّغ كما هو إلى كل من طلبه مما يأتي أبداً انقضاء الدنيا، قال تعالى: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَنۢ بَلَغَ﴾.

فإذا كـان ذلـك كذلك، فبالضروري تدري أنه لا سبيل البتة إلى ضياع شيء قاله رسول الله ﷺ في الدين، ولا سبيل البتة إلى أن يختلط به باطل بموضوع اختلاطاً لا يتميز عن أحد من الناس بيقين، إذ لو جاز ذلك لكان الذكر غير محفوظ، ولكان قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ كذباً، ووعداً مخلفاً، وهذا لا يقوله مسلم.

فإن قال قائل: إنما عنى تعالى بذلك القرآن وحده، فهو الذي ضمن تعالى حفظه لا سائر الوحي الذي ليس قرآناً، قلنا له وبالله تعالى التوفيق:

هذه دعوى كاذبة مجردة من البرهان، وتخصيص للذكر بلا دليل، وما كان هكذا فهو باطل لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝١١١﴾، فصح أن لا برهان له على دعواه، فليس بصادق فيها، والذكر اسم واقع على كل ما أنزل الله على نبيّه ﷺ من قرآن أو من سنة وحي يبين بها القرآن، وأيضاً فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، فصح أنه عليه السلام مأمور ببيان القرآن للناس.

وفي القرآن مجمل كثير كالصلاة والزكاة والحج، وغير ذلك مما لا نعلم ما ألزمنا الله تعالى فيه بلفظه، لكنْ بيان رسول الله ﷺ، فإذا كان بيانه عليه السلام لذلك المجمل غير محفوظ ولا مضمون سلامته مما ليس منه، فقد بطل الانتفاع بنص القرآن، فبطلت أكثر الشرائع المفترضة علينا فيه، فإذا لم ندر صحيح مراد الله تعالى منها، فما أخطأ فيه المخطىء أو تعمد فيه الكذب الكاذب، ومعاذ الله من هذا[1].

❑ ❑ ❑

(١) الإحكام ١/ ١١٤ ـ ١١٥، وانظر موضعاً آخر يثبت فيه الأمر نفسه ١/ ٢٠١.

فصل

في تهيئة الله عزّ وجلّ هذه الأمة للتشرُّف بحفظ السنّة وتبليغها للناس

ليتحقَّق أمره ﷺ: «بَلِّغوا عنِّي ولو آية»، فإن من لوازم هذا البلاغ حفظها وتداولها، كما في قوله ﷺ: «نَضَّر الله امرءاً سمع منّا حديثاً فحفظه حتى يبلغه غيره. . .» الحديث.

انقطاع أطماع الملحدين عن تحريف الكتاب المبين:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

لما كان القرآن متميزاً بنفسه لما خصه الله به من الإعجاز الذي يباين به كلام الناس، كما قال الله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾، وكان منقولاً بالتواتر، لم يطمع أحد في تغيير شيء من ألفاظه وحروفه، ولكن طمع الشيطان أن يدخل التحريف والتبديل في معانيه بالتفسير والتأويل، وطمع أن يدخل في الأحاديث من النقص والازدياد ما يضل به العباد، فأقام الله تعالى جهابذة النقاد فدحروا حزب الشيطان، وفرقوا بين الحق والبهتان، وانتدبوا لحفظ السنّة ومعاني القرآن من الزيادة في ذلك والنقصان[1].

---

(١) مجموع الفتاوى ١/٧ ـ ١١.

عوامل حفظ السنّة:

وأقام الله تعالى هذا الحفظ بعاملين اثنين:

أولهما: قائم على دعامتين، إحداهما: جِبِلِّية، والأخرى: اصطفائية، تضافرتا فكانتا ركناً عظيماً تأوي إليه السنة، ويلوذ به الحديث الشريف.

أما الواحد منهما: فالجِبلَّات التي خلق الله عليها هذه الأمة ـ أعني أمة العرب التي بعث فيها النبـي ﷺ ـ فإنها كانت ذا عقل صاف، وذهن سيال، يتوقد ذكاء وفطنة، ويعبق حدساً وتوسُّماً، ولهم في ذلك ـ قبل المبعث وبعده ـ أخبار سطرها التاريخ، من تطلَّبها وجدها.

وكان وجودهم في الصحراء بعيداً عن الحضارة، وعن الصدارة، ثم ما حصل لهم بعد ذلك على يد نبيهم ﷺ حافزاً يدعوهم لحفظ آثاره، والتمسك بهديه الذي به سادوا وعلوا.

قال ابن الجوزي: ولتكريم هذه الأمة أسباب هيأها الله عزَّ وجلّ وأكرمها بها، منها: وفور العقل، وقوة الفهم، وجودة الذهن...

ولقوّة أذهان أمّتنا قدرت على حفظ القرآن، وقد كان مَنْ قَبْلَهم يقرأ كتابه من الصحف...

وفضائل أمّتنا وما مُيِّزت به كثير، إلاَّ أن من أعجب ذلك حفظ الله عزَّ وجلّ لكتابنا عن التبديل، قال عزَّ وجلّ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾، فما يمكن تبديل كلمة منه، وقد بدلت الكتب قبله، ومن ذلك أن سنة نبينا ﷺ مأثورة ينقلها خلف عن سلف، ولم يكن هذا لأحد من الأمم قبلها..

ولما لم يكن لأحد أن يدخل في القرآن شيئاً ليس منه، أخذ أقوام يزيدون في حديث رسول الله ﷺ، وينقصون ويبدلون، ويضعون عليه ما لم

يقل، فأنشأ الله عزَّ وجلّ علماء يذبُّون عن النقل، ويوضحون الصحيح، ويفضحون القبيح، وما يخلي الله عزَّ وجلّ منهم عصراً من العصور.

عن جابر بن سمرة عن النبـي ﷺ قال: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تأويل الجاهلين، وانتحال المبطلين»[1].

قلت: هؤلاء هم الدعامة الثانية، أهل الحديث والأثر، القائمين على حفظ الكتاب والسنّة، يرحل الواحد منهم مَقْوِيًّا مُعدماً في طلب الخبر الواحد أو السنّة الواحدة شهوراً عدَّة، فإذا حصَّل بغيته وقضى نهمته، لم ير أنه غبن في سفرته تلك، ولا خدع عن ملاذ الدنيا بلذة تحصيل الحديث وتحقيق الرواية.

وصف جهابذة السنة من قول المؤلف وغيره:

تعجب منهم وقد تناسوا ذاتهم في هذا السبيل، وتفانوا فيه فغابوا عن أنفسهم ليحضروه، وعن حياتهم ليحيوه، تقرأ في ملامح حياتهم وبين أسطر تراجمهم أثر الإرادة الربّانية مخبرة أن هؤلاء الأفذاذ صنيعة سماوية في هذا العالم السفلي، وجدوا لغاية، وخلقوا لحكمة، تعدوا بهم أن يكونوا أصحاب أحوال غريبة، يخلدها التاريخ متعجباً منها، إلى إرادة الله عزَّ وجلّ أن يحفظ بهم السنة، ويحفظهم بها، ويخلد ذكرهم في الأرض، ما بقي عليها من يقول: الله الله.

يهون عليهم ما يصعب على غيرهم، فمن دأب وكلال، وركوب لصهوة الارتحال، إلى بذل للنفس والأموال، واستهتار بالمخاوف والأهوال، لا يلتفتون إلى شعث الرأس، ولا يأبهون بنحل البدن، ولا يقلل من عزيمتهم أن خمصت بطونهم، أو شحبت ألوانهم.

(١) كتاب الموضوعات ١/ ١٠.

وإن الناظر في سيرهم ليزداد يقيناً وإيماناً بهذا الدِّين، وتحصل له الثقة بصفاء الشريعة، ونقاء السنّة، حتى لكأنها غضة طريّة ـ رغم طول الزمان ـ منذ نطق بها صاحبها الكريم ﷺ، إلى أن وصلت إلينا عبر الجهابذة النقاد، كالدرَّة المصونة في الصدف، المحفوظة من أن يختلط جيدها بالرديء أو الخزف.

وأحسب أن المعترض علينا في إثبات حفظ السنة لو تخلص من ربقة الجهل، ورمى بِغِلِّ تقليد المستشرقين، ثم حانت منه لفتة بقلب مقبل غير مدبر إلى هؤلاء الرجال، فطالع شواهد من حياتهم، ومعالم خاطفة من سيرهم، لما احتاج منا لاستدلال على هذه القضية، ولأخسأ شيطانه، ولأبصر نور السنة يتلألأ من دواوينها، ولعاد قالباً لأربابه المستشرقين ظهر المِجَن، ولَقَاءَ ما كان تضلَّع به من غث زينوه، وبهرج زخرفوه، صدّوه به عن الحق المبين، فالحق أبلج دائماً وفي كل حين.

أسباب الانقياد للهوى:

مع أنَّ أرباب المقالات، وأصحاب المذاهب، يشتد عليهم أن ينزعوا عن ما هم عليه، وإن لاحت لهم مشاعل الهداية، إلاَّ طالب حق، وإلاَّ راغب هدى، يمنعهم عن الانقياد إلى الحق أمور جلاَّها ابن قتيبة بقوله في مناقشة أرباب الكلام وأصحاب المذاهب:

ولو ردوا المشكل منهما (أي الكتاب والسنّة) إلى أهل العلم بهما، وضح لهم المنهج، واتسع لهم المخرج، ولكن يمنع من ذلك: طلب الرئاسة، وحب الاتباع، واعتقاد الإخوان بالمقالات، والناس أسراب طير، يتبع بعضها بعضاً[1].

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٤.

وبعد؛ فلولا عناية أهل الحديث بضبط السنن وجمعها، واستنباطها من معادنها، والنظر في طرقها، لبطلت الشريعة ولتعطَّلت أحكامها، إذ كانت مستخرجة من الآثار المحفوظة، ومستفادة من السنن المنقولة، ولله درُّ من قال: لولا أصحاب الحديث لخطبت الزنادقة على المنابر.

وهم ــ أعني أهل الحديث ــ قد أدوا ما انتدبوا له، على أتم وجه وأكمل حال، وحفظوا على الأمة أحكام الرسول ﷺ، وأخبروا عن أنباء التنزيل، وأثبتوا ناسخه ومنسوخه، وميَّزوا محكمه ومتشابهه، ودوَّنوا أفعاله وأقواله، وضبطوا على اختلاف الأمور أحواله، في يقظته ومنامه، وقعوده وقيامه، وملبسه ومركبه، ومأكله ومشربه، حتى القُلامة من ظفره ما كان يصنع بها؟ والنخاعة من فيه كيف يلفظها؟ وقوله عند كل فعل يحدثه، ولدى كل موقف يشهده، تعظيماً لقدره ﷺ، ومعرفة بشرف ما ذكر عنه، وعُزِي إليه.

فمن عرف للإسلام حقه، وأوجب للدين حرمته، أكبر أن يحتقر من عظَّم الله شأنه، وأعلى مكانه، وأبان فضيلته، ولم يرتق بطعنه إلى حزب الرسول وأتباع الوحي، وأوعية الدين، وخزنة العلم، الذين ذكرهم الله تعالى في كتابه فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾، وكفى المحدِّث شرفاً أن يكون اسمه مقروناً باسم النبي ﷺ، وذِكره متَّصلاً بذِكره، ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾[1].

قال مقيده: وأما العامل الثاني فهو عامل قدري، فكما أنَّ الله أوكل حفظ كتب السابقين إلى أتباعها، فإنه تكفل هو بحفظ كتابنا وديننا، وقد قدمت أدلة هذا الحفظ القدري في الباب السابق، فانظره في موضعه.

❑ ❑ ❑

---

(١) من كلام الخطيب البغدادي في الكفاية ص ٢٠.

فصل

في إيراد شبه يستدل بها المعترض والجواب عنها

ما فتىء أعداء السنّة قديماً وحديثاً، يتربَّصون بها وبأهلها الدوائر، ويتحيَّنون الفرص للنيل منهم، ويودُّون أن لو وجدوا منهم غرَّة فيميلوا عليهم ميلة واحدة، يجلبون فيها بزُبالة فكرهم، وعفار آرائهم، يبتغون طمس الحقّ، وإبطال الشريعة ـ حسداً من عند أنفسهم ـ لعلمهم مكانة السنّة من الدِّين، ومحلّها منه، ربما أكثر من كثيرين من أبناء المسلمين.

نسبة الفرق الضالة إلى السنّة:

وهم يعلمون أنَّ أول فرقة انشقَّت عن الإسلام الحق (أهلِ السنّة والجماعة) هم فرقة الخوارج، ومما أوضعهم في نفق الضلالة، وأسرع بهم في سراديبها، عدم احتجاجهم بالسنة، وردُّهم لعامَّتها.

ثم كان مِن بعدهم الرَّافضة، وهم أشدّ الخلق عداء للسنّة، حتى إنهم ليميزون أعداءهم بالانتساب إلى السنّة، وستعلم قريباً أنه ما من شبهة تطعن في السنّة المحمدية، إلاَّ وهي ضاربة بجذورها في كتب الرافضة وعقائدهم، مستمدَّة منها ما يستمده القرح من الدم: القيح والصديد.

وبعـد؛ فإنَّ علوم الشريعة تشتكي إلى الله استباحة حماها، والتعدي

على حرماتها، فأصبح كل صاحب قلم يرعى حِمَاها بعفار مخه، وزُبالة فكره، وسوء فهمه، وكأنه الحمى الذي لا حامي له، والضعيف الذي لا ناصر له، وصار كل طالب شهرة، ومبتغي دنيا، يتقرب إلى أهلها، ويتزلف إلى أصنامها بالتجرؤ على هذا الحمى، والخوض في هذه المهامه دون هدى، مواكبة للعصرنة ــ زعموا ــ، ومسايرة للحضارة والتقدم، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

ولكن مهما امتدَّ بهؤلاء باطلهم، وطالت بإثباته ألسنتهم، فلن تخلو الديار من متقمصٍ المقولةَ الصدِّيقيّة: أينقص الدِّين وأنا حيّ! حاشا وكلاَّ.

«وسَيَجِدُ أعداء الله زخرف باطلهم، وتمويه كذبهم، ﴿كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا﴾، وكوميض برق عرض فأسرع، ولمع فأطمع، حتى انحسرت مغاربه، وتشعبت مولية مذاهبه، وأيقن راجيه وطالبه، أَلاَّ ملاذ ولا وزر، ولا مورد ولا صدر، ولا من الحرب مفر، هنالك ظهرت عواقب الحق منجية، وخواتم الباطل مردية»[(١)].

ثم ليتق الله امرؤ ولا يجعل دينه عرضة للأهواء فيكثر التنقُّل والتحوُّل، ولينظر في أهلية من يأخذ عنه الدِّين والعلم، فمن المأثور عن سلفنا: (إنَّ هذا العلم دين فانظروا عمَّن تأخذون دينكم).

وقد ناسب بعد أن سردنا أدلة حفظ السنّة، وأوجه هذا الحفظ، أن ندمغ ما يورده علينا المخالف ــ ممَّا يرى بقصور فكره أنه دليل مثبت لدعواه ــ بالحق الواضح، والبرهان الساطع، مستمدًّا من الله العون والمدد:

---

(١) من رسالة لأبي إسحاق إبراهيم الصولي، انظر: معجم الأدباء ١/ ١٢٢.

الشبه والردّ عليها

الشبهة الأولى: الآحاد والمتواتر:

وهي شبهة يديرونها في أنفاق مخاخهم المظلمة، ويوظفونها كيفما اشتهوا في إثبات دعاويهم المغرضة، ضد السنة المحمدية، فمتى استقلت السنّة بحكم شنئوه قالوا: إنما ورد آحاداً، وإذا أرادوا الطعن في السنة وثبوتها، قالوا: إنما رويت آحاداً، وكذا الأمر عندهم في حفظ السنة، قالوا: إنها إنما وردت آحاداً بخلاف القرآن، فإنه منقول بالتواتر، والآحاد غاية ما يفيد نقله الظن ــ إن كان ثقة ــ لما قد يتطرّق إلى الرواة من عوارض السهو والغفلة والخطأ والنسيان، بخلاف المتواتر.

حاصل الاعتراض:

فتضمّن كلامهم هذا ثلاث دعاوى:

الأولى: أنَّ السنّة نقل آحاد.

الثانية: أنَّ الآحاد إنما يفيد نقله غلبة الظن.

الثالثة: أنه قد يتطرّق إلى الثقة المعتمد على نقله من الخطأ والوهم ــ في حديثٍ ما بعينه دون سائر حديثه ــ ما يجعله خلاف الأصل، ثم يحكم له بالصحة، على الجادة، وهو في حقيقة الأمر باطل.

أصل هذه الشبهة:

قال مقيده: هذه الشبهة ــ كما أخبرتك من قبل ــ ذات أصل رافضي خبيث، اجتثت من دواوين أهل الحقّ، فليس لها قرار إلاَّ في قلوب تلك الفئة الضالة.

قال الأمين العاملي ــ أحد أئمة الشيعة، ومجتهديهم، في جبل عامل ــ في كتابه كشف الارتياب:

لا تثبت السنّة لنا إلاَّ بالخبر المتواتر، وهو إخبار جماعة كثيرة يمتنع عند العقل تواطؤهم على الكذب، أو المحفوف بقرائن توجب القطع بصدوره.

أما خبر الثقة العدل مع عدم إفادة العلم فقد اختلف في حجيّته، فمنعها قوم لأصالة عدم حجيّة الظن، وأثبتها آخرون، وإثبات عدالة من بَعُدَ عنّا زمانهم من أصعب الأمور لانحصار الأمر في علمنا بها في أخبار الغير، وهو مفقود غالباً إلاَّ من إخبار البعض المستند على الظنون والاجتهادات التي تخطيء كثيراً، لا على الممارسة والمعاشرة، مع اختلاف الآراء فيما يوجب الجرح وما لا يوجبه..

فعلم من هذا أن التسرع إلى القول بمضمون الخبر بمجرد وجوده في أحد كتب الحديث خطأ محض. اهـ[1].

والعجيب أن هذا الرافضي الذي لا يقبل من السنة إلاَّ ما تواتر منها، يعظم ما لا يعرف له سند ولا أصل من أقوال أئمتهم اكتفاء بوروده في شيء من كتب مصنفيهم، وإنما خالف لِما نهى عنه إضلالاً لهذه الأمة، وتزهيداً لها في الصحيحين، وتجسيراً على هتك حرمتها، وغيرها من كتب السنّة، وقد وُجد هذا من أبناء أهل السنّة، فالله المستعان.

---

(١) كتاب الرافضي المشار إليه قام بنقضه عبد الله بن محمد القصيمي في كتابه: (الصراع بين الإسلام والوثنية)، وهذا النقل عنه في ١/ ٧٥ ــ ٧٦.
وقد أجاد القصيمي في كتابه هذا، فحز المفصل، وأدرك القرار، وبيَّن فساد أمر الرافضة ومن أدان دينهم من أهل الوثنية المقنَّعة، وظهر القصيمي في هذا الكتاب بلباس علمي حسن، وأبان عن فصاحة وجودة لسن، ولكن الرجل أدركه العثار فزاغ في آخره، وحاد عن الجادة، وضل عن سواء السبيل، فيا من أضللته عن علم سبحانك، ثبتنا على ديننا إلى يوم نلقاك، ويا مقلِّب القلوب والأبصار، قلِّبنا في رضاك، اللَّـهُمَّ آمين.

ومن تضليله زعمه أنه يقبل المتواتر من السنة فقط، وهم في الأصل لا يحتجون بما رُوي في السنة متواتراً كان أو آحاداً، ولكن مبالغة في التضليل، ولكي لا ينتبه الناس إلى رافضيته ادعى قبولاً جزئيًا للسنّة، وهو في ذلك ــ كعامة أهل ملته ــ من أكذب الكاذبين، وإلاَّ أين هم عن الحديث المتواتر: «خير أمتي قرني. . .»[١].

الرد على هذه الشبهة:

قال مقيده: تفنيداً لمزاعم هؤلاء نقول:

أولاً: من الخطأ الشائع اعتقاد أن السنة كلها نقل آحاد، بل فيها متواتر، وهو كثير، وأكثره معنى لا لفظاً، وأنكروا على من زعم قلَّته وعزَّته، فضلاً على مَن أنكره.

قال ابن حجر: ما ادُّعي من عزَّة المتواتر. . وما ادُّعي من العدم ممنوع، لأن ذلك نشأ عن قلَّة الاطِّلاع على كثرة الطرق، وأحوال الرجال وصفاتهم المقتضية لإبعاد العادة أن يتواطؤوا على الكذب، أو يحصل منهم اتِّفاق.

قال: ومن أحسن ما يقرر به كون المتواتر موجوداً وجود كثرة في الأحاديث: أنَّ الكتب المشهورة المتداولة بأيدي أهل العلم شرقاً وغرباً، المقطوع عندهم بصحة نسبتها إلى مؤلفيها، إذا اجتمعت على إخراج حديث وتعددت طرقه تعدُّداً تحيل العادة تواطأهم على الكذب، أفاد العلم اليقيني بصحته إلى قائله، ومثل ذلك في الكتب المشهورة كثير[٢].

قلت: والمعترض على حفظ السنة إن أراد بالآحاد: ما يرويه واحد

---

(١) نص على تواتره الحافظ ابن حجر في أول كتاب الإصابة ص ٥.

(٢) تدريب الراوي ٢/ ١٧٩.

عن واحد إلى منتهاه، أو ما يتفرد بنقله واحد، مما يسميه أهل الحديث (الغريب)، فهو كاذب في دعواه تلك أن عامة السنة غرائب، والواقع يثبت خلافه.

وإن كان إنما أراد بالآحاد: ما يرويه اثنان وثلاثة.. ويسمِّيه أهل الحديث: العزيز، والمشهور، والمستفيض، ونحو ذلك، فنعم؛ عامة السنة كذلك، ولكن هذا الإثبات لا يفيد صحة دعواه، لأن نتيجتهم إنما تصح إذا قدمتَ لها: نقل الواحد أقرب إلى الخطأ، وهذا ما لا يفيده نقل الاثنين.

ثانياً: دعوى أن نقل الواحد يفيد الظن فحسب فيه تأمل من وجه، لأنه قد يحتَفُّ أحياناً بما يقويه ـ كتصديق الناس له، وإقرارهم عليه ـ فيفيد عندها القطع، كما في أحاديث الصحيحين، على المختار من قولَي أهل العلم.

والظن غير الشك، فهو ترجيح جانب على جانب، وهو في الآحاد الصحيحة: ترجيح جانب الحفظ على الوهم، فإذا اقترن بشهادة الحفاظ بثبوته أفاد العلم.

والظن أصلاً نوع من العلم، يلزم به العمل، ولذلك استعملت لفظته بمعنى اليقين، كما في قوله تعالى: ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ ﴾.

قال أحمد بن فارس اللغوي: أراد يوقنون، وهو في القرآن كثير[1].

وقد تحقق لك في الجواب الأول أن عامة السنة ليست غرائباً، بمعنى: أنه يرويها رجل واحد، وأن غالبها مما يرويه اثنان وأكثر، مما لم يبلغ حد التواتر، ولا شكّ أن الظن الذي يشهد عليه اثنان يصبح حكماً لازماً، وقضاء صادقاً، وسنّة متّبعة، فخذ الحق ودع عنك الزغل.

(١) معجم مقاييس اللغة ٣/ ٤٦٢.

ثالثاً: ما قيل من أن الثقة قد تتطرق إلى حديثه أمور عارضة، من غفلة ونسيان ونحوهما مما لا يخلو منه بشر، فقائل هذا مدثِّر بملاءة من الجهل غطت عنه جهود أهل الحديث في نقد الرجال وتمييز مروياتهم، ولو أنه سكت عن التكلف لما لا يحسن لأراح واستراح، ولكنه أبى إلاَّ أن يهرف بما لا يعرف، وقد قيل: لو سكت الجاهل لانعدم الخلاف.

والجواب على ذلك: ليس كل الثقات في طبقة واحدة من القَبول، بل هم متفاوتون بحسب توافر شروط العدالة ونقصانها، وكل أخذ منزلته التي أنزله الله إياها، من حيث قوة الحفظ، وصلاحية الاعتماد، وإلا فما معنى تقسيم المقبول: إلى صحيح وحسن؟!

وبعد ذلك؛ فقد بين أهل العلم غرائب الرواة ومفاريدهم، ونصُّوا على شواذ أحاديثهم، واجتهدوا في تمييز ما أخطأوا به، وما لبس عليهم، وحرَّروا أمر المختلطين والمدلسين، ما ترى في عملهم أي محاباة أو فتور، ومهما قلَّبت فيهم طرفك فلن ترى من قصور، فهم بيننا كسماء الله عزَّ وجلّ ما فيها نقص ولا فطور.

ولا أخالُك إن نظرت في كتبهم إلاَّ ستعترف بذلك، كما اعترف من قبلك الصليبي الحاقد المستشرق «مرجليوث» حين قال: (حق للمسلمين أن يفخروا بعلم حديثهم)، والحق ما شهدت به الأعداء.

تطبيـق:

وتتمّة لِما ذكرنا أضرب لك مثالاً واحداً تجتزىء به في تبيان هذه الجزئية إن كنت ذا لب:

فقد أخرج مسلم في صحيحه جملة صالحة من حديث سهيل بن أبـي صالح السمان عن أبيه عن أبـي هريرة، وسهيل وأبوه ثقتان، وما أخرج له

مسلم إلاَّ ما علم وجود متابع له، وترك من حديثه ما علم أنه شاذ أو تفرد به.

قال أبو عبد الله الحاكم: هذه الأحاديث الأفراد الغرائب، التي يرويها الثقات العدول، تفرد بها ثقة من الثقات، وليس لها طرق مخرجة في الكتب، مثل: حديث العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «إذا انتصف شعبان فلا تصوموا، حتى يجيء رمضان».

وقد خرَّج مسلم أحاديث العلاء أكثرها في الصحيح، وترك هذا وأشباهه، مما تفرد به العلاء عن أبيه عن أبي هريرة[1]، وكذلك حديث أيمن بن نابل المكي عن أبي الزبير عن جابر بن عبد الله أن رسول الله ﷺ كان يقول في التشهد: «بسم الله وبالله»[2]، وأيمن بن نابل ثقة، مخرج حديثه في الصحيح للبخاري، ولم يخرج هذا الحديث إذ ليس له متابع عن أبي الزبير من وجه يصح[3].

مثال في الرجال:

ومن عجيب أحوال النقّاد، وبراعتهم في ما انتدبوا له، ونصحهم للسنّة النبوية أنهم ما أخلوا راوياً من جرح أو تعديل، بل أشد من ذلك كشفوا زيف من ادَّعى سماعاً لكتاب محفوظ، مبالغة في النصح للسنّة.

من ذلك أنَّ زيد بن يحيى بن أحمد (ت ٦٢١هـ)، من أهل الأزج، له سماعات كثيرة، منها الثابت ومنها المدخول، ففرَّق العلماء هذا من هذا ومازوه.

---

(١) حديث العلاء المذكور من مفرداته، قال النسائي: لا نعلم أحداً روى هذا الحديث غير العلاء، وعن الإمام أحمد: هذا الحديث ليس بمحفوظ. (نصب الراية، للزيلعي ٢/ ٤٤١، فيض القدير ١/ ٣٠٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٢٦٧).

(٣) المدخل إلى الإكليل ص ٧٠، بتحقيقي وشرحي.

قال السمعاني: كان يكشط اسم أخيه عبد المنعم من طباق السماع، ويكتب اسمه موضعه بقلم غليظ ودواة ردية، فعل ذلك على عدة أجزاء من أصول أخيه(١).

فيا لله العجب، قوم ما خفي عليهم من زاد اسمه في طباق السماع، وفضحوا أمره، وزيَّفوا حاله، أيظن فيهم بعد ذلك أنهم أخلُّوا بحفظ السنَّة، وما عرفوا صحيحها من ضعيفها، وأنه خفي عليهم حديث لفق بالنبي ﷺ ووضع عليه.

وقد يوجد من المنتسبين إلى الملة من يقول ذلك، قلقل الله أنيابهم، وأراح الأمة منهم.

الشبهة الثانية: تقييد السنة:

مما يوردونه على قليلي الفهم والعلم في الاحتجاج لباطلهم، مسألة تقييد السنّة النبويّة.

قالوا: إن السنّة لم تدوّن زمن قائلها، ودُوِّنت في عصور متأخرة من القرن الثاني والثالث، وبين هذين العصرين ـ عصر النشوء وعصر التدوين ـ هوَّة زمنية سحيقة، يضعف فيها الصحيح، ويصحح فيها الضعيف، وتنقطع دونها أعناق المطي، فتضمَّن طعنهم هذا أمرين:

الأول: أنَّ السنّة لم تدوّن زمن النبي ﷺ.

الثاني: أنَّ بين زمني النشوء والتدوين انقطاع يتقَوَّلُ فيه من شاء ما شاء.

---

(١) ذيل تاريخ بغداد ١٩/ ١٢٠، وانظر فيه مثالاً آخر نحو هذا ١٩/١٣٨ ـ ١٣٩، وكذلك ١٩/ ١٥٧.

أصل هذه الشبهة:

قال مقيده ابن فارس عفا الله عنه: هذه أيضاً إحدى مخازي الرافضة، وبعض هناتهم، فقد تتبعت أصلها فإذا هي رافضية بحتة، كان ممن شهرها وألبسها لباساً حسناً ليضل بها الرعاع؛ الأصولي الفقيه سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي، وكان لوناً عجيباً ضمَّ كثيراً من التناقضات، وقد ترجمه ابن رجب الحنبلي، وذكر أنه وقف له على شرح للأربعين النووية على طريقة القوم، فيه طوام، وقال: له فيه دسائس[(١)].

ثم ذكر من جملة الدسائس تلك؛ زعمه أنَّ من أسباب الخلاف الواقع بين العلماء تعارض الروايات والنصوص، وتضارب دلالاتها، ثم أعاد السبب في ذلك ـ على ما نقله عن بعض الناس ـ إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، لأنه منع الصحابة من الكتابة والتدوين، بل ومن التحديث أيضاً!

قال الطوفي: وذلك أن الصحابة استأذنوه في تدوين السنة من ذلك الزمان، فمنعهم من ذلك، وقال: لا أكتب مع القرآن غيره، مع علمه أن النبي ﷺ قال: اكتبوا لأبي شاه خطبة الوداع، وقال: قيدوا العلم بالكتابة،

---

(١) ذيل طبقات الحنابلة ٣٠٣/٤. وقد يظن ظان بابن رجب داء المعاصرة، ويبرأ ساحة الطوفي مما ترجمه به، وأيًّا كان؛ فقد يجد ابن رجب في ما يعلقه على الترجمة متنفساً يتوصل به إلى الطعن بالرجل كما يريده، ولكن أن ينقل من كتبه شيئاً، فلا أجسر أن أتهم ابن رجب بالمزايدة والتحريف والتبديل، فإن كان الطوفي ثقة فابن رجب أوثق، ولسنا نبرىء رجلاً بما يوقع التهمة على آخر.
ولعل مما يستدل به على تشيعه أنه كان يثبت نسبة نهج البلاغة للإمام علي، ويقول: لا يستطيعه إلاَّ قائله، قال ذلك في شرحه على معلقة امرؤ القيس الكندي، وهو مطبوع.

قال: فلو ترك الصحابة يدوِّن كل واحد منهم ما روى عن النبي ﷺ لانضبطت السنّة، ولم يبق بين آخر الأمة وبين النبي ﷺ إلاَّ الصحابي الذي دون روايته، لأنَّ تلك الدواوين كانت تتواتر عنهم إلينا كما تواتر البخاري ومسلم[1].

الرد على الرافضة:

وهذا الذي ذكره شَغَب رافضي، وشنشنة نعرفها منهم، وهو باطل مغلَّف بشيء من الحق، ومطلي بلون النصح للأمة والشفقة عليها، وقد كان عمر رضي الله عنه أشفق وأرحم.

ونقول: نعم، قد منع عمر من ذلك، وأخذ على أيدي محدثي الصحابة كأبي هريرة وابن مسعود، ليس بنية ضياع السنّة، وتضليل الأمة، فهذا أمر لا يستطيعه عمر ولا غير عمر، بعد أن أكمل الله الدين، وحفظ لنا الذكر المبين، ومعاذ الله أن يجسر هذا الخاطر الشيطاني على قلب عمر، وهو الذي يخالفه الشيطان في الدرب، ولكن لنية أخرى سامية، ورغبة عمرية ملهمة، فيها من التوقي والحذر من الزلل والخطأ على النبي ﷺ ما جعله قبلة المتثبتين، وغاية الخلفاء من بعده.

وكيف يصح في الأذهان مثل هذا، وقد حدَّث هو بأحاديث، وحُدِّث بأحاديث، وكان عصره عصراً خالياً من التقول على النبي ﷺ، سالماً من الزيادة والنقصان، مما جعل معاوية بن أبي سفيان إبان خلافته ينهى عن كل حديث سوى حديث حُدِّث زمن عمر.

نهي معاوية عن التحديث بغير الأحاديث العمرية:

عن حماد بن زيد عن رجاء بن أبي سلمة، أنبأنا إسماعيل بن عبيد الله

---

(١) المصدر السابق.

قال: إن معاوية نهى أن يحدَّث عن رسول الله ﷺ إلاَّ حديث ذكر على عهد عمر فأقرَّه عمر، إنَّ عمر كان قد أخاف الناس في الحديث عن رسول الله ﷺ[1].

وعن عبد الله بن عامر اليحصبي قال: سمعت معاوية بن أبي سفيان يحدث وهو يقول: إياكم وأحاديث رسول الله ﷺ، إلاَّ حديثاً كان على عهد عمر، وإن عمر رضي الله عنه كان أخاف الناس في الله عزَّ وجلّ[2].

فهل بعد هذا يصح عند من له مسكة عقل، وعند من في قلبه جذوة نور، أن يقول: أنَّ عمر كان سبب ضياع السنّة واختلاطها؟ سبحانك هذا بهتان عظيم.

وقد كان عمر يريد أن يكتب السنة، وهَمَّ بذلك، ثم خار الله له.

أخرج السِّلَفي في الطيوريات بسند صحيح[3] عن ابن عمر عن عمر أنه أراد أن يكتب السنن، فاستخار الله شهراً، فأصبح وقد عزم له، ثم قال: إني ذكرت قوماً كانوا قبلكم كتبوا كتاباً فأقبلوا عليه وتركوا كتاب الله.

ولأجل هذه الخشية على الأمة أمر أبو بكر الصدِّيق رضي الله عنه بحرق صحيفة كان كتبها.

رُوي عن عائشة رضي الله عنها قالت: جمع أبي الحديث عن رسول الله ﷺ، وكانت خمسمائة حديث، فبات ليلته يتقلَّب كثيراً فلما أصبح قال: أي بنية هلمي الأحاديث التي عندك، فجئته بها، فدعا بنار فحرقها،

---

(١) الكامل، لابن عدي ١/ ١٩.

(٢) المسند ٤/ ٩٩، صحيح مسلم ح ١٠٣٧، المعجم الكبير ١٩/ ٣٧٠، معجم الصحابة، للبغوي ٥/ ٣٧٥.

(٣) كما قال ذلك السيوطي في تاريخ الخلفاء ص ١١٠.

وقال: خشيتُ أن أموت وهي عندي، فيكون فيها أحاديث عن رجل قد ائتمنته ووثقت به، ولم يكن كما حدثني، فأكون قد نقلت ذاك[1].

إذاً، لحكمة أرادها الله عزَّ وجلّ لم يستتم ما أراده هذان الراشدان، كيف وقد اختلف الصدر الأول في المكتوب باتفاق، المحصورة آياته وسوره، وهو القرآن الكريم، حتى أوشك أن يدب بينهم شر، فناشد ناصحُ الخليفة: أدرك المؤمنين قبل أن يختلفوا كما اختلفت اليهود والنصارى، هذا والقرآن محصور بين دفتين كما أسلفت، معلوم ناسخه من منسوخه، فكيف لو كتب كل صحابي ما سمع من النبي ﷺ ثم اتخذه أصحابه ديناً يوالون عليه، ويتعصبون له، لكانوا اختلفوا كاختلاف اليهود والنصارى بل أشد، ويأبى الله ذلك.

وكان ابن عباس ينهى عن كتابة العلم وقال: إنما ضل من كان قبلكم الكَتب[2].

ولك أن تتوهم ما لو كتب صحابي المنسوخ ولم يدر بالناسخ، ثم اتخذ مَنْ بعده ذلك ديناً، ولا تعجب فهذا أمر وقع من الكبار؛ فإلى أن مات

---

(١) رواه الحاكم وساقه الذهبي بإسناده عنه في تذكرة الحفاظ ١/٥، وقال: لا يصح.
قلت: في إسناده رجلان مختلف فيهما:
الأول: محمد بن موسى البربري، قال الدارقطني: ليس بالقوي، وقال الذهبي: شيخ معروف إخباري علاَّمة، توفي سنة ٢٩٤ (الميزان ٤/ ٥١).
والثاني: موسى بن عبد الله بن حسن العلوي، وثقه يحيى بن معين، وقال البخاري: فيه نظر (الميزان ٤/ ٢١١)، فليس الأثر بشديد الضعف، بل يستأنس به، ولذلك ذكرته.

(٢) تقييد العلم ص ٤٣، من طريق ابن سعد (١/ ١٦٩ الجزء المفقود).

ابن مسعود رضي الله عنه وهو يطبق يديه في الركوع، كأنه ما رأى النبي ﷺ يضع يديه على ركبتيه، بل ذهب إلى أكثر من ذلك، ذهب إلى أن المعوذتين ليستا من الكتاب، ناقضه الحبر المقرىء أُبيّ بن كعب فأثبت في مصحفه افتتاح دعاء القنوت...[1]، وهكذا مما يطول سرده.

قال أبو محمد ابن حزم: وجدناهم ـ أي الصحابة رضوان الله عليهم ـ يقرون ويعترفون بأنهم لم يبلغهم كثير من السنن... ثم ساق أمثلة لما جهله بعضهم وعلمه البعض الآخر[2].

ثم لو دوّنوا كل ما عندهم وحفظوه للمتأخِّرين، لألغيت الرحلة في طلب الحديث، ولعدمت تلك الصفحات المشرقة في ديوان أهل الحديث، المحرقة لافتراءات المضلِّين، ولأصبحت أُمَّتنا أُمَّة متواكلة، واطية الهمّة، قليلة العزم، وبعد ذلك كله ـ وأشد منه ـ لحَمَل العلم من ليس له بأهل.

وقد نعى الأوزاعي العلم لما كتب، وتيسَّر حصوله على البرّ والفاجر، وتمنّى أن لو قطعت الأصابع في الكتابة، وقال:

كان هذا العلم شريفاً إذ كان من أفواه الرجال يتلقونه ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره، وصار إلى غير أهله[3].

وفي لفظ: إن هذا العلم كان كريماً تلقاه الرجال، فلما صار في الكتب

---

(١) انظر في الاعتذار عنهما ما كتب أبو محمد بن قتيبة في تأويل مختلف الحديث ص ٢٦.
وهذا الكتاب من كتب الذب عن السنة وأهلها، كشف فيه أبو محمد شبه ومساوىء شانئي السنة وأعدائها، وانتصر لأهل الحديث منهم، فحري بطالب العلم أن يوليه عنايته، ليتعلم منه كيفية الدفاع عن السنة.

(٢) الإحكام ١/١٥١.

(٣) سنن الدارمي ١/١٢١، جامع بيان العلم وفضله ١/٢٩٠.

صرت تجده عند العبد والأعرابي[1].

ولسنا والله نكره انتشار العلم، وفشو المعرفة، ولكن الذي نكرهه أن يتطاول السفلة عليه، ويتخوَّض فيه من الرعاع من لا لب له، ويتقوَّل فيه كل ذي لسان بما يريد.

قال ابن فارس: ثم إنه قد وجد من الصحابة من كتب، ليس في زمن عمر بل قبله بأزمان، أمثال عبد الله بن عمرو بن العاص وغيره، وسيأتي بيان ذلك قريباً، ثم لا تنس أن القوم كان لهم من الأمية نصيب، وكانوا أصحاب حفظ، كعامة العرب، وكما قال ابن عباس رضي الله عنهما: كنا نحفظ الحديث، والحديث يحفظ عن رسول الله ﷺ[2].

قال ابن رجب: إنَّ تدوين السنّة أكثر ما يفيد صحتها وتواترها، وقد صحت بحمد الله، وحصل العلم بكثير من الأحاديث الصحيحة المتفق عليها أو أكثرها لأهل الحديث العارفين به من طرق كثيرة، دون من أعمى الله بصيرته لاشتغاله عنها بشبه أهل البدع والضلال، والاختلاف لم يقع لعدم تواترها، بل وقع من تفاوت فهم معانيها، وهذا موجود سواء دُوِّنت وتواترت أم لا، وفي كلامه ــ أي الطوفي ــ إشارة إلى أن حقها اختلط بباطلها ولم يتميز، وهذا جهل عظيم[3].

قال مقيده ابن فارس عفا الله عنه: عوداً إلى جزئي الشبهة، لنكشف زيفها، ونبين بهرجها، نقول والله المستعان:

أولاً: نفي التدوين مطلقاً زمن النبي ﷺ شغب ومكابرة، وادِّعاء

(١) الكامل، لابن عدي ١/٨٩.

(٢) الكامل، لابن عدي ١/٤٨.

(٣) ذيل طبقات الحنابلة ٤/٣٠٣.

لا برهان عليه، بل قام البرهان على ضده، وصح أن النبي ﷺ كتب، أعني: أمر بالكتابة، وصح أيضاً أن بعض الصحابة كتبوا، كما سأبسطه في فصل لاحق.

ونحن نقول: هذا القرآن ما جُمع في زمن النبي ﷺ ولا في حياته، بل مفرقاً كان في صدور الحفاظ، ورقاع الكتبة، حتى كتبه المقرىء الشاب الصاحب: زيد بن ثابت رضي الله عنه، بأمر من إمامَي الهدى أبي بكر وعمر، فكتبه على الرقاع واللخف، فكانت عند أم المؤمنين حفصة، حتى خلافة الراشد عثمان بن عفان رضي الله عنه، فنسخ منها مصاحف أرسلها إلى الأمصار، ولم يكن هذا التأخر في نسخ القرآن وجمعه، سبباً في ضياعه، ولا كانت قلة نسخه سبباً في اختلاف النسخ من بعد، نعم كان للوحي القرآني كتبته وحفظته زمن النبوة، وكذا كان للسنة كما ستراه في ما تستقبل من الكلام.

ثانياً: سني الانقطاع المزعومة لا يصح للمعترض أن يستدل بها على دعواه من وجهين اثنين:

الأول: ما قدمناه في الجواب السابق أن بعض الصحابة كتب، وكذا كثير من التابعين كانت له نسخ حديثية، سيأتي ذكر بعضها، وعليه فلا انقطاع بين النشوء والتدوين، إلاَّ على نحو ما حصل للقرآن الكريم، فليتفوَّهوا بذلك في القرآن، ويقولوا بانقطاعه حتى يخرجوا من الدين!

الثاني: لو سلَّمنا جدلاً أنَّ هناك انقطاعاً بين الزمنين، فلا يصح استدلالهم أيضاً، لما علم أنهم ما كانوا يقبلون الحديث مرخياً على عواهنه، ومرسلاً بلا زمام أو خطام، أعني: أنهم كانوا لا يقبلون إلاَّ ما أسند لهم من الحديث، فقد كان الرجل إذا قال: قال رسول الله ﷺ، لا يرفعون به رأساً حتى يسمِّي مَن حدَّثه.

وهذا التشدُّد في القَبول بدأ قديماً، في زمن صاحب السنة ﷺ، كما في الأعرابي الذي أتى النبي ﷺ فقال له: إن رسولك أتانا فزعم أنك رسول الله. . . الحديث.

ثم كان الصحابة بعد يتشددون بالرواية، وفِعل عمر ـ الذي احتج به الرافضي ـ من هذا القبيل، وسيأتي بعض ذلك قريباً بإذن الله تعالى.

وهذا جانب ـ أعني اهتمامهم بالأسانيد وإرشادهم إليها ـ استوعبه كل من كتب في شيء من علوم الحديث، لذا لو رمت جمع أقوالهم فيه لشقّ عليّ، وطال عليك، ولكن أرشدك إلى بعض ذلك، وحسبك من القلادة ما أحاط بالعنق:

عن طاوس عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لبشير بن كعب، وبشير يحدِّثه: عُد لحديث كذا وكذا، فقال له بشير بن كعب: ما أدري عرفت حديثي كله وأنكرت ذا، أو أنكرت حديثي كله وعرفت ذا؟ قال ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله إذ لم يكن يُكْذَب عليه، فأما إذ ركب الناس الصعب والذلول تركنا الحديث عنه[1].

وعن مطر الوراق في قوله عزَّ وجلّ: ﴿أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾، قال: إسناد الحديث[2].

وعن سعيد بن عمرو بن أبي سلمة، ثنا أبي قال: سمعت مالك بن أنس يقول في قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾﴾، قال: قول الرجل حدثني أبي عن جدي[3].

---

(١) الكامل، لابن عدي ١/ ٤٨.

(٢) رواه الرافعي في التدوين ٤/ ١٢٩.

(٣) رواه الحاكم في أول المدخل إلى الإكليل ح ٢.

الربيع بن سليمان قال: سمعت الشافعي رحمه الله يقول: مثل الذي يطلب العلم بلا حجة، مثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب فيها أفعى تلدغه وهو لا يدري. وفي رواية عن الربيع: مثل الذي يطلب الحديث بلا إسناد، وفي لفظ: من لم يسأل من أين فهو كحاطب ليل، يحمل على ظهره حزمة حطب، فلعل فيها أفعى تلدغه[١].

عبد الصمد بن حسان قال: سمعت سفيان الثوري يقول: الإسناد سلاح المؤمن، فإذا لم يكن معه سلاح، فبأي شيء يقاتل؟[٢].

العباس بن محمد الدوري قال: سمعت قُراداً أبا نوح يقول: سمعت شعبة يقول: كل علم ليس فيه حدثنا أو أخبرنا فهو خَلٌّ وبَقل[٣].

صالح بن حاتم بن وردان قال: سمعت يزيد بن زريع يقول: لكل دين فرسان، وفرسان هذا الدين: أصحاب الأسانيد[٤].

واشتهر عن الإمام الزهري الكلمة السائرة: ما هذه الأحاديث التي تأتون بها، ليس لها خطم ولا أزمة، وفي رواية: ما لأحاديثكم ليس لها أزمة ولا خطم، يعني الإسناد[٥].

وقال الشافعي: قال ابن عيينة: حدث الزهري يوماً بحديث، فقلت: هاته بلا إسناد، فقال: أترقى السطح بلا سُلَّم[٦].

---

(١) الكامل، لابن عدي ١/ ١١٥، والخبر مشهور عن الشافعي.
(٢) كتاب المجروحين من المحدثين والضعفاء والمتروكين، لابن حبان ١/ ٢٧.
(٣) المجروحين، لابن حبان ١/ ٩٢، والكامل، لابن عدي ١/ ١٣٤.
(٤) المجروحين، لابن حبان ١/ ٢٧.
(٥) الكامل ١/ ٥٧.
(٦) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤٧.

عن عبد الله بن سلمة بن أسلم[1] قال:

ما كنّا نتهم أحداً يكذب على رسول الله ﷺ متعمداً، حتى جاء أهل المشرق فحدثوا عن أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا عندهم بأحاديث لا نعرفها، فالتقيت أنا ومالك بن أنس، فقلت: يا أبا عبد الله، والله إنه لينبغي لنا أن نعرف حديث رسول الله ﷺ ممن هو؟ وعمن أخذنا؟ فقال: صدقت يا أبا سلمة، فكنت لا أقبل حديثاً حتى يسند لي، وتحفظ مالك بن أنس الحديث من أيّامئذ، فجئت عبد الله بن الحسن في السويقة، فقال لي: يا ابن سلمة بن أسلم، ما بلغني أنك تحدث، تقول: حدثني فلان عن فلان؟ قلت: بلى، خلط علينا شيعتكم من أهل العراق، وجاءونا بأحاديث عن بعض أصحاب النبي ﷺ، فحدثته بما حفظت، فعجب له وقال: أصبت يا ابن أخي، فزادني في ذلك رغباً[2].

خطورة الشبه الواردة من أهل الملة:

وبعد؛ فإن الشبه الواردة على الدين، الطاعنة في أصوله، تمجها نفوس المسلمين، وتلفظها أسماعهم ــ وإن كانت مَطلية بزخرف القول، ومحلاة بفصيح البيان ــ إذا كانت صادرة من رأس زنديق مشهور بزندقته، أو صليبي كافر معلن بالحقد والضغينة، وما دام هؤلاء مصدرها، فلن تجد لهم أذناً من المسلمين صاغية، اللّـٰهُمَّ إلاَّ صاحب هوى، أو مبتغي ضلالة.

ولكنها متى صدرت عمّن لبس ثياب المسلمين، وقرأ كتابهم، وتوجه لقبلتهم، كان خطرها أفحل، وقبولها أدعى، ورواجها أحرى، وبهذا تعلم خطر أهل البدع والأهواء ــ المنشقين عما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ــ

---

(١) لعبد الله بن سلمة بن أسلم ترجمة في ميزان الاعتدال ٢/ ٤٣١.

(٢) الكفاية ص ٤٣٣.

على الدهماء، وتعلل تصدي كثيرين من أهل العلم لتفنيد آرائهم، وتزييف معتقداتهم، في مقابلة من تصدى لليهود والنصارى وأهل الملل الأخرى.

ولذا نقول: إنَّ المستغربين من أبناء أمتنا أمضى سلاحاً في جسد الأمة من الأعداء أنفسهم، وإن كانوا ربائب لهم، وخدماً لمآربهم، ولكن قد يفعل العبد ما لا يستطيعه سيده.

ومن علائم النبوة أن النبي ﷺ حذرنا منهم قبل أن يوجدوا، كما في قوله ﷺ في الحديث المشهور، حديث حذيفة بن اليمان: «قوم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا، دعاة على أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها»[1].

فهل في ذلك موعظة لهم لعلهم ينتهون؟

قال ابن الجوزي: قال أبو الوفاء علي بن عقيل الفقيه: قال شيخنا أبو الفضل الهمداني: مبتدعة الإسلام والوضّاعون للأحاديث أشد من الملحدين، لأن الملحدين قصدوا إفساد الدين من خارج، وهؤلاء قصدوا إفساده من داخل، فهم كأهل بلد سعوا في إفساد أحواله، والملحدين كالمحاصِرين من خارج، والدخلاء ـ يعني أصحاب الأهواء ـ يفتحون الحصن، فهم شر على الإسلام من غير الملابسين له[2].

قال ابن فارس عفا الله عنه: هل لأولئك المستغربين موعظة في ما قدَّمنا فيرْعَوُوا عن جهالتهم، وينتهوا عن غيِّهم، فلعله ـ إن تابوا وأنابوا ـ يُغفر لهم ما قد سلف، وإلا فقد مضت سنة الأولين.



---

(١) متفق عليه، رواه البخاري ح ٣٤١١، ومسلم ح ١٨٤٧

(٢) الموضوعات، لابن الجوزي ١/ ٢٥ ـ ٢٦.

فَصْلٌ
في اعتناء السلف الأول بالسنة وحفظها

سيرة السنّة:

سيرة السنّة النبويّة قصة متسلسلة، طويلة الحلقات، كثيرة الفصول، من الغبن لها أن أوجزها في صفحات يسيرة، ذلك لأن كل فصل منها حريّ أن تكتب فيه الكتب، وتدوَّن فيه المصنَّفات، كيف وسيرتها مرتبطة بمسيرة الدِّين الخالد، والنبي الخاتم، والأمة المختارة، وإن كان من غبنها اختزالها في وُرَيقات، فإن من ظلمها ـ وأنا أتناول جزءًا من سيرتها، وهو المختص بالحفظ ـ ألا أعرِّج على سيرتها، وأهمل تسلسل فصولها، وارتباط حلقاتها، بعضها ببعض، لذلك ارتأيت أن أكتب هذه القصة العطرة، بإيجاز أرجو ألاَّ يكون مخلاًّ، منبهاً فيه ذوي الشارة، والحرّ تكفيه الإشارة.

بَدْءُ الاعتناء بالسنة قديم، قدم السنة نفسها، وكان أول معتن بها هو الرب سبحانه وتعالى، حين أرشد إلى ضرورة الرجوع إليها، والتحاكم بها، فقال في كتابه العزيز في آيات ذوات عدد: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾، وقال: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾، وقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾، ونحو هذا من الآيات التي تعزز جانب السنة، وتشد على ساعدها.

ثم كان صاحبها ﷺ ــ بأبـي هو وأميِّ ــ أشد الخلق عناية بها، حيث بيَّن أنها عطاء من عند الله عزَّ وجلّ: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه».

ثم حذر مغبّة مخالفتها، والطعن فيها، ونهى أن يكون أحدنا ذلك الرجل: «لا ألفين أحدكم متكئاً على أريكته يقول: انظروا ما كان في كتاب الله من حلال فأحلُّوه، وما كان فيه من حرام فحرِّموه».

ثم كان الصحابة رضوان الله عليهم، فكانوا يتذاكرون الحديث فيما بينهم ويتدارسونه، ويسأل بعضهم بعضاً، قال البراء بن عازب: ما كل الحديث سمعناه من رسول الله ﷺ، كان يحدثنا بعض أصحابه عنه، كانت تشغلنا عنه رعية الإبل[1].

والمقصود أنهم كانوا يتحدثون به فيما بينهم، فالحاضر يحفظ ثم يبلغ الغائب، ومن كان منهم يمتهن لأهله كان يتناوب النزول مع بعض أصحابه، كفعل عمر وجاره الأنصاري، فقد كانا يتناوبان النزول، فينزل عمر يوماً فيأتي بخبر الوحي وغيرُه، وينزل الأنصاري يوماً فيأتيه بخبر الوحي وغيره[2].

وكذا كان عقبة بن عامر رضي الله عنه، يتناوب رعاية الإبل مع بعض أقرانه، حتى كانت نوبته يوماً فروَّحها بعشي، علّه أن يدرك طرفاً من حديث النبـي ﷺ، فأدرك شطر حديث وفاته شطر، فأنبأه به عمر.

فتفـرَّقـت السنّـة فـي صـدور حفّـاظهـا الأوائـل مـن الصحـابـة الكـرام

---

(١) المسند ٤/٢٨٣، المحدث الفاصل ص ٢٣٥، جامع الخطيب ١/١١٧، وعنده نحوه عن أنس رضي الله عنه.

(٢) الحديث في الصحيحين في تفسير قوله: إن تتوبا إلى الله، وانظر: المسند ١/٣٣.

رضوان الله عليهم، كلٌّ أخذ بحسب قابليته وملازمته، وما كان منهم أحد إلاّ وهو كالأرض الطيبة التي أمسكت الماء، وجادت بالكلأ والخير الكثير، وبعد انقطاع الوحي أدرك الموفقون منهم، وكلهم ذاك، أدركوا أهمية حفظ السنّة وأخذها عن طريق التلمذة على كبار أصحاب محمد ﷺ، وكان من أكثرهم حماساً، وأشدهم اجتهاداً، العبادلة الأربعة، ومنهم ابن عباس:

عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما توفي رسول الله ﷺ قلت لرجل من الأنصار: هلم نسأل أصحاب رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير، فقال: وا عجباً لك يا ابن عباس، أترى الناس يحتاجون إليك وفي الناس من أصحاب محمد من ترى؟ فتركت ذلك، وأقبلت على المسألة، فإن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريح عليَّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله ألا أرسلت إليّ فآتيك، فأقول: أنا أحق أن آتيك فأسألك، قال: فبقي الأنصاري حتى رآني وقد اجتمع الناس عليّ، فقال: هذا الفتى أعقل مني[1].

وكانوا يحثون أبناءهم على طلب العلم، بل ربما ماشوهم فيه، ففي صحيح مسلم عن عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت قال: خرجت أنا وأبي نطلب العلم في هذا الحي من الأنصار قبل أن يهلكوا، فكان أول من لقينا أبا اليسر.. ثم ساق حديثاً طويلاً[2].

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات ٢/٣٦٧ ـ ٣٦٨، والطبقة الخامسة من الطبقات الكبرى ١/١٣٧، والفسوي في المعرفة ١/٥٤٢، وفضائل الصحابة، لأحمد ح ١٩٢٥، والحاكم في المستدرك ٣/٥٣٨، وصححه، جامع الخطيب ١/١٥٨، وقال الهيثمي في المجمع ٩/٢٧٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) صحيح مسلم ح ٣٠٠٦.

وكان للخلفاء الراشدين أكبر دور في جمع السنة ونشرها، يتجلى ذلك بتفتيشهم عنها، وسؤالهم عن شرائدها، فكانوا لا يفتون إلاَّ بالسنن، فإذا وقعت معضلة جمع الخليفة لها أصحاب محمد ﷺ، أو أرسل من ينادي في الناس بمن عنده علم عنها، فكانت تدار في بيوتهم ومجالسهم منتديات حديثية، ومذاكرات سُنِّيَّة، تتمخض عن كثير من الأحاديث المفرقة في صدور حفاظها.

فهذا الصدِّيق تسأله الجدة ميراثها، فقال: لا أجد لك في كتاب الله شيئاً، ولا أعلم لك شيئاً في سنة رسول الله ﷺ حتى أسأل الناس، فسأل الناس، فجاء المغيرة فشهد أن النبي ﷺ قضى لها بالسدس، فقال أبو بكر متحرياً: هل سمع ذلك معك أحد؟ فقام محمد بن مسلمة فصدَّقه، فأعطاها أبو بكر السدس[1].

وهكذا كان عمر رضي الله عنه، يجمع أشياخ بدر للنوازل، وربما حضرهم ابن عباس، وسأل الصحابة عما فاته من السنة، وشهد عنده عبد الرحمن بن عوف أن النبي صلى الله عليه أخذ الجزية من مجوس هجر، فقبله عمر، وقبله أخرى في قصة الطاعون، وكان عبد الرحمن كما قال عثمان: جائز الشهادة له وعليه[2].

أما عثمان فقصته في جمع القرآن كافية في الدلالة على اعتنائه بالوحي، وتشدده في قبول الأخبار، وكذا كان رابع الراشدين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

---

(١) القصة في مسند أحمد ٤/ ٢٢٥ وغيره من رواية قبيصة بن ذؤيب.

(٢) المسند ١/ ١٩٢، ولك أن تطالع هذه المداولات العمرية في تذكرة الحفاظ للذهبي ١/ ٧ ـ ٨.

-قال الذهبي:

كان إماماً متحرِّياً في الأخذ بحيث إنه يستحلف من يحدثه بالحديث، فقال عثمان بن المغيرة الثقفي عن علي بن ربيعة عن أسماء بن الحكم الفزاري أنه سمع عليًّا يقول: كنت إذا سمعت من رسول الله ﷺ حديثاً نفعني الله بما شاء أن ينفعني منه، وكان إذا حدثني غيره استحلفته، فإذا حلف لي صدقته، وحدثني أبو بكر، وصدق أبو بكر[1].

هكذا كان الخلفاء الراشدون أيدي بناء في هيكل السنّة، مما جعل عاصمة خلافتهم ــ المدينة المنورة ــ قبلة لطلبة العلم، وملتمسي الشرف.

قال قيس بن عباد: دخلت المدينة ألتمس العلم والشرف، فرأيت رجلاً عليه بُردان، له ضفيرتان، واضعاً يده على عاتق عمر، فقلت: من هذا؟ قالوا: علي بن أبي طالب[2].

ثم تفرَّق الصحابة في الطول والعرض، فكانوا أوعية علم تمشي على الأرض، وصار الواحد منهم إماماً يُقصد، ومدرسة تُؤم، ونشأت دور الحديث في أصقاع بلاد المسلمين، في مكة على يد ابني عباس والزبير، **وفي المدينة** على يد ابن عمر، وحافظ الصحابة أبي هريرة، وجابر، وأمهات المؤمنين، وغيرهم، **وفي العراق** بمثل علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأبي موسى، وحذيفة. . . ، **وفي الشام** بمثل معاذ وأبي عبيدة وأبي ذر ومعاوية. . . ، **وفي مصر** على يد عمرو بن العاص وابنه عبد الله، وعقبة بن عامر.

وكان الصحابة من أشد خلق الله حرصاً على نشر العلم، وبذل

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١٠، قال الذهبي: إسناده حسن.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣.

الحديث لطلَّابه، سمت بهم الهمة إلى أعلى مما تظن، وهاك خبرين من واقع صحابيين تعلم بهما أي درجة بلغ بهم حب التعليم ونشر الحديث.

حرص الصحابة على نشر العلم:

الأول: صادق اللهجة، وزاهد الأمة، أبو ذر الغفاري رضي الله عنه، جاء في الحلية[1] من طريق مرثد أبي كبير عن أبيه عن أبي ذر أنَّ رجلاً أتاه فقال: إنَّ مصدِّقي عثمان ازدادوا علينا، أنغيِّب عنهم بقدر ما ازدادوا علينا؟ قال: لا، قِفْ مَا لك، وقل: ما كان لكم من حق فخذوه، وما كان باطلاً فذروه، فما تَعَدَّوا عليك جُعل في ميزانك يوم القيامة.

قال: وعلى رأسه فتى من قريش، فقال ـ أي القرشي ـ: أما نهاك أمير المؤمنين عن الفتيا؟ فقال: أرقيب أنت عليَّ؟ فوالذي نفسي بيده لو وضعتم الصمصامة هاهنا ثم ظننت أني منفذ كلمة سمعتها من رسول الله ﷺ قبل أن تحتزوا لأنفذتها.

والثاني: حافظ الصحابة أبو هريرة الدوسي رضي الله عنه، قال: لولا آيتان في كتاب الله ما حدثتكم شيئاً، إن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ﴾ هذه الآية، والآية الأخرى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ...﴾[2].

وهكذا كان التابعون من بعدهم، حملوا الراية عن الصحابة، فبلغوا أتم بلاغ، وكان ذلك منهم مشوباً بخوف من عاقبة كتمان العلم.

---

(١) ١/ ١٦٠. وأُلفت طلاب الدنيا، وجامعي الحطام إلى قراءة سيرة هذا الصاحب من كتاب الحلية، فإن فيها موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٢) أثر أبي هريرة رواه البخاري ح ١١٨، ٢٣٥٠، ٧٣٥٤، ومسلم ١٦/ ٥٣ بشرح النووي، وابن جرير ٢/ ٥٧.

دخل الحسن البصري ثم خرج، ثم قال: دخلنا فاغتممنا، وخرجنا فلم نزدد إلاَّ غمًّا، اللَّـٰهُمَّ إليك نشكو هذا الغثاء الذي كنا نحدث عنه، إن أجبناهم لم يفقهوا، وإن سكتنا عنهم وكلناهم إلى عيٍّ شديد، والله لولا ما أخذ الله على العلماء في علمهم ما أنبأناهم بشيء أبداً[1].

قال مسلم بن إبراهيم الفراهيدي: طلبت الحديث فلم أر أهل الحديث على مثل ما هم عليه اليوم، ولولا أني أقول: إنها سنة أحييها، وبدعة أميتها، لعل الله أن يكفِّر عني بعض ما أنا فيه، ما حدَّثت[2].

وهذا ابن الحطَّاب الرازي رحل وسمع ولم يجلس للتحديث كما ينبغي، فسمعه ابنه يقول وهو يُحْتَضَر: ما لي حسرة إلاَّ أنِّي أموت ولم يؤخذ عني ما سمعته على الوجه الذي أردته[3].

وكانت هذه المدارس الحديثية تؤم من طلبة العلم، وتقصد من المستفتين، فنشأت الرحلة في طلب الحديث، وصارت شعاراً لهم، وعنواناً عليهم، وصار أهل الحديث معروفين بها، فلا يترجم أحد منهم بدونها، ومن المأثور عن أبي زكريا يحيى بن معين: أربعة لا تؤنس منهم رشداً، فذكر: ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث[4].

وما كانت الرحلة في ذلك الزمان مأمونة العواقب، وما لغالبهم مطايا غير أقدامهم، وكانوا يتعرضون لخطر العدو والسباع وقطاع الطرق واللصوص وأهل المذاهب المارقة.

---

(١) المعرفة والتاريخ ٢/ ٤٥، جامع بيان العلم ١/ ١٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣١٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٩١.

(٤) الرحلة في طلب الحديث، للخطيب البغدادي ص ٤٧.

وبعد هذا كله زميلهم في الرحلة: الجوع والعطش، والعري والحفاء، والدواهي العظيمة، فمن نظر إلى حالهم، وشدة صبرهم، بعين الاعتبار، وبصر البصيرة، أدرك سر قول إبراهيم بن أدهم: إن الله ليدفع البلاء عن هذه الأمة برحلة الحديث(١).

وكانت أهداف الرحلة تتلخص في أمور: السماع والاستفادة، وطلب العلو، وهو بالأصل سنة سلفية، واختبار الرواة، والتنقيب عن الأحاديث، وتمييز الصحيح من الضعيف.

ثم عاد المرتحلون في طلب الحديث إلى ديارهم، وقد أوقروا علماً، وامتلأت جوالقهم حديثاً، ومخلاتهم كتباً، فتصدَّروا للتحديث، ليس طلباً للزعامة، ولا حبًّا للصَّدارة، فهم أبعد الناس عن ذلك، ولكن تزكية للعلم،

---

(١) الرحلة ص ٤٧، مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤٧.

ومما يصور حال هؤلاء الرَّحَلة، ما كتب أسلم بن سليمان من أبيات شعر في رحلته إلى مرو للسماع من عبد الله بن المبارك، قال (الجرح والتعديل ١/ ٢٧٥):

خلَّفت عرسي يوم السير باكية	يا ابن المبارك تبكيني برنات
خلفتها سحراً في النوم لم أرها	ففي فؤادي منها شبه كيَّات
أهلي وعرسي وصبياني رفضتهم	وسرت نحوك في تلك المفازات
أخاف والله قطاع الطريق بها	وما أمنت بها من لدغ حيَّات
مستوفزات بها رقش مشوهة	أخاف صولتها في كل ساعاتي
اجلس لنا كل يوم ساعة بكراً	إن خفَّ ذاك وإلا بالعشيَّات
يا أهل مرو أعينونا بكفكم	عنا وإلا رميناكم بأبيات
لا تضجرونا فإنا معشر صبر	وليس نرجو سوى رب السماوات

قال مقيده: رحم الله أسلم، فكأنه تكلم بلسان الجميع، ووصف أحوال المرتحلين.

وامتثالاً لأمر الله عزَّ وجلّ وأمر نبيّه ﷺ في نصوص كثيرة، كقوله: «بلِّغوا عَنِّي ولو آية»، وقوله: «نَضَّر الله امرءاً سمع منّا حديثاً فحفظه حتى بلَّغه»، وقوله: «تسمعون ويسمع منكم».

قال الحسن بن عمارة: أتيت الزهري بعد أن ترك الحديث، فألفيته على بابه، فقلت: إن رأيت أن تحدِّثني؟ فقال: أما علمت أنِّي قد تركت الحديث؟ فقلت: إما أن تحدِّثني وإما أن أحدِّثك؟ فقال: حدِّثني، فقلت: حدَّثني الحكم عن يحيى الجزار سمع عليًّا رضي الله عنه يقول: ما أخذ الله على أهل الجهل أن يتعلَّموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلِّموا، قال: فحدَّثني بأربعين حديثاً[1].

وكانوا يأملون ما عند الله عزَّ وجلّ، ويطلبون النجاة بالحديث، ويعدُّونه ـ مع الإخلاص ـ من عُدَد يوم القيامة.

جاء في ترجمة العبد الصالح النقي التقي حسين بن علي الجعفي (ت ٢٠٣) أنه كان أولاً يمتنع عن التحديث، ثم إنه رأى في المنام وكأن القيامة قد قامت، وكأن منادياً ينادي: ليقم العلماء فيدخلوا الجنة، قال: فقاموا، فقمت معهم، فقيل لي: اجلس لست منهم، أنت لا تحدث، قال: فلم يزل يحدث بعد ذلك[2].

ومن ترجمة الحافظ الكبير، العالم العابد، شيخ الإسلام: عبد الله بن مسلمة القعنبي رحمه الله، المتوفَّى سنة ٢٢١هـ، قال أبو سبرة: قلت للقعنبي: حدَّثت ولم تكن تحدِّث؟ فقال: إنِّي أُرِيتُ كأنَّ القيامة قد قامت،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٥/٣٣٨.

(٢) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ١٥١، ولها سياق آخر عند الخطيب في الجامع ١/٣٢٤ ـ ٣٢٥.

فصيحَ بأهل العلم، فقاموا وقمت معهم، فنودي بـي: اجلس، فقلت: إلهي ألـم أكن أطلب؟ قال: بلى، ولكنهم نشروا وأخفيته، قال: فحدَّثت[١].

مَن حدَّثته فأنا له عبد:

وقد بلغ الحرص بهم في النشر والتبليغ، مبلغاً عظيماً، جعل الحافظ الكبير عبد الرحمن بن منده يقول ـ حينما بلغه أن شعبة بن الحجاج قال: مَن حدَّثني فأنا له عبد ـ: أنا أقول: مَن حدَّثته فأنا له عبد[٢].

فرحمه الله على هذه النفس الباذلة للعلم، المبلغة لما سَمِعَت.

قال أبو عمر بن عبد البرّ: ولكن الله عزَّ وجلّ يبقي لهذا العلم قوماً وإن قلُّوا، يحفظون على الأمة أصوله، ويميزون فروعه، فضلاً من الله ونعمة، ولا يزال الناس بخير ما بقي الآخِر يتعلم من الأول[٣].

أبو نعيم غذاؤه في نشر العلم:

قال أحمد بن محمد بن مردويه: كان أبو نعيم في وقته مرحولاً إليه، لم يكن في أفق من الآفاق أسند منه ولا أحفظ، كان حفاظ الدنيا قد اجتمعوا عنده، فكان كل يوم نوبة واحد منهم، يقرأ ما يريده إلى قريب الظهر، فإذا قام إلى داره ربما كان يقرأ عليه في الطريق جزء، وكان لا يضجر، لـم يكن له غداء سوى التصنيف والتسميع[٤].

قال مقيده: وأما تدوين السنّة فقد بدأ قديماً، مع أول بداياتها.

وكـان أول مـن كتـب السنّـة الصحـابـة رضـوان الله عليهـم، بـأمـر مـن

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٦٢.

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١١٦٦، ذيل طبقات الحنابلة ١/ ٢٨.

(٣) جامع بيان العلم ١/ ٢١.

(٤) السير ١٧/ ٤٥٩.

النبـي الكريم ﷺ، فقد ثبت في قصة الفتح، وفي خطبة النبـي ﷺ في مكة، أن أبا شاه اليماني قام فقال: اكتبوا لي يا رسول الله، فقال ﷺ: «اكتبوا لأبـي شاه».

قال الوليد بن مسلم: قلت للأوزاعي: ما قوله اكتبوا لي يا رسول الله؟ قال: هذه الخطبة التي سمعها من رسول الله ﷺ(١).

مسألة النهي عن التدوين:

نعم، قد صح النهي عن الكتابة لأمور، منها:

أن تتميز السنة من القرآن، ولا يختلطا على حديثي العهد، فإن ثوب الإسلام وقتها كان قشيباً، وغصنه رطباً، وهذه أيضاً علة الأمر بتجريد القرآن، ولأنه ﷺ أرادهم أن يحفظوا، فالأمِّيَّة كانت مستشرية، ومن يكتب فقليل، قال ابن عباس: كنا نحفظ الحديث، والحديث عن رسول الله ﷺ يُحفظ(٢).

ولأن السنّة فيها الناسخ والمنسوخ، وهي غير منضبطة كثرة، فقد يكتب الصاحب المنسوخ ولا يدري بوجود الناسخ، فيتخذه ديناً، ويتَّخذه أصحابه من بعده كذلك، بخلاف القرآن فإنه محصور بين دفَّتين.

الرخصة في التدوين والكتابة:

ثم رُخِّص بعدُ في الكتابة، لما أُمِن ذلك كله، قال الحافظ ابن عبد البر: مَن كره كتاب العلم إنما كرهه لوجهين:

أحدهما: أن لا يتَّخذ مع القرآن كتاب يضاهى به.

---

(١) صحيح البخاري ح ٢٤٣٤، ومسلم ١٣٥٥، وانظر: المحدث الفاصل، للرامهرمزي ح ٣١٤.

(٢) مقدمة صحيح مسلم ص ١٠.

ثانيهما: ولئلاّ يتّكل الكاتب على ما كتب، فلا يحفظ، فيغفل عن الحفظ، كما قال الخليل رحمه الله:

ليس بعلم ما حوى القِمَطْرُ ما العلم إلاّ ما حواه الصدر[1]

ذكر الصحف الحديثية التي سُطِّرت في العهد النبويّ الشريف:

ليست صحيفة أبي شاه كل ما دُوِّن من السنة في العصر النبوي، بل ثمة نسخ أخرى، وصحائف مشهورة، دُوِّنت في ذلك العهد المبارك، ونحن نذكر بعضها لنبرهن على كذب من ادَّعى أن السنّة لم تدوَّن عن فم قائلها ﷺ، فمن تلك النسخ:

* صحيفة عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، وفيها بعض أحاديث، وكان لعنايته بها يقرنها بسيفه ذي الفقار.

وهذه الصحيفة مرويّة في الصحيحين من طريق إبراهيم التيمي عن أبيه قال: خطبنا علي بن أبي طالب فقال: من زعم أنَّ عندنا شيئاً نقرأه إلاّ كتاب الله وهذه الصحيفة (قال: وصحيفة معلقة في قراب سيفه) فقد كذب، فيها أسنان الإبل، وأشياء من الجراحات، وفيها قال النبي ﷺ: «المدينة حرم ما بين عير إلى ثور، فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى مُحدثاً، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً، وذمّة المسلمين واحدة، يسعى بها أدناهم، ومن ادَّعى إلى غير أبيه أو انتمى إلى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً»[2].

---

(١) جامع بيان العلم ١/ ٢٩٢ ــ ٢٩٣، وبنحو هذا التعليل أجاب الذهبي في السير ٣/ ٨١، وابن القيم في تهذيب السنن ٥/ ٢٤٥.

(٢) صحيح البخاري ح ٧٣٠٠، ومسلم ١٣٧٠، واللفظ له، والصحيفة في مسند أحمد ١/ ١٠٠، وللحافظ في الفتح ١/ ١٨٢ إشادة بها. =

* كتاب الصدقات والديات، خصيصة الصاحب عمرو بن حزم. قال أبو عمر بن عبد البرّ: وكتب رسول الله ﷺ كتاب الصدقات والديات والفرائض والسنن لعمرو بن حزم وغيره[1].

* الصحيفة الصادقة، وناسخها عبد الله بن عمرو رضي الله عنه. روى أبو قبيل عن عبد الله بن عمرو قال: كنّا عند النبي ﷺ نكتب ما يقول[2]. ولمّا شغبت قريش على عبد الله في كتابته استأمر النبي ﷺ، فقال له: «اكتب فإني لا أقول إلاَّ حقًّا»[3].

وفي لفظ: قال: يا رسول الله، إنا نسمع منك أحاديث لا نحفظها، أفلا نكتبها؟ قال: «بلى فاكتبوها»[4].

= قال مقيده: في هذا الأثر الصحيح تكذيب لمزاعم أهل الأهواء في قولهم باختصاص علي بن أبي طالب بعلم مكتوب عن النبي ﷺ، ورّثه من بعده لأبنائه البررة، وفيه أيضاً تزييف لخرافة الجفر، وأسطورة العلم المكنون.

قال خطيب السنة أبو محمد بن قتيبة الدِّينَوري: وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه، وكل ما يكون إلى يوم القيامة، قال: وهو الذي ذكره هارون بن سعد العجلي ــ وكان رأس الزيدية ــ فقال:

ألم تر أن الرافضين تفرقوا ... فكلهم في جعفر قال مُنكرا
فطائفة قالوا إمامٌ ومنهم ... طوائف سمَّته النبي المطهَّرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم ... برئت إلى الرحمن ممن تجفَّرا

(تأويل مختلف الحديث ص ٧٠ ــ ٧١).

(١) جامع بيان العلم ١/ ٣٠٣، وانظر: نصب الراية، للزيلعي ٢/ ٣٣٥، ٣٤٤، حيث فصَّل طرق هذه الصحيفة.

(٢) رواه أبو زرعة الدمشقي في تاريخ دمشق، قال الحافظ الذهبي في السير ٣/ ٨٧: حسن غريب.

(٣) رواه أحمد في المسند ٢/ ٢٠٧، الحاكم في المستدرك ١/ ١٠٥ ــ ١٠٦.

(٤) رواه أحمد في المسند ٢/ ٢١٥، والدارمي ١/ ١٢٥

قال أبو عبد الله الحاكم: هذا الحديث صحيح الإسناد، وهو أصل في نسخ الحديث عن رسول الله ﷺ[1].

قلت: فكتب عبد الله ما شاء أن يكتب، وشهد له بصحة كتابته الحافظ أبو هريرة رضي الله عنه. ففي صحيح البخاري[2] عن أبي هريرة قال: لم يكن أحد من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر حديثاً منِّي، إلاَّ ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب[3].

وقالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها لابن أختها عروة بن الزبير: يا ابن أختي، إنِّي قد أخبرت عن عبد الله بن عمرو بن العاص إنه حاج في عامي هذا، وإنه حفظ عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة ــ يعني فأته ــ، فلقيه عروة وسمع منه[4].

وكان عبد الله يسمي صحيفته تلك: الصادقة، وكان شديد الاعتناء بها، قلَّ ما كان يحدِّث إلاَّ وهي منشورة بين يديه، وكان يقول: إن سلم لي

---

(١) المستدرك ١/١٠٥.

(٢) (١/١٨٤).

(٣) قال مقيده: هذا أصل في توثيق السماعات، والإشهاد عليها، وأصل في إثبات صحة نسبة مؤلَّف ما إلى مؤلِّفه. ثم إن أبا هريرة اقتدى بأخيه عبد الله بن عمرو في الكتابة، فكتب العلم، فإذا جاءه من يريده أعطاه الكتاب فينسخ منه، ثم يقرأه عليه.

ففي شرح معاني الآثار للطحاوي ٤/٣٢٠: من طريق شعيب بن إسحاق عن عمران بن حدير عن بشير بن نهيك قال: كنت آخذ الكتب من أبي هريرة فأكتبها، فإذا فرغت قرأتها عليه، فأقول: الذي قرأته عليك أسمعته من رسول الله ﷺ؟ فيقول: نعم.

إسناده صحيح، والله أعلم.

(٤) تأويل مشكل الحديث، للطحاوي ١/١٢٨.

كتَاب الله، وهذه الصحيفة، والوَهْط، لم أبال ما ضَيَّعْتُ من الدنيا[1].

* صحيفة جابر بن عبد الله، ولم تكن من كتابته، بل من كتابة سليمان بن قيس اليشكري، إلاَّ أنها قرئت عليه. قال أبو حاتم ـ في ترجمة سليمان بن قيس اليشكري ـ : جالَسَ جابراً، فسمع منه وكتب عنه صحيفة، فتوفِّي وبقيت الصحيفة عند امرأته، فروى أبو الزبير وأبو سفيان والشعبي عن جابر، وأكثره من الصحيفة[2].

قال ابن فارس: تلك أهم الصحف التي كتبت في بدء الإسلام، وثَمَّ كتابات أخرى، كالميثاق المدني الذي سطره النبي ﷺ عهداً بين المهاجرين والأنصار لما قدموا عليهم المدينة[3]، وككتاب زيد بن ثابت الذي فيه المواريث، ولعله كتبه بعد وفاة النبي ﷺ، ولكنها نسخة حفظت للأمة هذا العلم كما رأى ذلك بعض أهل العلم.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٣/ ٨٩.
والوَهْط: بفتح فسكون، قال ياقوت: الوهط المطمئن من الأرض، .. مال كان لعمرو بن العاص بالطائف، وهو كرم كان على ألف ألف خشبة!!
قال ابن الأعرابي: عرش عمرو بن العاص بالوهط ألف ألف عود كرم على ألف ألف خشبة، ابتاع كل خشبة بدرهم، فحج سليمان بن عبد الملك فمر بالوهط فقال: أحب أن أنظر إليه، فلما رآه قال: هذا أكرم مال وأحسنه، ما رأيت لأحد مثله، لولا أن هذه الحَرَّة في وسطه، فقيل له: ليست بحرَّة، ولكنها مسطاح الزبيب، وكان زبيبه جمعه في وسطه، فمن رآه من بُعد ظنه حرَّة سوداء!! معجم البلدان ٤/ ٤٦٤.

(٢) الجرح والتعديل ٤/ ١٣٦.

(٣) وهذا الميثاق يرويه حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده (المسند ١/ ١٧١، ٢/ ٢٠٤).
وفي الكتاب: أن يعقلوا معاقلهم، ويفدوا عانيهم بالمعروف، والإصلاح بين المسلمين.

فعن جعفر بن برقان عن الزهري قال: لولا أن زيد بن ثابت كتب الفرائض، لرأيت أنها ستذهب من الناس[1]، وقال أيضاً: لو هلك عثمان وزيد بن ثابت في بعض الزمان، لهلك علم الفرائض، لقد أتى على الناس زمان وما يعلمها غيرهما[2].

ثم كان التابعون على قسمين: فأكثرهم لم يكتب، وإنما حفظ عن الصحابة، وهؤلاء كانت أحاديثهم قليلة، وآخرون كتبوا، وأمروا بالكتابة، وهؤلاء كانوا أكثر حديثاً من الأولين، وإنما انتشرت الكتابة في طبقة صغار التابعين، وتحديداً بعد سنة عشرة ومائة، أي في أواخر دولة بني أمية.

وفيها يقول الذهبي: وشرع الكبار في تدوين السنّة، وتأليف الفروع، وتصنيف العربية، ثم كثر ذلك في أيام الرشيد، وكثرت التصانيف، وألفوا في اللغات، وأخذ حفظ العلماء ينقص، ودُوِّنت الكتب، واتكلوا عليها، وإنما كان قبل ذلك علم الصحابة والتابعين في الصدور، فهي كانت خزائن العلم لهم رضي الله عنهم[3].

قال مقيده: إنما اتكلوا على الكتابة لتعدد الأسانيد، وتشعب الطرق، في كَثْرةٍ من الأحاديث، ووفرة في الرواة، فكانت الكتابة أضبط وأَصْوَن.

بل تجاوز الأمر بهم حتى أصبحت المحابر شعاراً لهم، ومن المأثور عن أمير المؤمنين في الجرح والتعديل أبي زكريا يحيى بن معين، قوله: إذا رأيت الرجل يخرج من منزله بلا محبرة ولا قلم يطلب الحديث، فقد عزم على الكذب[4].

---

(١) تاريخ الفسوي ١/ ٤٨٦.

(٢) رواه الدارمي في السنن ٢/ ٣١٤.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١٦٠.

(٤) تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٣٤.

ولصنوه ورفيق رحلته الإمام أحمد بن حنبل الكلمة السائرة مسير النيِّرين: مع المحبرة إلى المقبرة.

وكتب سليمان بن طرخان إلى ابنه يعظه: يا بني، اشتر الورق، واكتب الحديث، فإن العلم يبقى، والدنانير تذهب[1].

وقال إسماعيل بن جعفر: عجبت لمن لم يكتب الحديث، كيف تدعوه نفسه إلى مكرمة[2].

وصارت المحبرة شعارهم، ومن شعر محمد بن هارون الدمشقي فيها:

لمحبــرة تجــالسنــي نهــاري ... أحــب إلــي مــن أنــس الصــديــقِ
ورزمــة كــاغــد فــي البيــت عنــدي ... أحــب إلــي مــن عِــدل الــدقيــق
ولطمــة عــالــمٍ فــي الخــد منِّــي ... ألــذ لــدي مــن شــرب الــرحيــق[3]

مسارب صيانة السنة:

قال مقيده: ثم دُوِّنت الكتب، ووُضعت المعاجم، وصُنِّفت السنن، وعُملت المسانيد، فبدأت صولة أخرى من صولات حفظ السنة على أيدي فرسانها، **واتجه اهتمامهم في حفظ السنة وصيانتها إلى أربع مسارب:**

* الاعتناء بالإسناد الذي هو الطريق إلى المتن.
* الاعتناء بالمتن الذي هو الغاية من الإسناد.
* الاعتناء بأصول علم الرواية، ووضع المنهجية اللازمة لتحصيل هذه الأمور.
* نقد المؤلفات الموضوعة في علم الحديث.

---

(١) جامع بيان العلم ١/ ٢٤٩.
(٢) جامع بيان العلم ١/ ٢٥٦.
(٣) جامع الخطيب ١/ ١٠٦.

١ ـ أما اعتناؤهم بالإسناد:

فأصل الإسناد من خصائص هذه الأمة، كما سبق وذكرنا، قال أبو العباس ابن تيمية: وعلم الإسناد والرواية مما خص الله به أمة محمد ﷺ، وجعله سُلَّماً إلى الدراية، فأما أهل الكتاب فلا إسناد لهم يأثرون به المنقولات، وهكذا المبتدعون من هذه الأمة، من أهل الضلالات، وإنما الإسناد لمن أعظم الله عليه المنّة، أهل الإسلام والسنّة، يفرقون به بين الصحيح والسقيم، والمعوج والقويم، وغيرهم من أهل البدع والكفار إنما عندهم منقولات يأثرونها بغير إسناد، وعليها من دينهم الاعتماد، وهم لا يعرفون فيها الحق من الباطل، ولا الحالي من العاطل[١].

وقال ابن الصلاح رحمه الله تعالى: .. روينا من غير وجه عن عبد الله بن المبارك أنه قال: (الإسناد من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء)، وطلب العلو فيه سنّة. وقد روينا أنَّ يحيى بن معين رضي الله عنه قيل له في مرضه الذي مات فيه: ما تشتهي؟ فقال: بيت خالي وإسناد عالي[٢].

وقد ذكرت فيما مضى فصلاً من اعتنائهم بالإسناد، ودلالتهم عليها، وحثهم على الأخذ بها، بما يغني عن إعادته، وهذا أمر مشهور عن المحدثين، ولطالب الاستزادة مراجعة كتاب الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله الموسوم: الإسناد من الدين..

ولم يكن الإسناد مقصوداً لذاته، بل لأنه طريق معرفة صحة المتون، كما قال الإمام الناقد يحيى بن سعيد القطان: لا تنظروا إلى الحديث، ولكن انظروا إلى الإسناد، فإن صح الإسناد وإلا فلا تغتروا بالحديث إذا لم

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ٩.

(٢) المقدمة ص ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

يصح الإسناد. ولذلك كان المشهور عنهم رد المرسل، وإنما كان قَبوله قول طائفة من الفقهاء لا المحدثين، وهؤلاء عن هذه الصنعة غرباء.

قال أبو إسحاق الطالقاني: سألت ابن المبارك، قلت: الحديث الذي يروى مَن صلَّى عن أبويه؟ فقال: مَن رواه؟ قلت: شهاب بن خراش، فقال: ثقة، عمَّن؟ قلت: عن الحجاج بن دينار، فقال: ثقة، عمَّن؟ فقلت: عن النبي ﷺ، فقال: إنَّ بين الحجاج بن دينار وبين النبيّ ﷺ مفازة تنقطع فيها أعناق الإبل[١].

وطلب رجل إلى علي بن عيينة أن يحدث بغير إسناد، فقال: انظروا إلى هذا يأمرني أن أصعد فوق البيت بغير درجة.

قال صالح بن أحمد الحافظ: يعني أنَّ الحديث بلا إسناد ليس بشيء، وأن الإسناد درج المتون، به يوصل إليها[٢].

وكان اعتناؤهم في الإسناد يظهر في نحو:

تحريهم في الرجال، وعمن يأخذون، فالعلم دين ــ رعاك الله ــ، فلينظر في أهلية من يؤخذ عنه الدين.

قال محمد بن سيرين: كانوا لا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سمُّوا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ عنهم[٣].

---

(١) رواه مسلم في مقدمة الصحيح: ١/٢٠٣ ــ ٢٠٤ بشرح النووي، وقال: معنى هذه الحكاية أنه لا يقبل الحديث إلَّا بإسناد صحيح. اهـ.
وانظر: الكفاية، للخطيب ص ٤٣١.

(٢) الكفاية ص ٤٣٢.

(٣) مقدمة صحيح مسلم ص ١١، وفيها آثار كثيرة نحو هذا.

وقال مالك: إنَّ هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم، والله لقد أدركت هاهنا وأشار بيده إلى مسجد رسول الله ﷺ تسعين رجلاً كلهم يقول: قال رسول الله ﷺ، فلم آخذ عن أحد منهم حرفاً واحداً، لأنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن، ولقد قدم علينا الزهري ــ وهو شاب ــ فازدحمنا على بابه، لأنه كان من أهل هذا الشأن[1].

وكان من منهج بعض علماء الحديث ألا يروي إلاَّ عن ثقة عنده:

كحَريز بن عثمان الحمصي، قال أبو داود السجستاني: شيوخ حريز كلهم ثقات[2].

وكشعبة بن الحجاج، فارس هذا الشأن، كان يعتبر حال الرجل، فإن كان أهلاً روى عنه وإلا تركه.

وكالأسدين يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي[3]، كانا من أئمّة النّقد، فمن تركاه فلا يكاد يقبل حديثه، ومن جرحاه فلا يكاد يندمل جرحه.

وكسليمان بن حرب، قال أبو حاتم: كان سليمان قلَّ مَن يرضى مِن المشايخ، فإذا رأيته يروي عن شيخ فاعلم أنه ثقة[4]، وكذلك أبو زرعة وأبو حاتم، ولهما ذكر طويل في كتابنا هذا يأتي بإذن الله، وورث عنهم هذا النَّفَس الزكي: ابن أبي حاتم.

---

(١) الموضوعات، لابن الجوزي ١/ ٦٢، والسير، للذهبي ٥/ ٣٤٤، وقال: كان مالك انخدع بخضاب الزهري فظنه شاباً.

(٢) سؤالات أبي عبيد الآجري ٢/ ٢٤٨.

(٣) إشارة إلى قول يزيد بن هارون: وقعت بين أسدين، يحيى بن سعيد، وعبد الرحمن بن مهدي.. وسيأتي خبرهما بإذن الله.

(٤) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٣٢.

وهذا فصل يطول استقصائه، ولكنه يعلمك عن نوع من أنواع التوقي في الأسانيد، وقد تقول: ليس كل الرواة حدَّث عن ثقة، فكيف بهذا الصنف من الشيوخ؟

فهؤلاء كان للنقاد معهم شأن آخر، وكان اعتناؤهم بأسانيد هؤلاء عن طريق: تجريح الرجال وتعديلهم، وذلك أهم أوجه الاعتناء بالأسانيد، وهذا النوع من العلوم لا يوجد عند غير أهل الحديث.

قال ابن تيمية ـ معدِّداً مناقب أهل الحديث ـ: ولهم من التعديل والتجريح، والتضعيف والتصحيح، من السعي المشكور، والعمل المبرور، ما كان من أسباب حفظ الدين، وصيانته عن إحداث المفترين[1].

ثم ليس كل أحد يعتدّ بقوله في التجريح والتعديل، وللإمام الذهبي رسالة في ذكر من يعتد بقوله في ذلك، فذكر أئمة كباراً، وهؤلاء المذكورون لم يكونوا على درجة واحدة من حيث كثرة النقولات عنهم، فمنهم من تكلم في الرجل بعد الرجل، ومنهم من تكلم في عامة الرواة...

ثم تَعَرَّض هؤلاء النقَّاد لنقد، فَصُنِّفوا ثلاث فرق: متشدِّد، ومتساهل، ومتوسِّط، فيا سبحان الله أيّة عناية هذه التي هيَّأ الله للحديث، وأي رجال أوجد له، وما علمنا ولا وصلنا أنَّ علماً على وجه الأرض قد نقد كما نقد علم الحديث، أو خدم كخدمته.

نعم، ليس أهل الحديث معصومين عن الخطأ ـ وإن ادَّعى ذلك لهم ابن حزم في صورة معينة ـ ولكن الأمر كما قال الذهبي:

نحن لا ندعي العصمة في أئمة الجرح والتعديل، لكن هم أكثر الناس صواباً، وأندرهم خطأ، وأشدهم إنصافاً، وأبعدهم عن التحامل، وإذا اتفقوا

---

(١) مجموع الفتاوى ١/ ١٠.

على تعديل أو جرح فتمسك به، واعضض عليه بناجذيك، ولا تتجاوزه فتندم، ومن شذ منهم فلا عبرة به، فخلِّ عنك العناد، وأعط القوس باريها، فو الله لولا الحفاظ الأكابر لخطبت الزنادقة على المنابر، ولئن خطب خاطب من أهل البدع فإنما هو بسيف الإسلام، وبلسان الشريعة، وبجاه السنة، وبإظهار متابعة ما جاء به الرسول ﷺ، فنعوذ بالله من الخذلان[1].

قال مقيده: مستعيذاً بك اللَّـهُمَّ من الخذلان، أُكمل مشوار السنّة مع هؤلاء النقاد، فقد كانوا على قسمين: فمنهم مَن ألَّف وكتب في تعديل الرواة وجرحهم: كالقطّان، وأحمد، والبخاري، ومسلم، والنّسائي. ومنهم من نُقل عنه ذلك، وليس له كتاب مصنف فيه، وهم غالب المتقدِّمين كشعبة والأوزاعي والسفيانين.

ثم هذه الكتب المصنَّفة أيضاً على أنواع:

١ ــ فمنها كتب مختصة بالثقات، مفردة لهم، ومن أشهرها ثقات العجلي، وابن حبان.

٢ ــ ومنها كتب في الضعفاء، كالضعفاء للبخاري والنسائي، والمجروحين لابن حبان، والضعفاء للعقيلي، وأجمعها الكامل لابن عدي، والميزان للذهبي، واللسان لابن حجر.

٣ ــ ومنها كتب جمعت الصنفين، ومن أشهرها وأعظمها كتاب الجرح والتعديل، لشيخ الإسلام ابن أبي حاتم رحمه الله تعالى.

٤ ــ ومنها كتب على التاريخ، كتواريخ البخاري الثلاث، وتاريخ بغداد دار السلام للخطيب، وهو الغاية في الجودة والتحرير، وتاريخ دمشق لابن عساكر وهو من أطول المؤلفات وأعظمها، وللحاكم النيسابوري:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٢.

تاريخ نيسابور، وهو مفقود، لكنه موزع في كتب الذهبي، وفي كتاب تبيين كذب المفتري لابن عساكر نقولات منه كثيرة، فإن اعتماده كان عليه، وكذلك في طبقات الشافعية لابن السبكي.

٥ ــ ومنها كتب على الطبقات، كطبقات ابن سعد وخليفة بن خياط، وكتاب الحافظ الذهبي: سير أعلام النبلاء، فإنه موضوع على الطبقات، وهو من أوسعها وأشملها.

٦ ــ ومنها كتب في الكنى، ولأبي أحمد الحاكم الكبير[١] مؤلف في ذلك، وللمقدمي كتاب مطبوع أيضاً.

٧ ــ ومنها كتب في المدلسين، وللكرابيسي كتاب فيه، وكتاب الحافظ ابن حجر: تعريف أهل التقديس.. قبلة للطالبين.

٨ ــ ومنها كتب في المختلطين، وتمييز من روى عنهم قبل الاختلاط وبعده، ومن أشملها: الكواكب النيرات.

٩ ــ ومنها كتب في تراجم رجال كتب معينة، ككتاب رجال البخاري ومسلم، وكتاب الكمال وما تفرع منه، انتهاءً بتقريب التهذيب.

١٠ ــ ومنها كتب في الصحابة، كمعجم البغوي، وكتاب ابن عبد البر، وغيرها، وقد حرر الحافظ ابن حجر ما وقع له منهم في كتابه الإصابة.

١١ ــ ومنها كتب في ألقاب المحدثين، ومن أشهرها كتاب الحافظ ابن حجر، وللشيخ الحافظ حماد الأنصاري رحمه الله تعالى كتاب في ذلك.

---

(١) لم تنصف المصادر هذا الحافظ الكبير، ولم توله ما توجبه مكانته العلمية، وقد ترجمت له وأحصيت مشايخه في أول تحقيقي لما وصلنا من فوائده.

١٢ ـ ومنها كتب في المؤتلف والمختلف، كالإكمال للأمير ابن ماكولا العجلي، والمشتبه للذهبي، وقد أحال الضبط فيه على القلم، فما شفى من ألم، فعمل عليه ابن حجر: تبصير المنتبه...، وقد ذكر العلامة عبد الرحمن المعلمي في تقدمة الإكمال ستة وعشرين كتاباً في هذا الباب، وعرَّف بها.

٢ ـ اعتناؤهم بالمتن:

وهذا الاعتناء هو الغاية مما رأيت من تشدُّد في الأسانيد، فكانت أهم ميادينه ما يلي:

ضبط النسخ الحديثية، وتحرير اختلاف الرواة، حتى إنهم ليثبتون ما إذا كانت الرواية بالفتح أو الضم، وبالواو أو بالفاء، ولك أن تطالع أي موضع من فتح الباري لابن حجر لترى ذلك عياناً، أو صيانة صحيح مسلم من السقط للحافظ التقي ابن الصلاح، وغيرها من الكتب، وفيها كثرة.

وكانت تشتهر نسخ هي الغاية في الجودة والإتقان، والضبط والتصحيح، فكانوا يغالون في ثمنها، ويبذلون في سبيلها النفائس.

نسخة من البخاري بِصُرَّة ذهب:

من ذلك: نسخة الحافظ أبي علي الحسين بن سُكّرة الصدفي من صحيح البخاري، وكانت بخط يده، وقد ذكر الحافظ أنه طالعها وعلق منه أشياء[١]. ولا يبعد أن تكون هذه النسخة أصل الحافظ ابن حجر في شرحه للصحيح، بل صرَّح تلميذه السخاويّ بذلك، وأخبر أنها بِيعت من قِبَل بعض أهل طرابلس، وحاول هو شرائها ممن اشتراها بصُرَّة من ذهب، فأبى عليه[٢].

---

(١) فتح الباري ٤/ ٨٩.

(٢) فهرس الفهارس، للكتاني ٢/ ٧٠٧.

وكنسخة الحافظ أبي ذر الهروي راوية الصحيح، لم يزل ميمون بن ياسين المرابط حريصاً على تملكها حتى أقنع عيسى بن أبي ذر ببيعها، واشتراها منه بأضعاف قيمتها[1].

ومن أوجه هذا الاعتناء، إخراج كتب شروحات الحديث وفقهياته، وفي هذا الباب كتب جمّة أمهاتها: التمهيد والاستذكار والمحلَّى وفتح الباري، وممَّن تصدَّى لهذا الأمر من الحفّاظ، واشتهر به: ابن جرير الطبري، وابن خزيمة، وابن حبان، والطحاوي، والخطابي، والبغوي، والقاضي عياض، وابن الصلاح، وابن دقيق العيد، وابن العربي، والنووي، وابن تيمية، وابن القيِّم، والعيني، وابن حجر، ومن المتأخِّرين: الأمير الصنعاني، والحافظ الشوكاني.

ومنها أيضاً ضبط الغريب، وشرح معناه، قال أبو عبد الله الحاكم: أول من صنف في الغريب في الإسلام النضر بن شميل[2]، قال التقيّ ابن الصلاح: ومنهم من خالفه فقال: أوَّل مَن صنَّف فيه أبو عبيدة معمر بن المثنّى، وكتاباهما صغيران[3].

قلت: ممن تكلَّم على الغريب فأحسن: الإمام أبو عبيد، وإبراهيم الحربي، وابن قتيبة الدينوري، والخطابي، والزمخشري، وأوسع مؤلف فيه النهاية لابن الأثير.

ومنها أيضاً تمييز الناسخ والمنسوخ، وهو باب أعيا الفقهاء معرفته، وللشافعي رحمه الله تعالى فيه سابقة، ومن أشهر كتب الناسخ والمنسوخ: الاعتبار للحازمي رحمه الله، والكتابان مطبوعان.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ١٧٢.

(٢) معرفة علوم الحديث ٨٨.

(٣) المقدمة ص ٢٧٣.

ومنها أيضاً معرفة المصحف، وللدارقطني فيه مصنَّف مفيد[1]، لم يصلني خبره، وللخطابي رسالة: إصلاح خطأ المحدثين، صغيرة لكنها مفيدة، وكتاب العسكري مشهور في ذلك.

ومنها أيضاً معرفة المشكل، قال التقي ابن الصلاح: إنما يكمل للقيام به الأئمة الجامعون بين صناعتي الحديث والفقه، الغوَّاصون على المعاني الدقيقة.

قلت: لأبي محمد ابن قتيبة كتاب غاية في النفاسة والتحرير، رأيته مرجعاً أصيلاً من مراجع ابن تيمية رحمه الله في الأحاديث المشكلة، لا سيَّما أحاديث الصفات، وقد عابه ابن الصلاح بما لا يعيب[2].

فلا تُخدعنَّ عن هذا الكتاب، ولا سيَّما وقد حلاَّه بمقدمة طويلة دافع فيها عن الحديث وأهله، وأوقع بالكلام وأهله، وكان الإمام ابن خزيمة خِرِّيتاً في هذا الفن، وكذا الطحاوي، وله فيه كتاب حافل، والطبعة الهندية من كتاب تأويل مشكل الحديث للطحاوي مختلة جدًّا.

٣ ـ اعتناؤهم بأصول هذا الفنّ:

وهذا العلم عُرِف بعد: بأصول الحديث، أو مصطلح الحديث، ويدرسون فيه: ما يمت بعلمَي الرِّواية والدِّراية.

وجرت عادة المتأخِّرين على تعريفه بأنه: قواعد وأصول يُعرف بها أحوال الأسانيد والمتون. وللمتقدِّمين جهود في ذلك منثورة، ما ضمَّها كتاب، ولا نظمها ديوان، وتجد كلامهم مبثوثاً في تراجمهم وفي مقدّمات كتب الجرح والتعديل.

---

(١) المقدمة ص ٢٧٩.

(٢) المقدمة ص ٢٨٤.

وللحميدي رسالة في أوراق تكلَّم فيها على بعض أنواع من هذا العلم، وتجدها مفرَّقة في كفاية الخطيب[1]. ثم جاء القاضي أبو محمَّد الحسن بن عبد الرحمن بن خلَّاد الرامهرمزي، المتوفَّى سنة ٣٦٠، فوضع: المحدِّث الفاصل بين الرَّاوي والواعي، جمع بعض أبواب هذا العلم، ولم يستوعب، وهو أقرب إلى كتب الآداب منه إلى كتب الأصول.

ثم كان شيخ هذا الفن الأول: أبو عبد الله الحاكم رحمه الله (ت ٤٠٥) فألف: معرفة علوم الحديث، كما ألَّف: المدخل إلى الإكليل، أفرده لتمييز الصحيح، وتحديد أنواعه، ومعرفة الضعيف، وبيان طبقاته.

ثم كان الخطيب البغدادي (ت ٤٦٣) ــ وهو من طبقة تلاميذ الحاكم ــ فألَّف في قوانين الرواية: الكفاية، خلطه بنقول عن أئمة الأصول، فلم يكن حديثيًّا محضاً، وأفرد في آداب الرواية كتاباً أسماه: الجامع لآداب الراوي وأخلاق السامع.

ثم توالت التآليف، وتعدَّدت المصنفات، إلى أن جاء شيخ الفن الثاني أبو عمرو ابن الصّلاح فوضع رحمه الله مقدّمته المشهورة، وهي غاية في التحرير والتهذيب، وكل من أتى بعده فمِن بحره يغترف، ومن معينه يرتوي، وهو في الحقيقة اعتمد على كتب الحاكم الثلاثة: المعرفة، والمدخل إلى الإكليل، والمدخل إلى الصحيح، واستعان بكتابـي الخطيب.

وقد ذاع الكتاب وانتشر ولقي قبولاً ورواجاً، فكم من مختصر وشارح، وآخر منكِّت وناظم، فعليك بالمقدمة فإنها ناجعة، وله فيها اختيارات قابلة للتجاذب، ولكنها في الجملة كما قال هو: هذا كتاب مدخل إلى هذا الشأن، مفصح عن أصوله وفروعه، شارح لمصطلحات أهله

---

(١) انظر مثلاً: ص ٤١، ١٤٦، ١٧٥، ١٧٩، ١٨١.

ومقاصدهم ومهماتهم، التي ينقص المحدث بالجهل بها نقصاً فاحشاً، فهو إن شاء الله جدير بأن تقدم العناية به[1].

وعلى المقدّمة تنكيتات مهمّة للعراقي والزركشي وابن حجر، غلب فيها جانب التنظير الأصولي على الصبغة الحديثية.

٤ ـ نقد المؤلَّفات في أنواع علوم السنّة:

لما دوَّن العلماء السنّة كانت لهم مشارب شتى، وطرق مختلفة في تدوين هذه العلوم، وكان بعض تلك الطرق أجود من بعض، وبعضها أقرب للتوفيق من بعض، ولهم في ذلك طريقتان تتفرع عنها طرق كثيرة:

الطريقة الأولى: التدوين على المسانيد، **والثانية**: على الأبواب.

قال أبو عبد الله الحاكم: والفرق بين الأبواب والتراجم: أن التراجم شرطها أن يقول المصنف ذكر ما روي عن أبـي بكر الصدِّيق رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ، ثم يترجم على هذا المسند، فيقول ذكر ما روى قيس بن أبـي حازم عن أبـي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه، فحينئذ يلزمه أن يخرج كل ما روي عن قيس عن أبـي بكر، صحيحاً كان أو سقيماً.

فأمّا مصنِّف الأبواب فإنه يقول: ذكر ما صحَّ وثبت عن رسول الله ﷺ في أبواب الطهارة، أو الصلاة، أو غير ذلك من العبادات[2].

قلت: كلاّ، ليس شرط التدوين على الأبواب الاقتصار على الصحيح، ففي السنن المشهورة الصحيح والضعيف والحسن. وكانوا في عصر تدوين السنّة الأول يكتبون ما وقع لهم من صحيح أو ضعيف ـ غالباً ـ حتى كان أبو عبد الله البخاري فسنَّ لهم الاقتصار على الصحيح.

---

(١) المقدمة ص ٢٥٥.

(٢) المدخل إلى الإكليل ص ٥٢.

قال أبو عبد الله الحاكم: وهذه المسانيد التي صنفت في الإسلام على روايات الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، مشتملة على رواية المعدلين من الرواة، وغيرهم من المجروحين، كمسند عبيد الله بن موسى العبسي وأبي داود سليمان بن داود الطيالسي، وهما أوَّل مَن صنَّف المسند على تراجم الرجال في الإسلام.

وبعدهما أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي، وأبو خيثمة زهير بن حرب، وعبيد الله بن عمر القواريري، ثم كثرت المسانيد المخرجة على تراجم الرجال، كلها غير مميزة بين الصحيح والسقيم، وأول من صنف الصحيح: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الجعفي البخاري، ثم أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري[1].

فبدأت جولة جديدة من جولات حفظ السنّة، حمل لوائها فطاحلة الحفظ، وأئمة النّقد، وكان ميدانها تلك الكتب المدونة، وغرضها تمييز الصحيح من السقيم، والجيِّد من الرديء، واستمرَّت المعركة بين كرٍّ وفرٍّ، ومدٍّ وجزر، من عالِم يخرج للناس كتاباً، إلى آخر يتناوله بالتعقيب والاستدراك، والتصحيح والتنقيح.

وما أعلم من أمَّات كتب السنّة كتاب لم ينله هذا التصحيح والتحكيم، حتى إنَّ الصحيحين اللذين أجمعت الأمة على صحة ما فيهما بالجملة، لم يسلما من انتقاد منتقد، واعتراض معترض، ولجبل الحفظ الإمام الدارقطني كتاب مشهور في تتبُّعهما.

حتى مسند الإمام أحمد هيّأ الله له من يخدمه حق الخدمة بعد أكثر من ألف وثلاثمائة سنة، أعني جهد السيد أحمد شاكر ـ شكر الله صنيعه،

---

(١) المدخل إلى الإكليل ص ٥٠.

وجازاه عليه خير الجزاء ـ ، وكذا معاجم الطبراني الثلاث، فلاَّها الحافظ الهيثمي مع غيرها في مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، وأما السنن الأربع فشأنها أشهر من أن يذكر.

وهذا النقد العلمي والتوجُّه إليه ـ مع التأهُّل له ـ ظاهرة محمودة، وجهد مشكور، متى خلا من الهمز والطعن، والانتصار لرغبات النفس، يتحقَّق به الوعد الخالد بحفظ الآثار المحمدية، وبقاء السنّة النبويّة، صلَّى الله على محمَّد وآله وسلَّم.

انتقاد المتقدِّم لا يدلّ على فضل المتأخِّر:

وليس في هذا النقد من المتأخِّر للمتقدِّم حطّ من رتبته، ولا انتقاص من مكانته، وما للمتأخِّر إلاَّ الاستدلال عليهم بهم، حاله في ذلك ما ذكر الإمام العلاَّمة ـ الذي شرفتُ بموافقته في الاسم واسم الأب ـ أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكرياء رحمه الله ورضي عنه، إذ قال في بعض كتبه:

والذي جمعناه في مؤلَّفنا هذا مفرق في أصناف العلماء المتقدِّمين رضي الله عنهم وجزاهم عنّا أفضل الجزاء، وإنما لنا فيه اختصار مبسوط، أو بسط مختصر، أو شرح مشكل، أو جمع متفرّق[1].

وليس هذا النقد بموجب لاطراح المنتقَد، ولا لاحتلال حرمته، حاشا وكلاَّ، فنحن نعتقد فيهم، ونجلّ شخوصهم، ونبجِّل أقدارهم، ولكن الحقّ أحقّ أن يُتَّبع.

ولما كتب الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادي في تتبع أوهام بعض الحفاظ قال معتذراً:

---

(١) كتاب الصاحبي، لابن فارس ص ٥.

ولعل بعض من ينظر في ما سطرناه، ويقف على ما لكتابنا هذا ضمناه، يلحق سيىء الظن بنا، ويرى أنا عندنا للطعن على من تقدمنا، وإظهار العيب لكبراء شيوخنا، وعلماء سلفنا، وأنى يكون ذلك وبشعاع ضيائهم تبصَّرنا، وباقتفاء واضح رسومهم تميَّزنا، وبسلوك سبيلهم من الهمج تحيَّزنا، وما مثلهم ومثلنا إلاَّ كما ذكر أبو عمرو بن العلاء فيما أخبرنا به أبو الحسن عليّ بن أحمد المقرىء، أخبرنا أبو طاهر عبد الواحد بن عمر بن محمد بن أبـي هاشم، حدثنا محمد بن العباس اليزيدي عن الرياشي عن الأصمعي، قال: قال أبو عمرو: **ما نحن فيمن مضى إلاَّ كبقل في أصول نخل طوال**.

ولما جعل الله تعالى في الخلق أعلاماً، ونصب لكل قوم إماماً، لزم المهتدين بمبين أنوارهم، والقائمين بالحق في اقتفاء آثارهم، ممن رزق البحث والفهم، وإنعام النظر في العلم، بيان ما أهملوا وتسديد ما أغفلوا، إذ لم يكونوا معصومين من الزلل، ولا آمنين من مقارفة الخطأ والخطل، وذلك حق العالم على المتعلم[1]، وواجب على الثاني للمتقدم، وعسى أن يصح العذر لنا عند من وقف على كتابنا المصنف في تاريخ مدينة السلام، وأخبار محدثيها، وذكر قطَّانها العلماء من غير أهلها وواردیها، فإنا قد أوردنا فيه من مناقب البخاري وفضائله ما ينفي عنا الظِّنَّة في بابه، والتهمة في إصلاحنا بعض سقطات كتابه[2].

وهكذا فليكن المنتقد، متأدب الطبع، عف اللسان، مُهذب الكلمة، وإلاَّ فدع، فما أنتج السب إلاَّ رهقاً.

---

(١) انظر إلى هضمه حق نفسه، ومن المتكلم؟ إنه الخطيب البغدادي الذي قلَّ نوع من علوم الحديث إلاَّ وله فيه كتاب إمام لما سواه، فهل في ذلك موعظة لأشباه الأشباه..!

(٢) موضح أوهام الجمع والتفريق، للخطيب البغدادي ١/ ١٣.

وبنحو ما اعتذر به الخطيب عن التعقب والاستدراكات على الأوائل، أورد الكرماني في أول شرحه لصحيح البخاري[1] قال:

ولا أقول ذلك والله أعلم به غضًّا من مراتبهم الجليلة العليّة، ولا وضعاً من أقدارهم الشريفة السنيّة، حاشا من ذلك، كيف؛ وإني مقتبس من لوامع أنوارهم الشارقات، ملتمس من جوامع آثارهم البارقات، فهم القدوة، وبهم الأسوة، رضي الله عنهم وعن جميع أسلافنا، أئمة جابوا في تحصيلها الفلوات، ونسوا في خدمتها اللذات والشهوات، ومارسوا الدفاتر، وسامروا المحابر، فأجالوا في نظم قلائدها أفكارهم، وأنفقوا على اقتناص شواردها أعمارهم، ووقفوا لتقييد أوابدها ليلهم ونهارهم، فأخذوا وبلغوا وأصَّلوا وفصَّلوا، ومهَّدوا وأسَّسوا.

صانوها عن التحريف والفساد، وحفظوها عن التصحيف والنقص والازدياد، وكلما عرض لهم ولها شيء من الفترة ردَّ الله لها الكَرَّة، وأبدل لهم المعونة والنصرة، حتى وصلت إلينا صافية المشارع، ضافية المدارع، ورياض صحائفها تصبح ممرعة، وحياض لطائفها تضحى مترعة، فعظَّم الله أقدارهم الفاخرة، ورفع أخطارهم الشريفة في الآخرة، وأعلى درجاتهم في أعلى علّيِّين مع الذين أنعم الله عليهم من النبيِّين والصدِّيقين والشُّهداء والصَّالحين.

وبعد، فما كانوا خلال انتقادهم لتأخذهم نشوة الاستدراك، ولا لذَّة التعقيب، فتخرج بهم إلى السّفه والشّطط، وتناول الأشخاص بالجرح والثلب، بل كان من عقيدتهم: ألا يذكروا سلفهم إلاَّ بالجميل، ومن فعل غير ذلك فقد ضلَّ سواء السبيل.

---

(١) شرح صحيح البخاري، للكرماني ١/ ٣.

ولهم علينا الترحم عليهم، والترضِّي عنهم، نقول كما علَّمنا ربنا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾، موعوظين بكلمة أبي محمد التميمي، إذ قال فيما رواه القاضي عياض اليحصبي: أخبرنا أبو علي الصدفي قال: سمعت أبا محمد التميمي يقول: يقبح بكم أن تستفيدوا منّا ثم تذكرونا فلا تترحَّموا علينا[1].

فاللَّهُمَّ ارحمنا وإياهم، وتقبَّل منّا ومنهم، يا ربَّ العالمين.



(١) الغنية، للقاضي عياض ص ١٣٦، والإلماع له ص ٢٢٦، وانظر: الصلة ٢/٤٥٣.

فَصْلٌ
في المنهجيّة في الطلب والتحديث

مِن حفظ الله للسنّة أنه يَسَّر لها مَن يحرِّر أمر حفظها، ويبيِّن المنهجية الصحيحة في طلبها لمن رام ذلك وأراده.

* والسنّة مِن حيث تعلق أصحابها بها:

ــ إما أن يكون الواحد طالباً.

ــ أو يكون معلِّماً.

* وقد وضع العلماء لكل منهما خطة معينة له في ما هو بصدده:

فإن كان طالباً، فقد بيَّنوا له منهج الطلب.

وإن كان محدِّثاً فقد بيَّنوا له منهج التحديث.

وبيان ذلك يكون في كتب المصطلح عامة، أو في الكتب المفردة التي وضعها أصحابها لمعالجة هذا الأمر، ككتاب الخطيب في آداب الراوي والسامع، وكتاب ابن عبد البرّ جامع بيان العلم..

وثمة فوائد أخرى في تحديد هذه المناهج تجدها مبثوثة في سير الحفاظ والعلماء.

* * *

أوّلاً: المنهجية في الطلب

من مناهج العلماء في تصحيح طريق الطلب ما يلي[1]:

١ ـ صحح النيّة:

ممّا أرشدوا إليه، ودلوا عليه: تصحيح النيّة، وتخليصها من حظوظ الدنيا، وتحقيق الإخلاص، والحذر كل الحذر من اتِّخاذ هذا الشأن مرقاة لشؤون الدنيا الدنيّة، فالحديث ـ رعاك الله ـ عدَّة أُخروية، لا تصلح إلاَّ بتجريدها لذلك.

وكان شيبان بن يحيى يقول: ما أعلم طريقاً إلى الجنة أقصد ممن يسلك طريق الحديث[2].

إذا لم تُخلص فلا تتعَنَّ:

قال التقي ابن الصلاح: روِّينا عن حمَّاد بن سلمة رضي الله عنه أنه قال: من طلب الحديث لغير الله مُكر به، وروِّينا عن سفيان الثوري رضي الله عنه قال: ما أعلم عملاً هو أفضل من طلب الحديث، لمن أرادَ اللَّـهَ به، وروينا نحوه عن ابن المبارك.

ومن أقرب الوجوه في إصلاح النيّة فيه، ما روِّينا عن أبـي عمرو إسماعيل بن نجيد أنه سأل أحمد بن حمدان ـ وكانا عابدين صالحين ـ فقال له: بأي نيّة أكتب الحديث؟ فقال: ألستم ترون أن عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة؟ قال: نعم، قال: فرسول الله ﷺ رأس الصالحين.

ويسأل الله تبارك وتعالى التيسير والتأييد والتوفيق والسّداد، وليأخذ

---

(١) وهذا يشترك فيه العالم والمتعلم على حد سواء.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢/ ٣٣١.

نفسه للأخلاق الزكيّة، والآداب الرضيّة، فقد روِّينا عن أبـي عاصم النبيل قال: مَن طلب هذا الحديث فقد طلب أعلى أمور الدِّين، فيجب أن يكون خير الناس[١].

استدراك فوات النيّة:

قال مقيده: ما فاتك من النية فاستدركه الآن، وعجل قبل فوات الأوان، ولا تبتئس عمّا فات، فقد جاء عن جماعة من السلف أنهم طلبوا الحديث وما لهم فيه كبير نيّة، فردَّهم ببركته إلى حسن النيّة.

عن معمر بن راشد قال: لقد طلبنا هذا الشأن وما لنا فيه نيّة، ثم رَزَقنا الله النيّة بعد. وقال: إنَّ الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبـى عليه العلم حتى يكون لله[٢].

قال الذهبـي مترجماً ذلك: يطلبه أوّلاً والحامل له حب العلم، وحب إزالة الجهل عنه، وحب الوظائف ونحو ذلك، ولم يكن علم وجوب الإخلاص فيه، ولا صدق النيّة، فإذا علم حاسب نفسه، وخاف مِن وبال قصده، فتجيئه النية الصالحة، كلها أو بعضها، وقد يتوب من نيته الفاسدة ويندم.

وعلامة ذلك: أنه يقصر من الدعاوى، وحب المناظرة، ومِن قَصد

---

(١) المقدمة ص ٢٤٥، والخبر عن أبـي عاصم في جامع الخطيب ١/ ٧٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٧.

وهذا المروي عن السلف هو ما عناه السيوطي في ألفية الحديث بقوله (ص ١٥٥):

ومن أتى حدث ولو لم تنصلح ... نيته فإنها سوف تصح

فقد روينا عن كبار جُلَّه ... أبى علينا العلم إلاَّ لله

التكثر بعلمه، ويزري على نفسه، فإن تكثر بعلمه، أو قال أنا أعلم من فلان فبُعداً له[1].

وقال عون بن عمارة: سمعت هشاماً الدستوائي يقول: والله ما أستطيع أن أقول: إني ذهبت يوماً قط أطلب الحديث أريد به وجه الله عزَّ وجلّ، نقله الذهبي[2]، ثم قال: قلت: ولا أنا، فقد كان السلف يطلبون العلم لله فنبلوا وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصَّلوه ثم استفاقوا، وحاسبوا أنفسهم، فجرهم العلم إلى الإخلاص في أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: طلبنا هذا العلم، وما لنا فيه كبير نيّة، ثم رزق الله النيّة بعد[3].

وبعضهم يقول: طلبنا هذا العلم لغير الله، فأبى أن يكون إلاَّ لله. فهذا أيضاً حسن، ثم نشروه بنية صالحة، وقوم طلبوه بنية فاسدة، لأجل الدنيا وليثنى عليهم، فلهم ما نَوَوا، قال ﷺ: «مَن غزا ينوي عقالاً فله ما نوى».

وترى هذا الضرب لم يستضيئوا بنور العلم، ولا لهم وقع في النفوس، ولا لعلمهم كبير نتيجة من العمل، وإنما العالم من يخشى الله تعالى.

وقوم نالوا العلم وولوا به المناصب فظلموا وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبًّا لهم، فما هؤلاء بعلماء، وبعضهم لم يتَّق الله في علمه، بل ركب الحيل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذّ من الأخبار، وبعضهم اجترأ على الله تعالى ووضع الأحاديث، فهتكه الله، وذهب علمه، وصار زاده إلى النار.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٧/ ١٧.

(٢) السير ٧/ ١٥٢.

(٣) المعرفة والتاريخ ١/ ٧١٢.

وهؤلاء الأقسام كلهم رَوَوا من العلم شيئاً كثيراً، وتضلَّعوا منه في الجملة، فخلف من بعدهم خلف بان نقصهم في العلم والعمل، وتلاهم قوم انتموا إلى العلم في الظاهر، ولم يتقنوا منه سوى نزر يسير أوهموا به أنهم علماء فضلاء، ولم يدر في أذهانهم قط أنهم يتقرَّبون به إلى الله تعالى، لأنهم ما رأوا شيخاً يُقتدى به في العلم، فصاروا همجاً رعاعاً، غاية المدرِّس منهم أن يحصل كتباً مثمنة، يخزنها وينظر فيها يوماً ما، فيصحف ما يورده، ولا يقرره، فنسأل الله النجاة والعفو، كما قال بعضهم: ما أنا بعالم، ولا رأيت عالماً.

قال مقيده: كل هؤلاء أُتوا من جهة النيّة، فإنها لو صلحت لصلح سائر حاله، وهذا يقوله الذهبي في زمانه، وفي الناس بقية، فكيف لو أدرك أهل زماننا هذا، وقد رأينا والله كثيراً منهم يسقط في حمأة الرذيلة وأتون الفساد، وحاشا لله أن يكونوا علماء ربانيين، فما هم إلاَّ عامة في زيّ علماء، وفسَّاق في صورة زهاد، أوصلهم إلى ما هم فيه من العمامة والإمامة شهادات زور؛ ليت الأصابع كانت قطعت في كتابتها.

فالله الله بالنيّة ــ أيُّها المتعلِّم ــ تعهَّد باليها، وجدِّد خَلِقها، واصبر نفسك عليها، وسيِّرها وفق ما تمليه هذه النيّة الصالحة تصل بإذن الله، وإلاَّ:

فدع عنك الكتابة لست منها وإن سوَّدت وجهك بالمداد

ولكن متى وقف العالم مع نفسه وحاسبها فهو علامة خير، فقد كان سفيان الثوري لا يعيب العلم قط، ولا من يطلبه، قالوا له: ليست لهم فيه نية، قال: إنَّ طلبهم للعلم نيّة[1].

---

(١) جامع الخطيب البغدادي ١/ ١٥٥، ٣٣٨ ــ ٣٣٩.

مِن بركات النيّة الصالحة:

ومن بركات النيّة الصالحة، قَبول صاحبها بين الناس، وانتشار كتبه فيهم، وإنك لتعجب من كتاب شَرَّق وغرَّب، ودخل كل مسجد وبيت، قلَّ يوم تغرب شمسه إلاَّ وفي الدنيا من يقرأ منه ورقة أو ورقتين، يبدأ بالترحم على صاحبه ويختم بذلك، فأي بركة أعوَد على صاحبها من بركة النية الصالحة، وإنما عنيت كتاب الحافظ الورع الزاهد التقي الخفي شيخ الإسلام يحيى بن شرف النووي رحمه الله، الموسوم: «رياض الصَّالحين»، جعلنا الله وإياكم منهم.

ولما وضع الإمام مالك الموطأ، بادر الناس بوضع الموطآت، فقيل له في ذلك، وأين يقع الموطأ منها، فقال: ما كان لله اتصل، فبقي موطؤه وغابت موطآت سواه.

الثوري يطلب العلم بنيّة فيوفَّق للإصابة:

ومن بركات النيّة الصالحة التوفيق إلى الصواب، وتيسير الوصول إليه، كما جاء في ترجمة الإمام الورع شيخ الإسلام وأمير المؤمنين في الحديث سفيان بن سعيد الثوري رحمه الله، فإن أقرانه شهدوا له أنه طلب العلم بنيّة، فكان موفَّقاً للصواب.

عن هشام الصيدلاني قال: سمعت الحسن بن صالح قال: كنا في حلقة ابن أبي ليلى، فتذاكروا مسألة، وطلع سفيان الثوري، فقال ـ أي ابن أبي ليلى ـ ألقوها عليه، قال حسن: فجاء فجلس قريباً منِّي، فأجاب فيها، فأصاب فيها، فسمعته يحمد الله عزَّ وجلّ فيما بينه وبين نفسه.

قال حسن: فكنت أراه يطلبه بنية، أي العلم[1].

---

(١) تقدمة الجرح والتعديل ١/٥٨.

قلت: وعظته أُمّه بذلك، فحقَّق الموعظة.

قال وكيع: قالت أم سفيان لسفيان: اذهب فاطلب العلم حتى أعولك بمغزلي، فإذا كتبت عدة عشرة أحاديث فانظر هل تجد في نفسك زيادة فاتبعه، وإلاّ فلا تتعن[1]!

ابن عقيل يتهنأ بلقاء ربه:

قال ابن فارس: إلى الله نشكو كثرة المفتين، وقلَّة الإصابة والتسديد، فيا ويل الموقِّعين عن الله عزَّ وجلّ، أي حساب عسير ينتظرهم، ولو أصلحوا النية، ولزموا ما علموا، لكانوا أسعد الناس بالتوقيع عن الله عزَّ وجلّ، ولتهنّأوا بلقائه.

قال ابن الجوزي: ولما أدركت الوفاة الإمام أبا الوفاء ابن عقيل واحتُضِر، بكى النساء، فقال أبو الوفاء: قد وقّعت عن الله عزَّ وجلّ خمسين سنة ـ يعني أنه كان يوقع الفتاوى التي يبين فيها أحكام الله في الوقائع والحوادث التي تقع للناس، فكان يوقع فيها نيابة عن الله تعالى ـ فدعوني أتهنأ بلقائه[2].

ضاع حديثه فأعاده بالنيّة!

ومن أعجب ما يذكر في باب بركات النية الصالحة ما رواه الخليلي في مناقب علي بن أبي طاهر، قال: سمعت الحسن بن أحمد بن صالح يحكي عن سليمان بن يزيد، أنَّ عليّ بن أبي طاهر[3] لما رحل إلى الشام وكتب الحديث جعل كتبه في صندوق، وقيَّره، وركب البحر، فاضطربت السفينة

---

(١) السير ٧/٢٦٩.

(٢) قيمة الزمن عند العلماء، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله ص ٥٥.

(٣) هو الحافظ الثقة: علي بن أبي طاهر أحمد بن الصباح القزويني، كان أحد الأثبات، توفي سنة نيف وتسعين ومائتين.

ومـاجت، فألقي الصندوق في البحر، ثم سكنت السفينة، فلما خرج منها أقام على الساحل ثلاثاً يدعو الله، ثم سجد في الليلة الثالثة، وقال: إن كان طلبـي ذلك لوجهك وحب رسولك فأغثني بردِّ ذلك، فرفع رأسه فإذا بالصندوق ملقى عنده، فقدم وأقام برهة ثم قصدوه لسماع الحديث، فامتنع منه، قال: فرأيت النبـي ﷺ في منامي ومعه عليّ رضي الله عنه، فقال النبـي ﷺ: يا علي، مَن عامل الله بما عاملك به على شط البحر؟! لا تمتنع من رواية أحاديثي، قال: فقلت: قد تبت إلى الله، فدعا لي، وحثَّني على الرواية[1].

أبو الوقت السجزي ينتفع بحسن نيّة أبيه!

هو مسند الدنيا، وشيخ الوقت: أبو الوقت عبد الأول بن عيسى السجزي الهروي، صاحب شيخ الإسلام الهروي، وراوي صحيح البخاري عن أبـي الحسن عبد الرحمن بن محمد الداوودي.

وهو آخر أصحاب الداوودي، انتهى إليه علو إسناد البخاري وغيره من دواوين السنة، سماعه لصحيح البخاري سنة ٤٦٥، وعمره سبع، سمَّعه أبوه في خبر عظيم.

قال يوسف بن أحمد الشيرازي في أربعين البلدان:

لمَّا رحلتُ إلى شيخنا رحلة الدنيا ومسند العصر أبـي الوقت، قدَّر الله لي الوصول إليه في آخر بلاد كرمان، فَسَلَّمْتُ عليه، وقَبَّلته، وجلستُ بين يديه، فقال لي: ما أقدمك هذه البلاد؟ قلت: كان قصدي إليك، ومعوِّلي بعد الله عليك، وقد كتبت ما وقع إليَّ مِن حديثك بقلمي، وسعيت إليك بقدمي، لأدرك بركة أنفاسك، وأحظى بعلو إسنادك.

(١) الإرشاد، للخليلي وعنه الذهبـي في السير ١٤/ ٨٨.

فقال: وفّقك الله وإيّانا لمرضاته، وجعل سعينا له، وقصدنا إليه، لو كنت عرفتني حقَّ معرفتي لما سلَّمتَ عليّ، ولا جلست بين يدي، ثم بكى بكاءً طويلاً، وأبكى مَن حضره.

ثم قال: اللَّـٰهُمَّ استرني بسترك الجميل، واجعل تحت الستر ما ترضى به عنا، يا ولدي تعلم أني رحلت أيضاً لسماع الصحيح ماشياً مع والدي من هراة إلى الداوودي ببوشنج، ولي دون عشر سنين، فكان والدي يضع على يدي حجرين، ويقول: احملهما، فكنت من خوفه أحفظهما بيدي، وأمشي وهو يتأملني، فإذا رآني قد عييتُ أمرني أن ألقي حجراً واحداً، فألقي، ويخف عني، فأمشي إلى أن يتبين له تعبي، فيقول لي: هل عييت؟ فأخافه وأقول: لا، فيقول: لم تقصر في المشي؟ فأسرع بين يديه ساعة، ثم أعجز، فيأخذ الآخر فيلقيه، فأمشي حتى أعطب، فحينئذ كان يأخذني ويحملني.

وكنا نلتقي جماعة الفلاحين وغيرهم، فيقولون: يا شيخ عيسى، ادفع إلينا هذا الطفل نُركبه وإياك إلى بوشنج، فيقول: معاذ الله أن نركب في طلب أحاديث رسول الله ﷺ، بل نمشي وإذا عجز أركبته على رأسي إجلالاً لحديث رسول الله ﷺ ورجاء ثوابه.

فكان ثمرة ذلك من حسن نيّته أني انتفعت بسماع هذا الكتاب وغيره، ولم يبق من أقراني أحد سواي، حتى صارت الوفود ترحل إلي من الأمصار.

ثم ذكر قصة طويلة في سماع الشيرازي منه الصحيح وغيره، وفي خبر وفاته، وفيه: توفِّي ببغداد.. ولمَّا احتضر سندته إلى صدري، وكان مستهتراً بالذِّكْر، فدخل عليه محمد بن القاسم الصوفي، وأكبَّ عليه، وقال: يا سيدي، قال النبي ﷺ: مَن كان آخر كلامه لا إلـٰه إلاَّ الله دخل الجنّة، فرفع طرفه إليه، وتلا: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝٢٦ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٧﴾، فدهش إليه هو ومن حضر من الأصحاب، ولم يزل

يقرأ حتى ختم السورة، وقال: الله الله، وتوفِّي وهو جالس على السجادة[1].

٢ ـ الصبر على الطلب:

أرشدوا إلى الصبر على طلب الحديث، والمصابرة على ذلك، فليس شيء أحوج في تحصيله إلى الصبر وعدم الضجر من العلم، فاصبر نفسك معه، وأوقفها عليه، حتى تذوق حلاوته، وتستشعر طلاوته، عندها يهون عليك مكابدة الليالي بالسهر، وتقطيع النهار بالطلب.

وكان الزّاهد القدوة أبو سعد الحرمي (ت ٤٩١) يقول: لا يصبر على الخل إلاَّ دوده.

قال الذهبي بعد أن أورده: أي لا يصبر على الحديث إلاَّ أهله[2].

أبيات لأبي يعلى الموصلي:

قال أبو يعلى الموصلي في ذلك:

اصبر على مضض الإدلاج بالسَّحَر	وبالرواح على الحاجات والبكر
لا تعجزن ولا يضجرك مطلبها	فالنجحُ يَتْلف بين العجز والضجر
إنِّي رأيت وفي الأيام تجربة	للصَّبْر عاقبة محمودة الأثر
وقلَّ مَن جدَّ في أمر يطالبه	واستصحَبَ الصبر إلاَّ فاز بالظفر[3]

الحديث عِلمٌ ذكر:

قال مقيده: والحديث ذَكر من العلوم، لا يطيقه إلاَّ فحول الرجال، وأَلِبَّاء العقول.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٣٠٧ ـ ٣٠٩.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٢٩.

(٣) جامع الخطيب ٢/ ١٨٠.

قال الإمام الزهري لأبي بكر الهذلي: يا هذلي، أيعجبك الحديث؟ قال: نعم، قال: أما إنه يعجب ذكور الرِّجال ويكرهه مؤنَّثوهم[1].

قال العلاَّمة أبو محمد ابن قتيبة: أراد الزهري أنَّ الحديث أرفع العلم وأجلّه خطراً، كما أنَّ الذكور أفضل من الإناث، فألِبَّاء الرِّجال وأهل التميز منهم يحبُّونه، وليس كالرأي السخيف الذي يحبّه سخفاء الرِّجال، فضرب التذكير والتأنيث لذلك مثلاً[2].

ومما يُصبر على طلب الحديث استحضار الأجر المدَّخر عليه، والوثوق به، من عند الله عزَّ وجلّ.

فقد كان سفيان الثوري يُلام في الحديث، ويقال له: إلى متى وأنت تطلب الحديث؟! فيجيب بنفس المحتسب: وأي خير أنا فيه خير من الحديث فأصير إليه، إنَّ الحديث خير عدَّة الدنيا[3].

وقال سفيان: لا نزال نتعلَّم ما وجدنا مَن يعلِّمنا[4].

٣ ـ البدء بمشايخ البلد:

وأرشدوا إلى البدء على مشايخ البلد، ثم يرتحل بعدُ إذا استنزفهم، وأخَذَ ما عندهم، ويستشير في الرحلة أهل الخبرة والعلم.

وقد صنف أبو بكر الخطيب في الرحلة كتاباً حافلاً، ذكر فيه أصناف الرحلة، وقصص المرتحلين.

فأول من ارتحل من الأمة في طلب الحديث صحابة النبي ﷺ،

---

(١) المدخل إلى الإكليل ص ٤٣.
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٥٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٤٣.
(٤) الكامل، لابن عدي ١/ ٨٤

ورضي الله عنهم، كانوا يرتحلون لملاقاة النبـي ومبايعته والسماع منه، وهذه أنبل أنواع الرحلة وأشرفها، ثم صاروا يرتحلون فيما بينهم، حتى غدا هذا الأمر سنة متبعة بين أصحاب الحديث، أسوتهم فيها صحابة النبـي ﷺ، وليس أحد من أهل العلوم الأخرى ــ على كثرتها ــ رحل كما رحل أصحاب الحديث.

وكان يحيـى بن معين يقول: أربعة لا تؤنس منهم رشداً: حارس الدرب، ومنادي القاضي، وابن المحدِّث، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث[1].

وسئل الإمام أحمد: هل يلزم طالب العلم رجلاً عنده علم يكتب عنه، أو يرحل إلى المواضع التي فيها العلم فيسمع؟ فقال: يرحل، ويكتب عن الكوفيين والبصريين وأهل المدينة ومكة، يُشَامّ الناس، يسمع منهم[2].

وعنه وقيل له: أيرحل في طلب العلو؟ فقال: بلى والله شديداً، لقد كان علقمة والأسود يبلغهما الحديث عن عمر رضي الله عنه، فلا يقنعهما حتى يخرجا إلى عمر رضي الله عنه فيسمعانه منه[3].

رحلة قتادة إلى سعيد بن المسيب:

فإذا رحل إلى إنسان فلا يقْلَه سريعاً، وليتصبر معه، حتى ينال بغيته، وقد ارتحل قتادة بن دعامة السدوسي إلى سعيد بن المسيب فمكث عنده وقتاً قصيراً حاز به كل ذخائر سعيد.

---

(١) الرحلة في طلب الحديث ص ٤٧، المقدمة، لابن الصلاح ص ٢٤٧.
(٢) فتح المغيث ٣/ ٨٦.
(٣) المقدمة، لابن الصلاح ص ٢٤٦ ــ ٢٤٧.

عن معمر عن قتادة أنه أقام عند سعيد بن المسيب ثمانية أيام، فقال له في الثالث: ارحل يا أعمى، فقد أنزفتني!.

وقال سلام بن مسكين: حدَّثني عمرو بن عبد الله قال: لما قدم قتادة على سعيد بن المسيب فجعل يسأله أياماً، وأكثر، فقال له سعيد: أكل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا، وقال فيه الحسن كذا، حتى رد عليه حديثاً كثيراً، فقال سعيد: ما كنت أظن أنَّ الله خلق مثلك، فكان سعيد يقول: ما أتاني عراقي أحفظ من قتادة[1].

النسائي يستنزف قتيبة بن سعيد:

وهذا الإمام الحافظ الناقد أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي ــ صاحب السنن ــ رحل إلى قتيبة بن سعيد بن جميل الثقفي البغلاني سنة ٢٣٥، وعمره دون العشرين، فبقي عنده سنة وشهرين[2] فأكثر عنه الرواية، وحفظ النسائي له ذلك، فأخرج أول حديث في سننه من طريقه.

سِيفَنَّة لقب ابن ديزيل:

وفي الحفاظ من لُقب (سِيفَنَّة)[3]، وهو إبراهيم بن ديزيل، لُقِّب بذلك لكثرة نسخه الحديث، وكتابته إياه عن الشيوخ.

قال ابن تومرد: وإنما لُقِّبَ... بسِيفَنَّه لكثرة كتابته الحديث، بِسِيفَنَّه طائر بمصر لا يقع على شجرة إلاَّ أكل ورقها، حتى لا يبقي منها شيئاً،

---

(١) تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥٢ ــ ٣٥٣، طبقات الحفاظ ص ٥٤.

(٢) تهذيب التهذيب ١/ ٣٨.

(٣) ضبطه في القاموس بكسر السين وفتح الفاء والنون المشددة، وقال: طائر بمصر لا يقع على شجرة إلاَّ أكل جميع ورقها، ولقب... ابن ديزيل... لقب به لأنه إذا أتى محدثاً كتب جميع حديثه.

وكذلك كـان إبراهيم، إذا وقـع إلى محـدث لا يفارقـه، حتى يكتـب جميـع حديثـه[1]. ثم كان يضرب المثل بابـن ديزيل لكل مـن كتب كتابتـه، ولازم ملازمته، فقالوا في أبـي علي الحسين بن محمد بن أحمد الماسرجسي: هو سِيفَنَّة عصره في كتابة الحديث. . .[2].

٤ ـ التأدُّب مع الشيوخ:

وكانـوا يـأمرون بتوقيـر العلمـاء والتلطـف بهـم، والتواضـع معهـم، والتملق إليهم ما لم يخرج من المروءة، كما قال:

إن المعلـم والطبيـب كـلاهمـا لا ينصحـان إذا همـا لـم يُكـرمـا

فـاصبـر لـدائـك إن أهنـت طبيبـه واصبـر لجهلـك إن جفـوت معلِّمـا

وقال طاوس: إنَّ مِن السُّنَّـة أن يوقِّر العالِم[3].

تبجيل ابن عباس لأشياخه:

وكان ابن عباس يجلّ علماء الصحابة، ويتهيَّبهم، جاء عنه أنه قال: مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب عن آية فما أستطيع أن أسأله هيبة له. . .[4].

فهذا فيه: توقير الكبار وهيبتهم، وعدم التجرُّؤ عليهم[5].

---

(١) معرفة علوم الحديث للحاكم ص ٢١٣.

(٢) نقل الذهبي هذه العبارة عن الحاكم في تذكرة الحفاظ ٣/٩٥٦، وقد تصحفت هذه الكلمة في التذكرة وغيرها إلى (سفينة) عصره في كثرة الكتابة. . .، ولا معنى يستفاد لهذه الكلمة، وصوابها ما أثبت.

(٣) جامع بيان العلم ١/٢٥٩.

(٤) القصة في الصحيحين، ح ٤٩١٤، م ١٤٧٩.

(٥) ومثل هذا وقع لسعيد بن المسيب، فقد قال لسعد بن أبـي وقاص رضي الله عنه: =

وقال ابن عباس: إن كان ليبلغني الحديث عن الرجل فآتيه وهو قائل، فأتوسد ردائي على بابه، فتسفي الريح عليّ التراب، فيخرج فيراني، فيقول: يا ابن عم رسول الله، ألا أرسلت إليّ فآتيك، فأقول: أنا أحق أن آتيك فأسألك[1].

وجاء من طرق عن ابن عباس أنه كان يأخذ بركاب زيد بن ثابت، فقال له زيد: تنح يا ابن عم رسول الله ﷺ، فقال: إنا هكذا نفعل بكبرائنا وعلمائنا[2].

وما زال ابن عباس يعرف فضله حيًّا وميتاً، وهو القائل: لقد علم المحفوظون من أصحاب محمد ﷺ أنَّ زيد بن ثابت من الرّاسخين في العلم[3].

ولما مات، آوى ابن عباس إلى ظل بعد الفراغ من جنازته، وقال: هكذا ذهاب العلم، دفن اليوم علم كثير[4].

= إني أريد أن أسألك عن شيء، وإني أهابك... الحديث، رواه أحمد في المسند ١/ ٢٥٧، ومسلم ح ٢٤٠٤.

(١) رواه ابن سعد في الطبقات ٢/ ٣٦٧ ـ ٣٦٨، والحاكم في المستدرك ٣/ ٥٣٨، وصححه وأقره الذهبي، وقال الهيثمي في المجمع ٩/ ٢٧٧: رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح.

(٢) رواه الحاكم في المستدرك من طريق محمد بن عمرو عن أبي سلمة ٣/ ٤٢٣، وصححه، ورواه أيضاً من طريق ابن جريج عن عمرو بن دينار عن ابن عباس ٣/ ٤٢٨، وفيه: أنهما كانا في جنازة فلما ركب زيد أخذ ابن عباس بركابه.
ورواه الطبراني (٤٧٤٦) من طريق الشعبي عن زيد، وصححه الحافظ في الإصابة ٣/ ٥٩٤، وفيه: أنهما كانا في جنازة أم زيد..
وانظر: جامع الخطيب ١/ ١٨٨.

(٣) سير أعلام النبلاء ٢/ ٤٣٧.

(٤) المستدرك ٣/ ٣٢٩.

قال مقيده: خلف ابن عباس زيد بن ثابت في الفتيا، وأخذ جلالته، وصار يُفعل به ما كان يفعل بأستاذه، وكان سعيد بن جبير يقول: لقد كان ابن عباس يحدِّثني بالحديث لو يأذن لي أن أقوم إليه فأُقَبِّل رأسه لفعلت[١].

فهذه عاقبة حسن الصحبة، وحفظ الشيخ في مكانته، وما أحلى قول ابن عباس بعد: ذللت طالباً، وعززت مطلوباً[٢].

ذلك لأن أعزّ العلم ما كان عن ذلّ الطلب.

تحمُّل الشيوخ:

وقد يكون في الشيخ بعض زعارة، وضيق صدر، لا سيَّما من تقادم به العمر، فواجب تحمله، ولو كان كل شيخ ساءك منه خلق تركته لما استقام لك أحد بعد رسول الله ﷺ، وأفاضل الصحابة والتابعين.

وفي حكمة نابغة بني ذبيان:

ولست بمستبق أخاً لا تلمه ... على شعثٍ أي الرجال المهذب

تواضع زر بن حبيش مع أشياخه:

وهذا العالم الفاضل المعمر[٣] أبو مريم زر بن حبيش الأسدي وفد إلى المدينة لطلب العلم، وهو في عقد الستين[٤]، فجالس أصحاب

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي، للخطيب ١/ ١٩٠، وجامع بيان العلم ١/ ٤٢٦.

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي ص ١١٢.

(٣) عاش أكثر من عشرين ومائة سنة، كما يعلم هذا من ترجمته.

(٤) ذلك لأنه توفي سنة إحدى أو اثنتين وثمانين عن أكثر من مائة وعشرين، والثابت عنه، أنه قال مرة: بلغت الآن من العمر مائة وعشرين سنة، ثم اختلفوا في أكثر من ذلك.

فقال هشيم: بلغ زر مائة واثنتين وعشرين سنة، وقال أبو نعيم: مات ابن سبع وعشرين ومائة، فهو قطعاً تجاوز المائة وعشرين، وكانت وفادته إلى المدينة في =

النبي ﷺ، وأخذ عنهم، وتفقه عليهم، فربما صدر منهم في بعض الأحوال ما يؤذي من كان في سنّه، فكان يتحمَّلهم ويتودَّد إليهم.

عن عاصم عن زر قال: خرجت في وفد من أهل الكوفة، وأيم الله إن حرضني على الوفادة إلاَّ لقي أصحاب رسول الله ﷺ، فلما قدمت المدينة، أتيت أبـي بن كعب، وعبد الرحمن بن عوف، فكانا جليسيّ وصاحبـي، فقال أُبَـيّ: يا زر، ما تريد أن تدع من القرآن آية إلاَّ سألتني عنها؟[1].

وكـان ربـمـا قسى عليه أُبَـيّ بـن كعب رضي الله عنـه لكثرة سؤالـه، فـكـان زرّ يـقـول: يـا أبـا المنذر، اخفض لي جناحـك، فإنما أتمتع منك تمتُّعاً[2].

وهذا أمر لا بدَّ منه، ومن همَّته نفسه استحمل ما يجد من قسوة المشايخ، ولا بدَّ دون الشهد من إبر النحل.

= خلافة عمر، وليكن فَرَضاً في أولها، فإذا علمت أن النبـي ﷺ بُعث وَزِرّ في الخامسة والعشرين، وهاجر وزِرّ في الثامنة والثلاثين، وتوفي ﷺ وزِرّ في الثامنة والأربعين، ثم خلافة الصديق سنتان، فيكون سِنّه أول خلافة عمر أكثر من خمسين، وهو وفد إلى عمر من الكوفة، كما سيرد في النص، وتمصير الكوفة كان سنة ١٧، وقيل ١٨ وقيل ١٩، فيكون زر وفد إلى المدينة قطعاً وهو فوق الخمسين بخمس!

فانظر رعاك الله إلى هذه الهمة الوثابة، التي لا تحد بعمر، وتتحدى صروف الدهر، ثم انظر إلى هضم النفس والتواضع، فإنّ من أشياخه من الصحابة من هو أصغر منه بكثير لما أخذ عنه، وما أعلم أحداً رحل رحلته في سنه، والعجب منه كيف طلب العلم كبيراً، ثم لم يتوفاه الله إلاَّ وهو إمام في العلوم كلها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

(١) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٦٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ١٦٩.

تلطف السلف مع شيوخهم:

وكان ابن جريج يقول: لم أستخرج الذي استخرجت من عطاء إلاَّ برفقي به[1]. وكان إمام المحدثين أبو بسطام شعبة بن الحجاج يعرف لشيوخه فضلهم، ومن المأثور عنه: من سمعت منه حديثاً فأنا له عبد[2].

٥ ـ الحذر من مماراة الشيخ في الباطل:

قال مقيده: وحذَّروا من مماراة الشيخ، والتعنُّت في سؤاله، فإنَّ ذلك يحرمه الاستفادة منه.

أبو سلمة يماري ابن عباس فحرمه العلم وأفاض على عبيد الله:

وهذا العالم التابعي أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، كان يماري بعض الصحابة، فحرم الاستفادة منه، فكان لما كبر وعقل يتأسف على فواته.

قال الزهري: كان أبو سلمة يماري ابن عباس، فحرم لذلك علماً[3].

وفي لفظ: كان أبو سلمة يسأل ابن عباس فكان يخزن عنه ـ أي يحبس عنه العلم ـ وكان عبيد الله بن عبد الله يلاطفه فكان يغرّه

---

(١) جامع بيان العلم ١/ ٤٢٣.

(٢) جامع بيان العلم ١/ ٥١٢.

وفي لفظ عند الخطيب في الجامع ١/ ١٩١: كنت إذا سمعت من الرجل الحديث كنت له عبداً ما حييت.. وهذا كان يقوله من يعرف للمشايخ فضلهم، ثم عكست الآية، وانقلب البساط، وقلَّ الطلب، فكان العالم المحدث عبد الرحمن بن منده يقول: من حدثته فأنا له عبد! (تذكرة الحفاظ، للذهبي ص ١١٦٦).

(٣) جامع بيان العلم ١/ ٥١٨، والسير، للذهبي ٤/ ٢٨٩، ٢٨٨.

وفي لفظ عنده: كان كثيراً ما يخالف ابن عباس.

غرًّا[1]. وكان به بَأْو وتعالُم، وهذا كان منه في أيام الحداثة، وكان يقول لابن عباس: أنا أفقه من بال! فقال ابن عباس: في المَبارِك[2]!

وكان ربما لامته خالته من الرضاعة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها في ذلك، كما روى عمرو بن دينار عن عائشة أنها قالت لأبي سلمة وهو حدث: إنما مثلك مثل الفرُّوج يسمع الديكة فيصيح[3].

ثم أدرك أبو سلمة مغبة فعله، وأبصر سوء عاقبة أمره، ولكن حين قضي الأمر وانتهى، فكان يقول بلسان المتحسر على فوات غال أو نفيس: لو رفقت بابن عباس لاستخرجت منه علماً كثيراً[4]!

الأعمش يفرط في السماع من أنس بن مالك:

وهذا الأعمش ــ سليمان بن مهران الكاهلي ــ رأى أنساً ولم يرو عنه لأنه رآه على أمر لم يرضه الأعمش.

فعن عيسى بن يونس قال: سمعت الأعمش يقول: كان أنس بن مالك يمر بي طرفي النهار، فأقول: لا أسمع منك حديثاً، خدمت رسول الله ﷺ ثم جئت إلى الحجاج حتى ولاك، ثم ندمت، فصرت أروي عن رجل عنه[5].

أبو اليمان يترك السماع من مالك:

ونحو هذا ما وقع لأبي اليمان الحكم بن نافع الحمصي البهراني أحد

---

(١) جامع الخطيب ١/ ٢٠٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٠.
(٣) السير ٤/ ٢٩٠.
(٤) طبقات ابن سعد (الجزء المفقود) ١/ ٢١١، جامع الخطيب ١/ ٢٠٩، جامع بيان العلم ١/ ٥٢٠، والسير ٤/ ٢٨٨.
(٥) سير أعلام النبلاء ٦/ ٢٤٠.

شيوخ أبـي عبد الله البخاري في الصحيح (ت ٢٢٢)، قال محمد بن عيسى الطرسوسي: سمعت أبا اليمان يقول: صرت إلى مالك فرأيت ثَمَّ من الحجَّاب والفرش شيئاً عجيباً، فقلت: ليس هذا من أخلاق العلماء، فمضيت وتركته، ثم ندمت بعد[١].

خلف القارىء مع أبـي بكر بن عياش:

من أوعية العلم، وأئمة القراء والحديث، مع الزهادة والورع، شيخ الإسلام خلف بن هشام البزار، المشهور عند القراء بخلف العاشر، أخذ القراءة عن سليم والأعشى وغيرهما، وروى حروف عاصم عن يحيـى بن آدم عن أبـي بكر بن عياش عنه، وكان يمكنه العرض على أبـي بكر، ولكن سبق القدر فمنعه.

قال أحمد بن إبراهيم ــ ورَّاق خلف ــ: سمعت خلف بن هشام يقول: قدمت الكوفة فصرت إلى سليم بن عيسى، فقال لي: ما أقدمك؟ فقلت: أقرأ على أبـي بكر بن عيّاش، فقال: لا تريده، قلت: بلى، فدعا ابنه فكتب معه إلى أبـي بكر، ولم أدر ما كتب، فأتينا منزل أبـي بكر ــ وكان لخلف ١٩ سنة ــ فصعَّد فيَّ النظر، ثم قال: أنت خلف؟ قلت: نعم، قال: أنت لم تخلف ببغداد أقرأ منك؟ فسكت، فقال لي: اقعد، هات اقرأ، قلت: أعليك؟ قال: نعم، قلت: لا والله، لا أقرأ على رجل يستصغر رجلاً من حملة القرآن، ثم خرجت، فوجه إلى سُليم يسأله أن يردّني، ثم إنِّي ندمت واحتجت، فكتبت قراءة عاصم عن يحيـى بن آدم عن أبـي بكر بن عياش[٢].

(١) تاريخ دمشق ١٥/ ٧٦.

(٢) تاريخ بغداد ٨/ ٣٢٢ ــ ٣٢٣، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٧٩ ــ ٥٨٠.

قلت: كاد خلف أن يحظى بما لم يحظ به شيخه يحيى بن آدم، وهو العرض على أبي بكر، فإنَّ أبا بكر كان امتنع عن الإقراء قبل وفاته بدهر، ولم يقرأ عليه يحيى بن آدم، إنما روى عنه الحروف فحسب، ولو أنَّ خلف بن هشام صبر لكان عرض على أبي بكر، ولكن الله لم يشأ.

ولم يكن في أبي بكر كبر ولا بأو، فقد كان من أئمة العلم والعمل، ولكن خلفاً ظن في سؤاله استحقاراً، فأخذته نزوة الشباب، فحرمته من القراءة على هذا السيِّد.

والذين عرضوا على أبي بكر لا يبلغون عدد الأصابع، فقال المقرىء الشاب ابن وهبان الحموي:

وكان قد عَرَض على أبي بكر قبل امتناعه من العرض عليه: أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حماد، وأبو يوسف يعقوب بن محمد بن خليفة الأعشى، وعروة بن محمد الأسدي، وأبو محمد يحيى بن محمد العليمي، وأبو صالح عبد الحميد بن صالح البرجمي، وسهل بن شعيب النهمي، ولا نعلم أنَّ أحداً عرض عليه القرآن غير هؤلاء. اهـ(١).

أبو الحسن القطان يزهد في كتب ابن قتيبة:

وقريب من هذا زهادة أبي الحسن علي بن إبراهيم بن سلمة القزويني القطّان (ت ٣٤٥) في علم أبي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، صاحبِ التصانيف السائرة، فإن أبا الحسن وفد إلى بغداد ورأى ابن قتيبة، فلم يكتب عنه، فلما رجع إلى اليمن ورأى كتبه ندم، فكتبها عن أبي بكر المفسِّر عن ابن قتيبة(٢).

---

(١) من كتاب أحاسن الأخبار في محاسن أئمة الأمصار، وهو مخطوط، وموضوعه: تراجم السبعة.

(٢) الإرشاد، للخليلي ٢/٦٢٦ ـ ٦٢٧.

الصيمري يزهد في سماع سنن الدارقطني:

وهذا العلامة المتفنن الفقيه القاضي الحنفي الحسين بن علي بن محمد الصيمري، كان صدوقاً، ومن كبار الفقهاء المناظرين، وافر العقل.

قال الخطيب: قال لي الصيمري: سمعت من الدارقطني أجزاء من سننه، وانقطعت لكونه ليَّن أبا يوسف القاضي، وليتني لم أفعل، إيش ضرّ أبا الحسن انصرافي[(١)]؟

ضيِّع ورقة ولا تضيعن شيخاً:

قال أبو بكر الخطيب: إذا عزم الطالب على الرحلة فينبغي له أن لا يترك في بلدة من الرُّواة أحداً إلاَّ ويكتب عنه ما تيسَّر من الأحاديث، وإن قلَّت، فإنِّي سمعت بعض أصحابنا يقول: ضيِّع ورقة ولا تضيعنَّ شيخاً[(٢)].

كائنة ظريفة:

قدر الكاغد بقدر الشيوخ، تلك حكمة صبيانيّة، قال عباس بن كراع:

جاء صبيان إلى محمد بن غالب التمتام فقالوا: يا أبا جعفر، أخرج لنا شيئاً من الحديث، فأخرج جزءًا، فقالوا: يا أبا جعفر، أخرج القماطر، فنحن بنادرة الحديث! فقال: اكتبوا لا خيركم الله، فأخرجوا كاغداً رثًّا، فقال لهم التمتام: يا بنيَّ، إن الكاغد رخيص ببغداد، فلو كتبتموه في كاغد أجود من هذا، فقالوا: يا أبا جعفر، إنا نكتب في الكواغد على قدر الشيوخ! فقال: قوموا لا زرعكم الله[(٣)].

---

(١) تاريخ بغداد ٨/ ٧٩.

(٢) الجامع، للخطيب ٢/ ٢٢٤.

(٣) التقييد، لابن نقطة ١/ ١٤٧.

فائدة ابن أبي حاتم من دمشق:

إياك أيُّها المتعلِّم أن تحتقر الفائدة مهما كانت، وقد رحل ابن أبي حاتم إلى دمشق فكانت فائدته منها وصايا يسيرة، لو رآها بعضنا في ورقة ما رفعها إليه.

قال ابن أبي حاتم: دخلت دمشق على كتبة الحديث، فمررت بحلقة قاسم الجعفي، فرأيت نفراً جالساً حوله، وهو يتكلَّم عليهم، فهالني منظرهم، فسمعته يقول: اغتنموا من أهل زمانكم خمساً، إن حضرتم لم تعرفوا، وإن غبتم لم تفتقدوا، وإن شهدتم لم تشاروا، وإن قلتم شيئاً لم يقبل قولكم، وإن عملتم شيئاً لم تعطوا به، وأوصيكم بخمس أيضاً: وإن ظلمتم لم تظلموا، وإن مدحتم لم تفرحوا، وإن ذممتم لم تجزعوا، وإن كُذِّبتم لم تغضبوا، وإن خانوكم فلا تخونوا، قال: فجعلت هذه فائدتي من دمشق[(١)].

الثوري ضيع شيخاً فكتب عنه بواسطة:

عن أبي نعيم قال: سمعت الثوري يقول: قدمت الري وعليها الزبير بن عدي قاضياً، فكتبت عنه خمسين حديثاً، ثم مررت بجرجان وبها جواب التيمي فلم أكتب عنه، ثم كتبت عن رجل عنه[(٢)].

علي بن الجعد عن شعبة:

لمسند أصبهان ومحدثها: أبي سعد أحمد بن محمد بن أحمد

---

(١) التقييد ٢/ ٨١.

(٢) الجرح والتعديل ١/ ٨١.

ومما يسجل للقاضي زبير بن عدي ما روى أبو زنبور قال: رأيت سفيان الثوري بالري في سكة الزبير بن عدي، والزبير على القضاء، والزبير يستفتي الثوري في قضايا ترد عليه، ويفتيه الثوري ويقضي به، (الجرح والتعديل ١/ ٨٣).

الأصبهاني، رحلة وسماع، ابتدأ الرحلة وله ست عشرة سنة، لقيه السمعاني فأثنى عليه وروى عنه.

قال السمعاني: ثقة حافظ، ديِّن خيِّر، حسن السيرة، صحيح العقيدة على طريقة السلف الصالح، تارك للتكلف. . كان تامَّ المعرفة يحفظ جميع صحيح مسلم، وكان يملي من حفظه. استمليت عليه بمكة والمدينة، وكتب عني، قال لي مرة: أوقفتك، واعتذر، فقلت: يا سيدي الوقوف على باب المحدِّث عزّ! فقال: لك بهذه الكلمة إسناد؟ قلت: لا، قال: أنت إسنادها.

وقد رحل أبو سعد إلى أبـي نصر الزينبـي، فدخل بغداد وقد مات.

قال السمعاني: سمعت إسماعيل بن محمد الحافظ يقول: رحل أبو سعد إلى أبـي نصر الزينبـي، فدخل بغداد وقد مات (سنة ٤٧٩هـ) فجعل أبو سعد يلطم على رأسه، ويبكي، ويقول: من أين أجد علي بن الجعد عن شعبة[1]؟!

من قال لأستاذه: لم، لا يفلح أبداً:

وهذه مقولة مغلوطة، تشبَّث بها كثير من أدعياء العلم، وردَّدها في مجالسه على طلابه، فمَخْرَقَ بها عليهم، وضل بها وأضل، وقد قالها من قبل جماعة من أرباب التصوف، ومتى اعتقدها الشيخ في نفسه فقد بانت مَقاتله، فهؤلاء أئمة أهل السنّة والجماعة، المشهود لهم بالخير والصلاح ما كانوا يقولون ذلك ولا يعتقدونه في أنفسهم، وقد تواتر عنهم تواتراً معنويًّا أن الحق مطلبهم، وموافقة النبـي المجتبـى ﷺ غايتهم، ومن خالفه منهم فليضرب بقوله عُرض الحائط.

ولما استبدل شيخٌ مجلس الذكر بمجلس السماع والطرب، قال الناس

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ١٢١، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٨٤.

في ذلك، فسأل هذا الشيخ أبا عبد الرحمن السلمي: ماذا يقول الناس فيَّ؟ فقال: يقولون: رفع مجلس القرآن ووضع مجلس القول، فقال: من قال لأستاذه لم، لا يفلح أبداً[١].

قال أبو عبد الله الذهبي: ينبغي للمريد أن لا يقول لأستاذه: لم، إذا علمه معصوماً لا يجوز عليه الخطأ، أما إذا كان الشيخ غير معصوم وكره قول: لم، فإنه لا يفلح أبداً. قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾، وقال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾، وقال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾. بلى، هنا مريدون أثقال أنكاد، يعترضون ولا يقتدون، ويقولون ولا يعملون، فهؤلاء لا يفلحون[٢].

ترفق أصحاب مالك في الرد عليه:

وإذا أخطأ الشيخ فقد أرشدوا إلى تجنُّب الإنكار عليه أمام الناس، بل يتلطَّف ويترفَّق بإعلامه، كما جاء في ترجمة العالم الجليل عبد الله بن وهب المصري (ت ١٩٧) أنه قال:

سمعت مالكاً سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء فقال: ليس ذلك على الناس، قال: فتركته حتى خف الناس، فقلت له: عندنا في ذلك سنة، فقال: وما هي؟ قلت: حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحمن الحبلي عن المستورد بن شداد القرشي قال: رأيت رسول الله ﷺ يدلك بخنصره ما بين أصابع رجليه. قال: إن هذا الحديث حسن، وما سمعت به قط إلاَّ الساعة.

ثم سمعته بعد ذلك يُسئل فيأمر بتخليل الأصابع[٣].

---

(١) أعلام النبلاء ١٧/ ٢٥١، طبقات الشافعية ٤/ ١٤٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٢٥٢.

(٣) هذه القصة رواها ابن أبي حاتم عن ابن أخي ابن وهب عن عمه (الجرح =

وعن يحيى بن يحيى الأندلسي قال:

كنا في مجلس مالك، فاستؤذن لابن المبارك، فأذن له، فرأينا مالكاً تزحزح له في مجلسه، ثم أقعده بلصقه، ولم أره تزحزح لأحد في مجلسه غيره، فكان القارىء يقرأ على مالك، فربما مر شيء فيسأله مالك: ما عندكم في هذا؟ فكان عبد الله يجيبه بالخفاء، ثم قام فخرج، فأُعجب مالك بأدبه، ثم قال لنا: هذا ابن المبارك فقيه خراسان[1].

٦ ـ لا تشع عثرات الأشياخ:

فإن عثر على زلَّة شيخ فليخفها عمَّن يحب أن ينال منه.

عن الحسن بن عليل العنزي قال: حدثنا يحيى بن معين قال: أخطأ عفان[2] في نيف وعشرين حديثاً، ما أعلمت بها أحداً، أعلمته سرًّا، وطلب إليّ خلف بن سالم، فقال: أي شيء هي؟ فما قلت له، كان يحب أن يجد عليه[3].

= والتعديل ١/ ٣١)، ومن طريقه رواها البيهقي في السنن ١/ ٧٦، وعنده مغايرة في الإسناد والقصة.

وسياقها عنده هكذا: كنت عند مالك، فسئل عن تخليل الأصابع، فلم ير ذلك، فتركت حتى خف المجلس، فقلت: إن عندنا في ذلك سنة، حدثنا الليث وعمرو بن الحارث عن أبي عشانة عن عقبة بن عامر أن النبي ﷺ قال: إذا توضأت خلل أصابع رجليك، فرأيته بعد يسئل عنه فيأمر بتخليل الأصابع، وقال لي: ما سمعت بهذا الحديث قط إلى الآن.

وانظر: الإرشاد، للخليلي ١/ ٣٩٩، والسير ٤/ ٢٣٣ ـ ٢٣٤.

(١) تهذيب التهذيب ٥/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٢) عفان بن مسلم الصفار ثقة ثبت.

(٣) السير ١١/ ٩٢.

من استغنى عن الشيوخ:

ولا يذهب بك الوهم أن باستطاعتك الاستغناء عن الشيوخ، والاستعاضة عنهم بالصحف، فإن شرف هذا العلم في تلقيه من أفواه الرجال، وتقييده من ألفاظهم، ومن مَشْيَخَ الصحيفة لا يؤمن تصحيفه، ولذلك عدَّ الناقد الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الأخذ عن الصحف نوع جرح في الرواة[1].

وقد قيل: لا تأخذ العلم من صحفي، ولا القرآن من مصحفي.

وأنشدوا:

ولا تأخذه عن صحف فترمى ... من التصحيف بالداء العضال

وليس هذا مختص بطلب الحديث، بل لا بدَّ في سائر العلوم من أستاذ يشتغل عليه.

وعابوا على الفيلسوف أبي الحسن علي بن رضوان المصري أنه لم يكن له شيخ، واشتغل في التحصيل على الكتب، وخطّأوه في تصانيفه، لا سيما الكتاب الذي وضعه يحث فيه على تحصيل الصناعة من الكتب، وأنها أوثق من المعلمين، وقال الذهبي: وهذا غلط[2].

وهذا حماد الراوية، حافظ الشعر، حفظ القرآن من مصحف، فصحَّف في نيّف وثلاثين حرفاً[3]! فانظر كيف وقع الأديب الجامع للأدب واللغة في تصحيف كلام الله عزَّ وجلّ، فكيف بمن لا دربة له باللغة؟

---

(١) الجرح والتعديل ٢/ ٣١.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٠٥، وترجمة أبي الحسن الفيلسوف تجدها في: النجوم الزاهرة ٥/ ٦٩، وشذرات الذهب ٣/ ٢٩١.

(٣) وفيات الأعيان ٢/ ٢١٠.

ورحم الله أبا حنيفة لما مر على جماعة يتفقهون، فقال: ألهم رأس؟ قالوا: لا، قال: إذاً لا يفلحون.

والأخذ من الصحف مظنة للوهم والخطأ، ولو كان الآخذ منها كبير القدر والعلم، فهذا ابن الجوزي يصنِّف كتباً كثيرة، أُخذ عليه فيها كثرة الخطأ، وأعاده الذهبي لأمرين، فقال:

هكذا هو له أوهام وألوان من ترك المراجعة، وأخذ العلم من صحف[1].

وأنشد بعضهم:

يظن الغمر أن الكتب تجدي	أخا ذهن لإدراك العلوم
وما يدري الجهول بأن فيها	غوامض حيَّرت عقل الفهيم
إذا رمت العلوم بغير شيخ	ضللت عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليك حتى	تصير أضل من توما الحكيم[2]

٧ ـ قَدِّم الأهمّ على المهمّ:

ومما أرشدوا إليه البدء بالأهم قبل المهم، فالعلوم كثيرة، والعمر قصير، وتفويتها كلها غبن، والتخبط في تحصيلها دون هدى حمق، والكيِّس من حصَّل الأهمّ فالمهمّ.

قال الماوردي: اعلم أن للعلوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تفضي إلى حقائقها، فليبتدىء طالب العلم بأوائلها لينتهي إلى أواخرها، وبمداخلها ليفضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر، ولا يعرف الحقيقة، لأن البناء على غير أس

---

(١) السير ٢١/ ٣٧٨.

(٢) أنشدها المقَّري في نفح الطيب ٢/ ٥٦٤.

لا يُبتنى، والثمر من غير غرس لا يجتنى[1].

أوّل ما يبتدىء به الطالب كتاب الله عزَّ وجلّ:

قـال مقيـده: أهـمّ المهمـات، وأوَّل الأولـويـات، حفـظ كتـاب الله عزَّ وجلّ، فمن الشَّين على العالم والمحدث ألَّا يكونِ حافظاً لكتاب الله.

فلا تخدعنَّ عن حفظه بدعوى من قصير الهمة، وميِّت العزم، أن حفظه غير لازم لطلبة العلم، فإن لم يكن هذا لازماً لهم فأي شيء يلزمهم إذاً؟

من لم يطلب الحديث حتى صلى بالختمة:

وعلى هذا كان سلفنا الصالح، وهم القدوة في العلم والطلب، ما كانوا يأذنون لأبنائهم بالرحلة في الحديث حتى يختموا القرآن ويصلوا به، كما سيمرّ بك لاحقاً ــ بإذن الله ــ أنَّ أبا حاتم الرازي، الحافظ الكبير، لم يرحل بابنه، ولا سمَّعَه الحديث حتى ختم على ابن شاذان المقرىء.

ونحو هذا ما حصل لإمام الأئمة أبـي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، فإنه استأذن أباه في الخروج إلى قتيبة بن سعيد، فقال له: اقرأ القرآن أولاً حتى آذن لك، قال ابن خزيمة: فاستظهرت القرآن، فقال لي: امكث حتى تصلي بالختمة، ففعلت، فلما عيَّدنا أذن لي[2].

عدم حفظ القرآن نوع جرح في الرواة:

وقد تأمّلت سير الحفاظ، وما وقع إلينا من أخبارهم، فما رأيت فيهم من استغنى عن القرآن فلم يحفظه، وكيف يعدونه حافظاً وقد عجز عن الكتاب الميسر للحفظ!

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٨٤.

(٢) تذكرة الحفاظ، للذهبي ٢/ ٧٢٢.

بلى وجدتُ من جُرِّح لأجل عدم حفظ الكتاب، على ما ورد في ترجمة عثمان بن محمد بن أبـي شيبة، فقد ساق مترجموه في سياق الطعن عليه: كان لا يحفظ القرآن فيما قيل[1].

ما يبدأ به من كتب الحديث:

قال مقيده: قد بيَّن العلماء ما على الطالب الاعتناء به، فأرشدوا إلى الصحيحين وكتب السنن، وبعض مهمات كتب الرجال، ولكن لا يبدأ بما حقّه التأخير.

وكان أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله يقول: عجبت لمن ترك الأصول، وطلب الفضول[2].

قال التقيّ ابن الصلاح: وليقدم العناية بالصحيحين، ثم بسنن أبـي داود وسنن النسائي[3]، وكتاب الترمذي، ضبطاً لمشكلها، وفهماً لخفيّ

---

(١) انظر ترجمته في: تقريب التهذيب، والميزان ٣/ ٣٥ ــ ٣٧.
وعن الخطيب قال: لم يحك عن أحد من المحدثين من التصحيف في القرآن أكثر مما حكي عن عثمان بن أبـي شيبة.
وقد سرد الدارقطني شيئاً من تصحيفاته في كتابه (التصحيف)، وعنه الذهبـي في الميزان، والخطيب في تاريخ بغداد، وابن حجر في التهذيب ٧/ ١٥١.

(٢) الجامع، للخطيب ٢/ ١٨٥، وقد ساق الخطيب في هذا الموضع الأوليات التي ينبغي على الحديثي تقديمها، فطالعه فإنه مفيد، ولولا خشية الإطالة لنقلته على الوجه.

(٣) قال ابن فارس: سنن أبـي داود أعود بفائدة فقهية على الدارس، ولذلك قدمها الفقهاء، وسنن النسائي أعود عليه بفائدة حديثية، فهي تطبيق لعلوم مختلفة من مصطلح الحديث.
لذلك مهما أردت من فائدة حديثية حول حديثٍ ما، كمعرفة الموافق والمخالف، فطالع سنن النسائي فإنه أشبه ما يكون بكتاب علل، ومهما أردت من فقه وعناية =

معانيها، ولا يخدعنَّ عن كتاب السنن الكبير للبيهقي، فإنّا لا نعلم مثله في بابه[1].

= بالألفاظ فطالع سنن أبي داود، وهذان الكتابان من أعظم كتب السنن حاشا السنن الكبير للبيهقي، فإنه جمع بين الطريقتين.

وقال الخطابي: سمعت ابن الأعرابي ـ ونحن نسمع عليه هذا الكتاب، يعني سنن أبي داود ـ يقول: لو أن رجلاً لم يكن عنده من العلم إلاَّ المصحف الذي فيه كتاب الله، ثم هذا الكتاب، لم يحتج إلى شيء من العلم البتة.

وقد قدم الذهبي النسائي في المعرفة على أصحاب الكتب الستة حاشا البخاري.

وقال في السير ١٤/ ١٣٣: لم يكن أحد في رأس الثلاث مائة أحفظ من النسائي، هو أحذق بالحديث وعلله ورجاله من مسلم وأبي داود ومن أبي عيسى، وهو جار في مضمار البخاري وأبي زرعة..

(١) لم يذكر ابن الصلاح سنن ابن ماجه، لأنه لم يكن اشتهر في زمانه كأصل سادس للأصول الستة، وأول من ألحقها بالأصول الستة الحافظ ابن طاهر المقدسي رحمه الله في كتابه شروط الأئمة الستة، وبالغ في تعظيم سنن ابن ماجه (انظر شيئاً من كلامه في ذلك في: شروط الأئمة الستة ص ١٦، طبقات المفسرين، للداودي ٢/ ٢٧٤، النكت على ابن الصلاح ١/ ٤٨٦).

لطيفة:

في ذكر أبيات للأديب المحدث المقرىء أبي المظفر محمد بن أحمد المعاوي الأبيوردي يمدح فيها الأئمة الخمسة أصحاب الصحيحين والسنن:

زاهـــر العـــود وطيبـــه ... وليـــاليـــه تشبيـــه
كـــل يـــوم مـــن مكـــان ... يلبـــس الـــذل غـــريبـــه
وهـــو يسعـــى طـــالبـــاً للـ ... ـعلـــم والهـــم يـــذيبـــه
وطـــوى بـــرد صبـــاه ... قبـــل أن يبلـــى قشيبـــه
واقتـــدى بـــالقـــوم يـــدعـــو ... ه هـــواه فيجيبـــه
خمســـة لا يجـــد الحـــا ... ســـد فيهـــم مـــا يعيبـــه
منهـــم الجعفـــي لا يعـ ... ـــرف فـــي العلـــم ضـــريبـــه=

ثم بسائر ما تمس حاجة صاحب الحديث إليه من كتب المسانيد، كمسند أحمد، ومن كتب الجوامع المصنَّفة في الأحكام المشتملة على المسانيد وغيرها، وموطأ مالك هو المقدم منها، ومن كتب علل الحديث، ومن أجودها كتاب العلل عن أحمد بن حنبل، وكتاب العلل عن الدارقطني[1].

ومن كتب معرفة الرجال وتواريخ المحدثين، ومن أفضلها: تاريخ البخاري الكبير، وكتاب الجرح والتعديل لابن أبي حاتم، ومن كتب الضبط لمشكل الأسماء ومن أكملها: كتاب الإكمال لأبي نصر بن ماكولا.

وليكن كلما مرّ به اسم مشكل أو كلمة من حديث مشكلة بحث عنها وأودعها قلبه، فإنه يجتمع له بذلك علم كثير في يسر[2].

الإشادة بالجمع بين الصحيحين للحميدي:

اشتغل العلماء بالصحيحين كثيراً، فعملوا عليها المستخرجات والمستدركات، وبعضهم جمع بينهما في كتاب تسهيلاً للحفظ، وتقريباً للتناول. وكتاب الحميدي رائد في هذا الباب، وهو مطبوع متداول، من

= واذا اعتلَّ حديثٌ ... فالقشيري طبيبه
وأخونا ابن شعيب ... حازم الرأي صليبه
وأبو داود موفو ... ر من الفضل نصيبه
وأبو عيسى يرى الجه ... مي منه ما يريبه
حاديهم ذو زجل ... تضحك الروض نغيبه
طار فيه البرق حتى ... خالط الماء لهيبه
(معجم الأدباء ٥/ ١٦٦ ــ ١٦٧).

(١) وكتاب العلل، لابن أبي حاتم قبلة في هذا الباب، وهو عظيم النفع جدًّا، على صغر حجمه، فينبغي على الحديثي ألا يفوته.

(٢) المقدمة، لابن الصلاح ص ٢٥١.

حفظه بما فيه من زوائد، فقد أتى على المقصود من الصحيحين وزيادة.

وقد حفظه جماعة، منهم: العلاَّمة البارع الحافظ نجم الدِّين أبو العباس أحمد ابن الإمام شهاب الدين محمد بن خلف بن راجح المقدسي الصالحي، قال الذهبي في ترجمته: من محفوظاته كتاب الجمع بين الصحيحين. اهـ[1].

ومنهم: الحافظ تقيّ الدِّين محمد بن أبي الحسين أحمد بن عبد الله بن عيسى البعلبكي اليونيني، نشأ يتيماً، وحفظ القرآن بدمشق، وجوَّد الكتابة، ثم حفظ الجمع بين الصحيحين بأكمله[2].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: برع في علم الحديث، وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو، وحفظ قطعة صالحة من مسند أحمد. اهـ[3].

ومن المشهور في دروس شيخ الإسلام النواوي رحمه الله: درس في الجمع بين الصحيحين للحميدي.

الاشتغال بكتب أبي بكر الخطيب:

المحدثون عيال في الحديث على كتب أبي بكر الخطيب، وليس نوع من أنواع علوم الحديث إلاَّ وللخطيب كتاب فيه، هو إمام لما سواه.

وفي كتبه يقول الحافظ أبو الطاهر السِلفي:

تصانيف ابن ثابت الخطيب ... ألذ من الصَّبا الغض الرطيب

تراها إذ رواها من حواها ... رياضاً للفتى اليقظ اللبيب

---

(١) السير ٢٣/ ٧٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٤٠.

(٣) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤١.

ويأخذ حسن ما قد ضاع[١] منها بقلب الحافظ الفطن الأريب
فأية راحة ونعيم عيش يوازي كَتْبُها، بل أي طيب؟[٢]

فمن تصانيفه رحمه الله تعالى: الكفاية، وتاريخ بغداد، وموضح أوهام الجمع والتفريق، والرحلة في طلب الحديث، وهو كتاب شحّاذ للهمة[٣]، وغيرها من الكتب الكثيرة، إذ قلَّ نوع من علوم الحديث إلاَّ وللخطيب فيه مصنف محرر.

الإشادة بالسنن الكبير للبيهقي:

والحافظ البيهقي (٣٨٤ ـ ٤٥٨هـ) من كبار العلماء المصنفين.

قال الذهبي مرشداً إلى تصانيفه: تصانيف البيهقي عظيمة القدر، غزيرة الفوائد، قلّ من جوَّد تأليفه مثل الإمام أبي بكر، فينبغي للعالم أن يعتني بهؤلاء، سيَّما سننه الكبير، وقد قدم قبل موته بسنة أو أكثر نيسابور، وتكاثر عليه الطلبة، وسمعوا منه كتبه، وجلبت إلى العراق والشام والنواحي.

واعتنى بها الحافظ أبو القاسم الدمشقي[٤] وسمعها من أصحاب البيهقي، ونقلها إلى دمشق هو وأبو الحسن المرداوي[٥].

---

(١) ضاع: بمعنى فاح وانتشر.
(٢) المستفاد من ذيول تاريخ بغداد، لابن الدمياطي ١٩/ ٥٦.
(٣) ما رأيت فيما كتب الأولون والآخرون مثل كتاب الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: صفحات في صبر العلماء.. كتاباً شحاذاً للهمم، مجدداً للعزائم، نافياً للفتور، وإني لأرجو أن يكون كتابي هذا موجهاً للحفظ ودالاً عليه، والله من وراء القصد.
(٤) هو ابن عساكر، صاحب تاريخ دمشق.
(٥) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٦.

وقال في ترجمة أبي محمد ابن حزم: قال الشيخ عزّ الدِّين بن عبد السَّلام ــ وكان أحد المجتهدين ــ ما رأيت في كتب الإسلام في العلم مثل المحلى لابن حزم[1]، وكتاب المغني للشيخ موفَّق الدِّين.

---

(١) المحلى من أعظم كتب فقه الحديث، وفي عصرنا هذا زُين بتعليق العلامة أحمد شاكر عليه، وقد رغب الناس عنه منذ القدم ــ لا سيما مقلدة المذاهب ــ لذرب في لسان أبي محمد، مصنفه، حيث كان يسمى: منجنيق المغرب، وقالوا ــ فما أنصفوا ــ : لسان أبي محمد وسيف الحجاج شقيقان.

والعذر لأبي محمد في هذا النفس المتهيج، والتسفيه المستمر، ما كان يلاقيه من متعصبة المقلدين، وجمود أصحاب المذاهب، ومن نظر في تلك الفترة الزمنية، وفي تراجم أهلها علم عذر أبي محمد، وقد ذكرت شيئاً من تعصب أهل المذاهب عليه لما أوعزوا للأمير حرق كتبه، مما جعل أبا محمد يسلّ عليهم سيف بيانه، ويوردهم شعوب بلسانه، غيرة منه على الحديث والأثر أن يتركا لأقوال الرجال، ومن نظر في كتبه وجد مصداق ما أقول.

ولكن هذا العذر لم يشفع عند شيخ الإسلام الورع الزاهد أبي زكريا يحيى بن شرف النووي في عدّ أبي محمد في زمرة الفقهاء، وإدخال أقواله في شرح المهذب، وهذا أمر عجِبَ منه الحافظ ابن كثير في اليقظة فرأى جوابه في المنام.

منام غريب جدًّا:

قال ابن كثير (البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٥): ورأيت في ليلة الاثنين الثاني والعشرين من المحرم، سنة ٧٦٣، الشيخ محيي الدين النواوي رحمه الله، فقلت له: يا سيدي الشيخ، لم لا أدخلت في شرحك المهذب شيئاً من مصنفات ابن حزم؟ فقال ــ ما معناه ــ : إنه لا يحبه، فقلت له: أنت معذور فيه، فإنه جمع بين طرفي النقيضين في أصوله وفروعه، أما هو في الفروع فظاهري جلد يابس، وفي الأصول تول مائع (لعلها تابع) قرمطة القرامطة، وهرس الهرائسة، ورفعت بها صوتي حتى سُمعت وأنا نائم! ثم أشرت إلى أرض خضراء تشبه النخيل، بل هي أردأ شكلاً منه، لا ينتفع بها في استغلال ولا رعي، فقلت له: هذه أرض ابن حزم التي زرعها، قال: انظر هل ترى فيها شجراً مثمراً أو شيئاً ينتفع به، فقلت: =

قلت: لقد صدق الشيخ عزّ الدِّين، وثالثهما السنن الكبير للبيهقي، ورابعها التمهيد لابن عبد البرّ، فمن حصَّل هذه الدواوين، وكان من أذكياء المفتين، وأدمن المطالعة فيها فهو العالم حقًّا[1].

ولا تخدعنَّ عن كتب الذهبي:

قال مقيده: ومن المعروفين بالتحقيق في علم الحديث الحافظ الكبير شمس الدين أبو عبد الله الذهبي رحمه الله، كُتبه الغاية في التحرير والإتقان، لا يكاد يمر بحديث لا يصح فيسكت عنه، وهذا نفس قلَّ من شابهه فيه، ومن كتبه التي يعجز العلماء عن وضع مثلها: سير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال في نقد الرجال ــ وهو كتاب كاسمه، قبَّان الرواة ــ، مع ما هو عليه من المعتقد الحسن، والورع المستفيض.

ثم خاتمة الحفاظ ابن حجر رحمه الله، لا سيما كتابيه فتح الباري والإصابة، فما بعدهما حاجة لطالب، ولا بغية لراغب.

= إنما تصلح للجلوس عليها في ضوء القمر.
فهذا حاصل ما رأيته، ووقع في خلدي أن ابن حزم كان حاضراً عندما أشرت للشيخ محيي الدين إلى الأرض المنسوبة، لابن حزم، وهو ساكت لا يتكلم.
قلت: في هذا إطراء لكتب أبي محمد، فإنها كالقمر يهدي التائه في السفر، ويسامر الساهد في الحضر، وهذه، صفة مصنفات ابن حزم، فإن كتبه في الديانة كالمحلى والإحكام ترشد الطالب إلى الطريق، وتعينه كي يصل، وذلك بما يورده من أدلة ومناقشات تلقح الفهوم، وتبرز العلم المكتوم، وأما كتبه الأخرى التي في الأدب، كطوق الحمامة، فقراءتها على ضوء القمر لها معان أخرى، يعرفها من جربها، وبالجملة: لا غنى لطالب العلم عن مصنفات أبي محمد بن حزم رحمه الله، والأمر فيه كما في غيره دائر بين الإساءة والإحسان، والأجر والأجرين، ومن الذي ما ساء قط، ومن له العتبى فقط؟

(١) سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٩٣.

الإشادة ببعض المعاصرين:

ومن المعاصرين الذين لا غنى لك عن تحقيقاتهم، الحافظ عبد الرحمن المعلمي رحمه الله، ولا تظن أن الرجل مجرد كتبي ناسخ، فإن له علماً وحفظاً، يظهر ذلك في تعليقاته على الكتب التي حققها: كالجرح والتعديل، وتذكرة الحفاظ، وعلل ابن أبي حاتم، ولو لم يكن له إلاَّ التنكيل لكفى.

وقد رأيت له كتاباً في أصول الطبع والتصحيح، أحسب أنه أول مؤلف بلغة العرب في هذا الباب، كما أن كتاب الشيخ الأديب عبد السلام هارون (تحقيق النصوص ونشرها) أول كتاب عربي في هذا الفن، يوضح مناهجه، ويعالج مشكلاته[1].

ومنهم أيضاً: القاضي الشرعي العلامة السيد أحمد شاكر رحمه الله، وجهوده في السنة معلومة مشهورة، وهي مشكورة مبرورة، وتحقيقه لرسالة الإمام الشافعي ينبغي أن يكون أنموذجاً يحتذى به في تحقيق التراث، وله من الجهد المشكور: تحقيق مسند أحمد مع دراسة أسانيده، أنهته المنون قبل أن ينهيه، ولو تم لكان آية عصره، ولكن الله غالب على أمره.

منهجية ابن الجوزي في الطلب:

قال ابن الجوزي:

ثم لينظر ما يحفظ من العلم، فإن العمر عزيز، والعلم غزير، وإن أقواماً يصرفون الزمان إلى حفظ ما غيره أولى منه ـ وإن كان كل العلوم حسناً ـ ولكن الأولى تقديم الأهم والأفضل، وأفضل ما تشوغل به حفظ القرآن، ثم الفقه، وما بعد هذا بمنزلة تابع، ومن رزق يقظة دلته يقظته فلم

(١) كما كتب هو على غلاف كتابه.

يحتج إلى دليل، ومن قصد وجه الله تعالى بالعلم، دله مقصوده على الأحسن: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾[1].

وقال أيضاً: أول ما ينبغي تقديمه ــ يعني من المحفوظات ــ مقدمة في الاعتقاد تشتمل على الدليل على معرفة الله عزَّ وجلّ، ويذكر فيها ما لا بدّ منه، ثم يعرف الواجبات، ثم حفظ القرآن، ثم سماع الحديث. ولا بدَّ من حفظ مقدّمة في النحو يقوم بها اللسان، . . . ، ثم قال: ومتى أمعن طالب الحديث في السماع والكتابة ذهب زمان الحفظ، وإذا علت السن لم يقدر على الحفظ المهم[2].

٨ ــ لا تحبس الفائدة:

وكانوا ينهون عن حبس الفائدة عن طالبها، قال التقيّ ابن الصّلاح:

من أوَّل فائدةِ طلب الحديث الإفادة، روِّينا عن مالك رضي الله عنه أنه قال: من بركة الحديث إفادة بعضهم بعضاً[3].

٩ ــ لا تتكاثر في الطلب:

وأرشدوا إلى الاقتصار على النافع، وما فيه البلغة، لأن في الحديث آفة تحملك على الشره، والشره يحملك على ما لا يجدي.

التكاثر في الحديث:

جاء في ترجمة العبد الصالح الحافظ حمزة بن محمد بن علي الكناني المصري (ت ٣٥٧) أنه قال:

---

(١) صيد الخاطر ص ٣١٣.

(٢) الحث على حفظ العلم ص ٢٣.

(٣) المقدمة ص ٢٤٨.

خرَّجت حديثاً واحداً عن النبي ﷺ من نحو مائتي طريق، فداخلني لذلك من الفرح غير قليل، وأعجبت لذلك، فرأيت يحيى بن معين في المنام، فقلت: يا أبا زكريا، خرَّجت حديثاً من مائتي طريق، فسكت عني ساعة، ثم قال: أخشى أن يدخل هذا تحت: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١﴾[1].

١٠ ـ الخيبة للمنتخِب:

وكانوا ينهون عن الانتخاب، وهو سماع بعض الجزء دون تمامه، ويقولون: لا يفلح من انتخب.

وقال ابن معين: إذا كتبت فقمِّش، وإذا حدَّثت ففتِّش، وسيندم المنتخب في الحديث حيث لا تنفعه الندامة[2].

وقال أيضاً: صاحب الانتخاب يندم، وصاحب النسخ لا يندم[3].

ويشبه المنتخب في السماع المنتخب في القراءة، الذي لا يفتأ ينقلب من كتاب إلى آخر، دون إتمام الأول، وتعليق فوائده.

١١ ـ التفقه في الإسناد والمتن:

ونبهوا إلى الاهتمام بِشِقَّيْ علم الحديث، وعدم الاقتصار على واحد دون الآخر، لأن لعلم الحديث جناحين، لا ينهض بأحدهما دون الآخر:

فجناحه الأول: معرفة الأسانيد، وجناحه الثاني: فقه المتون.

قال عليّ بن المديني: التفقه في معاني الحديث نصف العلم، ومعرفة الرجال نصف العلم[4].

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٣٣، وحمزة الكناني هو صاحب جزء البطاقة المشهور.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٨٥.

(٣) الكامل، لابن عدي ١/ ١٢٤

(٤) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨، الجامع، للخطيب ٢/ ٢١١.
ولفظه عنده: التفقه في مُعاد الحديث..

قال الخطيب البغدادي: ليجعل حفظه للحديث حفظ رعاية لا حفظ رواية، فإن رواة العلوم كثير، ورعاتها قليل، ورُبَّ حاضر كالغائب، وعالم كالجاهل، وحامل للحديث ليس معه منه شيء، إذ كان في إطراحه لحكمه، بمنزلة الذاهب عن معرفته وعلمه[1].

قال التقيّ ابن الصَّلاح: لا ينبغي لطالب الحديث أن يقتصر على سماع الحديث وكتبه دون معرفته وفهمه، فيكون قد أتعب نفسه من غير أن يظفر بطائل، وبغير أن يحصل في عداد أهل الحديث، بل لم يزد على أن صار من المتشبهين المنقوصين المتحلين بما هم عنه عاطلون.

قلت: أنشدني أبو المظفر ابن الحافظ أبي سعد السمعاني رحمه الله لفظاً بمدينة مرو قال: أنشدنا والدي لفظا أو قراءة عليه قال: أنشدنا محمد بن ناصر السلامي من لفظه، قال: أنشدنا الأديب الفاضل فارس بن الحسين لنفسه:

يا طالب العلم الذي ... ذهبت بمدته الرواية
كن في الرواية ذا العناية ... بالرواية والدراية
وارو القليل وراعه ... فالعلم ليس له نهاية[2]

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي. ١. / ٨٧.
قلت: أما حديث: «همة العلماء الرعاية، وهمة السفهاء الرواية»، فهو من مراسيل الحسن.
رواه الخطيب في الجامع ١/ ٨٨ وابن عبد البر في الجامع ٢/ ٦، وفي إسناده مدلس ما صرح بالسماع، وقد جاء من قول الحسن مقطوعاً عليه، وهو أصح (الجامع، للخطيب ١/ ٩١).
(٢) المقدمة ص ٢٥٠.

ابن حبان ينكر على بعض المتعلمة:

وقد نعى ابن حبان طائفتين من المتعلمة، رامت النهوض بأحد جناحي العلم فلم تحسن، قال: ولم يكن هذا العلم في زمان قط تعلمه أوجب منه في زماننا هذا[1]، لذهاب من كان يحسن هذا الشأن، وقلة اشتغال طلبة العلم به، لأنهم اشتغلوا في العلم بزماننا وصاروا حزبين:

فمنهم طلبة الأخبار، الذين يرحلون فيها إلى الأمصار، وأكثر همَّتهم الكتابة، والجمع دون الحفظ والعلم به، وتمييز الصحيح من السقيم، حتى سمَّاهم العوام (الحشوية)[2].

والحزب الآخر المتفقهة الذين جعلوا جلّ اشتغالهم بحفظ الآراء والجدل، وأغضوا عن حفظ السنن ومعانيها، وكيفية قبولها، وتمييز الصحيح من السقيم منها، مع نبذهم السنن قاطبة وراء ظهورهم.

وقد أخبر المصطفى ﷺ أن العلم ينقص في آخر الزمان، وأرى العلوم كلها تزداد إلاَّ هذه الصناعة الواحدة، فإنها كل يوم في نقص[3].

قلت: هذا لأن الكرام قليل، ولأنه لا يأتي عام إلاَّ والذي بعده شرّ منه، والموفق من أخذ من العلوم ما يجده أمامه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم[4].

---

(١) ليت شعري كيف لو أدرك ما نحن فيه!!

(٢) قرأت بخط محمد بن محمد ابن العربي، عن شيخه التقي ابن الصلاح ما معناه: أنَّ العامة يضبطونها بالفتح في الشين، والصواب إسكانها لا غير.

(٣) كتاب المجروحين ١/ ١٢.

(٤) قال أبو بكر الخطيب: قول البخاري (إن أصحاب السنن أقل الناس) عنى به الحفاظ للحديث، العالمين بطرقه، المميزين لصحيحه من سقيمه، وقد صدق رحمه الله في قوله، لأنك إذا اعتبرت لم تجد بلداً من بلدان المسلمين يخلو من =

١٢ ـ كن جَمْهَرِيًّا ما استطعت:

وجهوا طالب هذا العلم إلى ضرورة الأخذ من كل فن بنصيب وافٍ، فإن أهل الحديث على طبقات: فمنهم المقتصر على مجرد النقل والرواية، ومنهم أهل المعرفة بالحديث والدراية، ومنهم أهل الفقه فيه، والمعرفة بمعانيه[١]، ومنهم من هو كالبحر، لا تدري في أيّ نواحيه الدُّرّ، جمع إلى المعرفة بالحديث: الفقه والأصول واللغة والأدب.

وكان من العلوم بحيث يقضى ... له في كل فن بالجميع

المرء عدوّ ما يجهل:

وقال يحيى بن خالد لابنه: عليك بكل نوع من العلم فخذ منه، فإنَّ المرء عدوّ ما جهل، وأنا أكره أن تكون عدو شيء من العلم، وأنشد:

تفنن وخذ من كل علم فإنما ... يفوق امرؤ في كل فن له علم
فأنت عدو للذي أنت جاهل ... به، ولعلم أنت تتقنه سِلْم[٢]

وهذه قاعدة عندهم، أن المرء عدو ما يجهل، وعندهم قاعدة أخرى: قيمة المرء ما يحسن.

= فقيه أو متفقه يرجع أهل مصره إليه.. وتجد الأمصار الكثيرة خالية من صاحب حديث عارف به، مجتهد فيه، وما ذاك إلاَّ لصعوبة علمه وعزته، وقلة من ينجب فيه من سامعيه وكاتبيه، وقد كان العلم في وقت البخاري غضًّا طريًّا، والارتسام به محبوباً شهيًّا، والدواعي إليه أكبر، والرغبة فيه أكثر، وقال هذا القول الذي حكيناه عنه، فكيف نقول في هذا الزمان مع عدم الطالب، وقلة الراغب، وكأن الشاعر وصف قلة المتخصصين من أهل زماننا في قوله:

وقد كنا نعدهم قليلاً ... فقد صاروا أقل من القليل

(الجامع ١/١١٣).

(١) مجموع الفتاوى، لشيخ الإسلام ١/١٠.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٧١.

وأنشد ابن دريد على الأولى:

جهلت فعاديت العلوم وأهلها ... كذاك يعادي العلم من هو جاهله
ومن كان يهوى أن يُرى مُتَصَدِّراً ... ويكره لا أدري، أصيبت مقاتله[1]

وعلى الثانية ــ وهي عبارة تنسب لأمير المؤمنين عليّ ــ أنشد الخليل:

لا يكون العلي مثل الدني ... لا، ولا ذو الذكاء مثل الغبيّ
قيمة المرء قدر ما يحسن المرء، قضاء من الإمام عليّ[2]

قيمة المرء ما يحسن:

وعلى هذا المعنى جاء قول الشريف أبي القاسم أحمد بن إبراهيم ابن طباطبا (المتوفَّى سنة **٣٤٥**):

حسود مريض القلب يخفي أنينه ... ويضحى كئيب البال عندي حزينه
يلوم على أن رحت للعلم طالباً ... أجمع من عند الرواة فنونه
فأعرف أبكار الكلام وعُونه ... وأحفظ مما أستفيد عُيونَه
ويزعم أنَّ العلم لا يُكسِب الغنى ... ويُحسن بالجهل الذميم ظنونه
فيا لائمي دعني أُغالي بقيمتي ... فقيمة كلّ الناس ما يحسنونه

العلوم التي يشتغل بها:

قال مقيده عفا الله عنه: وإنما عنيت بقولي (خذ من كل علم بطرف) العلوم التي ترجع عليك بفائدة، وتعينك في دراسة الوحي، وتساعدك على حمل الدين، فاصرف نفسك ــ تولى الله رشدك ــ عن علوم النَّوكى، وتكلف

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٦٤ ــ ٦٥.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٦٣ ــ ٦٤، والأبيات في معجم الأدباء ١/ ٤١.

البطَّالين، ثم اجعل ما منَّ الله به عليك من صحة القريحة، وسرعة الخاطر مصروفاً إلى علم ما يكون إنفاق خاطرك فيه مذكورا، وكدّ فكرك فيه مشكوراً[1].

القاعدة الذهبيّة في العلوم الشرعيّة:

وقد وضع ابن الذهبي قاعدة في العلوم التي يتشاغل بها.

فقد حدَّث نعيم بن حماد بحديث أم الطفيل في الرؤية، وهو حديث منكر جدًّا، ثم وجد لنعيم متابعون عن ابن وهب، ولكن في إسناده فوق ابن وهب نكرات، فقال الذهبي رحمه الله تعالى:

لئن جوَّزنا أنَّ النبي ﷺ قاله، فهو أدرى بما قال، ولرؤياه في المنام تعبير لم يذكره عليه السلام، ولا نحن نحسن أن نعبره، فأما أن نحمله على ظاهره الحسي فمعاذ الله أن نعتقد الخوض في ذلك، بحيث إن بعض الفضلاء قال: تصحَّف الحديث، وإنما هو رأى «رئيَّة»، بياء مشددة.

وقد قال علي رضي الله عنه: حدثوا الناس بما يعرفون، ودعوا ما ينكرون، وقد صح أن أبا هريرة كتم حديثاً كثيراً مما لا يحتاجه المسلم في دينه، وكان يقول: لو بثثته فيكم لقطع هذا البلعوم.

وليس هذا من باب كتمان العلم في شيء، فإن العلم الواجب يجب بثه ونشره، ويجب على الأمة حفظه، والعلم الذي في فضائل الأعمال مما يصح سنده يتعين نقله، ويتأكد نشره، وينبغي للأمة نقله، والعلم المباح لا يجب بثّه، ولا ينبغي أن يدخل فيه إلاَّ خواص العلماء.

---

(١) نقلاً عن الماوردي في أدب الدنيا ص ٩٤.

قال ابن فارس: العلم العائد عليك بفائدة هو العلم الشرعي، ومداره على التفسير والحديث والفقه (انظر: فتح الباري ١/ ١٤١).

والعلم الذي يحرم تعلمه ونشره علم الأوائل وإلهيات الفلاسفة، وبعض رياضهم بل أكثره، وعلم السحر، والسيمياء، والكيمياء، والشعبذة، والحيل، ونشر الأحاديث الموضوعة، وكثير من القصص الباطلة أو المنكرة، وسيرة البطَّال المختلقة، وأمثال ذلك، ورسائل إخوان الصفا، وشعر يعرَّض فيه إلى الجناب النبوي.

فالعلوم الباطلة كثيرة جدًّا فلتحذر، ومن ابتلي بالنظر فيها للفرجة والمعرفة من الأذكياء فليقلل من ذلك، وليطالعه وحده، وليستغفر الله تعالى، وليلتجىء إلى التوحيد، والدعاء بالعافية في الدين. وكذلك أحاديث كثيرة مكذوبة وردت في الصفات لا يحل بثها إلَّا التحذير من اعتقادها، وإن أمكن إعدامها فحسن، اللَّهُمَّ فاحفظ علينا إيماننا، ولا قوّة إلَّا بالله[1].

فكن أيها الطالب علم الحديث جمهريًّا موسوعيًّا، كما كان أسلافك من قبل، فإن الواحد منهم كان يُعَدّ إماماً في أبواب كثيرة من العلم.

الطبيبة: أم المؤمنين عائشة:

فقد كانت أُمّ المؤمنين عائشة على علمها وفقهها تعرف الطب، وكذا كان الشافعي رحمه الله تعالى.

وهكذا كان المازري ــ صاحب المُعْلِم بفوائد شرح مسلم ــ فقيهاً محدِّثاً طبيباً، قالوا في ترجمته: إنه مرض مرضة فلم يجد من يعالجه إلَّا يهودي، فلما عوفي على يده، قال: لولا التزامي بحفظ صناعتي لأعدمتك المسلمين! فأثَّر هذا عند المازري، فأقبل على تعلُّم الطبّ حتى فاق فيه، وكان ممن يفتي فيه كما يفتي في الفقه!.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٦٠٣ ـ ٦٠٤.

ابن عبّاس جامعة:

وكان مجلس ابن عباس جامعة متكاملة، يكون فيه أصحاب اللغة والتفسير والحديث والشعر وأيام العرب.

قال عطاء وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة: لقد كان يجلس يوماً فلا يذكر فيه إلاَّ الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازي، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب[1].

مكتبة تمشي على الأرض:

وهكذا كان أبو الزّناد عبد الله بن ذكوان رحمه الله.

قال عبد ربّه بن سعيد يصف حال أبـي الزناد: رأيت أبا الزناد دخل مسجد النبـي ﷺ، ومعه من الأتباع مثل ما مع السلطان، فمن سائل عن فريضة، ومن سائل عن الحساب، ومن سائل عن الشعر، ومن سائل عن الحديث، ومن سائل عن معضلة.

قال الليث: رأيت أبا الزناد وخلفه ثلاثمائة تابع مُن طالب فقه وعلم وشعر وصنوف[2].

وكان الإمام عامر بن شراحيل الشعبـي مكتبة متنوّعة تمشي على الأرض، له في الفقه مذهب مشهور، وفي الحديث أثر منشور، وفي أيام العرب وأخبارها باع طويل، وفي أشعارها ولغتها علم جزيل، وكان اشتهر بذلك، وعرف به.

قال أبو عبد الله ياقوت الرومي الحموي: كتب عبد الملك إلى

---

(١) طبقات ابن سعد (الجزء المفقود تحقيق السلمي) ١/ ١٦١، وأسد الغابة ٣/ ١٩١.

(٢) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٦٢.

الحجاج: انظر لي رجلاً عالماً بالحلال والحرام، عارفاً بأشعار العرب وأخبارها، أستأنسُ به وأصيب عنده معرفة، فوجهه إليّ من قبلك، فوجه إليه الشعبي، وكان أجمع أهل زمانه[1].

الزهري إمام في كل الفنون:

قال الليث: ما رأيت عالماً أجمع من ابن شهاب، ولا أكثر علماً منه، لو سمعته يحدِّث في الترغيب لقلت لا يحسن إلاَّ هذا، وإن حدَّث عن الأنساب لقلت لا يعرف إلاَّ هذا، وإن حدَّث عن القرآن والسنّة كان حديثه نوعاً جامعاً[2].

اتجر كابن المبارك:

وعلى شهرة ابن المبارك في الحديث فقد كان مبرّزاً في أمور يحتاج الواحد منها إلى انقطاع تامّ، فقد كان: تاجراً، عابداً، مجاهداً، جواداً، فقيهاً، مناظراً، ورعاً، زاهداً، مع الحفظ التامّ، والتقدُّم في السنّة.

قال الحسن بن عيسى بن ماسرجس مولى ابن المبارك: اجتمع جماعة مثل الفضل بن موسى ومخلد بن الحسين فقالوا: تعالوا نعد خصال ابن المبارك من أبواب الخير، فقالوا: العلم، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، والزهد، والفصاحة، والشعر، وقيام الليل، والعبادة، والحج، والغزو، والفروسية، والقوة، وترك الكلام فيما لا يعنيه، والإنصاف، وقلّة الخلاف[3].

---

(١) معجم الأدباء ١/ ٦٠.
(٢) تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٩.
(٣) السير ٨/ ٣٩٧.

وقال العباس بن مصعب: جمع عبد الله الحديث والفقه والعربيّة وأيام الناس والشجاعة والسخاء والتجارة والمحبة عند الفرق[1].

مع جبل الحفظ: الدارقطني:

وكان جبل الحفظ الإمام الدارقطني إماماً جمهريًّا، أخذ من كل أنواع العلوم جملة وافرة، وحاز في ميادينها قصب السبق.

فهو في القراءة إمام متقن، عارف بالقراءات وطرقها[2]،

---

(1) السير ٨/ ٣٨٣.

ولعباس بن مصعب كتاب تاريخ مرو، وقع للحافظ الذهبي، فهو ينقل منه في السير وغيره.

(2) هكذا كان علماء الحديث، يبدأون بالقرآن فيتقنون قراءاته، ثم يثنُّون بطلب الحديث.

فممن اشتهر عنه المعرفة بالقراءات منهم: أبو عبيد، وأحمد بن حنبل، وأبو عبد الرحمن النسائي، وابنُ الجوزي، والذهبي، وابن حجر، والسخاوي، والسيوطي.

وبعضهم اشتهر بقراءة مفردة، كالأعمش، وعاصم، وأبي بكر بن عياش، الذي يسميه القرّاء: شعبة، ويحيى بن آدم وغيرهم كثير.

ومن هؤلاء المحدثين من تركت روايته في القراءة ووثق في الحديث كالأعمش، ومنهم من ضعف في الحديث ووثق في القراءة كحفص الغاضري ــ الذي تقرأ عامة الأمة بحرفه ــ.

ومنهم من وفقه الله للجمع بين الحسنيين، كأبي عبد الرحمن السلمي، وعاصم، وحمزة، وشعبة، وابن عامر اليحصبي، وهو تابعي، وهشام بن عمار، شيخ البخاري..

كل هؤلاء ثقات عند الطرفين، وإن كان الغالب أن لكل فن رجاله، إلاَّ إن هذين العلمين اختلطا وامتزجا منذ قديم الزمان. =

وله فيها أولية التأليف على طريقة الأصول والفرش.

قال الخطيب البغدادي:

جمع الأصول في أبواب عقدها في أول الكتاب، وسمعت بعض من يعتني بالقراءات يقول: لم يسبق أبو الحسن إلى طريقته في هذا، وصار القراء بعده يسلكون ذلك[1].

قال الذهبي:

هو أول من صنف القراءات وعقد لها أبواباً قبل فرش الحروف...، وتصدر في آخر أيامه للإقراء، لكن لم يبلغنا ذكر من قرأ عليه، وسأفحص عن ذلك إن شاء الله[2].

قلت: فحصت عن ذلك فوجدت ابن الجزري ذكر أن محمد بن إبراهيم بن أحمد البغدادي سمع كتاب القراءات لأبي الحسن الدارقطني منه، ذكره الحافظ أبو العلاء[3].

وكان الدارقطني مرجعاً في الفقه، وكتابه السنن دليل على ذلك، فإنه قصد فيه الاستدلال لأهل المذاهب، وهذا لا يمكن إلاَّ بمعرفتها.

وكان أيضاً عالماً في اللغة، عارفاً بالأدب والشعر، من محفوظاته فيه ديوان السيد الحميري[4].

= وأما اليوم فغاية ما يُطلب من طلاب العلم استظهار القرآن وعدم اللحن به، فالله المستعان كيف نَقْصُ العلم في ازدياد.

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٤.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٥٠ ــ ٤٥١.

(٣) غاية النهاية ٢/ ٤٣.

(٤) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٥.

قال أبو عبد الله الحاكم في كتاب مزكي الأخبار: أبو الحسن صار واحد عصره في الحفظ والفهم والورع، وإماماً في القرّاء والنحويِّين[1].

ومن معارفه أيضاً العلم بالأنساب، وقد قرأ كتاب النسب للزبير على مسلم العلوي، فقال له المعيطي الأديب بعد القراءة: يا أبا الحسن، أنت أجرأ من خاصي الأسد، تقرأ مثل هذا الكتاب مع ما فيه من الشعر والأدب فلا يؤخذ فيه عليك بلحنة! وتعجَّب منه[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٦/ ٤٥٠.

(٢) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٥.

ما أقبح اللحن بطالب العلم لا سيما في قراءة الوحيين.

وأشد ما رأيت للعلماء في اللحن بالحديث، قول الأصمعي رحمه الله تعالى: أخوف ما أخاف على طالب العلم إذا لم يعرف النحو أن يدخل في جملة قول النبي ﷺ: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار».

لأنه ﷺ لم يكن يلحن، فمهما رويت عنه ولحنت فقد كذبت عليه. (معجم الأدباء ١/ ٥٧)

وعلوم اللغة عامة تشكو من كساد سوقها بين الطلبة، وقلة دارسيها منهم، مع أنها من الدين والعلوم بمكان مكين، وما زال اللحن قبيحاً من صغار الطلبة، فكيف إذا كان من الحفاظ الكبار!

ومما يغض من مكانة كتاب الكامل، لابن عدي ـ وهو كتاب جامع في بابه ـ كثرة ما فيه من أخطاء في اللغة، تدل على ضعف الإمام ابن عدي في النحو، وهذا شيء ينقص من قدر العالم بين أقرانه.

والأمر كما قيل:

ولم أر في عيوب الناس عيباً   كنقص القادرين على التمام

قال ابن الجوزي بعد أن أرشد إلى علم الفقه والأثر: وإذا رزقت فصاحة من حيث الوضع، ثم أضيف إليها معرفة اللغة والنحو، فقد شحذت شفرة لسانك على أجود مِسن (صيد الخاطر ص ٣٠٩). =

. . . .

= وما أحسن الفصاحة في إثبات الحق، وما أجمله إذا ارتدى حلة البيان:

إذا ما الفكر ولد حسن لفظ وأسلمه الوجود إلى العيانِ
ووشاه فنمنمه بيان فصيح في المقال بلا لسانِ
ترى حلل البيان منشرات تجلى بينها حلل المعاني

(الأبيات لأبي إسحاق إبراهيم بن العباس الصولي، معجم الأدباء ١/ ١١٥)

وها أنت ترى الإمام الكبير أبا محمد بن حزم كيف غلب كثيراً من الفقهاء والأصوليين بقوة اللسن، وكان الرجل أعطي قوة في البيان شديدة، ربما شغب بها في كثير من المسائل.

ومن عمل الفصاحة والبلاغة، وتأثيرها على ما يراد إثباته، استطاع أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أن يلبس على كثيرين أمرهم، وبلغ مبلغاً قال فيه ابن قتيبة (تأويل مختلف الحديث ص ٥٩):

هو آخر المتكلمين، والمغاير على المتقدمين، وأحسنهم للحجة استثارة، وأشدهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يعظم، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار إلى أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج لفضل السودان على البيضان، وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليًّا، ومرة يؤخره. اهـ.

فهكذا يكون البيان، وهكذا تأثيره.

ولله دَرُّ الخليل إذ يقول:

لا يكون الألد ذو المقول المر هف عند الحجاج مثل العيي
أي شيء من اللباس على ذي السر وأبهى من اللسان البهي
ينظم الحجة الشتيتة في السلك من القول مثل عقد الهدي
وترى اللحن بالحسيب أخي الهيئة مثل الصدى على المشرفي
فاطلب النحو للحديث وللشعر مقيماً والمسند المروي
وارفض القول عن طغام جفوا عنه وعابوه بفضة للنبي

(جامع الخطيب ٢/ ٢٧ ـ ٢٨). =

. . . .

= **قال مقيده**: وأقبح منه في الحديثيّ ألا يكون فقيهاً عالماً بمعاني ما يروي، وإلا كان هزأة من المتفقهين، الذين ما زالوا يتتبعون سقطات المحدثين في الإفتاء ويسخرون منها.

وقد كان الغالب على محدثي السلف أنهم أئمة فقهاء، وإن وجد منهم من ليس بفقيه.

وقد تناول ابن الجوزي في تلبيس إبليس جانباً من هذا، وحط على بعض الكبار كابن معين، واتهمه أنه لا يحسن الفقه، وابن معين أجل من ذلك وأعلى، وهو معدود من الفقهاء على مذهب الكوفة.

وقال ابن الجوزي في الحث على حفظ العلم ص ٢٤:

لقد تشاغل خلق كثير من أصحاب الحديث بعلوم الحديث، وأعرضوا عن الفقه، فلما سئلوا عن مسألة في الأحكام افتضحوا.

ثم ساق عن الخطيب في تاريخ بغداد عن البرقاني عن أبي بكر الأبهري قال: كنت عند يحيى بن صاعد، فجاءته امرأة، فقالت: أيها الشيخ، ما تقول في بئر سقطت فيها دجاجة فماتت، هل الماء طاهر أم نجس؟ فقال يحيى: ويحك كيف سقطت الدجاجة في البئر؟ قالت: لم تكن مغطاة، قال: ألا غطيتها حتى لا يقع فيها شيء، قال الأبهري: قلت يا هذه، إن كان الماء تغير، وإلا فطاهر.

وقال إبراهيم الحربي: بلغني أن امرأة جاءت إلى علي بن داود وهو يحدث، وبين يديه مقدار ألف نفس، فقالت: بصدقة إزاري! فقال: بكم اشتريته؟ فقالت: باثنين وعشرين درهماً، فلما مرت قال: آه آه، أمرناها بكفارة الظهار!.

قلت: التشاغل بماهية الحديث يخرج من ذلك كله، وقد حذر علماء السلف من اتخاذ العلوم المقترنة بالحديث ملهاة يتشاغل بها الرجل، دون أن يتشاغل بنفس الحديث.

قال سفيان الثوري: وليس طلب الحديث من عدة الموت، ولكنه علة يتشاغل بها الرجل.

قال الذهبي عقبها (تذكرة الحفاظ ١/ ٢٠٤): =

فهو بحقّ: فريد عصره، وقريع دهره، وإمام وقته، ونسيج وحده.

قاضي المرستان:

هو الشيخ الإمام العالم المتفنِّن مسند الزمان: أبو بكر محمد بن عبد الباقي البغدادي، من ذرية الصاحب كعب بن مالك.

مولده سنة ٤٤٢، قال فيه أبو موسى المديني:

كان إماماً في الفنون[١].

سُمِع وهو يقول: حفظت القرآن وأنا ابن سبع، وما من علم إلاَّ وقد نظرت فيه، وحصَّلت منه الكلّ أو البعض، إلاَّ هذا النحو فإني قليل البضاعة فيه، وما أعلم أنِّي ضَيَّعت ساعة من عمري في لهو أو لعب[٢].

ومن كلماته السائرة:

ـ من خدم المحابر، خدمته المنابر.

ـ يجب على المعلِّم ألاَّ يُعَنِّف، وعلى المتعلِّم ألاَّ يأنف[٣].

السيف الذهبي في الذبّ عن أئمّة الحديث النبوي:

وهكذا كان عامة أصحاب الحديث، وإيّاك أن تظن بهم غير ذلك.

= صدق والله، إن طلب الحديث شيء غير الحديث، فطلب الحديث اسم عرضي لأمور زائدة على تحصيل ماهية الحديث، وكثير منها مراق إلى العلم، وأكثرها أمور يشغف بها المحدث، من تحصيل النسخ المليحة، وتطلب العالي، وتكثير الشيوخ، والفرح بالألقاب...، إلى أمور عديدة لازمة للأغراض النفسانية لا الأعمال الربانية، فإذا كان طلبك الحديث النبوي محفوفاً بهذه الآفات، فمتى خلاصك إلى الإخلاص..

(١) ذيل طبقات الحنابلة، لابن رجب ١/١٩٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٢٦.

(٣) سمعها منه تلميذه ابن الجوزي، المنتظم ١٠/٩٤.

فإن أبيت فاسمع الذهبي يقول:

بالله عليك يا شيخ ارفق بنفسك، والزم الإنصاف، ولا تنظر إلى هؤلاء الحفاظ النظر الشزر، ولا ترمقهم بعين النقص، ولا تعتقد فيهم أنهم من جنس محدِّثي زماننا، حاشا وكلاَّ، فما في من سمَّيت أحد إلاَّ ــ ولله الحمد ــ وهو بصير بالدِّين، عالم بسبيل النجاة، وليس في كبار محدِّثي زماننا أحد يبلغ رتبة أولئك في المعرفة.

فإني أحسبك لفرط هواك تقول بلسان الحال إن أعوزك المقال: من أحمد؟ وما ابن المديني؟ وأي شيء أبو زرعة وأبو داود؟ هؤلاء محدثون لا يدرون ما الفقه، وما أصوله، ولا يفقهون الرأي، ولا علم لهم بالبيان والمعاني والدقائق، ولا خبرة لهم بالبرهان والمنطق، ولا يعرفون الله تعالى بالدليل، ولا هم من فقهاء الملّة!

فاسكت بحلم، أو انطق بعلم، فالعلم النافع هو ما جاء عن أمثال هؤلاء.

ولكن نسبتك إلى أئمّة الفقه كنسبة محدِّثي عصرنا إلى أئمّة الحديث، فلا نحن ولا أنت، وإنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذو الفضل، فمن اتقى الله راقب الله، واعترف بنقصه، ومن تكلَّم بالجاه وبالجهل، أو بالشرّ والبأو، فأعرض عنه، وذره في غيِّه، فعقباه إلى وبال، نسأل الله العفو والسَّلامة(١).

١٣ ــ تخلَّق بأخلاق الإسلام:

وجِّهوا طالب هذا العلم إلى الأخذ بمحاسن الأخلاق، والترفُّع عن سفسافها، وعليه أن يصون نفسه عن الدنايا، لأنَّ صيانة النفس أصل الفضائل.

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٦٢٨.

عن أبي عاصم النبيل قال: من طلب هذا الحديث فقد طلب أعلى أمور الدين، فيجب أن يكون خير الناس[1].

ومتى صان ذو العلم نفسه حق صيانتها، ولازم فعل ما يلزمها، أمن تعيير المُوالي، وتنقص المعادي، وجمع إلى فضيلة العلم جميل الصيانة، وعزة النزاهة، فصار بالمنزلة التي يستحقها بفضائله[2].

١٤ ـ إيّاك والدُّنيا:

وأسوأ ما يكون في الحديثي الخضوع لأجل الدنيا، والتملق في تحصيلها، فهل لي بِأَبِيٍّ كالقاضي الأديب الفقيه أبي الحسن علي بن عبدالعزيز الجرجاني إذ يقول:

وقالوا توصَّل بالخضوع إلى الغنى ... وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال شيئان حَرَّما ... عليَّ الغنى: نفسي الأبية والدهر
إذا قيل هذا اليسر أبصرت دونه ... مواقف خير من وقوفي بها العسر
فإن لم يكن عند الزمان سوى
الذي أضيق به ذرعاً فعندي له الصبر[3]

والجرجاني هو صاحب القصيدة السائرة في عزّ العلم وأهله، ومنها:

يقولون لي فيك انقباض وإنما ... رأوا رجلاً عن موقف الذل أحجما[4]

(١) المقدمة ص ٢٤٥.

(٢) أدب الدنيا والدين، للماوردي ص ٧٢.

(٣) وفيات الأعيان، لابن خلكان ١/ ٣٢٥.

(٤) هذه القصيدة سماها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: وصف العالم الأبي، =

. . . .

= وقد اعتنى بها وأوردها على الوجه في آخر كتابه صفحات من صبر العلماء ص ٣٥٢.

ثم نقل عن السبكي في وصفها: لله هذا الشعر ما أبلغه وأصنعه، وما أعلى على هام الجوزاء موضعه، وما أنفعه لو سمعه من سمعه، وهكذا فليكن ــ وإلا فلا ــ أدب الفقيه. اهـ.

قلت: وللحافظ ابن دقيق العيد قصيدة نحا فيها هذا المنحى، ذكرها السبكي في مفيد النعم ومبيد النقم ص ٦٩.

(وكان فضل التنبيه عليها بواسطة: الفوائد المنتقاة ص ١٢٩، لشيخنا العلامة عبد المحسن العباد، وفقه الله).

وها أنا أوردها بتمامها فإنها عزيزة المنال:

يقولون لي هلاَّ نهضت إلى العلا ... فما لذ عيش الصابر المتقنعِ
وهلاَّ شددت العيس حتى تحلها ... بمصر إلى ظل الجناب المرفعِ
ففيها من الأعيان مَن فيض كفه ... إذا شاء روى سيله كل بلقعِ
وفيها قضاة ليس يخفى عليهم ... تَعَيّن كون العلم غير مضيعِ
وفيها شيوخ الدين والفضل والألى ... يشير إليهم بالعلا كل إصبعِ
وفيها، وفيها، والمهانة ذِلة ... فقم واسْعَ واقصد باب رزقك واقرعِ
فقلت: نعم أسعى إذا شئت أن أُرى ... ذَليلاً مُهَاناً مُستخفًّا بموضعي
وأسعى إذا ما لذَّ لي طول موقفي ... على باب محجوب اللقاء مُمَنَّعِ
وأسعى إذا كان النفاق طريقتي ... أروح وأغدو في ثياب التصنُّعِ
وأسعى إذا لم يبق فيَّ بقية ... أراعي بها حق التقى والتورع
فكم بين أرباب الصدور مجالساً ... تشب بها نار الغضى بين أضلعي
وكم بين أرباب العلوم وأهلها ... إذا بحثوا في المشكلات بمجمع
مناظرةً تحمي النفوس فتنتهي ... وقد شرعوا فيها إلى شر مشرع
إلى السفه المزري بمنصب أهله ... أو الصمت عن حقٍّ هناك مضيَّع
فإما توقَّى مسلك الدين والتقى ... وإما تلقَّى غصةَ المتجرِّع

الشروط العشرة:

وبعد، فلا بدَّ لطالب هذا العلم، وغيره من العلوم، مِن عشرة شروط:

١ ــ العقل الذي يدرك به حقائق الأمور.

٢ ــ الفطنة التي يتصور بها غوامض العلوم.

٣ ــ الذكاء الذي يستقر به حفظ ما تصوره، وفهم ما علمه.

٤ ــ الشهوة التي يدوم بها الطلب، ولا يسرع إليها الملل.

٥ ــ الاكتفاء بمادة تغنيه عن كلف الطلب.

٦ ــ الفراغ الذي يكون به التوفر، ويحصل به الاستكثار.

٧ ــ عدم القواطع المذهلة من هموم وأشغال.

٨ ــ طول العمر، واتساع المدة، لينتهي بالاستكثار إلى مراتب الكمال.

٩ ــ الظفر بعالم سمح بعلمه، متأن في تعليمه[1]، وهي أشدها.

١٠ ــ الرفقة الصالحة، يُجدد بها الهمة الفاترة، والطلب المتواني.

فصاحِبْ أهلَ الهمم العالية، وتجنَّب النَّوكى والبطَّالين، وأَمِط مَن تصدَّى لك منهم عن قارعة طريقك، فإنهم إن لم ينكبوك عن دربك، بطَّؤوك في مشيك.

وأنشد أبو بكر الخوارزمي:

لا تصحب الكسلان في حالاته ... كم صالح بفساد آخر يفسد

عدوى البليد إلى الجليد سريعة ... والجمر يوضع في الرماد فيخمد

* * *

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ١١١ ــ ١١٢.

ثانياً: المنهجيّة في التحديث

١ ـ بلوغ سن التحديث:

مما حثّوا عليه المحدث ألا يحدث حتى يبلغ سنًّا معينة، على سبيل الاستحباب لا الإيجاب:

فعن بعضهم: هو سن الأربعين، قالوا: لأن النبي ﷺ نُبِّىء وهو ابن أربعين، وفي الأربعين تتناهى العزيمة، وتكمل القوة، ويتوفر العقل، ويجود الرأي(١).

قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: أكمل ما يكون الإنسان عقلاً وذهناً إذا بلغ أربعين سنة، وهي السن التي بعث الله تعالى فيها محمَّداً ﷺ، ثم يتغير وينقص إذا بلغ ثلاثاً وستين، وهي السن التي قبض فيها رسول الله ﷺ، وأصفى ما يكون ذهن الإنسان وقت السحر(٢).

وقال قوم: حتى يستوفي الخمسين، لأنها انتهاء الكهولة، وفيها مجتمع الأشد، قال سحيم بن وثيل:

أخو خمسين مجتمع أشدي ... ونجذني(٣) مداورة الشؤون(٤)

المستحب في سنّ التأليف:

وهو المستحب أيضاً في سنّ التأليف، وهو محمول على المتصدِّي ابتداء من نفسه، من غير براعة في العلم تعجّلت له، وعلى ما إذا كان في البلد من يكفيه التحديث.

---

(١) المحدث الفاصل ص ٣٥٢ ـ ٣٥٣.

(٢) نقله في وفيات الأعيان ٢/ ٢٤٥.

(٣) المنجَّذ: هو المجرَّب، قال في القاموس: نجّذه، أي ألح عليه.

(٤) المحدث الفاصل ص ٣٥٣.

قال العلماء: وعليه أن يمسك متى أحسَّ بتغيُّر عقله وفهمه.

٢ ــ تأدب مع الأقران:

ذكروا أنه لا ينبغي للمحدِّث التصدُّر بحضور مَن هو أولى منه وأسند، وهذا أدب أرشد إليه ابن معين ورغّب فيه.

وفي سياق ما يذكر في ترجمة شيخ الشام ومحدِّثها عبد الأعلى بن مسهر الغسَّاني الدِّمشقي جاء قول يحيى بن معين: الذي يحدِّث ببلد به مَن هو أولى بالتحديث منه أحمق، وإذا رأيتني أحدِّث ببلد فيها مثل أبي مسهر فينبغي للحيتي أن تُحلق[١].

ابن عون لا يحدِّث في حياة أَيُّوب:

وهذا ابن عون على جلالته وفضله ما حدث بشيء حياةَ أيوب السختياني، فلما توفِّي حدَّث، قال ابن المديني: وبلغني أنَّ ابن عون لم يحدِّث إلاَّ بعد موت أَيُّوب، وكان يحدِّث بعد ذاك بخمسة أو ستة أحاديث، وكان يمتنع من الحديث، حتى مات يونس بن عبيد، فألحَّ عليه أصحاب الحديث، فسلس وحدَّث.

قال: ومات أيوب سنة ١٣١هـ، ومات يونس سنة ١٣٩هـ، ومات ابن عون سنة ١٥١هـ، وكان ابن عون أسنّ من أيوب بسنتين[٢].

بين السفيانين:

وعن الحسن بن قتيبة قال: قال سفيان الثوري لسفيان بن عيينة: ما لك لا تحدِّث؟ فقال: أما وأنت حيّ فلا[٣].

---

(١) الجرح والتعديل ٦/ ٢٩، تاريخ بغداد ١١/ ٧٤، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٣٠ ــ ٢٣١.

(٢) كتاب التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم، للمقدمي ص ١٦٧.

(٣) المحدث الفاصل ص ٣٥٢

٣ ـ تألّف تلاميذك:

وذكروا ضرورة تألُّف تلاميذه، والترفُّق بتعليمهم.

قال ابن الصلاح: قد كان من السلف رضي الله عنهم مَن يتألَّف الناس على حديثه، منهم عروة بن الزبير[(١)].

أبو سلمة يتألَّف أصحابه:

وكان أبو سلمة بن عبد الرحمن بن عوف التابعي الجليل حريصاً على نشر العلم بين الطلبة، فكان يصطحبهم إلى بيته ترغيباً لهم، قال ابن إسحاق: رأيت أبا سلمة يأتي المكتب فينطلق بالغلام إلى بيته، فيملي عليه الحديث[(٢)].

نعم؛ إن احتاج إلى شيء من الشدَّة فلا بأس، بشرط أن لا ينفر الطالب، على قول:

فقسى ليزجره، ومن يك حازماً فليقس أحياناً على مَن يرحم

ابن عباس يشد وثاق عكرمة:

جاء في ترجمة حبر التابعين، ووارث علم التأويل عن ترجمان الأمة، عكرمة البربري، مولى عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، أن ابن عباس كان يشد عليه القيد في طلب العلم.

قال عكرمة: كان ابن عباس يضع رجلي في الكبل، على تعليم القرآن والسنن[(٣)].

لكن ابن عباس كان يجزل له على الإصابة.

---

(١) المقدمة ص ٢٤٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/ ٢٩٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ١٤.

ولما قرأ ابن عباس قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ . . .﴾ الآية، قال: لا أدري أَنَجا القوم أم هلكوا؟

قال عكرمة: فما زلت أُبيِّن له، وأُبَصِّره، حتى عرف أنهم قد نجوا، قال: فكساني حلّة[1].

قال ابن فارس: هذه الغلظة إنما تنفع في زمن انكباب الناس على العلم ومغالاتهم فيه، فكانوا يحتملون طبائع المشايخ، أما اليوم فانقلبت الآية، وصار الواجب على المشايخ احتمال فظاظة الطلّاب، وسوء أخلاقهم، وإلاَّ تركوهم وما عندهم.

على أنَّ الرِّفْق ما كان في شيء إلاَّ زانه، وما زالت الغلظة منفِّرة للطلّاب، مزهّدة في الشيخ حتى ولو كان بحراً، ولو كان الإمام يحيى بن سعيد القطّان؛ بل ربما ولَّدت في أنفسهم كرهاً للشيخ، فيتتبَّعوا عوراته ولو كان الشيخ في جلالة أحمد بن صالح ابن الطبري.

الطلاَّب ينفرون من القطَّان:

في تاريخ أبـي عبد الله محمد بن أحمد المقدمي (ت ٣٠١) قال: سمعت الشهيدي يقول: سمعت عليّ بن المديني يقول: ما رأيت أحداً أعلم بالرجال مِن يحيى بن سعيد، ولا رأيت أحداً أعلم بالحديث مِن عبد الرحمن بن مهدي.

قال الشهيدي: قيل ليحيـى بن سعيد القطان: إنك تكثر التضجُّر بأصحاب الحديث، أفيسرّك أنهم تركوك فلم يأتوك؟ قال: أما الترك فلا، ولكن يُخَفِّفون[2].

---

(١) القصة أخرجها ابن جرير من طرق عدة عند تفسير هذه الآية من سورة الأعراف.

(٢) كتاب التاريخ، للمقدمي ص ١٦٨.

فانظر كيف هَمَّ أصحاب الحديث بترك يحيى، والاستعاضة عنه بسواه، ومن ذا الذي يسدُّ مسدَّه؟ ولكنه التضجُّر بالتلاميذ، والملالة منهم.

النسائي يتعقَّب ابن الطبري:

وهذا أحمد بن صالح الحافظ، إمام مصر، كان به كبر وتيه[1]، فلما أتاه أبو عبد الرحمن النسائي لقي منه جفوة، فأورثت بينهما عداوة، جعلت النسائي يترك الحديث عنه، ويرميه بالطوام، وتتبع بعض أحاديثه فرأى فيها وهماً[2] ــ مما لا يخلو منه إنسان ــ فكانت معتَمَده بالطعن فيه، مع نقل أوهم فيه عن يحيى بن معين.

قال عبد الكريم ابن النسائي عن أبيه: أحمد بن صالح ليس بثقة ولا مأمون، تركه محمد بن يحيى، ورماه يحيى بالكذب[3].

قال الحافظ أبو أحمد بن عدي: وأما سوء رأي النسائي، فسمعت محمد بن هارون بن حسان البرقي يقول: هذا الخراساني ــ يعني النسائي ــ يتكلم في أحمد بن صالح، وحضرت مجلس أحمد بن صالح، وطرده من مجلسه، فحمله ذلك على أن تكلم فيه[4].

---

(١) كان أحمد يرى نفسه على أهل الحديث بمن فيهم بعض مشايخه، كحرملة بن يحيى التجيبي، فإنه كان يمر عليه في طريقه إلى الجمعة فينظر إليه، ويمر دون أن يسلِّم، فقال حرملة: انظر إلى هذا بالأمس يحمل دواتي يعني المحبرة، واليوم يمر فلا يسلم عليّ. . الكامل، لابن عدي ١/ ١٨٣.
قلت: بئس الخُلُق في الشيخ الكِبر، ولعل أحمد تاب في ما بعد، وما أرى كلام النسائي فيه إلاَّ عقوبة له، رحمنا الله وإياهم.

(٢) ذكر بعض هذه الأحاديث ابن عدي في الكامل ١/ ١٨٠.

(٣) تهذيب التهذيب ١/ ٤١.

(٤) الكامل، لابن عدي ١/ ١٣٨.

لذّته في الإسماع:

من كبار رواة الأجزاء والمصنفات الحديثية أبو القاسم زاهر بن طاهر الشحامي (ت ٥٣٣)، كان من أقطاب الإسناد في القرن السادس، قلَّ كتاب إلاَّ رواه وحدَّث به، ولك أن تطالع الأثبات والفهارس والأجزاء الحديثية، لترى مقدار ما روى وحدث، كان صبوراً على الإسماع حتى غدا مسند الزمان.

قال السمعاني: جمع ونسخ بخطه، وكان صاحب أصول وعرض، حمل عنه الكثير ورحل في رواية الحديث ونشره... ورجع إلى نيسابور، وكان صبوراً لا يضجر من القراءة عليه، حتى قرأت عليه تاريخ نيسابور للحاكم أبي عبد الله في أيام قلائل[1]..

٤ ــ حلية الشيخ:

ومما أرشدوا إليه المحدث: أن يتحلّى بصفة حسنة وهيئة طيبة حال الدرس، وهذا باب تناولته كتب المصطلح بالتفصيل، وهذه جمل منها:

قال حبيب بن ثابت: إنَّ من السنّة إذا حدث الرجل القوم أن يقبل عليهم جميعاً[2].

وحدَّث أبو موسى هارون الحمال البغدادي مرة، وكان قاعداً في الفيء والناس يكتبون في الشمس، فرآه أحمد بن حنبل فعاتبه، قال هارون: جاءني بالليل، ومسّاني، فقال: شُغلت اليوم، وأنت قاعد تحدث الناس في الفيء وهم في الشمس، بأيديهم الأقلام، لا تفعل، إذا قعدت فاقعد مع الناس[3].

(١) ذيل تاريخ بغداد ١٩/ ١١٩.

(٢) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤١.

(٣) جامع الخطيب ١/ ٤١١، تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٧٨.

ولا بأس أن يجعل له بساطاً أو وسادة يجلس عليها، فقد ورد مثل هذا عن الشافعي رحمه الله.

تأدّب بآداب مالك:

وكان مالك بن أنس رحمه الله يقعد على هيئة خاصة حال التحديث.

قال إسماعيل بن أبي أويس: كان مالك بن أنس إذا أراد أن يحدث توضأ، وجلس على صدر فراشه، وسرح لحيته، وتمكن في جلوسه بوقار وهيبة وحدَّث، فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدث إلاّ على طهارة متمكناً[1].

ويستحب للمحدِّث أن يطرِّز مجلسه بنكت تجدِّد النشاط، وتطرد الملل، اقتداء بصحابة النبي ﷺ.

الصحابة يتناشدون الأشعار:

فعن أبي خالد الوالبي قال: كنا نجالس أصحاب النبي ﷺ فيتناشدون الأشعار، ويتذاكرون أيامهم في الجاهلية[2].

خاتمة مجلس الزهري:

وعن حمَّاد بن زيد قال: كان الزهري يحدِّث ثم يقول: هاتوا مِن أشعاركم وأحاديثكم، فإن الأذن مجَّاجة، وإن النفس حمضة[3].

وكان يختم مجلسه بهذا الدعاء: اللَّهُمَّ أسألك من كل خير أحاط به علمك في الدنيا والآخرة، وأعوذ بك من كل شرٍّ أحاط به علمك في الدنيا والآخرة[4].

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤٠، وانظر: وفيات الأعيان ٤/ ١٣٥ ـ ١٣٦.

(٢) جامع بيان العلم ١/ ٤٣٥.

(٣) سير أعلام النبلاء ٥/ ٣٤١.

(٤) المصدر السابق ٥/ ٣٣٥.

أبو الحسن الخلعي يختم المجلس بدعاء:

وقال الحافظ أبو الطاهر السِّلَفي: كان أبو الحسن الخلعي إذا سمع عليه الحديث يختم مجلسه بهذا الدعاء: اللَّـٰهُمَّ ما مننت به فتمِّمه، وما أنعمت به فلا تسلبه، وما سترته فلا تهتكه، وما علمته فاغفره[1].

٥ ــ لا تتصدَّر قبل التأهُّل:

قد نهوا أشدّ النهي عن التصدر قبل التأهل، وفي هذا ونحوه قالت العرب: تزبَّبت قبل أن تتحصرم.

وقال الفقيه الشافعي منصور بن إسماعيل التميمي[2] رحمه الله:

الكلب أحسن عشرة ... وهو النهاية في الخساسة
ممن ينازع في الرّيا ... سة قبل أوقات الرياسة[3]

وقال العلامة الفقيه أبو الطيب الصعلوكي (ت ٤٠٤): مَن تصدَّر قبل أوانه فقد تصدَّى لهوانه[4].

ويا لها من كلمة لو عقلها هذا المتصدِّر لما لا يحسن لأقصر، ولارعوى وكفّ، فإنه يحسب أن في تصدره رفعة له، وعزًّا وجاهاً، وما علم أن الهوان في ذاك المكان، والله أعلم.

٦ ــ حَدِّث احتساباً لا اكتساباً:

فذاك أحرى لقَبولك، وأرجى لنجاتك.

عن أحمد بن علي النيسابوري قال: سمعت أبا عمرو بن حمدان يفضِّل مسند أبي يعلى الموصلي على مسند الحسن بن سفيان.

---

(١) وفيات الأعيان ٣/٣١٨.
(٢) ذكره الشيرازي في طبقات الفقهاء ص ١٠٧.
(٣) وفيات الأعيان ٥/ ٢٩٠.
(٤) السير ١٧/٢٠٨.

فقيل له: كيف تفضله، ومسند الحسن أكثر من مسند أبـي يعلى، وهو أدرك شيوخ أبـي يعلى، وشيوخاً لم يدركهم أبو يعلى؟ فقال: لأنَّ أبا يعلى كان يحدِّث احتساباً، والحسن يحدِّث اكتساباً[1].

فإن احتاج إلى الاكتساب فلا بأس مع الضرورة، فقد كان بعض أهل العلم يحدِّث بعوض، وفي هذا الباب انظر أقوال أهل العلم في مصادر ترجمة علي بن عبد العزيز البغوي صاحب أبـي عبيد، والحارث بن أبـي أسامة، والله أعلم.

❑ ❑ ❑

(١) التقييد، لابن نقطة ١/١٦٦ ـ ١٦٧.

فصل

في أفضلية الحفظ، وبيان اعتماد المتقدمين عليه وما جاء في الحث على الحفظ

قد قدمنا أول الكتاب تعريف الحفظ، ومن هو الحافظ، وذكرنا آنفاً مناهج السلف في طلب العلم، وعندنا أن العلم ما كان بالحفظ، فناسب أن نذكر هنا مقدمة في فضل الحفظ، ثم مناهج السلف في الحفظ، وهي الأمور المعينة على الحفظ، مستقاة من سير كبار الحفاظ رحمهم الله تعالى.

فضل الحفظ:

«أما المنقولات في حفظ العلم فكثيرة، ويكفي منها قوله عزَّ وجلّ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَـٰتٍۢ﴾، وقول النبي ﷺ: «إنَّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم».

ويكفي من المعقولات أن العلم يدعيه من ليس من أهله، وينفر من النسبة إلى الجهل الجاهل، ولا يخفى ارتفاع قدر العالم بمقدار علمه، فإن قلَّ قلَّت رفعته.

وفي الحديث: «يقال لقارىء القرآن: اقرأ وارق، فمنزلك عند آخر آية تقرأها»[1]، وليس من حفظ نصف القرآن كمن حفظ الكل، ولا من حفظ مائة

---

(١) قال ابن فارس: لو لم يكن في فضل حفظ القرآن إلاّ هذا الحديث لكفى، فكيف وفيه أحاديث وفضائل لا تحصى؟

حديث كمن حفظ ألفاً، وعلى هذا فليس العلم إلاّ ما حُصِّل بالحفظ[1].

أول العلم كان قائماً على الحفظ:

وأوَّل نشوء العلم في هذه الأمة كان معتمداً على الحفظ، ولذلك الاعتماد أسباب، منها:

* كون الأمة كانت أُمِّيَّة، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ بقوله: نحن أُمَّة أُمِّيَّة. . . ، ومَن كان يكتب من السلف فقليل.

* وكانوا قوماً يمارسون الحفظ، ويتعاطونه ويتعوَّدونه، فهو عندهم أمر هين، إذ كانت عقولهم منفتحة، وأذهانهم صافية، وقرائحهم جيِّدة.

قال ابن عبد البرّ رحمه الله تعالى: . . . كانوا ـ أي العرب ـ مطبوعين على الحفظ، مخصوصين بذلك. . . ، فكان أحدهم يجتزىء بالسمعة، ألا ترى ما جاء عن ابن شهاب أنه كان يقول: إنِّي لأمر بالبقيع فأسد آذاني مخافة أن يدخل فيها شيء من الخنا، فوالله ما دخل أذني شيء قطّ فنسيته، وجاء عن الشعبي نحوه.

وهؤلاء كلهم عرب، وقال النبي ﷺ: نحن أمة أمية لا تكتب ولا تحسب.

وهذا أمر مشهور أنَّ العرب قد خُصَّت بالحفظ، كان بعضهم يحفظ أشعار بعض في سمعة واحدة، وقد جاء أنَّ ابن عبَّاس رضي الله عنهما حفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

أمِن آل نُعم أنت غادٍ فمبكر . . . .

في سمعة واحدة، على ما ذكروا، وليس أحد اليوم على هذا[2].

---

(١) من كلام ابن الجوزي في الحث على حفظ العلم ص ١٣.

(٢) جامع بيان العلم ١/٢٩٦.

التيسير للذكر:

ولستُ أنكر أنَّ العرب أمة خُصَّت بذلك، ولكن من الحفاظ من ليس بعربي، وقد حفظوا شيئاً كثيراً، فما هو والله إلاَّ تيسير الذِّكْر للحفظ، الذي وعد الله به هذه الأمة، وقد رأينا مِن الأعاجم مَن يحفظ القرآن دون فهم معانيه، ولو حملته على حفظ مقدار بسيط من كتاب بلغته، لا يختص بالعلم، لما استطاع ذلك، والله عزَّ وجلّ يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾، اللّـٰهُمَّ فلَكَ الشُّكْر والحمد.

حثّ النبيّ ﷺ على الحفظ:

قال ابن فارس: وكان النبي ﷺ يرشد إلى الحفظ ويأمر به، كما في حديث وفد عبد قيس، فقد قال في آخره: «احفظوه، وأخبروا من ورائكم».

وبوَّب عليه البخاري: باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد قيس على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا من ورائهم[(١)].

نهيه ﷺ غير الحافظ أن يحدِّث:

وكان ﷺ لا يأذن لأحد من أصحابه أن يحدِّث عنه إلاَّ لمن حفظ بما حفظ، وتلك منقبة عظيمة لأهل الحفظ، فكلّ مَن لا يحفظ حديثه فلا يجوز له أن يحدِّث به.

عن يحيى بن ميمون أنَّ أبا موسى الغافقي سمع عقبة بن عامر الجهني يحدث على المنبر عن رسول الله ﷺ أحاديث، فقال أبو موسى: إنَّ صاحبكم هذا لحافظ أو هالك، إن رسول الله ﷺ كان آخر ما عهد إلينا أن قال: «عليكم بكتاب الله، وسترجعون إلى قوم يحبون الحديث عنِّي، فمن

(١) فتح الباري ١/ ١٨٣.

قال عليّ ما لم أقل فليتبوّأ مقعده من النار، ومَن حفظ شيئاً فليحدِّث به»[1].

إرشاد الصحابة إلى الحفظ:

ثم كان الصحابة رضوان الله عليهم يختارون الحفظ، ويرشدون إليه، وكانوا أوّل الحفَّاظ، قال أبو موسى الأشعري: احفظوا عنّا كما حفظنا لكم[2].

وقال أبو سعيد الخدري: إن نبيكم ﷺ كان يحدثنا فنحفظ، فاحفظوا كما كنا نحفظ[3]. وكان أبو أمامة يقول لأصحابه إذا حدَّثهم: بلِّغوا عنَّا كما قد بَلَّغناكم[4]. وكان أنس رضي الله عنه يرشد إلى الحفَّاظ مِن أصحابه، كان يقول للمستفتين: سلوا مولانا الحسن ـ يعني البصري ـ فإنه سمع وسمعنا، فحفظ ونسينا[5].

ثم كان التابعون ومن وراءهم على ذلك، على ما ذكرنا في سيرة السنة.

---

(١) رواه أحمد ٤/ ٣٣٤، والحاكم في المستدرك ١/ ١١٣، وقال: رواة هذا الحديث عن آخرهم يحتج بهم، فأما أبو موسى مالك بن عبادة الغافقي فإنه صحابي سكن مصر.
ورواه الخطيب في الكفاية ص ٢٥٧، وقال الهيثمي: رواه أحمد والبزار والطبراني في الكبير ورجاله ثقات (المجمع ١/ ١٤٤) وله طريق أخرى عند أبي أحمد الحاكم، ذكر ذلك الحافظ في الإصابة ٧/ ١٨٤، فالحديث صحيح، والله أعلم.

(٢) جامع بيان العلم ١/ ٢٨٢، وإسناده صحيح.

(٣) سنن الدارمي ٦/ ١٢٢، جامع بيان العلم ١/ ٢٧٣، وإسناده صحيح.

(٤) جامع بيان العلم ١/ ٤٩٥، ومعلوم أن أبا أمامة لم يكن له كتاب، إنما كان يبلغهم مما كان يحفظ.

(٥) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٣٥.

وكانوا يجعلون من يحفظ فوق من لا يحفظ، إنزالاً منهم الناس بمنازلهم، بل كانوا لا يعدُّون أصحاب الكتب الذين لا يحفظون من أهل العلم، كما قال الأوزاعي: كان هذا العلم شيئاً شريفاً إذ كان من أفواه الرجال يتلاقونه ويتذاكرونه، فلما صار في الكتب ذهب نوره، وصار إلى غير أهله[1].

لا يسمَّى غير الحافظ عالماً:

وبعضهم تردَّد في تسميته عالماً، أعني مَن لا يحفظ، فقال الأصمعي ـ وكان آية في الحفظ ـ: يعد من العلماء وليس منهم: المُعَدِّد ما عنده، وهو الذي إذا سئل عن الشيء قال: هو عندي في الطاق أو في الصندوق[2].

وقال خالد بن يزيد بن معاوية الأموي: عُنيت بجمع الكتب، فلا أنا من العلماء ولا أنا من الجهَّال[3]!.

أخذه ابن يُسير الأزدي، فقال:

أأشهد في الجهل في مجلس ... وعلمي في البيت مستودع

إذا لم تكن حافظاً واعياً ... فجمعك للكتب لا ينفع[4]

قال مقيده: ماذا كان يفعل مَن استفرغ وسعه في جمع الكتب دون حفظ العلم لو سُرقت منه، أو تلفت بأنواع التلف، إذاً يزول عنه الوصف الذي أُلحق من أجله في العلماء، ويصبح من الجهال لُحاً.

---

(١) سنن الدارمي ١/ ١٢١، لاحظ قوله: صار إلى غير أهله.

(٢) جامع بيان العلم ١/ ٣٨٦، سير أعلام النبلاء ٧/ ١١٤.

(٣) جامع بيان العلم ١/ ٥٣٣.

(٤) الجامع لأخلاق السامع ٢/ ٢٥١ ـ ٢٥٢. في جملة أبيات له.

البِرْساني تسرق كتبه وهو لا يحفظها:

اللَّـٰهُمَّ إلاَّ إنْ فعل فِعل محمد بن بكر البرساني لما سرق اللصوص كتبه.

قال أبو داود: أخذ اللصوص كتب محمد بن بكر البرساني فنسخها من كتب محمد بن عمرو بن جبلة[1]، وهذا الفعل نوع جرح عند المحدثين.

قال أبو عبد الله بن البيِّع رحمه الله تعالى: الطبقة العاشرة من المجروحين: قوم كتبوا الحديث، ورحلوا فيه، وعُرِفوا به، فتلفت كتبهم بأنواع من التلف: الحرق أو النهب أو الهدم أو الغرق أو السرقة، فلمَّا سئلوا عن التحديث حدَّثوا بها من كتب غيرهم أو مِن حفظهم على التخمين، فسقطوا بذلك.

منهم: عبد الله بن لهيعة الحضرمي المصري، على جلالة محلِّه، وعلوِّ قدره...، وهو على جلالته احترقت كتبه بمصر فذهب حديثه، فخلط من حفظه، وحدَّث بالمناكير، فصار في حدّ مَن لا يحتج بحديثه، فكان أحمد بن حنبل رحمه الله يقول: سماع عبد الله بن المبارك وأقرانه الذين سمعوا من ابن لهيعة قبل وفاته بعشرين سنة صحيح.

أخبرني أبو نصر محمد بن عمر الخفاف، ثنا محمد بن المنذر الهروي قال: سمعت أحمد بن واضح المصري يقول: كان محمد بن خلَّاد الإسكندراني رجلاً ثقة، ولم يكن فيه اختلاف حتى ذهبت كتبه، فقدم علينا رجل يقال له أبو موسى في حياة ابن بكير، فذهب إليه ــ يعني إلى محمد بن خلاد ــ بنسخة ضمام بن إسماعيل ونسخة يعقوب بن عبد الرحمن، فقال: أليس قد سمعت النسختين؟ قال: نعم، قال: فحدثني بهما، قال: قد ذهبت

---

(١) سؤالات أبي عبيد الآجري ٢/ ٦٥.

كتبي ولا أحدث به، قال: فما زال به هذا الرجل حتى خدعه، وقال له: النسخة واحدة، فحدّث بها.

فكل من سمع منه قديماً قبل ذهاب كتبه فحديثه صحيح ومن سمع منه بعد ذلك فليس حديثه بذاك[1].

قاطع طريق يعلم الغزالي:

ومما يُذْكَر عن الفقيه الغزالي أنَّ قاطع طريق اعترضه وسلب ما معه، بما فيها زوامل كتبه، فتوسَّل إليه الشيخ أن يعيد الكتب ويأخذ ما سواها، فقال اللصّ: ولِمَ؟ قال: لأنها علمي، وإذا ذهبت ذهب علمي، فقال اللصّ ـ النصوح ـ: بئس علم الرجل الذي ليس في صدره، ثم أعادها له.

قال الغزالي: فأخذتني كلمة الرجل، فلما عُدْتُ حفظتها كلها.

قال ابن السبكي: قرأ في صباه طرفاً من الفقه ببلده على أحمد بن محمد الراذكاني، ثم سافر إلى جرجان إلى الإمام أبي نصر الإسماعيلي، وعلّق عنه التعليقة، ثم رجع إلى طوس.

قال الإمام أسعد الميهني: فسمعته يقول: قُطعت علينا الطريق، وأَخذ العيَّارون جميع ما معي ومضوا، فاتبعتهم إلى مقدِّمهم، وقال: ارجع ويحك وإلَّا هلكت، فقلت له: أسألك بالذي ترجو السَّلامة منه أن تردَّ عليَّ تعليقتي فقط، فما هي بشيء مما تنتفعون به، فقال لي: وما هي تعليقتك؟ فقلت: كتب في تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها، ومعرفة علمها، فضحك، وقال: كيف تدَّعي أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك فتجرَّدْتَ مِن معرفتها وبقيت بلا علم؟! ثم أمر بعض أصحابه فسلم إليَّ المخلاة.

قال الغزالي: هذا مستنطق أنطقه الله ليرشدني به في أمري، فلما

---

(١) المدخل إلى الإكليل بشرحي ص ١٤١.

وافيتُ طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين، حتى حفظت جميع ما علَّقته، وصرت بحيث لو قطع عليَّ الطريق لم أتجرَّد من علمي[1].

من ضُعِّف في شيخ لا يحفظ حديثه:

وهؤلاء النقاد يُضعفون رواية ثقة عن شيخ بعينه، لأنه فقد كتابه عنه، ولم يكن يحفظ حديثه، فتنزل مرتبته في هذا الشيخ بعينه، وقد يكون في غيره من المُقدمين، مِن هؤلاء: أبو عوانة، فقد ضعف في روايته عن قتادة لهذه العلة، قال ابن المديني: كان أبو عوانة في قتادة ضعيفاً، لأنه كان قد ذهب كتابه[2].

هجاء لطيف!

وكان أبو بكر الصولي لا يحفظ كتبه، وكان عنده بيتٌ مملوءٌ كتباً قد صفَّها، وجلودها مختلفة، وكان يقول: هذه كلها سماعاتي، فإذا احتاج معاودة شيء منها قال: يا غلام، هات الكتاب الفلاني.

فهجاه أبو سعيد العقيلي هجاء لطيفاً[3]، وقال:

إنما الصولي شيخ ... أعلم الناس خزانة

إن سألناه بعلم ... طلباً منه إبانة

قال يا غلمان هاتوا ... رزمة العلم فلانة[4]

ونحوه ما أنشد بعض البصريين:

رُبَّ إنسان ملا أسفاطه كتب العلم وهو بعد يخط

---

(١) طبقات الشافعية ٤/ ١٠٣.

(٢) تهذيب التهذيب ١١/ ١١٩.

(٣) وصفه باللطف ابن خلكان في وفيات الأعيان ٤/ ٣٦٠.

(٤) تاريخ بغداد ٣/ ٤٢٧، ولسان الميزان ٥/ ٤٢٧.

فإذا فتشته عن علمه قال علمي يا خليلي في السفط
بكراريس جياد أحرزت وبخط أي خط أي خط!
فإذا قلت له: هات أرنا حك لحييه جميعاً وامتخط[1]

الزبيري يحفظ حديث الثوري:

ولو كان هؤلاء كأبي أحمد الزبيري لما استُهدفوا بالنقد، ولا قُصدوا بالهجاء.

قال أبو أحمد الزبيري: (محمد بن عبد الله الأسدي ت ٢٠٢): لا أبالي أن يُسْرَق مِنِّي كتاب سفيان الثوري، إنِّي أحفظه كلّه[2].

ولمّا سأل الحافظُ أحمد العجلي محمد بن المنهال الضرير: ألك كتاب؟ فأجاب: كتابي صدري[3].

وأنشد الخليل بن أحمد:

ليس بعلم ما حوى القمطر ... ما العلم إلاَّ ما حواه الصدر[4]

وقال أبو العتاهية:

مَن مُنِح الحفظ وعى ... ومَن ضَيَّع الحفظ وهم

ابن حزم لا يأبه بحرق كتبه لأنه يحفظها:

وهذا أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري، صاحب العلوم والفنون، كان رجلاً حفَظَة، ولما اجتمع الفقهاء على إحراق كتبه في إرهاب

(١) الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٥١.
(٢) تهذيب التهذيب ٩/ ٢٥٥.
(٣) تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٤٧.
(٤) أنشده يموت بن الزرع كما في جامع الخطيب البغدادي ٢/ ٢٥١، وانظر: المحدِّث الفاصل ص ٣٨٧.

فكري حاقد، لـم تشهد لـه الأندلس مثيلاً، وأوعـزوا إلى المعتمد بـن عبَّاد المتسلطن بذلك، أنشد أبو محمد:

فإن تحرقوا القرطاس لا تحرقوا الذي ... تضمنه القـرطـاس بـل هو في صدري
يسير معي حيث استقلت ركائبي ... وينـزل إن أنـزل ويـدفـن فـي قبـري
دعـونـي مـن إحـراق رق وكـاغـد ... وقولوا بعلم كي يرى الناس من يدري
وإلاَّ فعـودوا فـي المكـاتـب بـدأة ... فكـم دون مـا تبغـون لله مـن ستـر[1]

قال الأصمعي: سمع يونس بن حبيب رجلاً ينشد:

استـودع العلـم قـرطـاسـاً فضيّعـه ... وبئـس مستـودع العلـم القـراطيـس

فقال يونس: قاتله الله، ما أشد صيانته للعلم وصيانته للحفظ، إن علمك من روحك، وإن مالك من بدنك، فصن علمك صيانتك لروحك، وصن مالك صيانتك لبدنك[2].

الحفظ طريق النبوغ:

قال مقيده: وإنما كان هذا الاهتمام بالحفظ، لأن المعاني ــ رعاك الله ــ شوارد تضل بالإغفال، والعلوم وحشية تنفر بالإرسال، فإذا حفظتَها أَنِسَتْ، وإن ذاكرتها رَسَتْ.

وربما قلَّل مِن شأن الحفظ مَن لا لُبَّ له، وزعم أنَّ في الفهم كفاية، مع بقاء الكتب التي هي مصادر الرواية، وقائل هذا تكلَّف لما لا يُحسن، وأولج نفسه في أمور لا خبرة له بها، وهـو إمـا أنْ يكون رجلاً أحمقاً، قـد ضلَّ عن منهجية الطلب، فـهـذا يُـعـلـم ويـرشـد، وإمـا أن يكون عاجزاً عن الحفظ،

(١) ديوان ابن حزم، جمع د. صبحي رشاد، معجم الأدباء ٣/ ٥٥٤، سير أعلام النبلاء ١٨/ ٢٠٥.

(٢) جامع بيان العلم ١/ ٢٩٤ ــ ٢٩٥.

فقال مقولته تلك حسداً من عند نفسه، إذ قد رأى من فتح الله عليه في هذا الباب فغدا فيه إماماً.

قال الماوردي: وربما استثقل المتعلم الدرس والحفظ، واتكل بعد فهم المعاني على الرجوع إلى الكتب والمطالعة فيها عند الحاجة، فلا يكون إلاَّ كمن أطلق ما صاده، ثقة بالقدرة عليه، بعد الامتناع منه، فلا تعقبه الثقة إلاَّ خجلاً، والتفريط إلاَّ ندماً، وهذه حال قد يدعو إليها ثلاثة أشياء:

إما الضجر من معاناة الحفظ ومراعاته، وطول الأمل في التوفر عليه عند نشاطه، وفساد الرأي في عزيمته، وليس يَعلم أن الضَّجور خائب، وأن الطويل الأمل مغرور، وأن الفاسد الرأي مصاب، والعرب تقول في أمثالها: «حرف في قلبك خير من ألف في كتبك»، وقالوا: «لا خير في علم لا يعبر معك الوادي، ولا يعمر بك النادي»[1].

وأنشد الربيع للشافعي[2]:

علمي معي حيث ما يممت يتبعني
قلبي وعاء له لا بطن صندوق

إن كنت في البيت كان العلم فيه معي
أو كنت في السوق كان العلم في السوق

(قال عفان بن مسلم الصفَّار[3]: سألت عبيد الله بن الحسن أن يخرج إلي كتاب الجريري، فأبى وقال: ائت هلال بن حقّ فإنه عنده، وقال: وجدت أحضر العلم منفعة ما وعيته بقلبي، ولكته بلساني.

(١) أدب الدنيا والدين ص ٩٨.

(٢) عزاها في الجامع لأخلاق الراوي، لبشار ٢/ ٢٥٠.

(٣) ما بين القوسين منقول من الجامع، للخطيب ٢/ ٢٥٠، فصل: الحث على الحفظ.

وقال الأصمعي وعبد الرزاق: كل علم لا يدخل مع صاحبه الحمام فلا تعدّه علماً، وعن الأصمعي: فهو زور، وأنشد:

واعلـــم بـــأن العلـــم مـــا أوعيـت فـي صحـف الضمـائـر)

ومـا يـزال الرجـل يحفظ ويتكلّف الحفظ فما يلبث أن ينبـغ فـي سائر العلوم.

جـاء في ترجمـة ابن الدهّان وجيـه الدِّيـن المبارك بـن المبـارك بـن أبـي السعـادات الواسطي الضريـر أنـه حفظ القـرآن وتـلا بـالقـراءات عـلى جماعة كثر.

وقـال فيه ابـن النجار: قـرأ جملة من كتب النحو واللغة والشعر على أبـي البركات الأنباري من حفظه، وذكر لي أنه قرأ نصف كتاب سيبويه من حفظه عليه، وأنه كان يحفظ في كل يوم كرّاساً في النحو، ويفهمه، ويطارحه فيه حتى برع[1].

الحفظ أشرف من الفهم:

الحفظ والفهم مطيّتان لا يصل طالب العلم بدونهما، ومن جمعهما حاز القدح المعلّى، وصلّى في الميدان وجلّى، وإن كان لا بدَّ من الاكتفاء بواحد فالحفظ مع قليل الفهم يكفي، والفهم مع عدم الحفظ لا يجدي شيئاً، ومثله كمثل الفارس بلا جواد، والمناضل بلا سلاح.

قـال أبـو عثمـان الجـاحـظ: كـرهـت الحكمـاء الـرؤسـاء ــ أصحـاب الاستنباط والتفكير ــ جودةَ الحفظ، لمكان الاتكال عليه، وإغفال العقل من التمييز، حتى قالوا: الحفظ عذق الذهن. ولأن مستعمل الحفظ لا يكون إلاَّ مقلّداً، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى برد اليقين، وعز الثقة.

---

(١) انظر: إرشاد الأريب ٦/ ٢٣١، السير ٢٢/ ٨٧.

والقضيّةُ الصحيحة، والحكم المحمود: أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضر ذلك بالحفظ، وإن كان الحفظ أشرف منزلة منه. ومتى أهمل النظر لم تسرع إليه المعاني، ومتى أهمل الحفظ لم تعلق بقلبه، وقلَّ مكثها في صدره.

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط، والذي يعالجان به ويستعينان متفق عليه، ألا وهو: فراغ القلب للشيء، والشهوة له، وبهما يكون التمام، وتظهر الفضيلة.

ولصاحب الحفظ سبب آخر يتفقان عليه، وهو: الموضع والوقت.

فأما الموضع فإنَّهما يختاران إذا أرادا ذلك الفوق دون السفل.

وأما الساعات فالأسحار دون سائر الأوقات، لأن ذلك الوقت قبل وقت الاشتغال، ويعقب تمام الراحة والجمام، لأن للجمام مقداراً هو المصلحة، كما أن للكدّ مقداراً هو المصلحة[1].



(١) كتاب المعلمين، ضمن رسائل الجاحظ ٣/٢٩ ـ ٣٠.



فصل

المنهجية في الحفظ

لـم يـدع الحفاظ منهجية الحفظ دون تبيين، ولا طـرقـه دون توضيح، فقـد محَّضوا فـي ذلـك النصيحة، وأخبروا عن أنفسهم بما يساعد غيرهم في تحصيل ما حصَّلوه، فمتى لَبِسَ الناشىء ثياب الطلبة، وتحلَّى بآدابهم، واستعان الله في الحفظ، فليأخذ نفسه على هذا الطريق:

١ ـ التدرج في الحفظ:

فيبدأ بالقليل قبـل الكثير، وباليسير قبـل العسير، فذلك أحرى أن يمتع بحفظه، ولينظر ما يصلح لنفسه، فإن الناس متباينين، وليسوا على قدر واحد من القدرة على الحفظ.

قال أبو بكر الخطيب: ولا يأخذ الطالب نفسه بما لا يطيقه، بل يقتصر على اليسير الذي يضبطه، ويحكم حفظه ويتقنه[١].

قال ابن الصلاح: وممن ورد ذلك عنه من الحفاظ المتقدِّمين: شعبة وابن عُليّة ومعمر. ورُوِّينا عن معمر قال: سمعت الزهري يقول: مَن طلب العلم جملة فاته جملة، وإنما يدرك العلم حديث وحديثان[٢].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي ١/ ٢٣١.

(٢) المقدمة ص ٢٥٢، وقول الزهري في الجامع، للخطيب ١/ ٢٣٢، وفيه عنه: إن =

وعن معمر عن قتادة قال: من طلب العلم جملة ذهب منه جملة، إنما كنا نطلب العلم حديثاً وحديثين[1].

مَن رُوِيَ عنه مِنَ السَّلف حفظ حديثين وثلاثة:

جاء في ترجمة عالم مصر عمرو بن الحارث، الثقة الفقيه الحافظ، المتوفَّى قبل الخمسين ومائة، أن عبد الله بن وهب المصري قال: سمعت من ثلاثمائة وسبعين شيخاً، فما رأيت أحفظ من عمرو بن الحارث، وذلك أنه كان يتحفَّظ كل يوم ثلاثة أحاديث[2].

وقد أثمر هذا المنهج الذي كان يقتفيه في تثبيت حفظه، فكان أبو حاتم يقول عنه: كان أحفظ أهل زمانه، ولم يكن له نظير في الحفظ[3].

وهذا هو منهج أبي بسطام شعبة بن الحجاج في الحفظ، ومَن مثل شعبة في الحفظ والإتقان؟ جاء عنه أنه قال: كنت آتي قتادة، فأسأله عن حديثين، فيحدِّثني، ثم يقول: أزيدك؟ فأقول: لا، حتى أحفظهما وأتقنهما[4].

وعن سعيد بن حرب قال: سمعت شعبة يقول: اختلفت إلى عمرو بن دينار خمسمائة مرة، وما سمعت منه إلاَّ مائة حديث، في كل خمسة مجالس حديث[5].

= هذا العلم إن أخذته بالمكابرة غلبك، ولكن خذه مع الليالي والأيام أخذاً رقيقاً تظفر به.

(1) التقييد، لابن نقطة الحنبلي ٢/ ٢٧٣.

(2) سير أعلام النبلاء ٩/ ٢٣٢.

(3) تهذيب التهذيب ٨/ ١٥.

(4) سير أعلام النبلاء ٧/ ٢٢٦.

(5) جامع الخطيب ١/ ٢٠٨.

قال ابن عليّة: كنت أسمع من أيوب خمسة، ولو حدَّثني بأكثر من ذلك ما أردت[1].

وقال سفيان الثوري: كنت آتي الأعمش ومنصوراً فأسمع أربع أحاديث، خمسة، ثم أنصرف كراهة أن تكثر عليّ وتفلت[2].

قال عبد الله بن داود: كنت آتي الأعمش من فرسخ، ولم أسمع منه قط في مجلس أربعة أحاديث إلاَّ مرة واحدة[3].

وكان أبو قلابة إذا حدث بثلاثة أحاديث قال: قد أكثرت[4].

الحفظ الكثير في مجلس واحد مظنة للذهاب:

وقد يرى إنسان أنه قادر على حفظ الكثير في مجلس واحد، فلا يفعل، فإنه يخونه أحوج ما يكون إليه، ولا يثبت معه، ويسهل بلاه على الأيام والأعصار، وقد تكلم الحفاظ في حفظ يحيى بن يمان العجلي، وضعفه لأجل ذلك جماعة، ولما تأملنا منهجه في الحفظ بان موقع العطب.

قال وكيع بن الجرَّاح الحافظ: لم يكنْ أحد من أصحابنا أحفظ للحديث منه، كان يحفظ في المجلس خمسمائة حديث! ثم نسي[5].

مع القراء في حفظ الكتاب العزيز:

ولطالب الحفظ أسوة حسنة في القراء، فقد كانوا يأخذون التلاوة برفق وتؤدة، وهو منهج سلفي، يَأْثِره الآخر عن الأول، ألا ترى التابعي الكبير،

---

(١) الجامع، للخطيب ١/ ٢٣١.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٣٢.

(٣) جامع الخطيب ١/ ٢٠٧.

(٤) جامع الخطيب ١/ ٢٠٧.

(٥) الكواكب النيرات ص ٤٣٧.

والمقرىء الجليل، أبا عبد الرحمن عبد الله بن حبيب السلمي يقول: حدثنا من كان يُقرئنا من أصحاب رسول الله ﷺ: أنهم كانوا يأخذون من رسول الله ﷺ عشر آيات، فلا يأخذون في العشر الأخرى حتى يَعلموا ما في هذه من العلم والعمل، قال: فتعلَّمنا العلم والعمل.

وفي لفظ قال: إنَّا أخذنا القرآن عن قوم أخبَرونا أنهم كانوا إذا تعلَّموا عشر آيات لم يجاوزوهن إلى العشر الأُخَر، حتى يعلموا ما فيهنّ، فكنّا نتعلَّم القرآن والعمل به، وإنه سيرث القرآن بعدنا قوم يشربونه شرب الماء لا يجاوز تراقيهم، بل لا يجاوز هاهنا، وأشار إلى حلقه[1].

ورواه غير أبـي عبد الرحمن عن الصحابة أيضاً.

فقد قال شقيق بن وائل أبو سلمة عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كان الرجل منّا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، والعمل بهن[2].

وعلى هذا المنهج في الحفظ سار كبراء القراء حتى وصلوا، وإليك ـ أيُّها القارىء الكريم ـ بعض أخبارهم:

علقمة بن قيس النخعي، المقرىء الجليل، والفقيه النبيل، قال فيه ابن مسعود: ما أعلم شيئاً أو ما أقرأ شيئاً إلاَّ وعلقمة يعلمه. وقد روى عنه إبراهيم النخعي قوله: قرأت القرآن في سنتين[3].

---

(١) تفسير الطبري، ح ٨٢، مجمع الزوائد ٧/ ١٦٥، معرفة القراء الكبار ١/ ٥٤.
وإسناده صحيح، رواه جماعة عن عطاء بن السائب عن أبـي عبد الرحمن.

(٢) رواه ابن جرير، ح ٨١، وإسناده صحيح.

(٣) معرفة القراء ١/ ٥٢.

وقال إسماعيل بن أبي خالد: كان أبو عبد الرحمن السلمي يعلمنا القرآن خمساً خمساً[1].

وقال أبو رجاء العطاردي: كان أبو موسى يعلِّمنا القرآن خمس آيات خمس آيات[2].

يحيى بن وثاب يحفظ القرآن آية آية:

هو عابد الكوفة وعَلَمُها، المقرىء المحدث يحيى بن وثاب الأسدي، أخذ القرآن عرضاً عن علقمة والأسود ومسروق والشيباني وأبي عبد الرحمن.

[ذكر] أبو بكر بن عياش عن عاصم قال: تعلَّم يحيى بن وثاب من عبيد بن نضيلة آية آية، وكان والله قارئاً[3].

قال الذهبي: الثبت أنه قرأ القرآن كله على عبيد بن نضيلة صاحب علقمة كل يوم آية[4].

والقرآن في عد أهل الكوفة ستة آلاف ومئتا آية وثلاثون وست آيات، (٦٢٣٦)، ويأثرونه عن أبي عبد الرحمن السلمي عن أشياخه من الصحابة[5]، فيكون يحيى بن وثّاب رحمه الله قد مكث في حفظ القرآن ٦٢٣٦ يوماً، أي أنه مكث في حفظ القرآن أكثر من سبع عشرة سنة، فهكذا فلتكن الهمة، وهكذا فليكن الطلب.

---

(١) معرفة القراء ١/ ٥٥.

(٢) معرفة القراء ١/ ٥٩.

(٣) طبقات ابن سعد ٦/ ٢٩٩.

(٤) معرفة القراء ١/ ٦٣.

(٥) البيان، للداني ص ٨٠.

أبو بكر راوي عاصم:

وهذا عاصم بن أبـي النجود رحمه الله أحد القراء السبعة، روى عنه القراءة أبو بكر بن عياش المشهور عند القراء بشعبة، واختلف إليه شعبة صغيراً.

قرأت في أحاسن الأخبار لابن وهبان الحموي، قال عاصم لشعبة: أحمد الله، فإنك أتيتني لا تحفظ شيئاً واليوم أنت تقرأ القرآن، فقال له: إنما خرجت من الكُتَّاب ثم أتيتك. وكان عاصم يأخذ على أبـي بكر خمساً خمساً.

روى يحيى بن آدم عن أبـي بكر شعبة قال: تعلَّمت من عاصم خمساً خمساً، ولم أتعلم من غيره، ولا قرأت على غيره، واختلفت إليه نحواً من ثلاث سنين، في الحرّ والشتاء والأمطار[1].

٢ ـ إذا حفظت شيئاً فأتقنه:

فعن عبد الرحمن بن مهدي قال: الحُفظ الإتقان[2].

وقال أبو عبد الله الدقاق: الحفظ هو الإتقان لا الكثرة[3].

وسبيل الإتقان هو التكرار، وهو إن كان صعباً على النفوس لكن لا بد منه، ومن أمثالهم: قدِّم لحاجتك، بعض لجاجتك، وحاجتك أيها الحديثي الحفظ، فقدم له الإصرار والتكرار، وليس يقدر على ذلك إلاَّ من صبر، وغالب شهوة النفس، ومَن بَعدت همته، وزادت رغبته، وقد قيل: إذا اشتد الكَلف، هانت الكُلف.

---

(١) معرفة القراء ١/١٣٨.

(٢) جامع الخطيب ٢/١٣، المقدمة ص ٢٥٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٢٣، لسان الميزان ٣/ ٧٧.

وقال أبو زرعة الرازي: الإتقان أكثر من حفظ السرد[1].

من هدي النبـي ﷺ تكرار الكلام:

والتكرار ــ رعاك الله ــ منهج نبوي، ففي الصحيح من حديث ثمامة عن أنس قال: كان النبـي ﷺ إذا تكلم الكلمة أعادها ثلاثاً.

وقالت عائشة رضي الله عنها: لم يكن النبـي ﷺ يسرد كسردكم.

قال ابن حجر: قال ابن المنيِّر: نبّه البخاري بهذه الترجمة على الردّ على مَن كره إعادة الحديث وأنكر على الطالب الاستعادة وعدَّه من البلادة، قال: والحق أن هذا يختلف باختلاف القرائح، فلا عيب على المستفيد الذي لا يحفظ من مرة إذا استعاد، ولا عذر للمفيد إذا لم يعد، بل الإعادة عليه آكد من الابتداء لأن الشروع ملزم[2].

قال ابن الجوزي: الطريق في إحكام المحفوظ كثرة الإعادة، والناس يتفاوتون في ذلك، فمنهم من يثبت معه المحفوظ مع قلة التكرار، ومنهم من لا يحفظ إلاَّ بعد التكرار الكثير، فينبغي للإنسان أن يعيد بعد الحفظ ليثبت معه المحفوظ، وقد قال النبـي ﷺ: «تعاهدوا القرآن فإنه أشد تفصياً من صدور الرجال من النعم في عُقُلِها».

وكان أبو إسحاق الشيرازي يُعيد الدرس مائة مرة، وكان ألكيّا يعيد سبعين مرة. وقال لنا الحسن بن أبـي بكر النيسابوري: لا يحصل الحفظ حتى يعاد خمسين مرّة.

وحكى لنا الحسن: أنَّ فقيهاً أعاد الدرس في بيته مراراً كثيرة، فقالت له عجوز في بيته: قد والله حفظتُه أنا، فقال: أعيديه، فأعادته، فلمّا كان بعد

(١) تهذيب التهذيب ١١/ ١٦٧.

(٢) فتح الباري ١/ ١٨٩.

أيام، قال: يا عجوز أعيدي ذلك الدرس، فقالت: ما أحفظه، قال: أنا أُكَرِّر على الحفظ لئلاّ يصيبني ما أصابك[1].

مَن كرَّر الدرس ليحفظه:

قال مقيده: أُسَجِّل لك ها هنا بعض أخبار من عرف بالمصابرة على تكرار الدرس لتستأنس بهم، وتقتدي بمناهجهم:

منهم: الفقيه الحافظ أبو بكر بن غالب بن عطية المحاربي الأندلسي المالكي (ت ٥١٨)، جاء عنه أنه قال: كَرَّرْتُ صحيح البخاري سبعمائة مرَّة!![2].

---

(١) الحث على حفظ العلم ص ٢١.

(٢) الغنية، للقاضي عياض ١٩٠، الصلة ٢/ ٤٥١، وذكره أيضاً بالحفظ والمذاكرة.
قال الشيخ عبد الفتاح أبو غدة في كتاب (تحقيق اسمي الصحيحين واسم الجامع ص ٢١):
الواحد من هؤلاء الشيوخ قرأ صحيح البخاري أو صحيح مسلم أو غيرهما من كتب السنة على شيخه أو عدد من شيوخه أكثر من مرة، بل مرات ومرات، والقارىء عالم جليل، والمقروء عليه إمام نبيل، وهما يتثافنان بالركب، وتواجه الحدقة منهما الحدقة، ويبلغ السماع والإسماع منهما مبلغه، فيكون بينهما التشام والتسافي في العلم والفهم والأخلاق والسلوك.
فانظر ووازن بين الحال السابقة والحال اللاحقة التي نحن عليها الآن، فالدارس المتخصص اليوم بالحديث وعلومه، ويحمل في اختصاصه شهادة بلقب (د) وهو أعلى لقب، لم يقرأ على شيخ مرة واحدة صحيح البخاري، بل لم يقرأ عشر البخاري فضلاً عن باقي الكتب الستة أو غيرها، لا سماعاً من الشيخ ولا قراءةً منه عليه، سواء كانت قراءة فك ونظر، أو قراءة بحث ودرس. وإنما هي أبواب مختارة من كتب منتقاة، تصطفي منها جملة أحاديث، فيمر بها الطالب صاحب الزمن المحدد، الموقوت بالجرس الذي يقرع بعد خمس وأربعين دقيقة أو ستين =

فهذا كرَّره ليحفظه، فكيف بتكرار القراءة على الشيخ؟

جاء في ترجمة الحافظ الفقيه يحيى بن بكير صاحب مالك، والمكثر عنه، عن بقيّ بن مخلد أنه قال: سمع يحيى بن بكير الموطأ من مالك سبع عشرة مرة[1].

وهذا ابن دلهاث الحافظ (وهو أحمد بن عمر العذري الأندلسي) يحجّ ويجاور ويلازم أبا ذرّ الهروي، ويسمع منه صحيح البخاري سبع مرّات[2].

وفي ترجمة الحافظ عبد الغافر بن محمد بن عبد الغافر الفارسي (ت ٤٤٨) أنه روى عن الجلودي صحيح مسلم، سمعه منه سنة ٣٦٥.

فقال حفيده عبد الغافر بن إسماعيل: قرأ عليه الحسن بن أحمد السمرقندي الحافظ صحيح مسلم نيِّفاً وثلاثين مرة، وقرأه عليه أبو سعيد البحيري نيِّفاً وعشرين مرَّة[3].

وهذا الحافظ عبد الرزَّاق بن نصر الطِّبسي يقول: قرأت صحيح مسلم على الفراوْي سبع عشرة نوبة، وقال: أوصيك أن تحضر غسلي، وأن تصلِّي عليَّ في الدَّار، وأن تدخل لسانك في فيّ، فإنك قرأت به كثيراً حديث رسول الله ﷺ[4].

فهكذا فلتكن همَّة طالب هذا الشأن، وإلاَّ فاقعد ولا تتعب.

= دقيقة للخروج من الدرس، ثم يسمى هذا متخصصاً بالحديث الشريف وعلومه!

لا تعرضن لذكرنا في ذكرهم ... ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد.

اهـ.

(١) تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٢٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٨/ ٥٦٧.

(٣) السير ١٨/ ٢٠.

(٤) طبقات الشافعية الكبرى ٦/ ١٦٩.

وهذا الحافظ السري الشريف أبو نصر محمد بن محمد بن علي الزينبي العباسي الهاشمي (ت ٤٧٩)، قال فيه الشيخ أبو الفضل ابن المهتدي بالله العباسي: كان أبو نصر الزينبي إذا قرأ عليه اللحن ردَّه لكثرة ما قُرِئَت عليه تلك الأجزاء[١].

وكان أبو خيثمة زهير بن معاوية الجعفي إذا سمع الحديث من شيخ مرتين كتب عليه: فرغتُ[٢]!

وفي ترجمة الحافظ الكبير أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الله الهروي، نزيل بغداد، قال صالح جزرة: سمعته يقول: ما من حديث لهشيم إلاَّ وقد سمعته منه عشرين مرَّة وأكثر[٣]!.

فانظر رعاك الله إلى هذا الجَلَد، ثم انظر كيف صاروا به حفَّاظاً.

وكان شعبة لا يقنع بسماع مرة، كان يكرر السماع لأمور، منها تثبيت الحفظ.

عن حماد بن زيد قال: إذا خالفني شعبة في حديث صرت إلى قوله، قيل: كيف يا أبا إسماعيل؟ قال: إنَّ شعبة كان لا يرضى أن يسمع الحديث عشرين مرة، وأنا أرضى أن أسمعه مرة[٤].

قال ابن فارس: لأجل ذلك نَبُلَ شعبة في عيون المحدثين، وكان إليه المنتهى في التثبت والإتقان، ولا غَرْوَ بعد ذلك إذا حدث عنه حماد

---

(١) السير ١٨/ ٤٤٤.

(٢) جامع الخطيب ١/ ٢٧٤، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣٣، يعني فرغت من حفظه، حيث إنَّ تكرار الحديث مرتين ألصقه في ذاكرته!.

(٣) التذكرة ٢/ ٤٨٤.

(٤) السير ٧/ ٢١٩.

أن يقول:

حـدثنـي الضخـم عـن الضخـام   شعبـة الخيـر أبـو بسطـام

وقال أبو الوليد الطيالسي: سألت شعبة عن حديث فقال: والله لا حدثتك به، قلت: ولم؟ قال: لأني لم أسمعه إلاَّ مرة[1].

وكان أبو مسعود بن الفرات يكرر كل حديث خمسمائة مرة، فاستحق أن يقول فيه أحمد بن حنبل: ما تحت أديم السماء أحفظ منه[2].

وقال جعفر المراغي: دخلت مقبرةً بتُستر، فسمعت صائحاً يصيح: والأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، والأعمش عن أبي صالح عن أبي هريرة، ساعة طويلة، فكنت أطلب الصوت، إلى أن رأيت ابن زهير، وهو يدرس مع نفسه من حفظه حديث الأعمش[3].

قال علقمة: أطيلوا كرَّ الحديث لا يُدْرَسَ عليكم[4]، يريد: أكثروا تكراره كيلا يزول من الصدور.

---

(١) السير ٧/ ٢٢١.
(٢) تهذيب التهذيب ١/ ٦٦.
(٣) الجامع، للخطيب ٢/ ٢٦٧.
وابن زهير هو الإمام الحجة المحدث البارع عَلَم الحفاظ وشيخ الإسلام أبو جعفر أحمد بن يحيى بن زهير التستري، قال الذهبي: جمع وصنف وعلل، وصار يضرب به المثل في الحفظ.
قال أبو عبد الله ابن منده: ما رأيت في الدنيا أحفظ من أبي إسحاق بن حمزة، وسمعته يقول: ما رأيت في الدنيا أحفظ من أبي جعفر بن زهير التستري، وقال أبو جعفر: ما رأيت أحفظ من أبي زرعة الرازي. توفي أبو جعفر سنة ٣١٠هـ. (السير ١٤/ ٣٦٣).
(٤) جامع الخطيب البغدادي ٢/ ٢٦٦.

قال مقيده: فهكذا وصل القوم، وهكذا صاروا حفَّاظاً علماء، وأما أن تقرأ الكتاب مرَّة أو مرتين، قراءة ساهٍ لاهٍ فليس هذا من شأن أصحاب الحديث، ولن يعلو من هذا شأنه فوق سقف بيته.

٣ ــ حدد الهدف:

على طالب الحفظ أن يحدد الهدف، وعليه أن لا يشتت فكره في كتب شتى، ومواضيع مختلفة، ولا تكن ذوَّاقاً ملولاً، كثير التقلُّب والتجوال، مرة مع الأربعين للنووي، وأخرى مع عمدة الاحكام، وتارة مع صحيح البخاري أو مسلم، فهذا أخذ للعلم بالمغالبة، وليس يجدي شيئاً، ولكن اجعل لك هدفاً تقصده، ودع ما سواه.

٤ ــ مارس الحفظ:

عليك أيها الطالب أن تمارس الحفظ وتتعوده، فإن ممارسة الحفظ تفتق الذاكرة، وتفتح مغاليقها.

صعوبة حفظ الشاطبيّة:

وقال لنا بعض مشايخنا في القراءات: إنَّ من حفظ الشاطبية في القراءات السبع، وتتمتها لابن الجزري، سهل عليه حفظ كل شيء، حتى إنه ليستطيع أنْ يحفظ رطانة الجن.

وصدق الشيخ رحمه الله، فإن متن الشاطبية والدرة من أصعب ما عالجت من المتون، ومن أكثرها استغلاقاً على الدارسين، وكنت زمان الطلب أتعبني حفظها جدًّا، حتى إني ربما أقسمت أَيماناً من الغضب أَنِّي لا أحفظها ولو عُمِّرت ما عُمِّر نوح، ثم مع الممارسة سلس الأمر، وانقاد الحفظ، ولله الحمد.

٥ ـ استغلال الأوقات:

على طالب الحفظ أن يستغل أوقات الصفاء، وحالات النشاط، وأزمنة الاعتدال، فقد قامت التجربة على أن الحفظ في حالة الشبع متعذر، وكذلك هو في حالة الجوع، وأفضله ما كان في اعتدال المزاج.

ومما أرشدوا إليه في هذا الباب: استغلال سنيّ الحفظ الذهبيّة، أعني الصغر.

كان الحسن يقول: طلب الحديث في الصِّغَر كالنَّقْش في الحجر[1].

وعن علقمة قال: ما حفظت وأنا شاب فكأنِّي أنظر إليه في قرطاس أو رقعة[2].

وأنشد أبو عبد الله نفطويه:

أُراني نسيت ما تعلَّمت في الكبر	ولست بناس ما تعلَّمت في الصِّغَرِ
وما العلم إلاَّ بالتعلم بالصِّبا	وما الحلم إلاَّ بالتحلُّم بالكبرِ
ولو فلق القلب المُعَلَّمَ في الصِّبا	لألفى فيه العلم كالنقش في الحجر[3]

ومن المأثور عن أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه: قلب الحَدَث كالأراضي الخالية، ما ألقي فيها من شيء قَبِلَه.

قال العلماء: وإنما كان كذلك لأنَّ الصغير أفرغ قلباً، وأيسر تبذُّلاً، وأكثر تواضعاً[4].

---

(١) جامع بيان العلم ١/ ٣٥٧، الفقيه والمتفقه ٢/ ٩١.

(٢) السير ٤/ ٥٥، ٥٨، الفقيه والمتفقه ٢/ ٩٢، طبقات الحفاظ ص ٢٠.

(٣) جامع بيان العلم وفضله ١/ ٣٦٣.

(٤) أدب الدنيا والدين ص ٨٧.

وأمَّا مَن طلب الحفظ في الكبر فمثله كالشن البالي، يريد صاحبه أن يحفظ به الماء، وهو ينشّ.

قال مالك رحمه الله: دخلت أنا وموسى بن عقبة ومشيخة على ابن شهاب، فسأله إنسان عن حديث، فقال: تركتم العلم حتى إذا كنتم كالشنان قد توهت طلبتموه! والله لا جئتم بخير أبداً![1].

إسماعيل بن عيَّاش يضبط ما حفظ صغيراً:

وقال ابن حبَّان في ترجمة شيخ الشَّام إسماعيل بن عيَّاش الحمصي: كان مِن الحفَّاظ المتقنين في حداثته، فلمَّا كبر تغيَّر حفظه، فما حفظ في صباه وحداثته أتى به على جهته، وما حفظ على الكبر من حديث الغرباء خلط فيه[2].

قال مقيده: وهذا نوع ظريف من أنواع علوم الحديث: من قُبل من حديثه الذي تحمله في الحداثة، ورُدَّ ما تحمله في الكبر، وهو ينبئك أيضاً عن أهميّة ما نبّهنا عليه من الحفظ في الصغر.

من طلب كبيراً:

وقال حمدون بن أحمد السمسار: كنّا عند عليّ بن الجعد، فقام رجل فسأله عن حديث لشعبة عن فوات القرآن، فلم يحسن أن يسأل وصحَّف، فقال ــ أي السائل ــ: شعبة عن مرارة القرآن! فضحك عليّ بن الجعد، ثم أنشأ يقول:

لم يركبوا الخيل إلاَّ بعد ما كبروا ... وهم ثقال على أكتافها عنف[3]

---

(١) السير ٥/ ٣٤٤.

(٢) كتاب المجروحين ١/ ١٢٥.

(٣) الإرشاد، للخليلي ٢/ ٥٩٤.

٦ ـ اقطع الشواغل:

عليك يا طالب الحفظ أن تقطع الشواغل، وتفرد الهم، وتفرغ البال، لما أنت بصدده من الحفظ.

قال النووي رحمه الله: إنَّ الأمور المهمّة ينبغي ألاَّ تفوَّض إلاَّ إلى أُولي الحزم، وفراغ البال لها، ولا تفوَّض إلى متعلّق القلب بغيرها، لأنَّ ذلك يضعف عزمه، ويفوت كمال بذل وسعه فيه[1].

قيل لحماد بن زيد: ما أعون الأشياء على الحفظ؟ فقال: قلَّة الغمّ[2].

قال مقيده عفا الله عنه: فإلى الله نشكو هموماً تواردت، وغموماً لازمت، وكبداً في الحياة مُضْنٍ، ومشقة في العيش بالغة، وما أُراني إلاَّ أتكلم على لسان كثيرين ممن تصدّوا لنحو ما تصدَّينا له، فالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العظيم.

قال أبو بكر الخطيب: وليس يكون قلَّة الغمّ إلاَّ مع خلوّ السرّ، وفراغ القلب، والليل أقرب الأوقات لذلك.

عن أحمد بن الفرات قال: لم نزل نسمع شيوخنا يذكرون أشياء في الحفظ، فأجمعوا أنه ليس شيء أبلغ فيه إلاَّ كثرة النظر، وحفظ الليل غالب على حفظ النهار.

قال: وسمعت إسماعيل بن أبي أويس يقول: إذا هممت أن تحفظ شيئاً فنم، وقم عند السحر، فأسرج، وانظر فيه، فإنك لا تنساه بعد إن شاء الله[3].

---

(١) شرح مسلم ١٢/٢٩٦.

(٢) جامع الخطيب ٢/٢٦٩.

(٣) جامع الخطيب ٢/٢٦٥.

ومن منهجية الحافظ الأول أبي هريرة رضي الله عنه في الحفظ ما جاء عنه: أنه كان يقسم الليل ثلاثة أجزاء، ثلثاً يصلي، وثلثاً ينام، وثلثاً يذكر فيه حديث رسول الله ﷺ.

وروي نحوه عن عمرو بن دينار[١].

قال ابن الجوزي: ينبغي لمن يريد الحفظ أن يتشاغل به في وقت جمع الهم، ومتى رأى نفسه مشغول القلب ترك التحفُّظ، ويحفظ قدر ما يمكن، فإن القليل يثبت والكثير لا يحصّل، وقد مدح الحفظ في السَّحَر لموضع جمع الهم، وفي البُكر، وعند نصف الليل.

ولا ينبغي أن يحفظ على شاطىء نهر، ولا بحضرة خضر لئلاّ يشتغل القلب، والأنظار العالية أحمد من السافلة، وينبغي أن يريح نفسه من الحفظ يوماً أو يومين ليكون ذلك كالبناء الذي يراح ليستقرّ[٢].

٧ ــ استعن بيمينك:

الاستعانة على الحفظ بالكتابة منهج نبوي، ففي الحديث لما اشتكى رجل أنه ينسى ما يسمع من النبي ﷺ، قال له ﷺ: «استعن بيمينك»، أي بالكتابة[٣].

قال مالك: لم يكن القوم يكتبون، إنما كانوا يحفظون، فمن كتب منهم الشيء فإنما يكتبه ليحفظه، فإذا حفظه محاه[٤].

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٦٤.

(٢) الحث على حفظ العلم ص ٢٢.

(٣) رواه الترمذي ح ٢٦٦٦ بإسناد منكر، ورواه الطبراني في الأوسط عن أنس ح ٢٨٢٥ بإسناد أمثل منه، وهو ضعيف، وله شواهد ذكرها في مجمع الزوائد ١/ ١٥٢، وأطال البيهقي تخريجه في المدخل إلى السنن ٤١٨.

(٤) جامع بيان العلم ١/ ٢٧٤.

وما أحلى ما قال أبو سعد السمان: من لم يكتب الحديث لم يتغرغر بحلاوة الإسلام[1].

والمقصود أن يستعمل حواسه في الحفظ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فيكتب بيده، وينظر بعينه، ويتابع بأصبعه، ويجهر ليسمع نفسه.

قال الزبير بن بكار: دخل عليّ أبـي وأنا أروي في دفتر ولا أجهر، أروي فيما بيني وبين نفسي، فقال لي: إنما لك من روايتك هذه ما أدى بصرك إلى قلبك، فإذا أردت الرواية، فانظر إليها، واجهر بها، فإنه يكون لك ما أدَّى بصرك إلى قلبك، وما أدى سمعك إلى قلبك[2].

٨ ـ إدمان المطالعة:

وعليه إدمان النظر في الكتب، وتعهد مراجع الحديث، ومصادر السنة، وقد سئل البخاري رحمه الله ـ وكان غاية في الحفظ ـ ما هو البلاذر[3]؟ فقال: إدمان النظر في الكتب[4].

وفي رواية: قال ورَّاقه محمد بن أبـي حاتم: بلغني أنه شرب البلاذر، فقلت له مرة في خلوة: هل من دواء للحفظ؟ فقال: لا أعلم، ثم أقبل عليّ فقال: لا أعلم شيئاً أنفع للحفظ من نهمة الرجل، ومداومة النظر[5].

النّرسِي حفظ حديثه من إدمان النظر:

وهذا الحافظ أبو الغنائم النرسي، الملقب بأُبـيّ لجودة قراءته كان يحفظ حديثه من كثرة ما نظر فيه.

---

(١) السير ١٨/ ٥٧.

(٢) الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٦٦.

(٣) البلاذر: شراب يعتقد أنه يزيد في الحفظ، سيأتي خبره.

(٤) الجامع، لابن عبد البر ٢/ ١٢٢٧.

(٥) هدي الساري ص ٤٨٧ ـ ٤٨٨.

قال ابن ناصر البغدادي: قرأ عليه أبو الطاهر السِّلفي حديثاً فأنكره، وقال: ليس هذا من حديثي، فسأله عن ذلك فقال: أعرف حديثي كله، لأني نظرت فيه مراراً، فما يخفى عليَّ منه شيء[1]!

حال السَّلف مع الكتب:

قال ابن فارس: حال العلماء مع الكتب شيء عجيب، وهو وإن كان التعرُّض إليه من الاستطراد عن موضوعنا، فلست أُجِيز أن أخلي هذا الموضع من شيء منه يسير.

قيل لبعض السلف: ما بلغ من اشتغالك بالعلم؟ قال: هو سلوتي إذا اهتممت، ولذتي إذا سلوت[2].

الزهريّ والزُّبير بن بكَّار يلهيان بالكتب عن الأهل:

كان الزهري يقعد في بيته وينشر حوله كتبه، ثم يشتغل بها، فيلهو عن كل شيء، وكانت أهله تجد منه لأجل ذلك مشقة وحنقاً، فكانت تقول: والله لَهذه الكتب أشدّ عليَّ من ثلاثة ضرائر[3].

ونحوه عن الزُّبير بن بكَّار.

غمرة فكر لا غمرة تمر[4]:

وغاية الهَيَمَان في الكتب، والذَّوبان فيها، ما حصل لشهيد غمرة الفكر من التمر، وهو الإمام مسلم بن الحجَّاج رحمه الله، شهيد الحديث.

قال التقيّ ابن الصَّلاح: وكان لموته سبب غريب، نشأ عن غمرة فكريّة علميّة..

---

(١) السير ١٩/٢٧٥.

(٢) الجامع، للخطيب ١/١٠٦.

(٣) وفيات الأعيان ١٧٧ ـ ١٧٨.

(٤) هكذا عنون الأديب ابن عقيل الظاهري على هذه القصة في بعض كتاباته.

عن أحمد بن سلمة قال: عقد لأبي الحسين مسلم بن الحجَّاج مجلس للمذاكرة، فَذُكِر له حديث لم يعرفه، فانصرف إلى منزله، وأوقد السراج، وقال لمن في الدار: لا يدخلن أحد منكم هذا البيت، فقيل له: أهديت لنا سلَّة فيها تمر، فقال: قَدِّموها إليَّ، فقدَّموها، فكان يطلب الحديث ويأخذ تمرة تمرة يمضغها، فأصبح وقد فني التمر، ووجد الحديث.

قال الحاكم: زادني الثقة من أصحابنا أنه منها مرض ومات[1].

فهذا ما جناه عليه الحديث، وسيأتي في هذا السِّفْر المبارك مَن ذاب في الحديث ونسي نفسه وأهله من أجله.

وَعَوْداً إلى مغالاة أهل العلم في الكتب وأُنْسهم بها، فقد قال أبو عبد الله محمد بن سلامة المقري:

إني لما أنا فيه من منافستي ... فيما شغفت به من هذه الكتب
لقد علمت بأنَّ الموت يدركني ... من قبل أن ينقضي من حبها أربي[2]

ابن الأعرابي يجالس كتبه:

وعن أحمد بن أبي عمران قال: كنت عند أبي أَيُّوب أحمد بن محمد بن شجاع وقد تخلَّف في منزله، فبعث غلاماً من غلمانه إلى أبي عبد الله ابن الأعرابي صاحب الغريب يسأله المجيء إليه، فعاد إليه الغلام فقال: قد سألته ذلك، فقال لي: عندي قوم من الأعراب، فإذا قضيت أربي منهم أتيت، قال الغلام: وما رأيت عنده أحداً إلاَّ أن بين يديه كتباً ينظر فيها، فينظر في هذا مرة وفي هذا مرة.

قال: ثم ما شعرنا حتى جاء، فقال له أبو أَيُّوب: يا أبا عبد الله، سبحان

---

(١) صيانة صحيح مسلم ص ٦٤ ــ ٦٦.
(٢) معجم الأدباء ٣٦/١

الله العظيم، تخلَّفت عنّا وحرمتنا الأنس بك، وقد قال الغلام: إنه ما رأى عندك أحد، وقلت: معي قوم من الأعراب فإذا قضيت أربي منهم أتيت، فقال ابن الأعرابي:

لنا جلساء ما نَمَلُّ حديثهم ... ألبَّاء مأمونون غيباً ومشهدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى ... وعقلاً وتأديباً ورأياً مسدَّدا
فلا فتنة تخشى ولا سوء عشرة ... ولا تتَّقي منهم لساناً ولا يدا
فإن قلت أموات فلا أنت كاذب ... وإن قلت أحياء فلست مفنِّدا[1]

متنزّهات القلوب:

قال الأمير أبو نصر أحمد بن الحسين بن أحمد بن عبيد الله الميكالي الفارسي: تذاكرنا المتنزهات يوماً وابن دريد حاضر، فقال بعضهم: أنزه الأماكن غوطة دمشق، وقال آخرون: بل نهر الأبلة، وقال آخرون: شعب بَوَّان بأرض فارس، وقال بعضهم: نوبهار بلخ.

فقال ــ يعني ابن دريد ــ: هذه متنزهات العيون، فأين متنزّهات القلوب؟ قلنا: وما هي يا أبا بكر؟ قال: عيون الأخبار للقتيبي، والزهرة لابن داود، وقلق المشتاق لابن أبي طاهر، ثم أنشأ يقول:

ومن تكن نزهته قينة ... وكأس تحث وكأس تصب
فنزهتنا واستراحتنا ... تلاقي العيون ودرس الكتب[2]

وكان الخليفة المأمون يقول: لا نزهة ألذّ من النظر في عقول الرِّجال، يريد قراءة كتبهم[3].

---

(١) معجم الأدباء.

(٢) معجم الأدباء ٥/٣٠٦ في ثنايا ترجمة ابن دريد.

(٣) السير ١٠/٢٩٢.

قصيدة الجرجاني في الأنس بالكتاب:

وأنشد القاضي الجرجاني:

ما تطعمت لذة الحياة حتى … صرت للبيت والكتاب جليسا

ليس شيء أعز عندي من العلـ … ـم فما أبتغي سواه أنيسا

إنما الذلّ في مخالطة النا … س فدعهم وعش عزيزاً رئيسا[1]

الشيخ زبير اللغوي:

فهذا حال أهل العلم، ومنتهى أمنياتهم، وكان أحد علماء اللغة يقال له الشيخ زبير إذا ازدحمت عليه هموم الحياة، ونكد العيش، راغ إلى شرح الأشموني على الألفية، ويرخي لروحه عنانها، لتبحر في خضم المعلومات، وكأني بلسان حاله يتقمص ما قال سميِّي الإمام ابن فارس القزويني رحمه الله تعالى:

وقالت كيف حالك قلت خيراً … تقضىٰ حاجة وتفُوت حاج

إذا ازدحمت هموم الصدر قلنا … عسى يوماً يكون لها انفراج

نديمي هرَّتي، وأنيس نفسي … كتابي، ومعشوقي السراج[2]

قال مقيده: فعليك بالإدمان والمطالعة، لأنَّ الإنسان متى أدمن النظر في شيء غلبه حتى صار له طبعاً، فمن أدمن النظر في كتب المحدثين ورث نَفَسهم، ومن أدمن في كتب الأدب ورث مجونهم، وهكذا سائر العلوم.

وهذا ضياء الدين نصر الله بن محمد الشيباني الجزري ابن الأثير، أحد الإخوة الثلاثة، اشتهر بالأدب ورواية الأشعار، وألف كتاباً في ذلك سمَّاه: «الوشي المرقوم»، قال في أوله: وكنت حفظت من الأشعار القديمة

---

(١) وَفَيات الأعيان ٣/ ٢٨٠.

(٢) وَفَيات الأعيان ١/ ١٢٠.

والمحدثة ما لا أحصيه كثرة، ثم اقتصرت بعد ذلك على شعر الطائيين، حبيب بن أوس ـ يعني أبا تمام ـ وأبي عبادة البحتري، وشعر أبي الطيب المتنبي، فحفظت هذه الدواوين الثلاث، وكنت أُكَرِّر عليها بالدرس مدة سنتين، حتى تمكَّنْتُ من صوغ المعاني، وصار الإدمان لي خلقاً وطبعاً[1].

٩ ـ فهم المحفوظ:

فهم المحفوظ يساعد على رسوخه في القلب، فالإنسان متى عقل شيئاً وعاه، والذي يحفظ ما لا يفهم كالذي يكتب ما لا يعلم.

ومثل هذا ما قال أبو بكر الخطيب: إنَّ رجلاً قال لرجل كتب العلم، ولا يعلم ما يكتب: ما لك إلاَّ طول أرقك، وطول تعبك، وتسويد ورقك[2].

قال بعض الحكماء: العلوم مطلعها من ثلاثة أوجه: قلب مُفَكِّر، ولسان مُعَبِّر، وبيان مُصَوِّر.

فإذا عقل الكلام بسمعه فهم معانيه بقلبه، وإذا فهم المعاني سقط عنه كلفة استخراجها، وبقي عليه معاناة حفظها واستقرارها، لأن المعاني شوارد تضل بالإغفال، والعلوم وحشية تنفر بالإرسال، فإذا حفظها بعد الفهم أنست، وإذا ذاكرها بعد الأنس رست[3].

وقال الماوردي ـ يشنع على من يحفظ دون أن يفهم ـ : وربما اعتنى المتعلم بالحفظ من غير تصور ولا فهم، حتى يصير حافظاً لألفاظ المعاني، قيماً بتلاوتها، وهو لا يتصوَّرها ولا يفهم ما تضمَّنته، يروي من غير روية،

---

(١) وَفَيات الأعيان ٥/ ٣٨٩.

(٢) الغنية، للقاضي عياض ص ١٨٣.

(٣) أدب الدنيا والدين ص ٨٩.

ويخبر عن غير جدة، فهو كالكتاب الذي لا يدفع شبهة، ولا يؤيد حجّة[1].

١٠ ـ ذاكر بما تحفظ:

المذاكرة بالمحفوظ من أعظم طرق تثبيت الحفظ، واستذكار المنسي، والتنبيه على الغريب، قال الزهري: إنما يُذهب العلم النسيان، وقلّة المذاكرة[2].

ولذلك جاء عن الصحابة رضوان الله عنهم الحث على المذاكرة، والأمر بها.

الصحابة يتذاكرون العلم:

قال أبو نضرة: كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا اجتمعوا تذاكروا العلم، وقرأوا سورة[3].

قال ابن عباس: تذاكر العلم بعض ليلة أحب إلي من إحيائها[4]، وقال أبو سعيد: تحدثوا، فإنَّ الحديث يهيج الحديث[5]، وعن ابن مسعود قال: تذاكروا الحديث فإنه يهيج بعضه بعضاً[6]، وفي لفظ: فإنَّ حياته مذاكرته[7].

وعن علقمة قال: تذاكروا الحديث فإن إحياءه ذكره[8].

---

(١) المصدر السابق ص ٩٨.

(٢) الكامل ١/٥٩، السير ٥/٣٣٧.

(٣) جامع الخطيب ٢/٦٨.

(٤) سنن الدارمي ١/١٤٩، تذكرة الحفاظ ١/٤١، جامع بيان العلم ١/١١٧.

(٥) معرفة علوم الحديث ح ٣٦٠، جامع بيان العلم ١/٤٢٣.

(٦) سنن الدارمي ١/١٥٠.

(٧) معرفة علوم الحديث ح ٣٦٢.

(٨) سنن الدارمي ١/١٤٧، معرفة علوم الحديث ح ٣٦٤.

وقال عبد الله بن بريدة: قال لي عليّ بن أبي طالب: تزاوروا وتذاكروا هذا الحديث، فإنكم إلَّا تفعلوا يدرس عليكم[1].

وعن التابعي الجليل عبد الرَّحمن بن أبي ليلى الأنصاري قال: إنَّ إحياء الحديث مذاكرته، فقال له عبد الله بن شدَّاد: يرحمك الله، كم من حديث أحييته في صدري قد كان مات[2].

وسئل الأصمعي: كيف حفظت ونسوا؟ فقال: درست وتركوا[3].

إذا لم يذاكر ذو العلوم بعلمه ... ولم يستفد علماً نسي ما تعلَّما

فكم جامع للكتب في كل مذهب ... يزيد مع الأيام في جمعه عمى

فوائد المذاكرة:

فهذه بعض فوائد المذاكرة: إثارة العلم وتداوله بين المتذاكرين، فيتذكر الناسي، ويضبط الشاك، ويتحقق الواهم. قال أبو صالح باذام، مولى أم هانىء: حدثنا ابن عباس يوماً بحديث فلم نحفظه، فتذاكرناه بيننا حتى حفظناه[4].

ومن فوائد المذاكرة: كشف الوهم، وبيان الخطأ. قال أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة: . . . وكنت زماناً أرى أنَّ كتاب أبي عبيد قد جمع غريب الحديث، وأنَّ الناظر مستغنٍ به، ثم تعقَّبتُ ذلك بالنظر.. والمذاكرة[5].

---

(١) المعرفة ح ٣٦١، جامع ابن عبد البر ١/ ٢٤٣.

(٢) الجامع، لابن عبد البر ١/ ٤٢٨.

(٣) السير ١٠/ ١٧٧.

(٤) كتاب المعرفة ح ٣٦٣.

(٥) غريب الحديث ص ٥.

ومن فوائدها: بيان صدق الرجل من كذبه، وقوته من ضعفه. قال أبو عبد الله الحاكم: هذا النّوع من هذه العلوم، مذاكرة الحديث والتمييز بها، والمعرفة عند المذاكرة بين الصدوق وغيره، فإن المجازف في المذاكرة يجازف في التحديث، ولقد كتبتُ على جماعة من أصحابنا في المذاكرة أحاديث لم يخرجوا من عهدتها قط، وهي مثبتة عندي.

وكذلك أخبرني أبو علي الحافظ وغيره من مشايخنا أنهم حفظوا على أقوام في المذاكرة ما احتجوا بذلك على جرحهم، ونسأل الله حسن العواقب[1].

وقال: سمعت أبا علي الحافظ يقول: سمعت عبدان الأهوازي يقول: ذاكرت عمّار بن زربي بحديث بشر بن منصور عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، أنَّ النبي ﷺ قال: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»، فما كان إلَّا بعد أيام حتى حدث عن بشر بن منصور عن عبيد الله، عن نافع، عن ابن عمر، أنَّ النبي ﷺ قال: «احتج آدم وموسى، وثبت عليه يحدِّث كل من دبَّ ودرج، فأتيته فقلت له: يا كذَّاب، مِن أين لك عبيد الله عن نافع عن ابن عمر احتجَّ آدم وموسى؟ وإنما ذكرت لك: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[2].

وكانوا يعرفون قيمة الرجل بالمذاكرة، وهذا أبو عبد الله الحاكم ذاكر الدارقطني، فرضيه الدارقطني، وعلم حفظه ومكانته، فأدناه وقرَّبه.

ومِن الطَّريف أنَّ أستاذ القاضي ابن خَلِّكان أبا الفتح موسى بن أبي الفضل الشافعي الموصلي، الشهير بكمال الدِّين ابن

(١) معرفة علوم الحديث ح ٣٥٩.

(٢) المعرفة ح ٣٦٥.

يونس[1]، كان يجاذب تلاميذه المسائل، ثم ينزلهم بحسب ما رأى منهم، قال ابن خَلِّكان:

ولقد حكى لي بعض الفقهاء أنه سأل الشيخ كمال الدِّين عن الأثير، ومنزلته في العلوم (الأثير هو: الفضل بن عمر الأبهري، صاحب التعليقة في الخلاف)، فقال الكمال ابن يونس: ما أعلم! فقال: وكيف هذا يا مولانا وهو في خدمتك منذ سنين عديدة، ويشتغل عليك؟ فقال: لأنِّي مهما قلت له تلقاه بالقَبول، وقال: نعم يا مولانا، فما جاذبني في مبحث قط حتى أعلم حقيقة فضله[2].

ومن فوائدها: أنَّ الخطأ المفحص عنه بالمذاكرة لا يكاد تصويبه يتفلَّت من القلب، كالخطأ المصوب في مشهدٍ من الناس.

جاء في معرفة علوم الحديث لأبي عبد الله ابن البيِّع[3]: سمعت أبا أحمد محمد بن عليّ الرازي يقول: حضرت مجلس الإمام أبي بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، وأبو النضر يقرأ عليه كتاب المختصر للمزني، فقال ـ أي القارىء ـ: وتوضَّأ عمر من ماء في حِر نصرانية، فضحك الناس، فقال أبو بكر: لا تخجل يا بني، فإنِّي سمعت المزني يقول: سمعت الشافعي يقول: ما ضُحِك من خطأ رجل إلَّا ثبت صوابه في قلبه.

وقريب منه ما وقع لرفيق لنا، كان معنا عند شيخ يعلمنا التخريج، فمرَّ بحديث: «بيت لا تمرَ فيه جياع أهله»، فقال صاحبي: هذا لا يحتاج إلى

---

(1) ترجمته في الفلاكة ص ٨٤، وطبقات السبكي ٥/ ١٥٨.
(2) وفيات الأعيان ٥/ ٣١٣، واعتذر ابن خلكان عن الأثير بما تراه في الموضع المزبور.
(3) ح ٣٨٠.

تخريج، واضح من متنه أنه موضوع، فقال الشيخ: هو في صحيح مسلم، فخجل الرجل وضحكنا، ولا أكاد أنسى تخريج هذا الحديث بعد الذي حصل لصاحبنا.

١١ ــ الحث على المناظرة:

وقريب من المذاكرة: المناظرة، وليست المناظرة هي المماراة أو المجادلة المنهي عنها المذموم قاصدها، كلا، فإنَّ المناظر طالب للبلج بالحق، وأولئك قصدهم دفع ما يرد، حقًّا كان أو باطلاً.

وينبغي أن تكون المناظرة في ما فيه فائدة، قال أبو حازم: لقد رأيتنا في مجلس زيد بن أسلم أربعين حبراً، فقهاء، أدنى خصلة فينا التواسي بما في أيدينا، فما رؤي منّا متماريان ولا متنازعان في حديث لا ينفعهما قط[١].

قال مقيده: هكذا فكن يا طالب الحديث، لا تخل قلبك من المذاكرة فيعود عقيماً، ولا تعف طبعك من المناظرة فيصير سقيماً، ولكن مع القصد الحسن، كما قدمنا أول الكتاب.

وفي منثور الحكمة: ليحذر طالب العلم أن يطلبه لمراء أو رياء، فإن المماري به مهجور لا ينتفع، والمرائي به محقور لا يرتفع.

قال أبو محمد بن قتيبة: وكل من تحيَّر في أمر قد اشتبه عليه واستبهم، أخرجه من الحيرة فيه: أن يسأل ويناظر، ثم يفكِّر ويعتبر[٢].

١٢ ــ ترديد الحديث في النفس:

وربما كان الواحد من السلف لا يجد من يذاكره فيردد الحديث بينه وبين نفسه، أو يلقيه على من لا يفقهه من صبيان وجواري، قال إبراهيم

---

(١) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٦٠.

(٢) تأويل مشكل القرآن ص ٣١٣.

النخعي: إنه ليطوى عليّ الليل حتى أصبح فألقاهم، فربما أدسه بيني وبين نفسي، أو أحدث به أهلي.

قال أبو أسامة (حماد بن أسامة): يعني بقوله: أدسه، يقول: أتحفظه[1].

قلت: ما خاب إبراهيم إذ أخذ بنصيحة خاله علقمة: أطيلوا كَرَّ الحديث لا يُدرس، وقد أفلح إبراهيم بذلك، وقال: إذا سمعتَ حديثاً فحدث به حين تسمعه، ولو أن تحدث به من لا يشتهيه، فإنه يكون كالكتاب في صدرك[2].

وفي لفظ: يصير عندك كأنه إمام تقرأه[3].

فهذا هو التعهد الذي أمروا به لاستدامة المحفوظ، وكان الخليل يقول: تَعهّدُ ما في صدرك أولى من تحفظ ما في كتبك[4].

الزهري يحدث الجواري والأعراب:

وكان الإمام الزهري رحمه الله يطلب العلم يومه، يمر على الأشياخ كعروة وسالم وأبي سلمة وغيرهم، ثم يأتي بيته مساء، فيوقظ جاريته، ويقول لها: حدثني فلان بكذا، وفلان بكذا..، فتقول: ما لي ولهذا؟ فيقول: قد علمتُ أنك لا تنتفعي به، ولكن سمعت الآن فأردت أن أستذكره[5].

---

(١) جامع بيان العلم ١/ ٤٢٧.
(٢) جامع ابن عبد البر ١/ ٤٢٥.
(٣) سنن الدارمي ١/ ١٤٨.
(٤) جامع الخطيب ٢/ ١٤.
(٥) جامع الخطيب ٢/ ٢٦٨، السير ٥/ ٣٣٤.

وقال زياد بن سعد: ذهبنا مع الزهري إلى أرضه بالشغب، قال: فكان الزهري يجمع الأعاريب فيحدثهم، يريد الحفظ[1].

وقال الليث بن سعد: وُضِع طست بين يدي ابن شهاب، فتذكر حديثاً، فلم تزل يده في الطست حتى طلع الفجر، حتى صححه!![2].

مَن كان يحدِّث مَن لا ينتفع بالحديث لأجل الحفظ:

وعن سعيد بن عبد العزيز قال: إنَّ عطاء الخراساني كان إذا لم يجد أحداً يحدِّثه، أتى المساكين فحدَّثهم، يريد بذلك الحفظ[3]. قال: وإنَّ خالد بن يزيد بن معاوية كان إذا لم يجد أحداً يحدِّثه يحدِّث جواريه، ثم يقول: إنِّي لأعلم أنكنَّ لستن له بأهل، يريد بذلك الحفظ[4].

وكان إسماعيل بن رجاء يأتي صبيان الكتاب، فيعرض عليهم حديثه كي لا ينساه[5].

١٣ ــ الحفظ والذَّكاء ليسا متلازمين:

وليس الحفظ والذَّكاء متلازمين دائماً، نعم إن اجتمعا في رجل فهو الغاية.

قال الشعبي: إنما كان يطلب هذا العلم من اجتمعت فيه خصلتان: العقل والنسك، فإن كان عاقلاً ولم يكن ناسكاً قال: هذا أمر لا يناله إلاَّ النسَّاك فلن أطلبه، وإن كان ناسكاً ولم يكن عاقلاً قال: هذا أمر لا يناله إلاَّ

(١) جامع الخطيب ٢/ ٢٦٨، السير ٥/ ٣٣٣.
(٢) جامع الخطيب ٢/ ٢٦٦.
(٣) جامع الخطيب ١/ ٢٠٣.
(٤) جامع بيان العلم ١/ ٤٥٤.
(٥) الجامع، للخطيب ١/ ٣١٠، والجامع، لابن عبد البر ١/ ٤٢٥.

العقلاء فلن أطلبه، قال: فلقد رهبت أن يكون يطلبه اليوم من ليس فيه واحدة منهما، لا عقل ولا نسك![1].

وقد يكون الرجل ذكيًا حاضر البديهة، قويّ العارضة، جيِّد التخلُّص، لكنه سيِّء الحفظ.

قصَّة حمار الزَّاد:

وعلى العكس من ذلك فقد يكون قويّ الحفظ، سريع الاستذكار، بليد التفكير، فسل الرأي، كما يذكر عن حمار الزَّاد، وكان من شأنه ما حدَّثنا به بعض مشايخنا أنه كان في نجد رجل سريع الحفظ، عديم الفهم، وكان في جماعة يدرسون على شيخهم زاد المستقنع، وهو المشهور عند حنابلة نجد، فتميز عليه الطلاب بالفهم، ولم يجد ما يسبقهم فيه إلاَّ الحفظ، فأقبل على الزاد فحفظه، دون أن يفقه منه شيئاً، فسموه حمار الزَّاد، أخذاً من قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ ﴾، قال: وكانوا إذا ذهبوا إلى البساتين في نزهة ونحوها، اصطحبوه معهم، ليستفيدوا منه في المذاكرة، فكانوا يتذاكرون العلم، فإذا اختلفوا في شيء قالوا له: سَمِّع من قوله باب كذا وكذا، فيقرأ مستظهراً حتى يأتي على موضع الخلاف، فيحسمه دون أن يشعر، ويقطعه دون أن يعلم.

والذكاء موهبة مصدرها العقل، والعقل محلّه القلب، كما مرَّ بنا، وكذا الحفظ محلّه القلب، على ما ذكرنا، والذكاء على نوعين: غريزي، ومكتسب، وهو الذي يسمِّيه بعضهم: مطبوع، ومسموع، وأنشد:

رأيت العقل نوعين ... فمسموع ومطبوع
ولا ينفع مسموع ... إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس ... وضوء العين منزوع

---

(١) قال الذهبي: أظنه أراد بالعقل الفهم والذكاء. السير ٤/٣٠٧.

فالغريزي (المطبوع): هو الذي يُخلق مع الإنسان، والمكتسب (المسموع): فيُنَال بالتجربة والجهد والممارسة.

وهذا المكتسب يؤثر على الغريزي سلباً أو إيجاباً، وربما غلب شيء على إنسان حتى صار له طبعاً وفكراً، ولكن إذا لم يكن في الغريزي مقدار يصلح للقابلية والاستعدادية، لا ينفع المكتسب، بل لا يكون أصلاً، لأنه فرع الأول، كما قال:

كما لا تنفع الشمس وضوء العين منزوع

وعامّة خلق الله عندهم قدر من الغريزي يمكّنهم من الكسب والاحتراف، فمنهم مَن يقنع بما هو عليه، ومنهم من ينمِّيه ويربِّيه.

قال أبو الحسن الماوردي: نماء العقل المكتسب بأحد وجهين:

إمَّا بكثرة استعماله... ، وأمَّا الوجه الثاني: فقد يكون بفرط الذكاء، وحسن الفِطْنة، وذلك جودة الحدس في زمان غير ممهل للحدس، فإذا امتزج بالفعل الغريزي صارت نتيجتهما نموّ العقل المكتسب[1].

قلت: وتكون تنميته أيضاً بالاطِّلاع على عقول الغير، وبالاستفادة من تجارب الآخرين، عنيت بالأول: الكتب، وبالثاني: القصص والأخبار.

نعم، للعقل والذكاء شأن في الحفظ بارز، فالعقل آلة الفهم، والفهم آلة الحفظ، وقد قيل: آية العقل سرعة الفهم، وغايته إصابة الوهم.

١٤ ــ تزكية المحفوظ:

مما يعين على الحفظ تأدية زكاة المحفوظ، أي: استعمال ما يَسمع من الأحاديث، وكان بشر الحافي يقول: يا أهل الحديث، أدّوا زكاة هذا

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٣٧ ــ ٣٨.

الحديث، اعملوا من كل مائتي حديث بخمسة أحاديث[1].

وقال وكيع بن الجراح: إذا أردت أن تحفظ الحديث فاعمل به، وقال الشعبي: كنّا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به[2].

ومن الأوجه المعينة على العمل احتساب الأجر.

قال عمرو بن قيس الملائي: إذا بلغك شيء من الخير فاعمل به ولو مرة، تكن من أهله[3].

الثوري لا يسمع حديثاً إلاّ عمل به:

عبد الرحمن بن مهدي عن سفيان قال: ما بلغني عن رسول الله ﷺ حديث قطّ إلاّ عملت به، ولو مرّة[4].

أبو عثمان الحيري يسمع من ابن حمدان مستخرجه:

قال مقيده ابن فارس عفا الله عنه: من عجائب العمل بالحديث ما كان عليه العبد الصالح أبو عثمان الحيري في سماعه من الحافظ أبي جعفر أحمد بن حمدان النيسابوري المستخرج على صحيح مسلم.

وهذا المستخرج ذكره أبو عمرو بن الصلاح، فأثنى عليه خيراً، وقال: رحل في حديث واحد منه إلى أبي يعلى الموصلي، ورحل في أحاديث معدودة منه لم يكن سمعها. ورُوِّينا أنه سمعه منه الشيخ القدوة أبو عثمان سعيد بن إسماعيل الزاهد الحيري، فكان إذا بلغ منه موضعاً فيه سنة لم

---

(١) الإرشاد، للخليلي ٣/٨٦٧، تاريخ بغداد ٧/٦٩، جامع الخطيب ١/١٤٤، مقدمة ابن الصلاح ص ٢٤٧.

(٢) جامع بيان العلم ١/٧٠٩.

(٣) جامع الخطيب البغدادي ١/١٤٤.

(٤) السير ٧/٢٤٢.

يستعملها، وقف عندها إلى أن يستعملها[1].

قلت: من الأحاديث التي وقف عندها أبو عثمان في هذا المستخرج، ما رواه الخطيب قال: أنا أبو حازم عمر بن أحمد الحافظ قال: سمعت أبا عمرو محمد بن أبـي جعفر بن حمدان يقول: كان والدي أبو جعفر يصلِّي صلاة المغرب مع أبـي عثمان ــ يعني سعيد بن إسماعيل ــ وربما أقام في بعض الليالي حتى يصلِّي معه ليلة صلاة العشاء الآخرة، فإذا أبطأ علينا خرجت إلى مسجد أبـي عثمان.

فخرجت ليلة من الليالي إلى مسجد أبـي عثمان، فخرج علينا لصلاة العشاء الآخرة، وعليه إزار ورداء، فصلى بنا، ثم دخل داره، ورجعت مع أبـي إلى البيت، فقلت لأبـي: يا أبة، أبو عثمان قد أحرم؟ قال: لا، ولكنه هو ذا يسمع مني المسند الصحيح الذي خرجته على كتاب مسلم، فإذا سمع بسنة لم يكن استعملها في ما مضى أحب أن يستعملها في يومه وليلته، وإنه سمع في جملة ما قرأ عليّ أن النبـي ﷺ صلى في إزار ورداء، فأحب أن يستعمل تلك السنة قبل أن يصبح[2].

ابن حنبل لم يترك حديثاً دون أن يستعمله:

ومما يسجّل لإمام أهل السنّة والجماعة أحمد بن حنبل رحمه الله في هذا الميدان قوله: ما كتبت حديثاً عن النبـي ﷺ إلاّ وقد عملت به، حتى مرَّ بـي الحديث أنَّ النبـي ﷺ احتجم وأعطى أبا طيبة ديناراً، فأعطيت الحجام ديناراً حين احتجمتُ[3].

فليهنأ هذا الإمام باتِّباع السنَّة، ولتقرَّ عينه بها، وهذا مسنده يزخر

---

(١) صيانة صحيح مسلم ص ٨٨.

(٢) الجامع ١/ ١٤٥.

(٣) المصدر السابق ١/ ١٤٤.

بألوان السنن، وما من باب من أبواب الدِّين إلاَّ ولمسنده فيه باع.

فرحم الله سلفنا الصالح، كان الواحد منهم أحرص على العمل من أحدنا على دنياه.

منام في مَن لم يعمل:

جاء في ترجمة ابن الخشاب عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن عبد الله بن نصر البغدادي الحنبلي ـ المتوفَّى سنة ٥٦٧ ـ عن عبد الله بن أبـي الفرج قال: رأيت ابن الخشاب في المنام وعليه ثياب بيض، وعلى وجهه نور، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ودخلت الجنة، إلاَّ أنَّ الله أعرض عنِّي وعن كثير من العلماء ممَّن لا يعمل[١]!

١٥ ـ إنما العلم العمل:

قد جاء عن طائفة من السلف أن العلم هو الخشية، أي ما أثر في صاحبه الخشية والخوف، والتقى والصلاح.

وقال الشافعي: العلم ما نفع، ليس العلم ما حُفظ[٢].

وقال عبد الأعلى التيمي: من أوتي من العلم ما لا يبكيه فليس بخليق أن يكون أوتي علماً ينفعه، لأن الله تبارك وتعالى نعتَ العلماء فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ۩ ﴿١٠٩﴾﴾.

وعن عبد الرَّحمن بن أبـي ليلى أنه قرأ سورة مريم، حتى انتهى إلى السجدة: ﴿خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ۩ ﴿٥٨﴾﴾، فسجد بها، فلما رفع رأسه قال: هذه السجدة قد سجدناها، فأين البكاء[٣]؟.

---

(١) طبقات ابن رجب ١/ ٢٢٣.

(٢) حلية الأولياء ٩/ ١٢٣، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٨٩.

(٣) فضائل القرآن، لأبـي عبيد ص ١٤٠.

١٦ ـ تقوىٰ الله:

ليستعن الطالب على الحفظ بتقوىٰ الله عزَّ وجلّ، والابتعاد عن المعاصي والموبقات، فإنَّ طلب الحديث عبادة، والعبادة تثقل بالمعصية.

ومما ينسب إلى الشافعي من الشعر:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأنَّ العلم نور ونور الله لا يؤتاه عاصي

وليطلب المعونة من الله تبارك وتعالى، ولا يغترّ بما عنده من حفظ وذكاء، فقد قيل:

هتف الذكاء وقال لست بنافع إلاَّ بتوفيق من الوهَّاب

١٧ ـ ذكاء وزكاء:

وهذا هو الزكاء، فإن كنت حُفظة ذكيًّا فكن زكيًّا، فلن ينفع حفظ وذكاء بدون زكاء[١].

وتزكية النفس تثمر رفعة عند الله، وذكراً حسناً بين الناس، والشيخ مع التقوى وقليل العلم، أبقى ذِكْراً، وأكثر قَبولاً، من كثيرِ العلمِ، قليلِ الدِّين.

جاء في ترجمة شيخ اللغة والفقه أبي عبد الله إبراهيم بن محمد المهلبي، الأزدي الأصل، الظاهري المذهب، الملقب نَفْطَوَيه ـ وكان بحراً من العلوم ـ، أنه مرَّ مع ابن خالويه على مسجد هشام بن خلف البزار المقرىء، فقال نفطويه: هذا مسجد هشام مقرىء أهل بغداد، والله ما كان

---

(١) قال الذهبي في ترجمة الطوسي الرافضي: وكان يعد من الأذكياء لا الأزكياء (السير ١٨/ ٣٣٥)، وقال عن آخر كان ذكياً بدون زكاء: وما تنفع الآداب والبحث والذكاء وصاحبها هاوٍ بها في جهنم (السير ١٨/ ٤٩٠).

بأعلم منِّي، ولكنه أطاع الله فرُفع، وعصيت الله فوضع منِّي[1].

١٨ ـ يحفظ المرء بقدر نيته:

وكلَّما كان الطالب مبتغياً بطلبه وجه الله كلَّما كان الحفظ عليه أيسر، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنّما يحفظ الرجل على قدر نيَّته[2].

قَبول المحدث على قدر نيته:

وكذلك الشأن في قَبول المحدِّث بين الناس، وإقبالهم عليه.

قال إبراهيم بن يحيى بن سعيد: رأيت أبا عاصم النبيل في منامي بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ثم قال: كيف حديثي فيكم؟ قلت: إذا قلنا أبو عاصم فليس أحد يردّ علينا، قال: فسكت عنِّي، ثم أقبل عليّ فقال: إنما يعطى الناس على قدر نيّاتهم[3].

وللنيّة شأن سبق الكلام عليه، فأغنى عن إعادته.

١٩ ـ الاستعانة بالرفقة الصالحة:

وليستعن على الحفظ برفقة صالحة تتعاطى الحفظ وتعالجه، وإن احتاج لمن يقرأ عليه بسبب ضرارة ونحوها فحسن.

قال يحيى بن معين: ما رأيت أحداً أحفظ من وكيع، فقال رجل: ولا هشيماً؟ قال: وأين يقع حديث هشيم من حديث وكيع؟ فقال له رجل: فإني سمعت عليّ بن المديني يقول: ما رأيت أحداً أحفظ من يزيد بن هارون، قال: كان يزيد يتحفظ من كتاب، كانت له جارية تحفظه من كتاب.

---

(١) معجم الأدباء ١/١٦٩، وهذا قاله على سبيل التواضع وهضم حقوق النفس.

(٢) الجامع، للخطيب ٢/٢٥٧.

(٣) الجامع ٢/٢٥٨.

قال أبو بكر الخطيب: كان بصر يزيد قد كُفّ، فلذلك كان يأمر جاريته بتلقينه، ويحفظ عنها[1].

٢٠ ــ انشر العلم:

وليعلم أن التعليم والتدريس مما يقوي على الحفظ، ويزيد في العلم، فالتعليم له عائدتان على المُعَلم:

الأولى: ما يُرجى من ثواب الله عزَّ وجلّ، وهذه العائدة تكتب فيها وفي أصنافها مجلدات.

والثانية: زيادة العلم، وإتقان الحفظ.

قال الخليل بن أحمد رحمه الله: اجعل تعليمك دراسة لعلمك، واجعل مناظرة المتعلِّم تنبيهاً على ما ليس عندك[2].

٢١ ــ التخريج والتصنيف:

وليشتغل بالتخريج والتصنيف، والبحث والتنقيب، فإن ما كُتب عن بحث وتحقيق يثبت في الذاكرة، قال ابن دقيق العيد ــ وكان حفظة ــ:

ويشتغل بالتصنيف والتخريج، فهو من أعظم الأشياء عوناً له على الحفظ.

قال مقيده: الاشتغال بالتخريج والتصنيف لأجل النشر والإذاعة له شروط، فمن تحققت به الأهلية لذلك فدونه، ولكني أردت أن يحرص طالب الحفظ على أن لا يمر به حديث إلاَّ ويخرِّجه في ورقة، ويحتفظ به في ديوانه، فإنَّ الحديث المشتغل به قلَّ أن يُنسى.

---

(١) الكفاية ص ٢٩٥.

(٢) أدب الدنيا والدين ص ١٣٢.

قال الخطيب: ينبغي أن يُفرِّغ المصنف للتصنيف قلبه، ويجمع له همّه، ويصرف إليه شغله، ويقطع به وقته، وكان بعض شيوخنا يقول: مَن أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ، وليأخذ قلم التخريج(١).

٢٢ ـ لا تغتر بالأدوية والعقاقير:

ومما يذكره الناس من مقويات الحفظ بعض الأدوية والعقاقير، وأرى هذا شيئاً من الوهم، فليس ثمَّة علاج يزيد الحفظ ويعجل به غير ما ذكرنا، وكذلك ما يذكر من أن بعض المطعومات تنقص فيه عُدَّه من هذا القبيل.

فمن ذلك ما قال ابن الجوزي: وقد يورث النسيان أشياء كثيرة لخاصتها، مثل الحجامة في النقرة، وأكل الكريزة (الكرز) الرطبة، والتفّاح الحامض، والمشي بين جملين مقطورين! وكثرة الهمّ وقراءة ألواح القبور، والنظر في الماء الدائم والبول فيه، والنظر إلى المصلوب، ونبذ القمل!!، وأكل سؤر الفار.

قال الزهري: التفاح يورث النسيان(٢).

ثم ذكر ما يزيد في الحفظ فقال: قال علي رضي الله عنه: عليكم بالرمّان الحلو فإنه صلوح المعدة، وشكا رجل إليه النسيان فقال: عليك باللبان فإنه يشجع القلب، ويذهب النسيان.

قلت: مضغه الشافعي فأعقبه قذف الدم، فاحذره.

قال الذهبي: مع فرط ذكاء الشافعي وسعة علمه كان يتناول ما يقوي حافظته.

---

(١) الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٨٢.

(٢) حفظ العلم ص ١٨.

قال هارون الأيلي: قال لنا الشافعي: أخذت اللبان سنة للحفظ، فأعقبني رمي الدم سنة[1].

واللبان المعني هو: الكندر، وسيأتي.

قال ابن الجوزي: وقال ابن عباس: حلق القفا يزيد في الحفظ!.

وقال أيضاً: خذ مثقالاً من كندر، ومثقالاً من سكر، فدقهما جيِّداً، ثم اقحمهما على الريق، فإنه جيِّد للنسيان.

قلت: الله أعلم بصحَّة هذا الخبر، فأنا أحسب أنَّ العرب لا يعرفون الكندر، وإنما طرأ عليهم من فارس، ثمَّ وجدتُ الإسناد فإذا هو كذلك.

فقد ذكر الذهبي في ترجمة الحافظ شيخ الإسلام إسحاق بن راهويه قال: قال الحاكم: حدَّثنا أبو زكريا العنبري، حدَّثنا أحمد بن سلمة، سمعت إسحاق يقول: قال لي عبد الله بن طاهر: بلغني أنك شربت البلاذر للحفظ، قلت: ما هممت بذلك، ولكن أخبرني معتمر بن سليمان قال: أخبرنا عثمان بن ساج عن خصيف عن عكرمة عن ابن عباس قال: خذ مثقالاً من كندر، ومثقالاً من سكَّر، فدقهما، ثم اقتحمهما على الريق، فإنه جيِّد للنسيان والبول.

قال: فدعا عبد الله بقرطاس فكتبه[2].

قال في القاموس: الكُنْدُر: بالضم، ضرب من العلك. اهـ.

قال مقيده: قد سألتُ عنه العطَّارين فأخبروني أنه هو اللبان نفسه، ولكنه يسمَّى في فارس: الكندر، وتطلَّبته منهم فلم يكن عندهم منه شيء، ثم

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٦٨.

وجدته عند عطار أهوازي يقطن في دُبـي، وإذا هو نوع من اللبان فيه شيء من الصمغ.

وقد ذكره صاحب المعتمد في الأدوية وبالغ في ذكر فوائده[1]، وقال: عليك بالعسل فإنَّه جيِّد للحفظ[2]، وقال أيضاً: مَن سرَّه أنْ يحفظ الحديث فليأكل الزبيب[3].

قلت: مراده كل شيء حلو.

قال: وقال الجعابـي: كنت بليد الحفظ، فقال لي الأطباء: كُل الخبز بالحِلاب (أي: ما في الضرع من لبن)، فأكلته أربعين يوماً بالغديّات والعشيّات لا آكل غيره، فصفي ذهني، وصرت حافظاً، حتى صرت أحفظ في يوم ثلاثمائة حديث[4].

قال مقيده: وكان أبو بكر الأنباري أعجوبة في الحفظ ـ ولعلنا نعرج على أخباره في ما يستقبل ـ وكان يأكل القِلية، ويقول: أبقي على حفظي[5].

والمشهور عند الناس أن الفول ـ لا سيَّما المصري ـ يبلد الذهن، ويضعف الحفظ، والمنقول عن طبيب مصر خلافه، فقد قال الشافعي

---

(١) المعتمد في الأدوية المفردة ص ٤٣٤ ـ ٤٣٥.
(٢) قال الليث: كان الزهري لا يأكل التفاح لأجل الحفظ (لأن التفاح حامض)، ويشرب العسل لذلك، التذكرة ١/ ١١٠.
(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ١١٢.
(٤) حفظ العلم ص ١٩.
(٥) تاريخ بغداد ٣/ ١٨٤، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٤٣، وقد ساق ياقوت خبراً طويلاً في شأنه مع القلية في معجم الأدباء ٥/ ٤١٢.
قال في اللسان: القلية مرقة تتخذ من لحومِ الجِزور وأكبادها.

رضي الله عنه: الفول يزيد في الدماغ، والدماغ يزيد في العقل[1]!

٢٣ ـ أسطورة الحفظ: البلاذر:

وأما أسطورة الحفظ: فالبَلاذِر، وهو عندهم من أقوى منشطات الحفظ ومولداته.

والبلاذِر: نوع من الأشجار، ثمره شبيه بنوى التمر، ولبّه مثل لبّ الجوز، وقشره متخلخل متثقّب، في تخلخله عسل لزج ذو رائحة، يؤخذ ويدقّ، ويعمل منه مشروب، يرون أنه يقوي الحفظ، وبعضهم يقضمه مع الجوز[2].

ويذكر الأطباء: أنه جيِّد لفساد الذِّهن، وجميع الأعراض الحادثة في الدماغ من البرودة والرطوبة، نافع من برد العصب، والاسترخاء والنسيان، وذهاب الحفظ[3].

من نُسب إلى البلاذِر:

وقد نُسِبَ إليه جماعة من العلماء لأنهم استعملوه فقيل فيهم: البلاذري، وشربه جماعة لأجل الحفظ، فاختبلوا، أو أصيبوا بآفة، منهم:

* المؤرخ الكبير أبو الحسن أحمد بن يحيى بن جابر البلاذري، نسب إلى البلاذر لكثرة شربه إياه، وهو صاحب فتوح البلدان، وأنساب الأشراف، وغيرها. شرب البلاذر فوسوس في آخر أيّامه، حتى أدخل في البيمارستان، وشُدَّ فيه إلى أن مات، فنسأل الله السلامة.

---

(١) آداب الشافعي ٣٢٢ ـ ٣٣٣، الحلية ٩/ ١٣٧، ألف باء البلوي ٢/ ١٥٩.

(٢) انظر: القانون، لابن سينا ١/ ٢٦٧.

(٣) المعتمد في الأدوية المفردة ص ٣١.

قال ابن النديم: كان سبب وسوسته أنه شرب ثمر البلاذر من غير معرفة، فلحقه ما لحقه[1].

وكانت وفاته أواخر أيّام الخليفة المعتمد على الله[2].

* وشربه سيِّد الحفاظ أبو سعيد عبد الرحمن بن مهدي البصري (المتوفَّى سنة ١٩٨) فبرص منه، وشربه رفيقه في البصرة أبو داود سليمان بن داود الطيالسي الحافظ (المتوفَّى سنة ٢٠٤) فجذم منه.

قال أحمد بن صالح العجلي: كان أبو داود الطيالسي كثير الحفظ، شرب البلاذر هو وعبد الرحمن بن مهدي، فجذم أبو داود وبرص عبد الرحمن، فحفظ أبو داود أربعين ألف حديث، وحفظ عبد الرحمن عشرة آلاف حديث[3].

* وشربه أبو الفرج ابن الجوزي (٥٠٨ ـ ٥٩٧) مع أنه لم يذكره في كتاب الحفظ، فسقطت لحيته، فكانت قصيرة جدًّا[4].

تحمَّض مع الفقهاء الذين شربوا البلاذر:

ومما يستملح من أخبار شاربـي البلاذر ما ذكر ابن خلكان، في ترجمة شيخه ابن شداد[5]، قال ابن خلّكان:

---

(١) الفهرست ص ١١٣.
وكذا ذكر المرزباني وغيره: أنه شرب البلاذر فأفسد عقله، وقضى في محبس المجانين، معجم الأدباء ١/ ٤٩.

(٢) توفي المعتمد سنة ٢٧٩، كما في تاريخ الخلفاء، للسيوطي ص ٣٤٠.

(٣) من تاريخ بغداد

(٤) السير ٢١/ ٣٧٨.

(٥) وفيات الأعيان ٧/ ٩٤.

قال لي بعض أصحابنا سمعته ـ يعني ابن شداد ـ يوماً وهو يحكي للجماعة الحاضرين عنده، قال: لما كنا في المدرسة النظامية ببغداد اتفق أربعة، خمسة من الفقهاء المشتغلين على استعمال حب البلاذر لأجل سرعة الحفظ والفهم، فاجتمعوا ببعض الأطباء وسألوه عن مقدار ما يستعمل الإنسان منه، وكيف يستعمله، ثم اشتروا القدر الذي قال لهم الطبيب، وشربوه في موضع خارج عن المدرسة، فحصل لهم الجنون، وتفرقوا وتشتتوا، ولم يعلم ما جرى لهم.

وبعد أيام جاء إلى المدرسة واحد منهم، وكان طويلاً، وهو عريان ليس عليه شيء يستر عورته، وعلى رأسه بقيار كبير، له عذبة طويلة، خارجة عن العادة، وقد ألقاها وراءه فوصلت إلى كعبه، وهو ساكت عليه السكينة والوقار، لا يتكلم ولا يعبث، فقام إليه من كان حاضراً من الفقهاء، سألوه عن حاله، فقال لهم: كنا قد اجتمعنا وشربنا حب البلاذر، فأما أصحابي فإنهم جنوا، وما سلم منهم إلاَّ أنا وحدي، وصار يظهر العقل العظيم والسكون، وهم يضحكون منه، وهو لا يشعر بهم، ويعتقد أنه سالم مما أصاب أصحابه، وهو على تلك الحالة، لا يفكر فيهم ولا يلتفت إليهم.

لا دواء للحفظ غير النهمة:

سُئل أبو علي صالح بن محمد البغدادي عن علاج الحفظ فقال: لا شيء إلاَّ الطبع والحرص ومداومة النظر، وكثرة الدرس، ومرجع هذا كله إلى الطبع، قد يكون الرجل سريع الحفظ سريع النسيان، وذلك من الصفراء، وقد يكون بطيء الحفظ بطيء النسيان، وذلك من السوداء، وإن من الأطعمة ما إذا أكلت زادت في البلغم، والبلغم يورث النسيان، ومنها ما يقطع البلغم، ويصفي الذهن، من ذلك الخردل، فهو جيِّد للبلغم.

قال أبو علي: ولو كان الحفظ بالعلاج والأدوية لغلبنا عليه الملوك، ولكنه خلقة وطبع، فأما من طبع على الحفظ فلا يضر حفظه ما أكل، ومن طبع على غيره فلا تنفعه المعالجة ولا الدواء.

وقد يأكل كثير من الناس البلاذر للحفظ، وهو لا شيء عندي، ومخاطرة، لأنه يخاف عليه من القتل، هو السم[١].

وقال منصور: البلاذر الأكبر الأنفة من الجهل[٢].

حديث الحفظ:

قال ابن فارس عفا الله عنه: وقد روي في المرفوع عن النبي ﷺ دعاء من قاله يحفظ العلم: فعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما قال: جاء علي بن أبي طالب إلى النبي ﷺ فاشتكى له سوء الحفظ، فقال ﷺ: «إذا كان ليلة الجمعة فإن استطعت أن تقوم من ثلث الليل الآخر، فإنها ساعة مشهودة، والدعاء مستجاب...، فذكر: الصلاة أربع ركعات، يقرأ في الأولى الفاتحة ويسٓ، والثانية الفاتحة والدخان، والثالثة الفاتحة والسجدة، والرابعة الفاتحة وتبارك الملك، ثم يقول بعد التشهُّد دعاء طويلاً، فيه: اللَّـٰهُمَّ ارحمني بترك المعاصي أبداً ما أبقيتني، وارحمني أن أتكلَّف لما لا يعنيني... اللَّـٰهُمَّ نَوِّر بكتابك بصري، وأطلق به لساني...».

ففعل عليٌّ ذلك فصار يحفظ ما يسمع من القرآن والسنّة.

رواه الترمذي في الجامع[٣]، والحاكم في المستدرك[٤]،

---

(١) جامع الخطيب ٢/ ٢٧٩.

(٢) المصدر السابق.

(٣) ح ٣٥٦٥.

(٤) ١/ ٣١٦.

والرامهرمزي في المحدث الفاصل[١]، والخطيب في الجامع[٢].

قال ابن فارس: هذا حديث كذب، موضوع على النبي ﷺ، روي عن الوليد بن مسلم، أخبرنا ابن جريج عن عطاء بن أبي رباح وعكرمة عن ابن عباس..

كذا رواه أبو أيوب سليمان بن عبد الرحمن الدِّمشقي ابن بنت شرحبيل عن الوليد، أخرجه الحاكم والترمذي من طريق شيخه أحمد بن الحسن الترمذي، وقال: حديث حسن غريب لا نعرفه إلاَّ من حديث الوليد بن مسلم.

وقد خولف أحمد بن الحسن في سنده، فقد رواه عثمان الدارمي عن أبي أيوب فقال فيه: عن عطاء عن عكرمة، ومن هذا الوجه أخرجه الحاكم.

(وأنا أخشى أن يكون صحّف عليهم، والصواب عن عطاء وعن عكرمة، فالحديث مشهور بهذا السند الواحد).

قال الحافظ في النكت الظراف[٣]: أخرجه الحاكم وابن مردويه في التفسير من طريق محمد بن إبراهيم البوشنجي، وابن أبي عاصم في الدعاء عن محمد بن الحسن الرازي كلاهما، عن سليمان بن عبد الرحمن مثل ما قال الترمذي.

قلت: لم يتفرد به أبو أيوب، فقد تابعه هشام بن عمار، أخرج حديثه الدارقطني من طريق شيخه النقاش[٤]، ولكن النقاش هالك، فأعلّ ابن

---

(١) ص ٥٤٥.

(٢) ٢/ ٢٦٠.

(٣) النكت الظراف على تحفة الأشراف ٥/ ٩١.

(٤) تحفة الأحوذي ١٠/ ١٦.

الجوزي الحديث به، وفي هذا قصور في النقد، وعدم اطِّلاع.

قال الذهبي: هذا حديث منكر شاذّ أخاف أن يكون موضوعاً، وقد حيَّرني والله جودة سنده[1].

وقال في السِّيَر: هذا عندي موضوع والسلام، ولعل الآفة دخلت على سليمان ابن بنت شرحبيل فيه، فإنه منكر الحديث، وإن كان حافظاً، فلو كان قال فيه عن ابن جريج لراج، ولكن صرح بالتحديث فقويت الريبة[2].

قال الحافظ أبو الحجاج المزي: رواه هشام بن عمار عن محمد بن إبراهيم القرشي، عن أبي صالح، عن عكرمة، عن ابن عباس[3].

قال مقيده: من هذا الوجه أخرجه العقيلي في الضعفاء في ترجمة القرشي هذا، وقال: القرشي وشيخه مجهولان، قال: ورواه سليمان بن عبد الرحمن عن الوليد، عن ابن جريج، عن عطاء وعكرمة، عن ابن عبَّاس، قال: وكلاهما ليس له أصل.

---

(١) تلخيص المستدرك ١/٣١٦، وكذا استجود إسناده المنذري قال: ومتنه غريب جدًّا.

(٢) السير ٩/٢١٨.

وفي كلامه رحمه الله لفتة مهمة في التعامل مع رواة الأحاديث، (وهذا أمر لا يستغرب من الذهبي ذي الخبرة العريضة، والدربة الفائقة)، ذلك أنه اتهم ابن بنت شرحبيل به، لأن من فوقه صرح فيه بالسماع، ولو كان قال «عن» لدفع الريبة عن ابن بنت شرحبيل وأناط العلة بالتدليس، ثم يحتمل بعد ذلك هذا الإغراب من ابن بنت شرحبيل، لأن غرائب المدلسين لا تنتهي، ولكن مع التصريح بالسماع فإن الوليد لا يحتمل ذلك، فأنيطت الريبة بسليمان لا سيما وأنه ليس بعمدة، وهذا النظر العميق في الإعلال أصوب ممن حاول أن يعله بالوليد، كما سيأتي التنبيه عليه.

(٣) تحفة الأشراف ٤/٩١.

وساق الذهبي في الميزان للقرشي حديثين هو وضعهما، أحدهما هذا[1].

قلت: أما شيخه أبو صالح فقد جزم ابن الجوزي أنه إسحاق بن نجيح الملطي، فإن يكنه فكذاب محترف، وقال في الميزان: يقال إنه إسحاق بن نجيح[2].

قال مقيده: فهذا إسناد موضوع لا مريَّة فيه، ولكن الإسناد الأول من رجال البخاري (وليس من شرطه) فإنه أخرج لأبي أَيُّوب في الصحيح، وأبو أَيُّوب ممَّن انتقد على البخاري إخراجه، مع تسليم النقَّاد أنَّ أصوله صحيحة، فما حدَّث به من أصوله الصحيحة فهو صحيح، وهذا ما كان يفعله محمد بن إسماعيل البخاري بمثل هؤلاء المضعفين ممن لهم أصول صحيحة، فإنه كان يأخذ أصولهم ويتنقَّى منها، كما تراه في ترجمة إسماعيل بن أبي أويس المدني من هدي الساري[3].

وفي النظر في علَّة هذا الإسناد نجد قول ابن حجر في النكت الظراف: لعل الوليد أخذه عن هذا القرشي فدلَّسه عن ابن جريج بإسقاطه هذا القرشي، وسواه لابن جريج عن عكرمة، والعلم عند الله تعالى.

وقد سبقه إلى ذلك النقد ابن الجوزي، لكن عندي في ما ذهبا إليه نظر، لأنَّ الوليد قد صرَّح بسماعه من ابن جريج، أما ترى الذهبي يقول:

---

(١) الميزان ٣/٤٤٦.

(٢) الميزان ٤/٥٣٩، ١/٢٠٢.

(٣) قال الحافظ في مقدمة صحيح البخاري ص ٣٩١: روينا في مناقب البخاري بسند صحيح أن إسماعيل بن أبي اويس أخرج له أصوله، وأذن له أن ينتقي منها وأن يعلم له على ما يحدث به ليحدث به ويعرض عما سواه، وهو مشعر أن ما أخرجه البخاري عنه فهو من صحيح حديثه، لأنه كتب من أصوله.

(لو قال عن ابن جريج لراج، ولكنه صرح بالسماع)، وأستبعد أن تكون الآفة منه، أو من ابن جريج، فإن الإسناد غريب جدًا، وما توبع أبو أَيُّوب من وجه يصح، فالآفة في أبـي أَيُّوب، وقد اتهمه به الذهبـي في الميزان، قال في ترجمته: لعل سليمان شبه له وأدخل عليه، كما قال أبو حاتم: لو أن رجلاً وضع له حديثاً لم يفهم.

وهذا هو الصواب في إعلال الحديث، وشرح هذا الإدخال تجده في كلام الحافظ العلاَّمة عبد الرحمن المعلمي رحمه الله تعالى، قال:

. . . في التهذيب قال يعقوب بن سفيان: كان صحيح الكتاب، إلاَّ أنه كان يحوِّل، فإن وقع فيه شيء فمن النقل، يعني أنَّ أصول كتبه كانت صحيحة، ولكنه كان ينتقي منها أحاديث يكتبها في أجزاء، ثم يحدِّث عن تلك الأجزاء، فقد يقع له خطأ عند التحويل فيقع بعض الأحاديث في الجزء خطأ فيحدث به، وأحسب بليّة هذا الخبر من ذاك، كأنه كان في أصل سليمان خبر آخر فيه: ثنا الوليد ثنا ابن جريج، وعنده هذا الخبر بسند آخر إلى ابن جريج، فانتقل نظره عند النقل من سند الخبر الأول إلى سند الثاني فتركب هذا الخبر على ذاك السند، وكأن هذا إنما اتّفق له أخيراً فلم يسمع الحفاظ الأثبات كالبخاري وأبـي زرعة وأبـي حاتم منه ذاك الجزء، ولو سمعه أحدهم لنبهه ليراجع الأصل[١].

قلت: أصاب المعلمي المفصل في كلامه هذا، وما رأيت لغيره مثل هذا النقد في هذا الحديث، وأظنه استفاد هذا المنهج من عمله في علل ابن أبـي حاتم، فقد أعلَّ أبو حاتم أحاديث بنحو هذا الكلام، وهذا أمر لا ينكر حدوثه عند التحويل والنقل لمن فيه غفلة، أو كان لا يتقن هذه الصنعة،

(١) تعليقة المعلمي على الفوائد المجموعة ص ٤٢ ــ ٤٣.

كحال أبي أيوب سليمان ابن بنت شرحبيل، فاشدد يدك على هذا الكلام فإنه كالمسمار في الساج.

ويوهن الحديث أيضاً هذه الصفة الغريبة في الصلاة على خلاف المعهود، وقد قال النبي ﷺ: «صلاة الليل مثنى مثنى»، ولكان أرشد إليه أبا هريرة لما اشتكى سوء الحفظ.

وقد جاء الحديث بسياق آخر من طريق ابن مسعود مرفوعاً: مَن أراد أن يؤتيه الله حفظ القرآن والعلم فليكتب هذا الدُّعاء في إناء نظيف بعسل، ثم يغسله بماء مطر يأخذه قبل أن يقع على الأرض، ثم ذكر دعاء طويلاً[1].

فهذا أيضاً موضوع مختلق لا أصل له عن النبي ﷺ، في إسناده موسى بن إبراهيم المروزي، كذاب، ساق له الذهبي في الميزان هذا الحديث من صنع يديه[2]، رواه بإسناد على شرط الصحيح، وهو أخذه من كذاب مثله: هو عمر بن صبح، أخرج حديثه عيسى غنجار في تاريخه[3].

وبالجملة: فالحديث ما رواه ثقة ولا مقنع، وكيف ما دار فعلى وضَّاع، وليس في المرفوع دعاء للحفظ ولا صلاة له، ولا نعلم يصح إلَّا دعاء النبي ﷺ لأبي هريرة، وتفله في بردته، على ما سيأتي. والله أعلم.



---

(١) رواه الخطيب في الجامع ٢/ ٢٦١.

(٢) ميزان الاعتدال ٤/ ١٩٩.

(٣) انظر: تنزيه الشريعة ٢/ ٣٢٢، تذكرة الموضوعات، للفتني ص ٥٧، وقال: وورد عن أبي بكر وفي إسناده عبد الملك بن هارون دجال، وفيه إعضال.

فصل

آفة العلم النسيان

كل شيء يصير إلى ذهاب وانقضاء إلاَّ ما شاء الله، والعلم مما لم يستثنه الله عزَّ وجلّ، وهو يصير إلى ذهابين:

الأول: ذهاب محدود، وذلك بأن يتفلَّت مِن صدور الرجال.

والثاني: وهو الذهاب العام، حين ينزعه الله من بين الخلائق، ويرفعه إليه مع كتابه، ويتصدَّر الجهَّال، ويقول الناس: وجدنا آباءنا على هذه الكلمة فنحن نقولها كما وجدناهم عليها.

أما الذهاب الأول فمرده إلى تفريط الإنسان، وإغفاله الاستذكار، وإهماله نعمة العلم ــ في الغالب ــ، فيكون الناسي عندها مفرطاً، غارقاً في الإثم.

وأما الذهاب الثاني فذهاب قدري، من جملة رفع القرآن، لأن القرآن أصل العلم، فإذا ذهب الأصل لحقه الفرع.

عوارض تنقص الحفظ أو تزيله:

والذهاب الأول هو آفة العلم على الحقيقة، ولكنه أحياناً يذهب دون رغبة من صاحبه، ويتفلَّت دون تفريط منه، فيجب أن يعلم أن الحفظ يطرأ عليه ما ينقصه أو يذهبه، من كبر أو مرض أو نحو ذلك من الأعراض المؤثرة في ابن آدم، وأثقلها: تقادم العهد، وتعاقب الأمد.

وقد وجدنا من كبار الحفاظ من تغير بَعدُ، دون تفريط أو إخلال، بل وجدنا من اختلط بالكلية، أو ابتلي بمرض أو هَمٍّ ذهب ببعض محفوظاته.

وذكر الذهبي أن أبا الحسن القطان زعم أنَّ هشام بن عروة الحافظ اختلط في أُخَرَة فقال: الرجل حجة مطلقاً، ولا عبرة بما قاله أبو الحسن ابن القطَّان من أنه هو وسهيل بن أبي صالح اختلطا وتغيَّرا، فإنَّ الحافظ قد يتغيَّر حفظه إذا كبر، وتنقص حدَّة ذهنه، فليس هو في شيخوخته كهو في شبيبته، وما ثَمَّ أحد بمعصوم من السهو والنسيان، وما هذا التغيير بضارٍّ أصلاً[1].

قلت: فهذا نسي من الكبر، وثمَّة مَن نسي لأجل المرض.

جاء عن الحافظ الثِّقة الثَّبت الموصوف بشيخ الإسلام، يزيد بن هارون الواسطي أنه قال: حفظت ليحيى بن سعيد ثلاثة آلاف حديث، فمرضت، فنسيت نصفها[2]. وقال عبد العزيز الدراوردي: أصاب سهيلاً ــ يعني ابن أبي صالح ــ علَّة أذهبت بعض عقله، ونسي بعض حديثه[3]. وقال الذهبي في ترجمة يحيى بن يمان العجلي، وكان ضُعِّف لأجل سوء الحفظ: فُلِجَ فساء حفظه[4].

وهذا باب يطول استقصاؤه.

وقال أبو معاوية محمد بن خازم: حفظت عن الأعمش ألفاً وستمائة، فمرضت مرضة، فذهب عنِّي منها أربعمائة[5].

---

(١) السير ٦/ ٣٥.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ١٣٩.

(٣) الكواكب النيرات ص ٢٤٦.

(٤) الكاشف ٣/ ٢٧٣.

(٥) السير ٩/ ٧٥.

وفي الحفاظ من توفي له ابنٌ أَثير، فوَجَدَ عليه شديداً، فذهب ما حلَّ به من ألم، بما كان عنده من علم، ثم خولط، فترك، ولا حول ولا قوّة إلَّا بالله.

ومن الطُّرَفِ في هذا الباب ما ذكره ابن عدي في ترجمة الأعمش، بإسناده عن أبـي معاوية عنه قال: كنت عند إبراهيم فحدَّث بستّة أحاديث فحفظتها وأتيت البيت، فقالت الجارية: يا مولاي، ليس في البيت دقيق، فنسيتهن![1].

وقد يكون النسيان عقوبة ربانية، كما حصل لأبـي الحسن ابن القطَّان الحافظ الزَّاهد، فقد قال العلاَّمة أحمد بن فارس رحمه الله في بعض أماليه: سمعت أبا الحسن القطَّان بعد ما عَلَت به السنّ يقول: حين رحلت كنت أحفظ مائة ألف حديث، وأنا اليوم لا أقوم على حفظ مائة حديث، وسمعته يقول: أُصِبْتُ ببصري، وأظن أنِّي عوقبت بكثرة كلامي في الرحلة[2].

قال الماوردي: أمَّا المانع من حفظ العلم بعد تصوُّره وفهمه فهو النسيان الحادث عن غفلة التقصير وإهمال التواني، فينبغي لمن بُلِي به أن يستدرك تقصيره بكثرة الدرس، ويوقظ غفلته بإدامة النظر، فقد قيل: لن

---

(١) الكامل ١/ ٦٥، وعن الشافعي نحو ذلك.

(٢) كذا في تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٥٥، وسير أعلام النبلاء ١٥/ ٤٦٤، فإن كان صحيحاً فالمعنى: عوقب في كلامه في من لا يستحق الكلام.
وفي بعض المصادر كمعجم الأدباء (١٢/ ٢٢٠): عوقبت بسبب بكاء أمي علي، فكأنها كانت تبكي عليه أيام الرحلة، وهو لا يرحمها، ولا شك أن طاعتها في المكث عندها واجبة، ولكن أبا الحسن قدم شهوة الحديث فعوقب، رحمه الله ورحم والدته على صبرها عليه، توفي أبو الحسن علي بن إبراهيم القزويني سنة ٣٤٥، وكان ولد عام ٢٥٤.

يدرك العلم مَن لا يطيل درسه، ويكدّ نفسه، وكثرة الدرس كدٌّ لا يصبر عليه إلَّا مَن يرى العلم مغنماً، والجهل مغرماً، فيحتمل تعب الدرس ليدرك راحة العلم، وينفي عنه معرَّة الجهل، فإنَّ نيل العظيم بأمر عظيم، وعلى قدر الرغبة يكون الطلب، وبحسب الراحة يكون التعب، وقد قيل: علَّة الراحة قلَّة الاستراحة[1].

غوائل العلم:

قال الزهري: إن للعلم غوائل، فمن غوائله أن يترك العالم حتى يذهب علمه، ومن غوائله النسيان، ومن غوائله الكذب وهو أشد غوائله[2].

لولا النسيان لكان الفقهاء كثيراً:

عن السري، أنَّ العلاء بن أبي هلال الباهلي قال للحسن يوماً: يا أبا سعيد، إنك حدثتني بحديث فنسيته، فأعد عليّ، فقال الحسن: لولا النسيان لكان الفقهاء كثيراً[3].



(١) أدب الدنيا والدين ص ٩٧.

(٢) الكامل ١/ ٥٩.

(٣) المعرفة والتاريخ ٢/ ٣٣.

فصل

في حفظ الكتاب

تقدمة:

سبق أن ذكرنا خلاف الصدر الأول في الكتابة، إلَّا أنَّ هذا الخلاف تلاشى فيما بعد، وذلك لما طالت الأسانيد، وكثر الرواة، وخشي على العلم التفلُّت والذهاب، فرغب الناس في كتابة العلم، وأوْلوها عنايتهم، وصيَّروها شعارهم، حتى قال قائلهم: مَن لا يكتب العلم فلا تعدُّوه عالماً[(١)].

قال الخطيب البغدادي: إنما اتَّسع الناس في كتب العلم، وعوَّلوا على تدوينه في الصحف بعد الكراهة، لأن الروايات انتشرت، والأسانيد طالت، وأسماء الرجال وكناهم وأنسابهم كثرت. . . ، فعجزت القلوب عن حفظ ما ذكرنا. . . ، مع رخصة رسول الله ﷺ لمن ضعف حفظه في الكتاب، وعمل السَّلف والتَّابعين ومَنْ بعدهم بذلك[(٢)].

قال ابن فارس: لولا كَتب العلم ما وصل إلينا على هذه الهيئة من الحفظ والإتقان، إذ توارد على نقله نوعي الحفظ: حفظ الصدر وحفظ

---

(١) جامع بيان العلم ١/ ٣٢١

(٢) تقييد العلم ص ٦٤.

القِمَطر، ولو تفرد أحدهما لقلَّت الثقة، ولكن تآصرا حتى بلغنا، وكذلك هما متآصرين حتى يصلا مَنْ وراءنا.

قال الماوردي منبِّهاً على أهمية الكتابة في حفظ العلم: وربما اعتمد على حفظه وتصوُّره، وأغفل تقييد العلم في كتبه، ثقة بما استقرَّ في ذهنه، وهذا خطأ منه، لأنَّ الشك معترض، والنسيان طارىء.

وقال بعض البلغاء: إن هذه الآداب نوافر تندُّ عن عُقل الأذهان، فاجعلوا الكتب عنها حماة، والأقلام لها رعاة[١].

قال مقيده: شرد عنِّي من العلم ومن الفوائد ما لو قيَّدته لكان مغنماً، ولكني اعتمدت على استقرارها للحظة في الذهن، فخانتني الذاكرة أحوج ما تكون، وقد كان بعض السلف يقول: نسيت من العلم ما لو حفظه رجل لكان إماماً.

فالكتابة ــ رعاك الله ــ هي من الحفظ بمنزلة عظيمة، ولها ارتباط به، وتلازم معه، فذكرنا:

* **أنها معينة على الحفظ**: قال الحافظ المقرىء المحدِّث الثِّقة الثَّبت أبو عمرو عثمان بن سعيد الدَّاني: ما رأيت شيئاً إلَّا كتبته، ولا كتبته إلَّا حفظته، ولا حفظته فنسيته[٢].

وقال أبو العباس المبرد: ما سمعت شيئاً إلَّا كتبته، ولا كتبته إلَّا حفظته، ولا حفظته إلَّا نفعني[٣].

* **وهي مرتِّبة للأولويات**: فيكتب أحسن ما سمع وقرأ، ويحفظ أحسن ما كتب، ويحدث بأحسن ما حفظ.

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٩٩.

(٢) السير ١٨/ ٨٠.

(٣) تقييد العلم ص ١١٤، جامع بيان العلم ١/ ٣٣٥.

* **والكتابة ميدع المحفوظات، ومخزن العلوم**: قال الخليل بن أحمد الفراهيدي ــ وكان ناصحاً حكيماً ــ: اجعل ما تكتب بيت مال، وما في صدرك للتفقُّه[1].

وأما من ترك الكتابة مطلقاً فلا أقل من أن يندم، كما جاء في ترجمة المحدِّث الثِّقة يحيى بن سعيد الأنصاري أنه قال: لأن أكون كتبت كل ما أسمع أحب إليّ من أن يكون لي مثل مالي[2].

وقال شعبة: قال منصور: وددت أنِّي كتبت، وأنَّ عليَّ كذا وكذا، قد ذهب منِّي مثل علمي[3].

العلم صيدٌ والكتابة قيده ... قيِّد صيودك بالحبال الواثقة
فمن الحماقة أن تصيد غزالة ... وتتركها بين الأنام طالقة

وربما استعاضوا عن الحفظ بصحة الكتاب، روى أحمد بن ابن أبي الحواري عن مروان بن محمد الطاطري ــ وهو من كبار أئمة الشام ــ أنه قال: لا غنى لصاحب الحديث عن ثلاثة: صدق، وحفظ، وصحة كتب، فإن كانت ثنتان لم يضعف: صدق وصحة كتب، فإذا لم يحفظ رجع إلى كتب صحيحة[4].

اجتماع الحفظ والكتابة في الطالب:

ومتى اجتمع في طالبٍ الحفظ مع حسن الكتابة فإليه المنتهى في التثبُّت.

---

(١) تقييد العلم ص ١٤١، جامع بيان العلم ١/ ٣٢٦.
(٢) السير ٥/ ٤٧٤.
(٣) السير ٥/ ٤٠٥.
(٤) التذكرة ١/ ٣٤٨.

جاء في ترجمة الصاحب الجليل الفرضي المفتي زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه أن أبا بكر انتدبه لجمع القرآن في مشورة مع الملهم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما، فقام بجمعه على الوجه الأتم، ثم عُيِّن بعدُ في خلافة عثمان لكتابة المصحف، وقُدِّم في ذلك على جملة من كبار الصحابة وأفاضلهم، حتى إن بعضهم قد عتب على عثمان ذلك، ولكن عثمان رضي الله عنه كان راشداً، ومحقًّا في ما فعله، إذ إنَّ زيداً اجتمع فيه ضبط صدر وحسن كتاب.

قال الذهبي رحمه الله: عيَّنه عثمان لكتابة المصحف، وثوقاً بحفظه ودينه وأمانته، وحسن كتابته[1].

فحسب زيد بن ثابت رضي الله عنه منقبة: التشرف بكتابة المصحف، وناهيك بها فضيلة، وما نالها إلاَّ بحسن حفظه، وجودة كتابه.

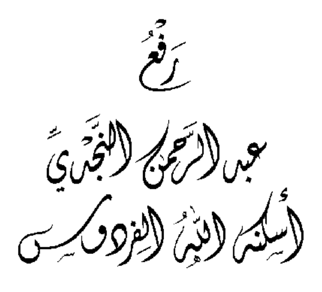
مقارنة بين من كتب العلم ومن لم يكتبه:

قال أبو زرعة: سمعت أبا نعيم وذكر عنده حمَّاد بن زيد وابن عليّة، وأنَّ حمَّاداً حفظ عن أَيُّوب، وابن عليّة كتب، فقال: ضمنت لك أن كل من لا يرجع إلى كتاب لا يؤمن عليه الزّلل[2].

وقال أحمد: إذا اختلف وكيع وعبد الرحمن، فعبد الرحمن أثبت، لأنه أقرب عهداً بالكتاب[3].

❑ ❑ ❑

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٠.
(٢) جامع الخطيب ٢/ ١١.
(٣) المصدر السابق.



فصل

المنهجية في الكتابة

للحفاظ جهد مشكور في الإرشاد إلى كيفية ضبط الكتابة الحديثيّة، ولهم منهج معروف، وقد لخَّصته فيما يلي:

١ ــ إخلاص النيّة:

على الحديثي أن يطلب بكتابته الحديث وجه الله عزَّ وجلّ، ويجتهد في استحضار النية، ومن أقرب الوجوه في إصلاحها: أن يعلم أن كتابته من كسبه وعمله، وأنه مسؤول عن ذلك أمام الله عزَّ وجلّ.

قال أبو محمد بن قتيبة رحمه الله[١]: ومن علم رحمك الله أنَّ كلامه من عمله، قلَّ إلاَّ فيما ينفعه، ومن أيقن أنه مسؤول عمَّا ألف وعمَّا كتب، لم يعمل الشيء وضده، ولم يستفرغ مجهوده في تثبيت الباطل عنده، وأنشدني الرياشي:

ولا تكتب بخطك غير شيء يسرك في القيامة أن تراه

٢ ــ تب من كتابة ما لا ينفع:

وهذا الحافظ شجاع بن فارس بن الحسين الذهلي البغدادي الناسخ،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٥٩، قال ذلك في سياق ذم مؤلفات الجاحظ.

كتب ما لا يحصى كثرة، بحيث قيل: قلَّ بلد يوجد من بلاد الإسلام إلاَّ وفيه شيء بخط شجاع الذهلي.

تابَ من كتب ما لا فائدة فيه، ومن كَتب الشعر ونسخه.

قال السمعاني: نسخ بخطه من التفسير والحديث والفقه ما لم ينسخه أحد من الوراقين.

قال لي عبد الوهاب الأنماطي: دخلت عليه يوماً فقال لي: توِّبني! قلت: من أيّ شيء؟ قال: كتبت شعر ابن الحجَّاج بخطِّي سبع مرات[1].

ابن جرير يسأل المعونة على التأليف:

قال شيخ الإسلام أبو جعفر بن جرير الطبري رحمه الله تعالى: استخرتُ الله وسألته العون على ما نويته من تصنيف التفسير قبل أن أعمله ثلاث سنين فأعانني[2].

طريقة الماوردي في معالجة النيّة:

قال مقيده: من أغرب ما وقفت عليه في معالجة النيّة في التأليف ما ذكروه في ترجمة قاضي الجماعة علي بن محمد بن حبيب الماوردي الشافعي.

قال مترجموه: إنه لم يُظهر شيئاً من تصانيفه في حياته، وجمعها في موضع، فلمّا دنت وفاته، قال لمن يثق به: الكتب في المكان الفلاني تصنيفي، إنما لم أظهرها لأني لم أجد نية خالصة، فإذا عاينت الموت،

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٥٣٦.
وابن الحجاج من مُجَّان الشعراء، واسمه: حسين بن أحمد بن محمد بن جعفر النيلي البغدادي، توفي سنة ٣٩١هـ.

(٢) السير ١٤/ ٢٧٥.

ووقعت في النزع، فاجعل يدك في يدي، فإن قبضت عليها وعصرتها، فاعلم أنه لم يقبل مني شيء منها، فاعمد إلى الكتب وألقها في دجلة، وإن بسطت يدي فاعلم أنها قُبِلت.

قال الرجل: فلما احتُضِر وضعت يدي في يده فبسطها، فأظهرت كتبه[1].

ابن المبارك يطلب النجاة في كتابة الحديث:

وكان ابن المبارك يكتب السنة حياتَه، فقيل له وقد شاخ: إلى متى تطلب الحديث؟ فقال: إلى أن أموت[2].

قال أبو حاتم: كان ابن المبارك يكتب عمن دونه، فقيل له: يا أبا عبد الرحمن، كم تكتب؟ فقال: لعلَّ الكلمة التي فيها نجاتي لم تقع إليّ![3].

٣ ـ تحرير الكتاب:

وعلى الكاتب أن يحرِّر كتابه، ويوجِّه همَّته إلى ضبطه ونقطه على الوجه الصحيح، وكثيراً ما يتهاون في الضبط ذو الثقة بذهنه ويقظته، فيخونه أحوج ما يكون إليه.

قال التقيّ ابن الصَّلاح: وذلك وخيم العاقبة، فإن الإنسان معرض

---

(١) وفيات الأعيان ٣/ ٢٨٢، طبقات الشافعية ٥/ ٢٦٨.
وعقب السبكي: لعل هذا بالنسبة إلى الحاوي، وإلا فقد رأيت من مصنفاته غيره كثيراً، وعليه خطه، ومنه ما كملت قراءته عليه في حياته.
قلت: يغلب على القصة الضعف، وراويها مجهول، وإنما ذكرتها استملاحاً.

(٢) الكامل ١/ ١٠٣.

(٣) جامع الخطيب ٢/ ٢٢٠.

للنسيان، وأوّل ناسٍ أوّلُ النّاسِ، وإعجام المكتوب يمنع استعجامه، وشَكْله يمنع إشكاله.

ثم لا ينبغي أن يتعنَّى بتقييد الواضح الذي لا يكاد يلبس، وقد أحسن مَن قال: إنما يُشْكَل ما يُشْكِل[(١)].

المراد من الضبط:

وغاية الضبط أمران:

أحدهما: تقويم الحروف على أشكالها الموضوعة لها، وهذا متيسر اليوم بآلات الطباعة.

الثاني: ضبط ما اشتبه منها بالنقط، والأشكال المميزة لها، وهذه تتولى آلات الطباعة بعضها، وينبغي الاهتمام بالشكل، فإنَّ عامّة الكتب اليوم تكاد تكون خالية منه.

قال الماوردي: ثم ما زاد على هذين من تحسين الخط وملاحة نظمه فإنما هو زيادة حذق بصنعتِه وليس بشرط في صحَّته[(٢)].

وقد كان كبار العلماء يخشون على أنفسهم التصحيف، فيبالغون في الضبط والشكل.

قال أحمد: من يفلت من التصحيف؟ كان يحيى بن سعيد يشكل الحرف إذا كان شديداً، وكان هؤلاء أصحاب الشكل: عفَّان وبهز وحبَّان[(٣)].

ولعلَّ عفَّان الصفَّار أخذ ذلك عن أبي عوانة الوضَّاح اليشكري

---

(١) المقدمة ص ١٨٣

(٢) أدب الدنيا والدين ص ١٠٣.

(٣) تاريخ بغداد ١٢/ ٢٧٤.

(ت ١٧٦)، فقد قال عفَّان: كان أبو عوانة صحيح الكتاب، كثير العجم والنقط ثبتاً[١].

بعض الحفَّاظ سيِّء الخطّ:

على أنَّ بعض الحفَّاظ ما أعطي حسن الخطّ، منهم الثوري.

قال عبد الله بن داود الخريبي: كان خط سفيان الثوري خرباش، يكتب طاوس: طواس![٢].

وكذلك كان خطّ شيخ الإسلام ابن تيمية، تشتبك فيه الحروف، وتتواصل فيه الكلمات، ويخلو من النقط والضبط، ويشتكي المشتغلون بكتبه ذلك.

المشهور عن المحدثين جمال الخط:

ذكر الذهبي في ترجمة شيخه علم الدِّين أبي محمَّد القاسم البرزالي أنه هو الذي حبب إليه طلب الحديث، قال: كان هو الذي حبَّب إليَّ طلب الحديث، فإنه رأى خطي فقال: خطك يشبه خطّ المحدثين، فأثر قوله فيَّ، وسمعت، وتخرجت به في أشياء[٣].

وخط الذهبي جميل منمق.

٤ ـ تكبير الخطّ:

كره بعض العلماء الخط الدقيق من غير عذر يقتضيه.

قال أحمد بن حنبل لابن أخيه حنبل بن إسحاق وهو يكتب خطًّا دقيقاً:

---

(١) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ١٠٧.

(٢) الكامل، لابن عدي ١/ ٨٢.

(٣) ذيل السير، للذهبي، وترجمة البرزالي محققة ضمن ثلاث تراجم نفيسة ص ٤٠، تحقيق ابن ناصر العجمي.

لا تفعل، أحوج ما تكون إليه يخونك[1].

وقد يحتاج إلى الكتابة بخط دقيق، كأن يكون الكتاب أجزاء كثيرة، ومجلدات ضخمة، وقد ذكر أبو عبد الله الحاكم في المدخل إلى الإكليل قال: سمعت أبا إسحاق إبراهيم بن محمد بن يحيى يقول: سمعت محمد بن المسيب الأرغياني يقول: كنت أمشي بمصر وفي كمي مائة جزء، في كل جزء ألف حديث[2].

قال الذهبي: هذا يدل على دقة خطّه، وإلاَّ فألف حديث بخط مفسر تكون في مجلد، والكُم إذا حمل فيه أربع مجلدات فبالجهد[3].

٥ ـ احذر العجلة في التصنيف:

قال التقيّ ابن الصَّلاح: ثم ليحذر أن يخرج إلى الناس ما يصنِّفه إلاَّ بعد تهذيبه وتحريره، وإعادة النظر فيه، وتكريره، وليتَّقِ أنَّ يجمع ما لم يتأهَّل بعد لاجتناء ثمرته، واقتناص فائدة جمعه، كيلا يكون حكمه ما روينا عن علي بن المديني قال: إذا رأيت الحدث أوَّل ما يكتب الحديث يجمع حديث الغسل، وحديث من كذب، فاكتب على قفاه: لا يفلح[4].

قال مقيِّده: العجلة في إخراج الكتب قبل إنعام النظر فيها، والإمعان في تنقيحها، داء يوقع صاحبه في الهلكة، ويجعله غرضاً لسهام المدقِّقين، وما عليه لو أعمل قلمه في كتابه لفترات طويلة، طلباً للسّلامة، ورغبة في النجح.

---

(١) المقدمة ص ١٨٥.
(٢) المدخل ح ٢٢.
(٣) السير ١٤/ ٤٢٥.
(٤) المقدمة ص ٢٥٥.

قال إبراهيم الحربي: سمعت خلف بن هشام البزار يقول: قلمي على كتابي من أربعين سنة أصلح فيه.

وقال أبو زرعة الرازي: أنا أصلح كتابي من أصحاب الحديث إلى اليوم[1].

إعمال القلم في الكتاب دليل صحّته:

وفي الجامع للخطيب باب: الاستدلال بالضرب والتخريج على صحة الكتاب، وفيه: عن الشافعي قال: إذا رأيت الكتاب فيه إلحاق وإصلاح فاشهد له بالصحّة.

وقال الزيّات يصف دفتراً:

وأرى وُشوماً في كتابك لم تدع ... شكًّا لمرتاب ولا لمفكِّر

نقط وأشكال تلوح كأنها ... ندب الخدوش تلوح بين الأسطر[2]

وقد كان الواحد من العلماء يقضي في تأليف الكتاب الواحد بضع سنين، وهذان الصحيحان اللذان هما أصحّ الكتب بعد كتاب ربّنا، تراخى في تأليفهما الزمن، وتطاول في إخراجهما العمر.

أبو عبيد يؤلِّف الغريب في أربعين سنة:

وهذا الإمام الحجة أبو عبيد القاسم بن سلاَّم يمكث في تأليف الغريب المصنف أربعين سنة، قال رحمه الله:

كنت في تصنيف هذا الكتاب (الغريب المصنف) أربعين سنة، وربما كنت أستفيد الفائدة من أفواه الرجال فأضعها في الكتاب، فأبيت ساهراً فرحاً بتلك الفائدة، وأحدكم يجيئني فيقيم عندي أربعة أشهر، خمسة أشهر،

---

(١) هذان الخبران في الكفاية ص ٢٨٨.

(٢) جامع الخطيب ١/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠، المحدث الفاضل ص ٥٣٩.

فيقول قد أقمت الكثير![1].

تاريخ دمشق تُقطع في كتابته الأعوام:

ولحافظ الشام ابن عساكر صاحب تاريخ دمشق نبأ مع كتابه عجيب، قال ابن خلِّكان في ترجمة ابن عساكر من كتاب وفيات الأعيان: قال لي شيخنا الحافظ العلاَّمة زكيّ الدِّين المنذري.. وقد جرى ذكر هذا التاريخ، وأخرج لي منه مجلَّداً، وطال الحديث في أمره واستعظامه:

ما أظن هذا الرجل إلاَّ عزم على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه وشرع في الجمع من ذلك الوقت، وإلاَّ فالعمر يقصر عن أن يجمع فيه الإنسان مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال والتنبُّه.

ولقد قال الحق، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا القول، ومتى يتَّسع للإنسان الوقت حتى يضع مثله، وهذا الذي ظهر هو الذي اختاره، وما صح له هذا إلاَّ بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها[2].

ابن النجار يزمع التأليف منذ الصّبا:

هو مؤرِّخ العراق وحافظها، محبّ الدِّين محمد بن محمود بن حسن بن هبة الله البغدادي، المشهور بابن النجَّار، صاحب التاريخ والذيل.

قال في أول تاريخه: كنت وأنا صبي عزمت على تذييل الذيل لابن السمعاني، فجمعت في ذلك مسودة، ورحلت وأنا ابن ثمان وعشرين سنة، فدخلت الحجاز والشّام ومصر والثغر وبلاد الجزيرة والعراق والجبال وخراسان، وقرأت الكتب المطولات، ورأيت الحفَّاظ، وكنت كثير التتبُّع لأخبار فضلاء بغداد ومَن دخلها.

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/٤٠٧، وفيات الأعيان ٤/٦١، السير ١٠/ ٤٩٠، طبقات الحنابلة ١/ ٢٦١.

(٢) وفيات الأعيان ٣/ ٣١٠.

قال مقيِّده: فأين هؤلاء الجهابذة من أصحاب الإسهال في التصنيف، الذين لا يكاد يجف لأحدهم مداد في كتاب حتى يتبعه بآخر، فإذا عدم موضوعاً يكتب فيه، أو مخطوطاً يحققه، عمد إلى كتب قد حققت منذ زمن، وتعارف الناس على طبعة لها، صقلتها دراسة الدارسين، وشهرتها تداول المتعلِّمين، فصفَّها مِن جديد، وأعاد تبويبها وترتيبها، ثم استلب قلم المحقِّق الأوَّل، وتقمَّص تخريجه وتعليقه، ثم كتب على طرَّته: حقَّقه فلان بن فلان!

وبعضهم يفتخر أنه يكتب ولا يراجع أو يقابل، وأنه لا يعرف مسودات، إنما يكتب مبيضات!

وإذا كان ابن الجوزي قد زهد العلماء ببعض كتبه لما فيها من تسرُّع وقلَّة تحقيق، كما ذكر ذلك الذهبي، ونقلناه آنفاً، فكيف يكون الحال في زمن نقصان العلم وفوات العلماء، في زمننا هذا ونحن كما قال أبو جعفر الحمَّال: كيف تفلحون وأنتم لم تروا من أفلح، ونحن رأيناهم فلم نفلح[1].

دعوة لحفظ التراث:

وممَّا ينبغي أن يسطر هنا دعوة لحفظ التراث من عبث الأغرار، وأطماع المرتزقة، فليس التحقيق حرفة مَن لا حرفة له، بل هو علم قائم على أصول عامّة، يضاف إليها العلم بمادة ما يحقِّقه.

ولشيخ المحقِّقين العلاَّمة عبد السَّلام هارون رحمه الله كتاب في أصول التحقيق، لخَّص فيه تجربة طويلة، وخبرة عملية.

وللعلاَّمة عبد الرَّحمن المعلمي رحمه الله كتاب في أصول الطِّباعة، وما على أصحاب المطابع مراعاته في إخراج الكتب وطبعها، وقد سبق ذكر هذين الكتابين.

---

(١) الإرشاد، للخليلي ٢/١١٩.

٦ ـ قاعدة في عمل المحقق:

وقـد وضـع العلاَّمـة تـاج الـدِّين السبكي قـاعـدة في عمل المحقِّقين فقال:

وأنا دائماً أستهجن ممن يدَّعي التحقيق من العلماء إعادة ما ذكره الماضون إذا لم يضم إلى الإعادة تنكيتاً عليهم، أو زيادة قيد أهملوه، أو تحقيق تركوه، أو نحو ذلك، مما هو مرام المحقِّقين.

ومما أعتقد به عظمة الشيخ رحمه الله ـ يعني أباه ـ أنَّ عامّة تصانيفه اللّطاف في مسائل نادرة الوقوع، مولدة الاستخراج، لم يسبق فيها للسابقين كلام، وإن تكلم في آية أو حديث أو مسألة سبق إلى الكلام فيها اقتصر على ذكر ما عنده مما استخرجته فكرته السليمة، ووقعت إليه أعماله القويمة، غير جامع كلمات السابقين، كحاطب ليل يحب التشبع بما لم يعط، حظّه من التصنيف جمع كلام من مضى، فإن ترقَّت رتبته، وتعالت همَّته، لخص ذلك الكلام، وإن ضم إلى التلخيص أدنى بحث أو استدراك فذاك عند أهل الزمان الحبر المقدم، والفارس المبجل.

وعندنا أنه منحاز عن مراتب العلماء البزل، والأذكياء المهرة.

إنما الحبر من يملي عليه قلبه ودماغه، وتبرز التحقيقات التي تشهد الفطرة السليمة بأنها في أقصى غايات النظر، مشحونة باستحضار مقالات العلماء، مشيراً فيها إلى ما يستند الكلام إليه من أدلة المنقول والمعقول، يرمز إلى ذلك رمز الفارغ منه، الذي هو عنده مقرر واضح، لا تفيد إعادته إلاَّ السآمة والملالة، ولا يعيده إعادة الحاشد الجماعة، الولاج الخراج، المحب أن يحمد بما لم يفعل. اهـ[١].

---

(١) طبقات الشافعية ١/٤٨، ط دار المعرفة.

٧ ـ المقابلة:

فإذا كتب الحديثي شيئاً فعليه أن يقابله إن كان منقولاً من أصل، كأن يكون تحقيقاً لمخطوط، أو يراجعه إن كان تأليفاً وجمعاً.

وأهم ما على المحقِّق فعله: المقابلة بأصول صحيحة معتمدة.

والمقابلة أصل هذا الباب، وقطب رحاه، فمن كتب أو حقَّق دون أن يقابِل لم يصنع ذا بال، وكان العلماء يتواصون فيما بينهم بالمعارضة.

عن هشام بن عروة عن أبيه قال له: كتبت؟ قال: نعم، قال: عارضت؟ قال: لا، قال: لم تكتب[1].

وقال يحيى بن أبي كثير اليمامي: الذي يكتب ولا يعارض كالذي يدخل الخلاء ولا يستنجي. ونحوه جاء عن الأوزاعي[2].

وقال الخليل: إذا نُسخ الكتاب ثلاث مرات، تحول بالفارسية من كثرة سقطه[3].

وقال الأخفش: إذا نسخ الكتاب ولم يعارض، ثم نسخ ولم يعارض، خرج أعجمياً![4].

ابن شاهين يكتب ولا يعارض:

وقد زهد العلماء في كتب مَن لا يعارض بالأصول ولو كان حافظاً، كما جاء في ترجمة الحافظ المسند أبي حفص عمر بن أحمد البغدادي، المعروف بابن شاهين، وكان رحل وسمع وهو صغير، وصنف التفسير

---

(١) الكفاية ص ٢٧٣، جامع بيان العلم ١/ ٣٣٦.

(٢) الكفاية ص ٢٧٣، جامع بيان العلم ١/ ٣٣٧.

(٣) جامع الخطيب ١/ ٢٧٦.

(٤) الكفاية ص ٢٧٣.

الكبير ألف جزء، والمسند ألف وثلاثمائة جزء، والتاريخ مائة وخمسون جزءاً، والزهد مائة جزء، ولكنه لم يكن يعارض في الكتابة، فقال البرقاني: قال لي ابن شاهين: جميع ما صنفته لم أعارضه بالأصول، يعني ثقة بنفسه، فزهد فيه البرقاني ــ وكان ناقداً ــ وقال: لم أُكثر عنه زهداً فيه.

وقال الأزهري: كان عند ابن شاهين عن البغوي سبعمائة جزء، وسمعته يقول: أنا أكتب ولا أعارض[1].

قلت: لذلك كانت كتبه مظنة للخطأ، وربما تحاشاها الحفاظ.

أنواع المقابلة:

وأفضل أنواع المقابلة: ما اجتمع عليها حافظان عالمان بموضوع الكتاب، وأقلّها مَن قابل بنفسه، وإن لم يكن يقظاً فهماً فقد يخطىء كثيراً.

كريمة المروزية تعارض صحيح البخاري:

وكانت العالمة المسندة: كريمة المروزية، قد سمعت صحيح البخاري من أبي الهيثم الكشميهني، وعُمِّرت واشتهرت بسماعها وضبطها لنسختها، حتى إن الخطيب البغدادي ــ وناهيك به ــ رغب أن يقرأ عليها الصحيح، فاستتم له ذلك أيام الموسم في خمسة أيام.

وكانت إذا أراد أحد أن يعارض بالذي كتب عنها لوحده تأبى، وتقول: لا حتى تعارض معي[2].

المقابلة بالأجرة:

وقد وجد من الحفاظ من كان يستأجر حافظاً للمقابلة، فهذا الحافظ عبد العزيز الأزجي يقول: أخذت من أبي سعد الماليني أجرة النسخ

---

(١) تاريخ بغداد ١١/ ٢٦٧، السير ١٦/ ٤٣٣، تذكرة الحفاظ ص ٩٨٨ ــ ٩٨٩.

(٢) السير ١٨/ ٢٣٤.

والمقابلة خمسين ديناراً، في دفعة واحدة[1].

مساعدة الأعمى في المعارضة:

وهذا الإمام علي بن محمد المعافري القابسي صاحب النسخة المنسوبة إليه من صحيح البخاري، يستعين بأصحابه للمقابلة لأنه كان ضريراً.

قال العلماء: كُتُب القابسي في نهاية الصحة، كان يضبطها له ثقات أصحابه، والذي ضبط له الصحيح بمكة على أبي زيد صاحبه أبو محمد الأصيلي[2].

الخطأ لا بدَّ منه في كل كتاب حاشا كتاب الله عزَّ وجلّ:

على المرء أن يسدد ويقارب، فلسنا نزعم أن المعارضة سوف تخلي الكتاب من الخطأ، ولكن ستخلصه من كثير منه. وكان معمر يقول: لو عورض الكتاب مائة مرة ما كاد يسلم من أن يكون فيه سقط، أو قال: خطأ[3].

وأنشد الأديب يعقوب بن أحمد النيسابوري:

كم من كتاب قد تصفَّحته ... وقلت في نفسي صحَّحته
ثم إذا طالعته ثانياً ... رأيت تصحيفاً فأصلحته[4]

وقال المزني عن الشافعي: لو عورض كتاب سبعين مرة لوجد فيه خطأ، أبى الله أن يكون كتاب صحيحاً غير كتابه[5].

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ١٠٧١.

(٢) تذكرة الحفاظ ص ١٠٧٩.

(٣) جامع بيان العلم ١/ ٣٣٨.

(٤) الكفاية ص ٢٨٨.

(٥) موضح أوهام الجمع ١/ ١٤.

٨ ـ لا تترك الصلاة على النبي ﷺ:

على كاتب الحديث ألا يغفل الصلاة والتسليم على النبي ﷺ، وإن لم يكن في الأصل المحقق، وليحتسب الأجر في ذلك، ويتعهد النية، فإن كتابتها من أرجى ما يفعله الناسخ.

قال ابن الصَّلاح: ولا يسأم من تكرير ذلك عند تكرره، فإنَّ ذلك مِن أكبر الفوائد التي يتعجَّلها طلبة الحديث وكتبته، ومَن أغفل ذلك حُرم حظًّا عظيماً، وقد رُوِّينا لأهل ذلك منامات صالحة، وما يكتبه من ذلك فهو دعاء يثبته لا كلام يرويه، فلذلك لا يتقيد فيه بالرواية، ولا يقتصر فيه على ما في الأصل.

قال: وهكذا الأمر في الثناء على الله سبحانه وتعالى عند ذكر اسمه نحو: عزَّ وجلّ، وتبارك وتعالى، وما ضاهى ذلك.

قال: ثم ليتجنب في إثباتها نقصين:

أحدهما: أن يكتبها منقوصة صورة، رامزاً إليها بحرفين، أو نحو ذلك (كما يفعله البعض بالرمز إليها: ص، أو: صلعم).

والثاني: أن يكتبها منقوصة بمعنى لا يكتب (وسلَّم)، وإن وجد ذلك في خط بعض المتقدِّمين.

منامات صالحة:

قال مقيده عفا الله عنه: الرؤيا الصالحة من المبشرات، فإذا أيدت بدليل شرعي صارت حقيقة، فمن المنامات الواردة في هذا الباب:

ما جاء عن حمزة الكناني رحمه الله أنه قال: كنت أكتب الحديث، ولا أكتب (وسلَّم)، فرأيت النبي ﷺ في المنام فقال لي: أما تختم الصلاة عليَّ في كتابك[1].

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٣٣ ـ ٩٣٤.

وجاء في ترجمة المحدث أحمد بن موسى الوكيل الجرجاني (ت ٣٦٨) ــ وكان فيه ضعف رحمه الله ــ ما قاله أبو محمد المنيري: رأيته في النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي بكثرة كتبي الحديث، والصلاة على النبي ﷺ[١].

ومن ترجمة الحافظ أحمد بن منصور الشيرازي (ت ٣٨٢) ما قاله الحسين بن أحمد الشيرازي: لما مات أحمد بن منصور الحافظ جاء إلى أبي رجل فقال: رأيته في النوم وهو في المحراب واقف بجامع شيراز، وعليه حلَّة، وعلى رأسه تاج مكلَّل بالجواهر، فقلت له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي وأكرمني وأدخلني الجنة، فقلت: بماذا؟ قال: بكثرة صلاتي على رسول الله ﷺ[٢].

تنبيه:

أما الحديث الذي يُروى: (يجيء المحدِّثون يوم القيامة بأيديهم المحابر فيأمر الله جبريل أن يأتيهم فيسألهم: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الحديث، فيقول: ادخلوا الجنة على ما كان منكم من الصلاة على نبيِّي في الدنيا)، فحديث موضوع.

وضعه على الطبراني بإسناد الصحيح: محمد بن يوسف الرقي، وبيان ذلك في تاريخ بغداد[٣]، والسير[٤]، والميزان[٥].

---

(١) من تاريخ جرجان، للسهمي.
(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠١٠، السير ١٦/ ٤٧٣.
(٣) ٣/ ٤٢٠.
(٤) ١٦/ ٤٧٣.
(٥) ٤/ ٧٢.

٩ ـ إعارة الكتب:

وسئل الإمام أحمد عن رجل فمرَّض فيه القول، وذكر من عيوبه: أنه كان يعير كتابه، كذا في العلل رواية عبد الله.

وجاء عنهم أيضاً الحثّ على إعارة الكتب، قال وكيع: أول بركة الحديث إعارة الكتب[1].

وفي مناقب الشافعي أنه سأل محمد بن الحسن كتاباً فمنعه إياه، فكتب إليه:

قل لمن لم تر عينُ	من رآه مثله
ومن كان من رآه	قد رأى من قبله
العلم يأبى أهله	أن يمنعوه أهله
لعلّه يبذله	لأهله لعله

قال: فحمل محمد بن الحسن الكتاب في كُمِّه، وجاءني معتذراً عن حبسه[2].

كاتب السنّة يعير الكتب:

وكان كاتب السنّة ابن الخاضبة مفيد المحدِّثين، ومرشد الطالبين، قال أبو علي الصدفي رحمه الله: كان لا يأتيه مستعير كتاب إلاَّ أعطاه، أو دله عليه[3].

أحمد تيمور باشا وإعارة الكتب:

للعلاَّمة أحمد تيمور باشا ــ الكردي الأصل، المصري الدار ــ مكتبة

---

(١) جامع الخطيب ١/ ٢٤٠.

(٢) مناقب الشافعي، للبيهقي ٢/ ٨٦، وفيات الأعيان ٤/ ١٨٤ ــ ١٨٥.

(٣) السير ١٩/ ١١١، تذكرة الحفاظ ٤/ ١٢٢٤.

ضخمة، فيها كتب قيمة، ومخطوطات نادرة، وكان يبذل ما فيها من نفائس لمن يستحق البذل.

قال الكرملي: كنا في حاجة إلى نقل كتاب خط من كتبه، وكنا قد طلبنا ذلك من صديقنا يوسف إليان، فلما درى أنه لنا أحضر ناسخاً، وبعد أن أتمَّه بعث به إلينا، غير أن يقبل فلساً منّا..

ومن عجيب سخائه أننا كنا في حاجة إلى مصنَّف نادر لا وجود له في العالم سوى نسخة واحدة هي في خزانته، فطلبنا إلى أحد أصدقائه أن يصوِّره لنا لكي لا يعلم أنه لنا، فلما علم أنه لنا أَبْرَدَ به إلينا مسجلاً، فما وصل إلينا رددناه في ذلك البريد عينه خوفاً عليه من الضياع..[1].

صاحب كتاب لا يقدر على كتابه:

قال العلاَّمة الكبير محمد كرد علي رحمه الله رئيس المجمع العلمي بدمشق سابقاً ـ في محاضرة له عن العلاَّمة أحمد تيمور ـ: كتب إليَّ مرَّة (٢٩ جمادى الآخرة ١٣٤٢) يقول: نقلت لك ترجمة الصدر الآمدي من مخطوطين نادرين عندي، ولا يبعد أن يكون السخاوي ترجمه في «الضوء»، ولست على يقين من ذلك، لأن نسختي استعارها أحد الأصحاب من ثلاث سنين! ولم تزل عنده، ولا يريد أن يردّها، وكلَّما احتجت إلى الكشف عن ترجمة أذهب إلى عنده وأكشف عنها[2]!

علل كراهة الإعارة:

ولكراهتهم الإعارة معانٍ، منها:

---

(١) مجلة لغة العرب ٤٨٦/٨ بواسطة: حياة العلامة أحمد تيمور، لابن ناصر العجمي ص ٢٦.

(٢) حياة العلامة أحمد تيمور، لمحمد كرد علي وآخرين، جمع وتحقيق الصديق الوفي ابن ناصر العجمي ص ٢٦.

ألا يُحَدِّث المستعير بها من دون سماع معتبر، وهذا كان في زمان الرواية، أما الآن فيجب أن يمنع دفع كتب التراث إلى غير أهلها.

وكان النهي لما يخشون من الدسّ فيها، فقد كان بعضهم يستعير الكتب ليدس فيها أحاديث كفرية يشين بها أهل الحديث.

وضّاعون يدسُّون الموضوعات في الكتب المستعارة:

وكان محمَّد بن شجاع الثلجي يدخل الموضوعات والأحاديث الكفريّة في كتب بعض المحدِّثين.

وقال ابن عدي: كان ابن أبـي العوجاء ربيب حمَّاد بن سلمة، فكان يدسّ في كتبه أحاديث.

وقال أبو حاتم بن حبان البستي: امتُحن جماعة من أهل المدينة بحبيب بن أبـي حبيب الورَّاق، وكان يُدخل عليهم.

وكان لعبد الله بن ربيعة ابن سوءٍ، يُدخل عليه الحديث.

وكان لسفيان بن وكيع وراق يقال له (قرطمة) يُدخل عليه الحديث.

وكان عبد الله بن صالح كاتب الليث صدوقاً، لكن وقعت المناكير في حديثه من قبل جار له، سمعت ابن خزيمة يقول: كان له جار بينه وبينه عداوة، وكان يضع الحديث على شيخ عبد الله بن صالح، ويكتبه في قرطاس بخط يشبه خط عبد الله، ويطرحه في داره في وسط كتبه، فيجده عبد الله فيتوهم أنه خطه فيحدث به[1].

وكان النهي أيضاً لما يخشون من إضاعة الكتاب، أو حبسه عن صاحبه.

---

(١) كتاب المجروحين ١/ ٦٠.

قال التقيّ ابن الصلاح: وإذا أعاره إياه فلا يبطىء به، روينا عن الزهري أنه قال: إيّاك وغلول الكتب، قيل له: وما غلول الكتب؟ قال: حبسها عن صاحبها[1].

ورُوِّينا عن الفضيل بن عياض أنه قال: ليس من فعال أهل الورع، ولا من فعال الحكماء أن تأخذ سماع رجل فتحجبه عنه، ومن فعل ذلك فقد ظلم نفسه، وفي رواية: ولا من فعال الحكماء أن يأخذ سماع رجل وكتابه فيحبسه عليه[2].

١٠ ــ البيان والتعريف لفضل الجمع والتصنيف:

وكانوا يحثون على التأليف لمن اجتمعت فيه الأهلية، وللخطيب البغدادي في آخر كتاب الجامع: باب البيان والتعريف، لفضل الجمع والتصنيف[3]، جاء فيه: قلَّ ما يتمهَّر في علم الحديث، ويقف على غوامضه، ويستثير الخفي من فوائده، إلاَّ من جمع متفرقه، وألَّف متشتّته، وضم بعضه إلى بعض، واشتغل بتصنيف أبوابه، وترتيب أصنافه، فإن ذلك الفعل مما يقوي النفس، ويثبت الحفظ، ويُذكي القلب، ويشحذ الطبع، ويبسط اللسان ويجيد البيان، ويكشف المنتبه، ويوضح الملتبس، ويكسب أيضاً جميل الذكر، وتخليده إلى آخر الدهر، كما قال الشاعر:

يموت قوم فيحيي العلم ذكرهم   والجهل يلحق أمواتاً بأموات

قال عبد الله بن المعتزّ: علم الإنسان، ولده المخلد[4].

---

(١) جامع الخطيب ١/٢٤٢، السير ٥/٣٤٤.

(٢) المقدمة ص ٢٠٦، والخبر عن فضيل في جامع الخطيب ١/ ٢٤٣.

(٣) الجامع لأخلاق الراوي ٢/ ٢٨٠.

(٤) كان ابن الجوزي يقول: كتاب العالم ولده المخلد (طبقات ابن رجب ١/ ١٤٠). =

أنشدني عبد الغفَّار بن عبد الواحد الأرموي، لأبـي الفتح علي بن محمَّد البستي:

يقـولـون ذكـر المـرء يبقـي بنسلـه ... وليس له ذكرٌ إذا لم يَبق له نسلُ
فقلـت لهـم نسلـي بـدائـع حكمتـي ... فمـن سـرَّه نسـل فـإنـا بـذا نسلـو

قال الخطيب[1]: ينبغي أن يُفرِغ المصنِّف للتصنيف قلبه، ويجمع له همه، ويصرف إليه شغله، ويقطع به وقته، وكان بعض شيوخنا يقول: مَن أراد الفائدة فليكسر قلم النسخ، وليأخذ قلم التخريج.

قال: ولا يضع من يده شيئاً من تصانيفه إلاَّ بعد تهذيبه وتحريره، وإعادة تدبُّره وتكريره...

قال هلال بن العلاء: يستدل على عقل الرجل بعد موته بكُتُبٍ صنَّفها، وشعر قاله، وكتاب أنشأه.

قال أبو عمرو بن العلاء: الإنسان في فُسحة مِن عقله، وفي سلامة مِن أفواه الناس، ما لم يضع كتاباً، أو يقل شعراً.

ومن عبارات الخطيب في غير الجامع: مَن صَنَّف فقد جعل عقله على طبق يعرضه على الناس[2].

١١ ـ مسائل متفرّقة:

وعليه أن يتحرّ الصواب في كتبه، ولا يورد فيها إلاَّ ما صحّ، وقد قال ابن الجوزي: متى رأيت المصنف لا يتنقى ويتوقى فليس بمصنف[3].

= وقال ابن عبد البر: قالت الحكماء: علم الرجل ولده المخلد (جامع بيان العلم ١/ ٧٣).

(١) ٢/ ٢٨٢.

(٢) ذيول تاريخ بغداد ١٩/ ٥٩، السير ١٩/ ٣٠٨.

(٣) الضعفاء له ص ١٢.

قال مقيده: رأينا من الثقات من ضُعِّف لكثرة روايته عن الضعفاء، وفي ذلك موعظة للمصنفين، وزاجر عن إيراد الأباطيل.

الطرائفي يُضَعَّف لأجل روايته عن المجروحين:

قال الحافظ ابن حجر: عثمان بن عبد الرحمن الحرَّاني. . الطرائفي، صدوق أكثرَ الرواية عن الضعفاء والمجاهيل فَضُعِّف بسبب ذلك، حتى نسبه ابن نمير إلى الكذب[1].

وهكذا حال مَن لا يتوقَّى في كتبه، ويكثر من الغرائب والموضوعات.

ويشتدّ الأمر إذا كان المصنَّف في حديث النبي ﷺ، فإنَّ المرء مسؤول عن ما يورده فيه، وعليه أن يتَّقي الله عزَّ وجلّ ولا يورد حديثاً غير صحيح إلاَّ وينبّه على ذلك، وإلاَّ فيُخشى عليه أن يدخل في عموم قوله ﷺ: «مَن حدَّث بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين».

الذهبي لا يترك حديثاً يمرّ به دون نقده:

ومما يسجل للإمام الذهبي شيخ الحفاظ وعَلَم المحدِّثين، أنه كان لا يمرّ بحديث فيه دَخَن فيسكت عنه، وذلك أمرٌ ما رأينا غيره شرطه فالتزمه.

قال الصلاح الصفدي: وأعجبني منه ما يعانيه في تصانيفه من أنه لا يتعدَّى حديثاً يورده حتى يبيِّن ما فيه من ضعف متن، أو ظلام إسناد، أو طعن في رواته، ولم أر غيره يراعي هذه الفائدة فيما يورده. اهـ.

قلت: واشترط البيهقي في كتبه أنه لا يورد حديثاً موضوعاً، ولكنه ربما أخلَّ بذلك، أو أخرج ما يحكم ببطلانه مما ليس في إسناده كذّاب.

---

(١) تقريب التهذيب ترجمة رقم ٤٤٩٤.

مَن أمر بكتابة كل شيء:

وأما ما رُوِيَ عن ابن معين وأبـي حاتم أنهما قالا: إذا كتبت فقمِّش، وإذا حدَّثت ففتِّش[1].

والتقميش هو التجميع، فقصدهما من الأمر بالتقميش ألاَّ ينتخب الراوي على شيخه، بل يسمع منه كل ما عنده، فالخيبة للمنتخِب.

وقولهما: (إذا حدثت ففتش)، أي لا تروي إلاَّ عمَّن ترضى حاله، والتحديث في زمان الرواية، كالتأليف في زمن التدوين، ولو أنهما تأخَّرا مديدة لقالا: (. . . وإذا صَنَّفت ففتِّش).

وليتورَّع عن سرقة أفكار الناس، وانتحال معارفهم، بل ينسب الحقَّ لأهله، ويضيف الفضل لربّه، وقد قيل: مِن بركة العلم عزوه إلى قائله[2].

ابن منجويه يسرق كلام ابن حبَّان:

وعاب العلماء على ابن منجويه أنه وضع كتاباً في الجرح والتعديل استلب فيه أقوال أبـي حاتم بن حبَّان دون أن ينسبها إليه، فغمزه ابن حجر وقال: هذا دأب ابن منجويه[3].

ولا شكَّ أنه مخطىء في ذلك، وما كان يصح فعله إلاَّ على وجه التهذيب والاختصار مع الإشارة إلى ذلك.

تأدَّب بآداب أبـي عبيد:

قال الحاكم: سمعت أبا العبَّاس محمد بن يعقوب يقول: سمعت

---

(١) جامع الخطيب ٢/ ٢٢٠، المقدمة ص ٢٤٩.

(٢) للسيوطي رسالة بعنوان: الفارق بين المصنف والسارق، عالج فيها هذا الموضوع، وهذه المقولة فيه ص ٤٦.

(٣) انظر للمثال: تهذيب التهذيب ٤/ ٣٤٥، ١١/ ٢٢٠.

العبَّاس بن محمد الدوري يقول: سمعت أبا عبيد القاسم بن سلَّام يقول: إنَّ من شكر العلم أنْ تقصد مع كل قوم يتذكرون شيئاً لا تحسنه فتتعلم منهم، ثم تقعد بعد ذلك في موضع آخر، فيذكرون ذلك الشيء الذي تعلمته، فتقول: والله ما كان عندي شيء حتى سمعت فلاناً يقول كذا وكذا، فتعلمته، فإذا فعلت ذلك فقد شكرت العلم[1].

قال عبد الغني بن سعيد المصري: علّقتُ هذه الحكاية مستفيداً لها ومستحسناً، وجعلتها حيث أراها في كل وقت، لأقتدي بأبي عبيد وأتأدَّب بآدابه[2].

النقل بواسطة مذموم:

وإن احتاج أن ينقل عن مصنِّف قبله فالأفضل أن يجتهد في النقل مباشرة دون واسطة، ومتى أمكن النقل مباشرة ففي النقل بواسطة نقص عزيمة، وتطامن همة.

وقد عاب الحافظ ابن حجر على المزي أنه نقل كلام ابن حبَّان بواسطة ابن طاهر وقال: هذا جميعه في كتاب الثقات، فإن كان المؤلِّف رأى كتاب الثقات لابن حبَّان، فلا حاجة إلى حكاية بعضه بواسطة ابن طاهر[3].

---

(١) المدخل إلى السنن الكبرى ص ٣٩٦، والجامع ٢/ ١٥٤، وتاريخ دمشق ٤٩/ ٧٨.

(٢) التعريف بالقاضي عياض، لابنه ص ٨٢.
وكان من شأن الحاكم أن عبد الغني كتب إليه بأوهام علقها من كتابه المدخل إلى معرفة الصحيح، فاعترف بها أبو عبد الله الحاكم، وقبلها، وأرسل إلى عبد الغني بهذه القصة.

(٣) تهذيب التهذيب ٤/ ١٥٣.

إذا نقلت فتوثَّق:

وإذا نقل الحديثي في كتابه شيئاً فعليه أن يوثِّق النقل، ويضبط النصّ، وإذا نقل بالمعنى فليُنعم النظر في مراد القائل، كي لا ينسب إلى قائل ما لم يقل.

نقر في حجر:

وقد كان بعض العلماء مشهوراً بضبط النقول، وشدَّة التحرُّز فيها، ومما جاء في ترجمة الحافظ أبـي محمد القاسم البرزالي من كتاب البداية والنهاية لابن كثير ما يلي:

كان له خط حسن، وخُلق حسن، وهو مشكور عند القضاة ومشايخه أهل العلم، سمعت العلامة ابن تيمية يقول: نقل البِرزالي نقر في الحجر[1].

١٢ ــ لا تخلط بين الحواشي والأصول:

وهناك فرق بين الحاشية والأصل، فلك أن تحشِّي كتاباً بما يفيد، وليس لك أنْ تضيف في أصله ما ليس منه، ومن يفعل ذلك فهو مجروح العدالة.

ابن خَيْرون ضُعِّفَ لإقحامه في الأصول ما ليس منها:

وقد تكلم العلماء في الحافظ أبـي الفضل أحمد بن الحسين بن خَيْرون لمّا توهموا أنه زاد في الأصول ما ليس منها، ولو تأن الجارح لعلم أنه تعجَّل، إذ أنَّ ابن خيرون كان يُحَشِّي على الأصول، لا أنه يزيد فيها.

نقل ابن طاهر أنه ألحق في تاريخ الخطيب لُحوقاً، فقال الذهبـي: كتابته لذلك كالحاشية، وخطه معروف لا يلتبس بخط الخطيب أبداً، وما زال الفضلاء يفعلون ذلك[2].

---

(١) البداية والنهاية ١٤/ ١٩٧.

(٢) ميزان الاعتدال ١/ ٩٢.

وهنا دعوة منّا للمحقِّقين في الاقتصار على ما تمسّ إليه الحاجة، فإنَّ في إطالة الحواشي فصلاً لتسلسل أفكار المؤلف، وقطعاً لنظام كتابه، وخروجاً بالقارىء عن قافلة المعاني، اللَّـٰهُمَّ إلاَّ إن تجاوز التحقيق إلى الشرح.

حاشية تُلحق في كتاب سيبويه:

على المحقِّق أن يُفَرِّق بين الأصول والحواشي، ويُمَيِّز بينهما، فإنَّ الخطأ يدخل من هذا الباب على كثير من المحقِّقين أو الناقلين.

وقد أخطأ عالم كبير على سيبويه ونقل من حواشي كتابه بيتاً ظنه من إنشاد سيبويه في الأصل، وليس هو كذلك.

قال البغدادي: الشاهد التاسع عشر بعد الثلاثمائة:

فـــزجـــجـتهـــا بـــمـــزجـــة زج القلـــوص أبـــي مـــزادة

قال: وهذا البيت لم يعتمد عليه متقنو كتاب سيبويه، حتى قال السيرافي: لم يثبته أحد من أهل الرواية، وهو من زيادات أبي الحسن الأخفش في حواشي كتاب سيبوبه، فأدخله بعض النساخ في بعض النسخ، حتى شرحه الأعلم وابن خلف في جملة أبياته.

قال الزمخشري في مفصله: فسيبويه بريء من عهدته، أراد أن سيوبه لم يورد هذا البيت في كتابه، بل زاده غيره في كتابه[1].

١٣ ــ عرض الكتاب على العلماء:

ولا بأس أن يعرض كتابه على أهل العلم الأثبات، فقد عرض زائدةُ كتبه على سفيان الثوري. وقال سفيان ليحيى بن سعيد القطان: ائتني بكتبك

---

(١) خزانة الأدب ٤/٤١٦.

أنظر فيها، فقال له: تريد أن تصنع بي كما صنعت بزائدة ـ يعني خطَّأه في عشرة أحاديث ـ قال سفيان: وما ضرَّ زائدة، قال يحيى: لوددت أني كنت فعلت[1].

ابن عبد البرّ يُوصي الغسَّاني بكتابه الاستيعاب:

قال أبو زيد السُّهيلي في الروض الأنف: حدثنا أبو بكر بن طاهر عن أبي علي الغسَّاني، أنَّ أبا عمر بن عبد البرّ قال له: أمانة الله في عنقك، متى عثرت على اسم من أسماء الصحابة إلاَّ ألحقته في كتابي ـ يعني الاستيعاب ـ[2].

١٤ ـ فرق ما بين حفظ المتقدِّمين والمتأخِّرين:

قال مقيده: وهنا أضع قلم التنظير، وأمسك بقلم التراجم مستعيناً بالله عزَّ وجلّ في سرد ما تيسَّر لي جمعه من قصص الأولين، وأحوال علماء الدِّين، في حفظ العلم والسنّة.

وأكتفي بقصص السابقين عن المتأخرين، لأنهم هم أهل الحفظ وأربابه، ومهما بلغ المتأخر فلن يستطيع ما استطاعوا، ولن يبلغ ما بلغوا.

فقد اعترف بذلك الكبار، وآيسوا من إدراك من مضى من الحفاظ في سالف الأعصار، حتى قال الذهبي رحمه الله في ترجمة أبي بكر الإسماعيلي الحافظ ـ صاحب المستخرج على البخاري ـ: له مسند عمر في مجلدين، طالعته وعلقت منه، وابتهرت بحفظ هذا الإمام، وجزمت أنَّ المتأخرين على إياس من أن يلحقوا المتقدمين في الحفظ والمعرفة[3].

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٨٠.

(٢) نقله في السير ١٩/ ١٤٩ ـ ١٥٠.

(٣) تذكرة الحفاظ ٣/ ٩٤٨.

نعم، وكذا الحال في كل خير، فما زال الخلق يتناقص، والعلم يضعف.

وإذا كان المقرىء الحافظ اللغوي الحجة التقي أبو عمرو بن العلاء يقول: ما نحن فيمن مضى إلَّا كبقل في أصول نخل طوال![1].

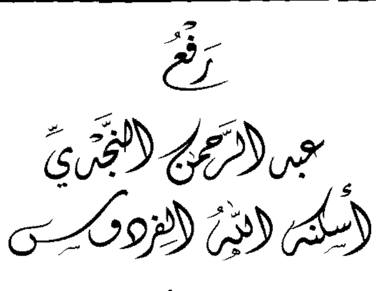
ورئي الحافظ أبو بكر ابن المقرىء الأصبهاني جالساً على باب هراس، وهو يأكل الهريسة عنده، فقال له ابن منده: يا أبا بكر، إيش هذا؟ فقال: اسكت يا أبا عبد الله، هل بقي في الدنيا من يحتشم منه[2]؟

فماذا عسى يقول أهل زماننا؟

ولعل السر يتجلَّى بقول أبي جعفر الحمَّال رحمه الله: كيف تفلحون وأنتم لم تروا مَن أفلح، ونحن رأيناهم فما أفلحنا[3]!.



(١) رواه الخطيب في أول موضح أوهام الجمع والتفريق ١/٦.
(٢) التقييد، لابن نقطة ١/٥.
(٣) الإرشاد، للخليلي ٢/٦٦٩.



ثانيًا
القسم التمثيلي

صفحات من حفظ العلماء للسنّة
وكتابتهم لها وتنافسهم فيها



فصل

في مَن اكتفى بسمعة واحدة أو نظرة واحدة فحفظ

الصحابة يحفظون من سمعة واحدة:

من هؤلاء عامّة الصحابة رضوان الله عليهم، فإنَّ أحدهم كان يسمع المجلس من النبيّ ﷺ مرَّة واحدة ثم يؤدِّيه كما سمعه بعد زمن طويل، وإن كان الغالب من أحوال النبيّ ﷺ أنه كان يعيد الحديث في مجلسه ثلاث مرات، ولكن ربما لم يتأتَّ له ذلك، حينما تفد إليه الوفود والأعراب، فيسألونه عن شأن دينهم، أو حينما يأتي الصاحب متأخِّراً عن مجلس النبيّ ﷺ، فإنهم كانوا يمتهنون لأهلهم.

ابن عباس يحفظ قصيدة عمر بن أبي ربيعة:

قال أبو علي القالي: حدثنا أبو علي العنزي، حدثنا العبَّاس بن الفرج الرياشي، حدثنا ابن أبي رجاء عن الهيثم بن عدي، عن ابن جريج عن أبيه قال: أتى ابن عبَّاس عمر بن أبي ربيعة فأنشده:

أمِـن آل نُعـم أنـت غـاد فمبكـر ....

حتى بلغ آخرها، فقال ابن عبَّاس: إن شئت أعدتها عليك، فقيل له: أوقد حفظتها؟ قال: أوَمِنكم مَن يسمع شيئاً ولا يحفظه[1]!

(١) ذيل الأمالي والنوادر ص ١٤١.

وذكر القصة المبرِّد في الكامل، وزاد أن ذلك كان بمحضر ابن الأزرق الحروري، قال: فأنشده القصيدة، وهي ثمانون بيتاً، فقال له ابن الأزرق: لله أنت يا ابن عباس، أنضرب إليك أكباد الإبل نسألك عن الدِّين فتُعرض، ويأتيك غلام من قريش فينشدك سفهاً فتسمعه؟ فقال: تالله ما سمعت سفهاً، فقال ابن الأزرق: أما أنشدك:

رأت رجلاً أمّا إذا الشمس عارضت فيخـزى وأمـا بـالعشـي فيخسـر

فقال: ما هكذا قال، إنما قال: فيضحى وأما بالعشي فيخصر، فقال: أَوَتَحفظ الذي قال؟ قال: والله ما سمعتها إلاَّ ساعتي هذه، ولو شئت أن أردها لرددتها، قال: فارددها، فأنشده إياها[1].

مَن حفظ الشِّعر بسمعة واحدة:

وحفظ ابن عباس رضي الله عنهما مما لا يستطيعه أيّ أحد، لا سيَّما في أداء القصيدة بوزنها، فلو كان المحفوظ منثوراً لكان أيسر، وإذ قد ذكرنا خبر ابن عبَّاس في حفظ الشِّعر بسمعة واحدة، فلنذكر بعض من حفظ الشعر بسمعة واحدة.

بديع الزّمان الهمذاني صاحب عجائب في الحفظ:

قال المؤرِّخون في ترجمة بديع الزّمان أحمد بن الحسين الهمذاني ــ وكان أوتي حفظاً وذكاء ــ :

كان صاحب عجائب وبدائع وغرائب، فمنها أنه كان يُنشد القصيدة لم يسمعها قط وهي أكثر من خمسين بيتاً فيحفظها كلها، ويؤدِّيها من أولها إلى آخرها لا يخرم حرفاً، وينظر في الأربع والخمس الأوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة ضعيفة، ثم يهذّها عن ظهر قلب هذًّا، ويسردها سرداً، وهذه الحال في الكتب الواردة وغيرها.

---

(١) الكامل ٢/١٦٨ ــ ١٦٩.

وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة في معنى بديع، وباب غريب، فيفرغ منها في الوقت والساعة والجواب عنها فيها، وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه، فيبتدىء بآخر سطوره ثم هلم جرّا إلى الأول، ويخرجه كأحسن شيء وأملحه[1].

أبو تمام يعيد على البحتري:

سئل أبو عبادة الوليد بن عبيد البحتري الطائي ـ الشاعر المشهور ـ عن أول مشاهداته لأبي تمام، فقال: أول ما رأيت أبا تمام ـ وما كنت رأيته قبلها ـ أنِّي دخلت إلى أبي سعيد محمد بن يوسف، فامتدحته بقصيدتي:

أأفاق صبٌّ من هوى فأفيقا   أم حان عهداً أم أطاع شفيقاً

أنشدته إياها، فلما أتممتها سُرَّ بها، وقال لي: أحسنت يا فتى، فقال له رجل في المجلس: هذا ـ أعزَّك الله ـ شعري علقه هذا الفتى فسبقني به إليك، فتغيَّر أبو سعيد، وقال لي: يا فتى، قد كان في نسبك وقرابتك ما يكفيك أن تمتَّ به إلينا، ولا تحمل نفسك على هذا الذي فعلت، فقلت: هذا شعري أعزَّك الله، فقال الرجل: سبحان الله يا فتى، لا تقل هذا، ثم ابتدأ فأنشد من القصيدة أبياتاً، فقال لي أبو سعيد: نحن نبلِّغك ما تريد ولا تحمل نفسك على هذا.

---

(١) يتيمة الدهر ٤/٢٥٦، وفيات الأعيان ١/ ٤٠٢.

وقد يظن القارىء أن ما يذكر في ترجمة البديع من المبالغات، وليس كذلك، فإنه كان من عجائب الدهر، إلاَّ إنه لم يمتع بعمره، وكذا تكون كواكب الأسحار.

وكانت له مذاكرات ومناظرات مع الخوارزمي الرافضي، فكان البديع ينتصف منه لأهل السنة، وله فيه قصيدة طويلة في ذمه وذم الرافضة، ذكر ذلك كله ياقوت الحموي في ترجمة البديع من معجم الأدباء.

فخرجت متحيِّراً لا أدري ما أقول، ونويت أن أسأل عن الرجل مَن هو؟ فما أبعدت حتى ردني أبو سعيد، ثم قال لي: جنيتُ عليك فاحتمل، أتدري من هذا؟ فقلت: لا، قال: هذا ابن عمك حبيب بن أوس الطائي أبو تمام، فقم إليه، فقمت إليه، فعانقته، ثم أقبل عليَّ يقرظني، ويصف شعري، وقال: إنما مزحت معك، فلزمته بعد ذلك، وكثر عجبي من سرعة حفظه[1].

شيخ المعرة يحفظ لسان العجم:

وكان شيخ المعرَّة أبو العلاء المعرِّي رحمه الله رجلاً ضريراً، عُوِّض عن ضرارته نفاذ في البصيرة، وقوَّة في الحفظ.

حكى تلميذه أبو زكريا التبريزي أنه كان قاعداً في مسجده بمعرَّة النّعمان بين يديه يقرأ عليه شيئاً من تصانيفه، قال: وكنت قد أتممت عنده سنتين، ولم أر أحداً من بلدي، فدخل مغافصة المسجد بعض جيراننا للصلاة، فرأيته وعرفته، وتغيرت من الفرح، فقال لي أبو العلاء: ما أصابك؟ فحكيتُ له أني رأيت جاراً لي بعد أن لم ألق أحداً من بلدي منذ سنين، فقال لي: قم وكلمه، فقلت: حتى أتمِّم السبق، فقال: قم أنا أنتظرك.

فقمت وكلمته بالأذربيجية شيئاً كثيراً إلى أن سألت عن كل ما أردت، فلما عدت وقعدت بين يديه قال لي: أي لسان هذا؟ قلت: هذا لسان أذربيجان، فقال: ما عرفت اللسان ولا فهمته، غير أنِّي حفظت ما قلتماه.

ثم أعاد لفظنا بلفظ ما قلناه، فجعل جاري يتعجَّب غاية العجب،

---

(١) وفيات الأعيان ٦/ ٢٢، وأشار المحقق إلى ورودها في أخبار أبي تمام ص ١٠٥ ـ ١٠٦، وأخبار البحتري ص ٦٣.

ويقول: كيف حفظ شيئاً لم يفهمه[1].

قال ابن العديم: وأخبرني عنه بمثل هذه الحكاية والدي رحمه الله يأثره على أسلافه فقال:

كان لأبـي العلاء جار أعجمي، فاتفق أنه غاب عن معرَّة النّعمان، فحضر رجل أعجمي يطلبه قد قدم من بلده فوجده غائباً ولم يمكنه المقام، فأشار إليه أبو العلاء أن يذكر حاجته إليه، فجعل ذلك الرجل يتكلم بالفارسية وأبو العلاء يصغي إليه إلى أن فرغ من كلامه، ولم يكن أبو العلاء يعرف باللسان الفارسي، ومضى الرجل، فقدم جاره الغائب، وحضر عند أبـي العلاء فذكر له حال الرجل وجعل يذكر له بالفارسية ما قال، والرجل يبكي ويستغيث ويلطم، إلى أن فرغ من حديثه، وسئل عن حاله، فأخبرهم أنه أخبر بموت أبيه وإخوته وجماعة من أهله.

قال لي والدي: مما بلغني من ذكائه أن جاراً سمَّاناً كان له، وبينه وبين رجل من أهل المعرة معاملة، جاءه ذلك الرجل وحاسبه برقاع كان يستدعي فيها ما يأخذ منه عند دنو حاجته إليه، وكان أبو العلاء في غرفة له يسمع محاسبتهما، قال: فسمع أبو العلاء السمان المذكور بعد مدة يتأوَّه ويتململ، فسأله عن حاله، فقال: كنت حاسبت فلاناً برقاع كانت له عندي، وقد عدمتها، ولا يحضرني حسابه، فقال له: ما عليك من بأس، تعال إلي فأنا أملي عليك حسابه، وجعل يملي معاملته جميعها رقعة رقعة، وقد جذبها الفأر إلى زاوية في الدكان فقابل بها ما أملاه عليه أبو العلاء، فلم تخرم حرفاً واحداً[2].

---

(١) هذه القصة نقلها السمعاني عن التبريزي، رواها عن السمعاني ابن العديم في بغية الطلب ٢/ ٨٧٣.

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب ٢/ ٨٧٤.

شيء من حفظ الأصمعي: ـ

قال أبو بكر النحوي: لما قدم الحسن بن سهل العراق، قال: أحب أن أجمع قوماً من أهل الأدب، فأحضر أبا عبيدة والأصمعي ونصر بن علي الجهضمي، وحضرت معهم، فابتدأ الحسن فنظر في الرقاع بين يديه للناس في حاجاتهم، فوقع عليها، فكانت خمسين رقعة، ثم أمر فدفعت إلى الخازن، ثم أقبل علينا فقال: قد فعلنا خيراً ونظرنا في بعض ما نرجو نفعه من أمور الناس والرعية، فنأخذ الآن فيما نحتاج إليه، فأفضنا في ذكر الحافظ، فذكرنا الزهري وقتادة ومررنا، فالتفت أبو عبيدة فقال: ما الغرض أيها الأمير في ذكر من مضى وبالحضرة هاهنا من يقول: ما قرأ كتاباً قط فاحتاج إلى أن يعود فيه، ولا دخل قلبه شيء فخرج منه.

فالتَفَتَ الأصمعي وقال: إنما يريدني بهذا القول أيها الأمير، والأمر في ذلك على ما حكى، وأنا أقرب إليك، قد نظر الأمير فيما نظر فيه من الرقاع وأنا أعيد ما فيها وما وقَّع به الأمير على رقعة رقعة، قال: فأمر وأحضرت الرقاع، فقال الأصمعي: سأل صاحب الرقعة الأولى كذا، واسمه كذا، فوقع له بكذا، والرقعة الثانية والثالثة حتى مرَّ في نيف وأربعين رقعة، فالتفت إليه نصر بن علي فقال: أيُّها الرجل، أبق على نفسك من العين، فكف الأصمعي[1].

الخليفة المأمون يحفظ مائة حديث:

قال محمد بن المنذر الكندي: جاز ابن إدريس عام حج الرشيد، فدخل الكوفة، فقال الرشيد لأبي يوسف: قل للمحدثين يأتونا يحدِّثون، فلم يتخلَّف إلاَّ عبد الله بن إدريس وعيسى بن يونس، فركب الأمين والمأمون إلى ابن إدريس فحدَّثهما بمائة حديث، فقال المأمون: يا عم،

---

(١) وفيات الأعيان ٣/١٧٣.

أتأذن لي أن أعيدها من حفظي، قال: افعل، فأعادها فعجب من حفظه، ثم صار إلى عيسى بن يونس، فحدَّثهما، فأمر له المأمون بعشرة آلاف، فأبى أن يقبلها، وقال: ولا شربة ماء[1].

عيسى بن يونس ينقي كتبه من الدخيل:

وهذا عيسى بن يونس هو ابن أبي إسحاق الهمداني (توفي سنة ١٨٧)، من بيت العلم والشرف، قال إبراهيم بن هاشم البغوي: سمعت بشر بن الحارث يقول: كان عيسى بن يونس يعجبه خطِّي، فكان يأخذ القرطاس فيقرؤه علي، قال ــ أي بشر ــ: كتبت من نسخة قوم شيئاً ليس من حديثه، قال ــ أي بشر ــ: كأنهم لما رأوا إكرامه لي أدخلوا عليه في حديثه، قال: فجعل يقرأ علي ــ أي للمعارضة ــ ويضرب على تلك الأحاديث، فغمني ذلك، فقال: لا يغمك، لو كان واواً ما قدروا أن يدخلوه علي، أو قال: لو كان واواً لعرفته[2].

شيخ الإسلام يزيد بن هارون يسرد حديث الفتون:

وكان يزيد بن هارون الواسطي إماماً في العلم والعمل، أوتي ذكاء وزكاء، وكان يسمع الأحاديث الطوال مرة واحدة فيسردها.

قال أحمد بن خالد: سمعت يزيد بن هارون يقول: سمعتُ حديثَ الفتون مَرَّة فحفظته، وأحفظ عشرين ألفاً، فمن شاء فليدخل فيها حرفاً.

قال الذهبي: حديث الفتون سبع ورقات، سمعناه[3].

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٨١.

(٢) السير ٨/ ٤٩٢، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٨١.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٠، وفي تاريخ بغداد ١٤/ ٣٤٠، والسير ٩/ ٣٦٣: حديث الصور، فلعلها روايتان، أو هو من تصحيفات النساخ، ويكون الصواب ما في التاريخ والسير.

عليّ بن الجعد يحفظ عشرين حديثاً في مجلس واحد:

جاء في ترجمة المحدِّث الثقة المسند علي بن الجعد (ت ٢٣٠) أنه سمع جملة أحاديث فَلَقِنَها في المجلس، وأعادها حفظاً.

قال موسى بن داود: ما رأيت أحفظ من علي بن الجعد، أملى علينا ابن أبـي ذئب عشرين حديثاً، فحفظها، وسردها علينا(١).

أبو عيسى الترمذي يستظهر جزءًا ليس عنده:

قال الحافظ العالم أبو سعد الإدريسي: كان يُضرب بأبـي عيسى المثل في الحفظ، سمعت أبا بكر بن أحمد بن محمد بن الحارث المروزي الفقيه يقول: سمعت أحمد بن عبد الله بن داود يقول: سمعت أبا عيسى الترمذي يقول: كنت في طريق مكة، وكنت قد كتبت جزأين من أحاديث شيخ، فمرَّ بنا ذلك الشيخ، فسألت عنه فقالوا: فلان، فرحت إليه وأنا أظن أنّ الجزأين معي، وإنما حملت معي في محملي جزأين غيرهما شبههما، فلمَّا ظفرت به سألته السماع فأجاب، فأخذت الجزأين فإذا هما بياض، فتحيَّرت، وجعل الشيخ يقرأ علي من حفظه، ثم ينظر إلي، فرأى البياض في يدي، فقال: أما تستحي مني؟ قلت: لا، وقصصت عليه القصة، وقلت: أحفظه كله، فقال: اقرأ، فقرأت جميع ما قرأ علي على الولاء، فلم يصدقني، وقال: استظهرت قبل أن تجيئني، فقلت: حدثني بغيره، فقرأ عليَّ أربعين حديثاً من غرائب حديثه، ثم قال: هات، فقرأت عليه من أوله إلى آخره كما قرأه، فما أخطأتُ في حرف منه، فقال لي: ما رأيت مثلك(٢)!.

---

(١) تاريخ بغداد ١١/ ٣٦١، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٤٦٢، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٩٩.

(٢) التقييد، لابن نقطة ١/ ٩٥، شروط الأئمة، لابن طاهر ص ١١، وعنه الإسعردي في فضائل الكتاب الجامع ص ٣١، وانظر: النفح الشذي ١/ ١٦٦، وتذكرة =

- **قتادة يحفظ صحيفة جابر:**

وكان قتادة بن دِعَامة السدوسي حُفظة، قُرئت عليه صحيفة جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرة واحدة فحفظها، كذا قال أحمد بن حنبل.

وقال أيضاً: كان أحفظ أهل البصرة، لم يسمع شيئاً إلاَّ حفظه[1].

مضرب المثل في الحفظ:

غاية مُنى الحفَّاظ أن يصلوا في الحفظ درجة قتادة بن دعامة، لقد كان الواحد منهم يدعو الله أن يبلغه منزلة قتادة.

قال سهل بن زنجلة: حدثنا أبو علي السمتي، حدثنا غالب القطان قال: كنا ندعو في الزمن الأول: اللَّهُمَّ ارزقنا علم الحسن، وورع ابن سيرين، وحفظ قتادة، وعقل بكر بن عبد الله المزني، وعبادة ثابت البناني، وزهد مالك بن دينار رحمهم الله تعالى[2].

أعمى يحفظ الكتب:

جاء في ترجمة أبي محمد عبد الله بن محمد المكفوف القيرواني (المتوفَّى سنة ٣٠٨) أنه كان عالماً بالغريب والعربية وتفسير المشروحات وأيام العرب، حُفظة لما يسمع، وكان ضريراً.

قال الصفدي: كان يجلس مع حمدون النعجة في مكتبه، فربما استعار بعض الصبيان كتاباً فيه شعر أو غريب أو شيء من أخبار العرب، فيقتضيه

= الحفاظ ٢/٦٣٥، والسير ١٣/٢٧٣، مقدمة تحفة الأحوذي ص ٢٦٨، وهذه القصة صحيحة ثابتة، وهي تفيد أن الترمذي لم يولد أكمه كما يحسبه بعض الناس.

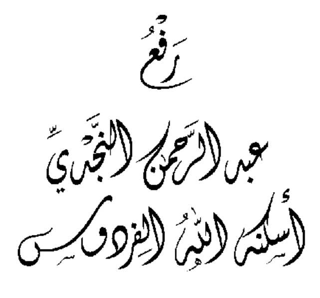
(١) تهذيب التهذيب ٨/٣٥٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ١٠/٦٩٣.

صاحبه إياه، فإذا ألحَّ عليه أعلم أبا محمد المكفوف بذلك، فيقول له: اقرأه عليّ، فإذا فعل، قال: أعده ثانية، ثم يقول رده على صاحبه، ومتى شئت تعال حتى أمليه عليك[1].

❑ ❑ ❑

(١) نكت الهميان في نكت العميان ص ١٨٤ ــ ١٨٥.



فصل

في من امتحن في حفظه فأنجح

هشام بن عبد الملك يختبر الزهري:

هشام بن عمار قال: أنبأنا الوليد بن مسلم عن سعيد أن هشام بن عبد الملك سأل الزهري أن يُملي على بعض ولده شيئاً، فأملى عليه أربعمائة حديث، وخرج الزهري فقال: أين أنتم يا أصحاب الحديث، فحدثهم بتلك الأربعمائة، ثم لقي هشاماً بعد شهر أو نحوه، فقال للزهري: إن ذلك الكتاب ضاع، فدعا بكاتب فأملاها عليه، ثم قابل بالكتاب الأول، فما غادر حرفاً واحداً[1].

واقعة شبيهة بهذه وقعت لأبي هريرة رضي الله عنه:

حماد بن زيد قال: حدثني عمرو بن عبيد الأنصاري، حدثني أبو الزعيزعة ـ كاتب مروان ـ أن مروان أرسل إلى أبي هريرة فجعل يسأله، وأجلسني خلف السرير، وأنا أكتب، حتى إذا كان رأس الحول دعا به، فأقعده من وراء الحجاب، فجعل يسأله عن ذلك الكتاب فما زاد ولا نقص، ولا قدَّم ولا أخَّر. رواه الحاكم[2].

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ١١٠، تهذيب التهذيب ٩/ ٤٤٩.

(٢) المستدرك ٣/ ٥١٠، وصححه وأقره الذهبي.

قال مقيده: طرب الذهبي لهذه القصة، فذيل: هكذا فليكن الحفظ[1].

قاصٌّ ولا كالقصَّاص:

ممن روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه فأكثر: التابعي الجليل الورع ثابت البناني، كان رحمه الله حافظاً كبيراً، وكان يقص ويعظ.

قال ابن المديني: سمعت بكر بن خلف يذكر عن بعض شيوخ أهل البصرة، وأظنه بهذا قال: قال حماد بن سلمة: كنت أسمع أن القصاص لا يحفظون حديثهم، فأتيت ثابت البناني فقلبت عليه حديثه، فكنت أقول له: كيف حديث أنس في كذا وكذا لحديث عبد الرحمن بن أبي ليلى؟ فيقول: لا هذا حديث عبد الرحمن.

فأقول لحديث أنس، كيف حديث ابن أبي ليلى في كذا وكذا؟ فيقول: هذا حديث أنس[2].

أبو العباس الشيباني يُمتحن وهو ابن تسعين:

وامتحن الشيخ الحافظ أبو العباس الحسن بن سفيان بن عامر الشيباني (المتوفَّى سنة ٣٠٣)، وكان من أقران النسائي، يروي عن ابن راهويه وابن معين والطبقة.

قال أبو عبد الله الحاكم: سمعت محمد بن داود بن سليمان يقول: كنا عند الحسن بن سفيان فدخل ابن خزيمة وأبو عمرو ابن الحيري وأحمد بن علي الرازي، وهم متوجهون إلى فراوة[3].

---

(١) السير ٢/ ٥٩٨.

(٢) المعرفة والتاريخ ٢/ ٩٠.

(٣) فراوة: بفتح الأول، بليدة من أعمال نسا، بينها وبين دهستان وخوارزم، نبغ منها=

فقال له الرازي: كتبت هذا الطبق من حديثك ــ يعني يريد أن يعرضه عليه ــ فقال: هات، فقرأ، ثم أدخل إسناداً في إسناد، فردَّه الحسن، ثم بعد قليل فعل ذلك فرده، فلما كان في الثالثة، قال له الحسن: ما هذا؟ قد احتملتك مرتين، وأنا ابن تسعين سنة، فاتق الله في المشايخ، فربما استجيبت فيك دعوة.

فقال له ابن خزيمة: مه، لا تؤذ الشيخ، قال: إنما أردت أن تعلم أن أبا العباس يعرف حديثه[1].

الطحاوي من الفقهاء المحدثين:

حضر رجل معتبر مجلس القضاء في مصر، فسأل من حضر: إيش روى أبو عبيدة بن عبد الله عن أمه عن أبيه؟ فسكتوا.

فقال الطحاوي للتَّو: حدثنا بكار بن قتيبة، حدثنا أبو أحمد الزبيري، حدثنا سفيان عن عبد الأعلى الثعلبي، عن أبي عبيدة، عن أمه، عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله ليغار للمؤمن فليَغْر».

وحدثنا به إبراهيم بن أبي داود، حدثنا سفيان بن وكيع، عن أبيه، عن سفيان موقوفاً.

فقال الرجل للطحاوي: تدري ما تقول وما تتكلم به؟ قال: ما الخبر؟ قال: رأيتُك العشية مع الفقهاء في ميدانهم ورأيتك الآن في ميدان أهل الحديث، وقلَّ من يجمع ذلك، فقال الطحاوي: هذا من فضل الله وإنعامه[2].

= علماء ومحدثون (معجم البلدان ٣/ ٤٢٢).

(١) التقييد، لابن نقطة ١/ ٢٧٨، طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٣٠٨.

(٢) السير ١٥/ ٣٠. =

أبو بكر بن أبي داود يختبر أبا علي النيسابوري:

وسأل أبو بكر بن أبي داود أبا علي النيسابوري، قال: من إبراهيم عن إبراهيم عن إبراهيم؟

فقال على البديهة: إبراهيم بن طهمان عن إبراهيم بن عامر البجلي، عن إبراهيم النخعي، فقال أبو بكر: أحسنت يا أبا علي[١].

= قال مقيده: هذا الحديث منكر بهذا اللفظ، تفرد به عبد الأعلى وفيه نظر، وفي الصحيحين من حديث أبي وائل عن ابن مسعود مرفوعاً: «ما من أحد أغير من الله . . .».

(١) تذكرة الحفاظ ص ٩٠٤، طبقات الحفاظ ص ٣٧٠.

وقد بينت في تعليقي على معرفة علوم الحديث ما في هذه القصة من خطأ، وأسوق كلام الحاكم وتعليقي عليه إتماماً للفائدة.

قال أبو عبد الله الحاكم رحمه الله (ح ٥٦٩): سمعت الفقيه أبا بكر الأبهري يقول: سمعت أبا بكر بن أبي داود يقول لأبي علي النيسابوري الحافظ: يا أبا علي، إبراهيم عن إبراهيم عن إبراهيم من هم؟ فقال أبو علي: إبراهيم بن طهمان عن إبراهيم بن عامر البجلي عن إبراهيم النَّخعي، فقال: أحسنت يا أبا علي. اهـ.

قلت: الحديث يُعَدُّ في المُسَلْسَل بإبراهيم، وروى أبو موسى المديني هذا الخبر عن الحاكم في نزهة الحفاظ ص ٣١ من طريق محمد بن أحمد بن جعفر وابن خلف عن المصنف.

ثم ساق الحديث من طريق محمد بن جعفر بن حفص المغازلي: حدثنا أبو بكر عبد الله بن سليمان بن الأشعث (هو ابن أبي داود)، حدثنا يحيى بن الفضل، حدثنا أبو عامر العبدي، حدثنا إبراهيم عن إبراهيم، عن إبراهيم، عن أبيه والحارث بن سويد قالا: رجعنا من مكة فمررنا بأبي ذر رضي الله عنه، فقال: من أين أقبلتما؟ قلنا: من الحج، قال: لعلكما تمتعتما، قلنا: لا، قال: فلا تفعلا لأنها لم تكن لأحد غيرنا. =

قال مقيده: كان عُمْر أبي علي لما توفي أبو بكر تسعاً وثلاثين سنة، وكانا حافظين كبيرين، سيأتي ذكرهما قريباً.

الوزير ابن خنزابة في حلب:

قال الحافظ أبو محمد السبيعي: قدم علينا الوزير ابن خنزابة إلى حلب، فتلقاه الناس، فعرف أني محدث، فقال لي: تعرف إسناداً فيه أربعة

= قال أبو بكر يعني ابن أبي داود: إبراهيم الأول ابن طهمان، والثاني ابن مهاجر، والثالث التيمي.

قال المديني: وهذا الصواب، دون ما ذكر في الحكاية فإنَّه وهم (أ) وتصحيف، والحديث رواه الجم الغفير عن إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه.

ثم أخرجه من طريق أبي نعيم في المستخرج على المعرفة، فقال: وأخبرناه أبو علي الحداد في كتابه، حدثنا أبو نعيم، حدثنا سليمان، حدثنا أسلم بن سهل، حدثنا سعيد بن عبد الرحمن المخزومي، حدثنا بشر بن السري عن إبراهيم بن طهمان، عن إبراهيم بن مهاجر، عن إبراهيم التيمي، عن أبيه والحارث بن سويد قالا: حججنا فقفلنا، فمررنا بأبي ذر رضي الله عنه فقال: من أين أقبلتما... فذكره.

قال أبو نعيم: ولا أعرف لابن مهاجر عن التيمي غير هذا الحديث، وله عن النخعي أحاديث كثيرة، وقوله في الحكاية إبراهيم بن عامر، فعامر تصحيف مهاجر، ويدل على ذلك أيضاً أن البجلي هو ابن مهاجر، وابن عامر جمحي لا بجلي، والله أعلم. اهـ.

قال أبو موسى: ومما يؤيد ذلك، وساق الإسناد إلى يحيى بن آدم قال: حدثنا مفضل بن مهلهل عن بيان عن عبد الرحمن بن أبي الشعثاء قال: كنت مع إبراهيم التيمي وإبراهيم النَّخعي، فقلت له: لقد هممت أن أجمع العام الحج والعمرة، فقال إبراهيم النَّخعي: لو كان أبوك لم يهم بذلك، وقال إبراهيم التيمي عن أبيه عن أبي ذر رضي الله عنه: كانت المتعة لنا خاصة. اهـ.

من الصحابة؟ فذكرت له حديث عمر في العمالة، فعرف لي ذلك، وصارت لي به عنده منزلة[1].

قال مقيده: هذا إسناد معروف عند المحدثين، والحديث يرويه حُويطب بن عبد العزى عن السائب بن يزيد، عن ابن السعدي، عن عمر.

وثمة حديث آخر وقع في إسناده أربع صحابيات ـ ربيبتان وزوجتان للنبي ﷺ ـ وهو حديث زينب بنت أم سلمة عن حبيبة، عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحش قالت: خرج النبي ﷺ يوماً فزعاً، محمراً وجهه، يقول: لا إلـه إلاَّ الله، ويل للعرب من شر قد اقترب. . . » الحديث.

مقايضة بين البخاري ومسلم في حديثين:

وقد وقعت بين البخاري ومسلم مقايضة عجيبة، فأخرج البخاري حديث العمالة بإسناد الصحابة الأربعة، بينما أخرجه مسلم عن ثلاثة من الصحابة (ح/ ١٠٤٥)؛ أسقط حويطب بن عبد العزى.

وأخرج مسلم حديث الردم عن أربع من الصحابيات (ح/ ٢٨٨٠) بينما أخرجه البخاري عن ثلاث منهن (ح/ ٣٣٤٦)؛ أسقط حبيبة.

وهذان الحديثان من عجائب ما اتفق للشيخين رحمهما الله تعالى.

الحاكم يختبر الخليلي في أول قدمة له:

قال الحافظ أبو يعلى الخليلي: سألني في اليوم الثاني لما دخلت عليه ـ ويُقرأ عليه في فوائد العراقيين ـ: سفيان الثوري عن أبـي سلمة، عن الزهري، عن سهل بن سعد: حديث الاستئذان، فقال لي: من أبو سلمة؟ فقلت من وقته: هو المغيرة بن سلمة السراج، فقال لي: وكيف يروي المغيرة عن الزهري؟ فبقيت ـ يعني انقطع ـ ثم قال: قد أمهلتك أسبوعاً

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٩٥٤.

حتى تتفكر فيه، فمن ليلته تفكرت في أصحاب الزهري مراراً، فما وقعت إلى أصحاب الجزيرة من أصحابه تذكرت محمد بن أبـي حفصة، فإذا كنيته أبو سلمة.

فلما أصبحت حضرت مجلسه، ولم أذكر شيئاً، حتى قرأت عليه مما انتخبت قريباً من مائة حديث، فقال لي: هل تفكرت في ما جرى؟ فقلت: نعم، هو محمد بن أبـي حفصة، فتعجب، وقال لي: نظرت في حديث سفيان لأبـي عمرو البحيري؟ قلت: والله ما لقيت أبا عمرو ولا رأيته، فذكرت له ما أقمت في ذلك، فتحير وأثنى عليّ، ثم كنت أسأله، فقال لي: أنا إذا ذاكرت اليوم في باب فلا بد من المطالعة لكبر سني، فرأيته في كل ما ألقي عليه بحراً[1].

مع الحاكم يمتحن شيخه:

وسأل أبو عبد الله الحاكم ابنَ الجعابـي: من يروي عن سنان بن أبـي سنان غير الزهري؟ فقال: لا نعلم له راوياً غير الزهري، ثم قال: اللَّـهُمَّ إلَّا أني أظن أن أبا طوالة القاضي حدث عنه بشيء، ولم يكن عندي إذ ذاك أن أبا طوالة عنده عنه، فوجدت من حديث قتيبة عن الدراوردي، عن أبـي طوالة عن سنان جزءًا، فكتبت به إليه، فأعجبه ذلك[2].

الأعمشي يجيب في أحاديث الأعمش:

وسأل ابنُ خزيمة أبا حامد بن حمدون الأعمشي ــ لقب بذلك لاشتغاله بأحاديث الأعمش (ت ٣٢١هـ) ــ فقال: كم روى الأعمش عن أبـي صالح عن أبـي سعيد؟ فجعل ابن حمدون يسرد الترجمة حتى فرغ منها.

---

(١) الإرشاد، للخليلي ٣/ ٨٥٣.

(٢) معرفة علوم الحديث ح ٣٦٦.

وابن خزيمة يتعجب![1].

مفاضلة ابن طاهر بين شيخيه: الأنصاري والزنجاني:

قال أبو الحسن الكرخي: سألت ابن طاهر من أفضل من رأى؟ فقال: سعد ابن الزنجاني، وعبد الله بن محمد الأنصاري، فقلت: أيهما أفضل؟ فقال: عبد الله كان متقناً، والزنجاني أعرف بالحديث منه، لأني كنت أقرأ على عبد الله فأترك شيئاً لأجربه، ففي بعض يرد وفي بعض يسكت، والزنجاني كنت إذا تركت اسم رجل يقول: تركت بين فلان وفلان فلاناً.

قال أبو سعد السمعاني: وصدق، كان سعد أعرف بحديثه لقلته، وعبد الله كان مكثراً[2].

ابن وهب الدينوري يلقن عيسى الرملي:

قال الخليلي: سمعت علي بن إبراهيم الحافظ يقول: سمعت عمر بن سهل بن إسماعيل الحافظ يقول: سمعت ابن وهب (هو: أبو محمد عبد الله بن وهب الدينوري، ت ٣٠٨هـ)، يقول: لقنت أبا عمير بن النحاس (هو: عيسى بن محمد بن إسحاق الرملي، ت ٢٥٦هـ) بحمص أربعين حديثاً، فلما بلغت إحدى وأربعين قال لي: أما تستحي! أتجشمني أن أشهد على رسول الله ﷺ في مجلس واحد أكثر من أربعين شهادة!.

الحافظ أبو جعفر العقيلي من أحفظ الناس:

قال مسلمة بن القاسم بن إبراهيم الأندلسي (ت ٣٥٣هـ): كان العقيلي[3] جليل القدر، عظيم الخطر، ما رأيت مثله، وكان كثير التصانيف،

---

(١) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٣٣٨.

(٢) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٤٣٩.

(٣) هو الحافظ أبو جعفر محمد بن عمرو بن موسى بن حماد العقيلي، مصنف كتاب الضعفاء، توفي سنة: ٣٢٢.

فكان من أتاه من المحدثين، قال: اقرأ من كتابك ولا يخرج أصله، قال: فتكلمنا في ذلك، وقلنا: إما أن يكون من أحفظ الناس، وإما أن يكون من أكذب الناس، فاجتمعنا فاتفقنا على أن نكتب له أحاديث من روايته، ونزيد فيها وننقص، فأتيناه لنمتحنه، فقال لي: اقرأ، فقرأتها عليه، فلما أتيت بالزيادة والنقصان فطن لذلك، فأخذ مني الكتاب وأخذ القلم، فأصلحها من حفظه، فانصرفنا من عنده، وقد طابت نفوسنا، وعلمنا أنه من أحفظ الناس[١].

رفسة محببة!

قال مقيده: أبو نعيم فضل بن دُكين (عمرو) بن حماد بن زهير مولى طلحة بن عبيد الله، من كبار الحفاظ وممن تشرفوا بحمل اللقب الرفيع: شيخ الإسلام، كان حُفظة لا يجارى، ومذاكراً لا يُبارى، لقيه أبو حاتم الرازي فقال فيه:

كان حافظاً متقناً، لم أر من المحدثين من يحفظ ويأتي بالحديث على لفظ واحد لا يغيره سوى قبيصة وأبي نعيم في حديث الثوري، وكان أبو نعيم يحفظ حديث الثوري حفظاً جيداً، . . . وهو ثلاثة آلاف وخمسمائة حديث، ويحفظ حديث مسعر، وهو خمسمائة حديث، وكان لا يلقن[٢].

وأراد يحيى بن معين أن يلقن أبا نعيم ليختبره فنال منه رفسة، رمته على قفاه.

قال أحمد بن منصور الرمادي: خرجت مع أحمد ويحيى إلى عبد الرزاق خادماً لهما، قال: فلما عدنا إلى الكوفة، قال يحيى بن معين:

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/ ٢٣٧، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٣.

(٢) الجرح والتعديل ٧/ ٦٢.

أريد أن أختبر أبا نعيم، فقال أحمد: لا ترد، فالرجل ثقة، قال يحيى: لا بد لي، فأخذ ورقة، فكتب فيها ثلاثين حديثاً وجعل على رأس كل عشرة منها حديثاً ليس من حديثه، ثم إنهم جاؤوا إلى أبي نعيم، فخرج وجلس على دكان طين، وأخذ أحمد بن حنبل فأجلسه على يمينه، ويحي عن يساره، وجلست أسفل الدكان، ثم أخرج يحيى الطبق، فقرأ عليه عشرة أحاديث، فلما قرأ الحادي عشر قال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي، اضرب عليه.

ثم قرأ العشر الثاني، وأبو نعيم ساكت، فقرأ الحديث الثاني، فقال أبو نعيم: ليس هذا من حديثي فاضرب عليه.

ثم قرأ العشر الثالث، ثم قرأ الحديث الثالث، فتغير أبو نعيم، وانقلبت عيناه، ثم أقبل على يحيى فقال: أما هذا ـ وذِراع أحمد بيده ـ فأورع من أن يعمل مثل هذا، وأما هذا ـ يريدني ـ فأقلُّ من أن يفعل ذاك، ولكن هذا من فعلك يا فاعل، وأخرج رجله، فرفس يحيى، فرمى به من الدكان، وقام فدخل داره.

فقال أحمد بن حنبل ليحيى: ألم أمنعك وأقل لك: إنه ثبت؟ قال: والله لرفسته لي أحب إلي من سفرتي[1].

---

(١) تاريخ بغداد ١٢/ ٣٥٤، مناقب أحمد، لابن الجوزي ص ٧٩، سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٤٨.

قال ابن فارس: رحم الله يحيى بن معين على هذا الحرص الشديد في معرفة أحوال الرواة، وتحمل ما يلقاه في سبيل ذلك، حرصاً منه على حديث رسول الله ﷺ، وإسهاماً منه في ميدان حفظ السنة، ولا غَرْوَ بعد هذا أن يكون يحيى بن معين أعلم الأمة بالجرح والتعديل، اعترف له بذلك رفيقه في الرحلة أحمد بن حنبل.

قال العباس الدوري: رأيت أحمد بن حنبل بين يدي يحيى بن معين جاثياً وهو يقول: يا أبا زكريا ما تقول في فلان (تقدمة الجرح والتعديل ١/ ٥٦).

حية الوادي:

كان إمام المحدثين، وسيد الحفاظ: علي بن المديني يسمى حية الوادي، من شدة طلبه، وقوة حفظه، والذي سماه بذلك شيخه سفيان بن عيينة.

وكان ابن عيينة يقول: استفدت منه أكثر مما استفاد مني، وقال: لولاه لما جالستكم.

قال سهل بن زنجلة: كنا عند ابن عيينة وعنده رؤساء أصحاب الحديث، فقال: الرجل الذي روينا عنه أربعة أحاديث الذي يحدث عن الصحابة؟ ـ يعني سألهم إما اختباراً أو استذكاراً فلم يجب أحد ـ فقال علي: زياد بن علاقة، فقال سفيان: نعم[1].

شرح هذه الأحاديث:

كان سفيان رحمه الله قد جلس إلى زياد بن علاقة في مجلس واحد، فسمع منه أربعة أحاديث، ولم يزد، وقد بيَّن هذه الأحاديث الحميدي في خبر آخر.

قال الحميدي: حدثنا سفيان قال: سمعت زياد بن علاقة قال: سمعت المغيرة بن شعبة.

وحديث جرير: بايعت..

وحديث أسامة بن شريك.

وحديث قطبة بن مالك.

قال سفيان: سمعنا هذه الأربعة الأحاديث من زياد في مجلس، لم نسمع منه غيرها[2].

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٥.

(٢) المعرفة والتاريخ، للفسوي ٢/ ٦١٩.

أشهر قصص الاختبار ما وقع للبخاري :

قال أبو أحمد بن عدي الحافظ : سمعت عدة من مشايخ بغداد يقولون : إن محمد بن إسماعيل البخاري قدم بغداد، فسمع به أصحاب الحديث، فاجتمعوا وأرادوا امتحان حفظه، فعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها، وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر، وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوها إلى عشرة أنفس، لكل رجل عشرة أحاديث، وأمروهم إذا حضروا المجلس أن يلقوا ذلك على البخاري، وأخذوا عليه الموعد للمجلس، فحضروا وحضر جماعة من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم من البغداديين.

فلما اطمأن المجلس بأهله، انتدب رجل من العشرة فسأله عن حديث من تلك الأحاديث، فقال البخاري: لا أعرفه، فما زال يلقي واحداً بعد واحد حتى فرغ والبخاري يقول: لا أعرفه، وكان العلماء ممن حضر المجلس يلتفت بعضهم إلى بعض، ويقولون: فهم الرجل، ومن كان لم يدر بالقصة يقضي على البخاري بالعجز والتقصير وقلة الحفظ.

ثم انتدب رجل من العشرة أيضاً فسأله عن حديث من تلك الأحاديث المقلوبة، فقال: لا أعرفه، فسأله عن آخر، فقال: لا أعرفه، فلم يزل يلقي عليه واحداً واحداً حتى فرغ من عشرته، والبخاري يقول: لا أعرفه، ثم انتدب الثالث والرابع على الولاء، حتى فرغوا كلهم من إلقاء تلك الأحاديث المقلوبة، والبخاري لا يزيدهم على: لا أعرفه.

فلما علم أنهم قد فرغوا، التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا، وصوابه كذا، وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام العشرة، فرد كل متن إلى إسناده، وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك، فأقر الناس له بالحفظ، وأذعنوا له بالفضل.

قال ابن حجر: هنا يخضع للبخاري، فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب، فإنه كان حافظاً، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة[1].

قال ابن فارس: هذه قصة صحيحة، وجهالة شيوخ أبي أحمد لا تضر، لأنهم جماعة، فإن كان في آحادهم ضعف فإنه ينجبر بمتابعة الجماعة، وفي سماع أبي أحمد لها من عدة من مشايخ بغداد ما يفيد اشتهارها بين البغاددة، وقد جاء عن غير أبي أحمد نحو هذه القصة.

قال أبو الأزهر: كان بسمرقند أربعمائة محدث، فتجمعوا وأحبوا أن يغالطوا محمد بن إسماعيل، فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق، وإسناد العراق في إسناد الشام، وإسناد الحرم في إسناد اليمن، فما استطاعوا مع ذلك أن يتعلقوا عليه بسقطة[2].

بين مسلم والبخاري:

أخذ مسلم عن البخاري معرفة الصحيح، وتابعه في إفراد الصحيح بكتاب، لكن خالفه في شيء من المنهج.

وكان مسلم ربما ألقى على البخاري المسألة فيجيبه من حفظه على الفور، وثمة قصة مشهورة تبين طبيعة العلاقة بين هذين الإمامين، وتظهر معرفة البخاري بالعلل.

قال الإمام أبو عبد الله الحاكم[3]: حدثنا أبو نصر أحمد بن محمد الوراق قال: سمعت أبا حامد أحمد بن حمدون القصَّار يقول: سمعتُ

---

(١) هدي الساري ص ٤٨٦.

(٢) هدي الساري ص ٤٨٦.

(٣) معرفة علوم الحديث ح ٢٧٤.

وفيه كلام طويل مبين في الموضع المزبور.

مسلم بن الحجاج، وجاءَ إلى محمَّد بن إسماعيل البخاري، فقبَّلَ بين عينيه، وقال: دعني حتى أقبلَ رجليك، يا أُسْتَاذَ الأُسْتَاذِين، وسَيِّد المحدثين، وطبيب الحديث في عِلله!

حدثك محمد بن سَلاَم قال: حدثنا مُخْلِد بن يزيد الحراني، قال: أخبرنا ابن جريج عن موسى بن عُقْبة، عن سُهيل، عن أبيه، عن أبي هريرة، عن النبي صلَّى الله عليه وآله في كفارة المجلس، فما عِلَّته؟

قال محمد بن إسماعيل: هذا حديثٌ مليح، ولا أَعلمُ في الدنيا في هذا الباب غير هذا الحديث، إلَّا أنه معلول.

حدثنا به موسى بن إسماعيل قال: حدثنا وُهَيب، قال: حدثنا سُهيل عن عون بن عبد الله قوله، قال: محمد بن إسماعيل: هذا أولى، فإنَّه لا نذكر لموسى بن عقبة سماعاً من سهيل. اهـ.

السمعاني في بروجرد:

قال أبو سعد السمعاني: كنت أنسخ بجامع بروجرد، فقال شيخ ــ رثّ الهيئة ــ: ما تكتب؟ فكرهت جوابه، وقلت: الحديث، فقال: كأنك طالب؟ قلت: نعم، قال: من أين أنت؟ قلت: من مرو، قال: عمّن روى البخاري من أهل مرو؟ قلت: عن عبد الله بن عثمان وصدقة بن الفضل، قال: لم لُقب عبد الله بعبدان؟ فتوقفت، فتبسم، فنظرت إليه بعين أخرى، وقلت: يفيد الشيخ، قال: كنيته أبو عبد الرحمن، واسمه عبد الله، فاجتمع فيه العبدان، فقيل: عبدان، فقلت: عمن هذا؟ قال: سمعته من محمد بن طاهر المقدسي الحافظ[1].

---

(١) التحبير ٢/ ٢٤٨، والبروجردي مترجم في السير ٢٠/ ٣١٩، وذكر هذه القصة، ولم يزد.

شاب عجمي ورد على دمشق للقيا ابن كثير:

قال الحافظ ابن كثير في تاريخه:

أعجوبة من العجائب

وحضر شاب عجمي من بلاد تبريز وخراسان يزعم أنه يحفظ البخاري ومسلم وجامع المسانيد والكشاف للزمخشري وغير ذلك من محاضيرها، في فنون أخر، فلما كان يوم الأربعاء سلخ شهر رجب ـ عام ٧٦٣ ـ قرأ في الجامع الأموي بالحائط الشمالي منه، عند باب الكلاسة من أول صحيح البخاري إلى أثناء كتاب العلم منه، من حفظه، وأنا أقابل عليه من نسخة بيدي، فأدى جيداً، غير أنه يصحف بعضاً من الكلمات لعجمة فيه، وربما لحن أيضاً في بعض الأحيان، واجتمع خلق كثير من العامة والخاصة وجماعة من المحدثين، فأعجب ذلك جماعة كثيرين.

وقال آخرون: إن سرد بقية الكتاب على هذا المنوال لعظيم جداً، فاجتمعنا في اليوم الثاني، مستهل شعبان في المكان المذكور، وحضر قاضي القضاة الشافعي وجماعة من الفضلاء، واجتمع العامة محدقين، فقرأ على العادة غير أنه لم يطول كأول يوم، وسقط عليه بعض الأحاديث، وصحف ولحن في بعض الألفاظ.

ثم جاء القاضيان الحنفي والمالكي فقرأ بحضرتهما أيضاً بعض الشيء، هذا والعامة محتفون به، متعجبون من أمره، ومنهم من يتقرب بتقبيل يديه، وفرح بكتابتي له بالسماع على الإجازة.

وقال: أنا ما خرجت من بلادي إلاَّ إلى القصد إليك، وأن تجيزني، وذكرك في بلادنا مشهور، ثم رجع إلى مصر ليلة الجمعة، وقد كارمه القضاة

والأعيان بشيء من الدراهم يقارب الألف[1].

أعجوبة أخرى غريبة:

ذكرها ابن كثير أيضاً، قال:

لما كان يوم الثلاثاء العشرين من شعبان دُعيت إلى بستان الشيخ العلامة كمال الدين ابن الشريشي شيخ الشافعية، وحضر جماعة من الأعيان منهم الشيخ العلامة شمس الدين ابن الموصلي الشافعي، والشيخ الإمام العلامة صلاح الدين الصفدي، وكيل بيت المال، . . والشيخ الإمام العلامة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي من ذرية الشيخ أبي إسحاق الفيروزآبادي، من أئمة اللغويين. .

وأحضروا نيفاً وأربعين مجلداً من كتاب المنتهى في اللغة للتميمي البرمكي، وقف الناصرية، وحضر ولد الشيخ كمال الدين ابن الشريشي، وهو العلامة بدر الدين محمد، واجتمعنا كلنا عليه، وأخذ كل منا مجلداً بيده من تلك المجلدات، ثم أخذنا نسأله عن بيوت الشعر المستشهد عليها بها، فينثر كلاً منها ويتكلم عليها بكلام مبين مفيد، فجزم الحاضرون والسامعون أنه يحفظ جميع شواهد اللغة، ولا يشذ عنه منها إلاّ القليل الشاذ، وهذا من أعجب العجائب، وأبلغ الإعراب[2].

❑ ❑ ❑

(١) البداية والنهاية ١٤/ ٣٠٩.
(٢) البداية والنهاية ١٤/ ٣١٠.

فصل

في بعض مذاكرات الحفاظ

حافظ وحبر:

لحافظ الصحابة مذاكرة طريفة مع الحَبْر كعب بن ماتع الحميري، المعروف بكعب الأحبار، فإن الحافظ أبا هريرة كان يحدثه بحديث رسول الله ﷺ وذاك يحدثه بمصداقه من التوراة، والحديث في سنن النسائي:

قال أبو عبد الرحمن النسائي[١]: أخبرنا قتيبة قال: حدثنا بكر ــ يعني ابن مضر ــ عن ابن الهاد، عن محمد بن إبراهيم، عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، عن أبي هريرة قال: أتيت الطور فوجدت ثَمَّ كعباً، فمكثتُ أنا وهو يوماً أحدثه عن رسول الله ﷺ ويحدثني عن التوراة.

فقلت لَه: قال رسول الله ﷺ: خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة، ما على الأرض من دابة إلاَّ وهي تصبح يوم الجمعة مصيخة حتى تطلع الشمس، شفقاً من الساعة، إلاَّ ابن آدم، وفيه ساعة لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله فيها شيئاً إلاَّ أعطاه إياه.

---

(١) المجتبى ٣/١١٤، ح ١٤٣٠.

فقال كعب: ذلك يوم في كل سنة، فقلت: بل هي في كل جمعة، فقرأ كعب التوراة ثم قال: صدق رسول الله ﷺ، هو في كل جمعة.

فخرجتُ فلقيت بَصْرة بن أبي بَصْرة الغفاري فقال: من أين جئت؟ قلت: من الطور؟ قال: لو لقيتك من قَبل أن تأتيه لم تأته، قلت له: ولم؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا تُعمل المطي إلاّ إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي، ومسجد بيت المقدس.

فلقيتُ عبد الله بن سلام فقلت: لو رأيتني خرجت إلى الطور فلقيت كعباً، فمكثت أنا وهو يوماً أحدثه عن رسول الله ﷺ ويحدثني عن التوراة، فقلت له: قال رسول الله ﷺ: خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة، ما على الأرض من دابة إلاّ وهي تصبح مصيخة حتى تطلع الشمس شفقاً من الساعة، إلاّ ابن آدم، وفيه ساعة لا يصادفها عبد مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله شيئاً إلاّ أعطاه إياه.

قال كعب: ذلك يوم في كل سنة، فقال عبد الله بن سلام: كذب كعب، قلت: ثم قرأ كعب فقال: صدق رسول الله ﷺ، هو في كل جمعة.

فقال عبد الله: صدق كعب، إني لأعلم تلك الساعة، فقلت: يا أخي حدثني بها، قال: هي آخر ساعة من يوم الجمعة قبل أن تغيب الشمس، فقلت: أليس قد سمعت من رسول الله ﷺ يقول: لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة، وليست تلك الساعة صلاة.

قال: أليس قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: من صلى وجلس ينتظر الصلاة لم يزل في صلاته حتى تأتيه الصلاة التي تلاقيها، قلت: بلى، قال: فهو كذلك!.

بين مالك والأوزاعي:

عون بن حكيم قال: حججتُ مع الأوزاعي، فلما أتى المدينة وأتى المسجد بلغ مالكاً مقدمه، فأتاه فسلّم عليه، فلما صليا الظهر تذاكرا أبواب العلم، فلم يذكر باباً إلاَّ ذهب عليه الأوزاعي، ثم صلوا العصر، فتذاكرا، كل يذهب عليه الأوزاعي فيما يأخذان فيه، حتى اصفرت الشمس أو قرب اصفرارها ناظره مالك في باب المكاتبة والمدبر(١).

بين أبي نعيم ومحمد بن بشر:

قال أبو نعيم الفضل بن دكين: ذاكرني محمد بن بشر بأحاديث مسعر بن كدام، فأغرب عليَّ سبعين حديثاً لم يكن عندي منها غير حديث(٢).

مذاكرة الفقه:

قال محمد بن فضيل بن غزوان عن أبيه: كنا نجلس أنا والمغيرة وعدَّ ناساً نتذاكر الفقه، فربما لم نقم حتى نسمع النداء لصلاة الفجر(٣).

أب وابنه:

كان عبد الله بن أحمد بن حنبل قد سمع من أبيه مائة ألف وبضعة عشر ألفاً فيما يذكرون، قال أبو زرعة الحافظ: قال لي أحمد: ابني عبد الله محظوظ من علم الحديث، لا يذاكرني إلاَّ بما لا أحفظ(٤).

قلت: هذا يدل على حفظ عبد الله وحسن معرفته بأحاديث أبيه، كيف

---

(١) السير ٧/ ١٣٠.

(٢) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٢.

(٣) تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٧٠.

(٤) تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٦٥.

لا، وقد قال: كل شيء أقول: قال أبـي، قد سمعته منه مرتين أو ثلاثاً وأقله مرة[1].

بين أبـي داود وأحمد بن حنبل:

أبو داود السجستاني صاحب السنن من كبار المحدثين الفقهاء، كتابه السنن من أنفع الكتب المصنفة في هذا المضمار، وقد كان يذاكر الإمام أحمد وغيره، فيفيدهم ويفيدونه.

جاء في تاريخ مدينة السلام للخطيب البغدادي[2]، والتقييد لابن نقطة[3] عن أبـي بكر بن أبـي داود قال: حدثني أبـي، قال: قلت لأبـي عبد الله أحمد بن حنبل: تعرف لأبـي العشراء الدارمي عن أبيه حديثاً غير: «لو طعنت في فخذها لأجزأ عنك؟»، قال: لا، فقلت: حدثنا محمد بن عمرو الرازي قال: ثنا عبد الرحمن بن قيس، ثنا حماد بن سلمة عن أبـي العشراء الدارمي، عن أبيه قال: ذكرت العتيرة لرسول الله ﷺ فحسنها.

فقال أحمد: ما أحسنه، يشبه أن يكون صحيحاً، كأنه من كلام الأعراب، وقال لابنه: هات الدواة والورقة، فكتبه عني.

الحاكم أبو عبد الله يعد المذاكرة نوعاً من علوم الحديث:

فقال في كتاب «معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه»: ذكر النوع الثالث والثلاثين من علوم الحديث، هذا النوع من هذه العلوم: مذاكرة الحديث والتمييز بها، والمعرفة عند المُذاكرة بين الصدوق وغيره، فإنَّ

---

(١) التذكرة ١/ ٢٩٠.

(٢) ١/ ٤١٢.

(٣) ٢/ ٧.

المُجَازف في المذاكرة يُجَازف في التحديث، ولقد كتبتُ على جماعة من أصحابنا في المذاكرة أحاديث لم يخرجوا من عُهْدتها قط، وهي مثبتة عندي.

ثم ذكر بعض مذاكرات الحفاظ فقال: سمعت عمر بن جعفر البصري يقول: دخلت الكوفة سنة من السنين وأنا أريد الحج فالتقيت بأبي العباس بن عقدة، وبتُّ عنده تلك الليلة، فأخذ يذاكرني بشيء لا أهتدي إليه، فقلت: يا أبا العباس أيش عند أيوب السختياني عن الحسن، فذكر حديثين فقلت: تحفظ عن أيوب عن الحسن، عن أبي برزة أن رجلاً أغلظ لأبي بكر، فقال عمر: يا خليفة رسول الله دعني فأضرب عنقه، فقال: مه يا عمر، ما كانت لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، فبقي، وكبَّرتُ وسكت، فقال: لا، أو تذكر لي سماعك فيه، فقلت: حدثنا عبدان قال: حدثنا محمد بن عبيد بن حسان، قال: حدثنا سفيان بن موسى عن أيوب.

سمعت علي بن عمر الحافظ يقول: ذُكر لبعض أصحابنا ممن ادعى الحفظ ونحن بمصر حديث لسفيان بن موسى عن أيوب، فقال: هذا خطأ إنما هو سفيان بن عيينة، عن موسى بن عقبة وأيوب، قال: ولم يعرف سفيان بن موسى البصري، وهو ثقة مأمون.

سمعت أحمد بن الخَضِر الشافعي غير مرة يقول: قدم علينا أبو علي عبد الله بن محمد بن علي الحافظ البلخي حاجّاً فعجز أهل بلدنا عن مذاكرته لحفظه، واجتمع معه جعفر بن أحمد الحافظ فذاكرا لبيك بحجة وعمرة معاً، فقال جعفر: تحفظ عن سليمان التيمي عن أنس؟ فبقيَ أبو علي، فقال جعفر: حدثناه يحيى بن حبيب بن عربي قال: حدثنا معتمر بن سليمان، عن أبيه، عن أنس فقُطِع المجلس بذلك.

قال أبو عبد الله: وجدت أبا علي الحافظ سيِّىء الرأي في أبي القاسم

اللخمي[1]، فسألته عن السبب فيه فقال: اجتمعنا على باب أبـي خليفة، فذكرنا طُرق: «أُمِرتُ أن أسجد على سبعة أعضاء»، فقلت له: تحفظ عن شعبة عن عبد الملك بن ميسرة الزراد، عن طاوس، عن ابن عباس، فقال: بلى غندر وابن أبـي عدي، فقلتُ: من عنهما؟ فقال: حدثناه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه عنهما، فاتهمته إذ ذاك، ثم قال أبو علي: ما حدث به غير عثمان بن عُمَر[2].

(١) هو الإمام الطبراني سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني رحمه الله تعالى، وهو إمام حافظ ثقة.

(٢) قد اعتذرت عن الطبراني في تعليقي على معرفة علوم الحديث بما نصه: قال الحافظ ابن حجر في ترجمة الطبراني (لسان الميزان ٣/ ٧٣): وذكر الحاكم في علوم الحديث عن أبـي علي النيسابوري أنه كان سيء الرأي فيه، ثم ذكر سبب ذلك أنه رآه ذكر حديثاً من حديث شعبة، فقال الطبراني: رواه غندر وشبابة عنه، قال أبو علي: فقلت من حدثك؟ قال: حدثني عبد الله بن أحمد عن أبيه عنهما، قال أبو علي: وليس هو من حديث غندر، قلت: وقد تتبع ذلك أبو نعيم على أبـي علي وروى حديث غندر عن أبـي علي بن الصواف عن عبد الله بن أحمد كما قال الطبراني وبرىء الطبراني من عهدته.

وقال الحافظ الضياء في الجزء الذي جمعه في الذب عن الطبراني: وهم الطبراني فظن أنه سئل عن رواية شعبة عن عمرو بن دينار عن طاوس، فهي التي عند غندر عن شعبة، وهي التي رواها ابن الصواف عن عبد الله بن أحمد، والمسئول عنها رواية شعبة عن عبد الملك بن ميسرة عن طاوس، فهي التي انفرد بها عثمان بن عمر.

قال: والدليل على أنه لم يسمعه أنه ساق الطريقين في كتابه الذي جمع فيه حديث شعبة، فأورد إحداهما في ترجمة شعبة عن عمرو بن دينار عن طاوس من رواية غندر عن شعبة، وأورد الأخرى في ترجمة شعبة عن عبد الملك بن ميسرة من رواية عثمان بن عمر عن شعبة. =

فحدثني أبو علي الحافظ قال: أخبرنا علي بن سلم الأصبهاني، قال: حدثنا صالح بن محمد بن يحيى بن سعيد، قال: حدثنا عثمان بن عمر قال: حدثنا شعبة عن عبد الملك بن ميسرة، عن طاوس، عن ابن عباس.

سألت أبا محمد الحسن بن محمد بن صالح السُّبيعي الحافظ عن حديث إسماعيل بن رجاء، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، فقال: لهذا الحديث قصة تدل على عوار من لا يصدق في المذاكرة.

قرأ علينا عبد الله بن محمد بن ناجية مسند فاطمة بنت قيس سنة ثلاث مائة فدخلت على أبي بكر الباغندي عند منصرفي من مجلس ابن ناجية فسألني: من أين جئت؟ قلت: من مجلس ابن ناجية، قال: وأيش قرأ عليكم اليوم؟ قلت: أحاديث الشعبي عن فاطمة بنت قيس، فقال: مرَّ لكم عن إسماعيل بن رجاء الزبيدي، عن الشعبي؟ فنظرتُ في الجزء فلم أجد، فقال: اكتب، ذكر أبو بكر بن أبي شيبة، قلت: عن من؟ فمنعته من التدليس وطالبته بالسماع.

فقال: حدثني محمد بن عبيدة الحافظ قال: حدثني محمد بن المعلى الأثرم، قال: حدثني أبو بكر بن أبي شيبة، قال: حدثنا محمد بن بشر العبدي عن مالك بن مغول، عن إسماعيل بن رجاء، عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس، عن النبي صلى الله عليه وآله قصة الطلاق والسكنى والنفقة، ثم انصرفتُ إلى حلب، وكان عندنا بحلب بغدادي يحفظ يُعرف بابن سهل، فذكرتُ له هذا الحديث، فخرج إلى الكوفة وذاكر أبا العباس بن سعيد به، فقال أبو العباس: ليس عند إسماعيل بن رجاء عن الشعبي.

= ثم قال الضياء: لو كان كل من وهم في حديث أو حديثين اتهم لكان هذا لا يسلم منه أحد.

قال: ثم وجد لإسماعيل بن رجاء عن الشعبي، فقال لي: قد وجدتُ عن إسماعيل بن رجاء عن الشعبي حرفين، قال السبيعي: فكتب ابن عُقْدَة هذا الحديث عن ابن سهل عنّي عن الباغندي.

قال السبيعي: فاجتمعت مع فلان وسمى شيخاً من أكابر حفاظ الحديث بحلب سنة ست عشرة وثلاث مائة، فذاكرته به في جملة أبواب ذكرناها فلم يعرفه، ثم اجتمعنا بالرملة فذاكرته به فلم يعرفه، ثم اجتمعنا بعد ذلك بسنين بدمشق فاستعادني إسناده تعجباً، ولم يعرفه، ثم اجتمعنا ببغداد بعد ذلك بسنين فذكرنا هذا الباب، فقال لي: حدثنا أبو القاسم علي بن إسماعيل الصفار، قال: حدثنا أبو بكر الأثرم، قال: حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة، ولم يعلم أن هذا الأثرم غير ذاك.

قال السبيعي: فذكرت قصتي هذه لفلان المفيد وأتى عليه سنون، فحدث بالحديث عن الباغندي، وحكى أنه دخل الكوفة وأن أبا العباس بن سعيد سأله عنه فذكر القصة كما وقع لي أضافها إلى نفسه، ثم قال السبيعي: المذاكرة تكشف عن مثل هذا.

وقال لي السبيعي: تذكر هذا الباب؟ فقلت: عن قرة بن خالد، عن سيار، عن الشعبي، فقال: حُدثنا عن يحيى بن حكيم، عن خالد بن الحارث، عن قرة، ثم قال لي: أتحفظ عن سعد الكاتب عن الشعبي؟ قلت: لا، فقال: حُدثنا عن نصر بن علي، عن عبد الله بن داود الخريبي، قال: حدثنا سعد الكاتب عن الشعبي، قلتُ: ابن ناجية حدثكم؟ قال: لا أدري، فقال أبو الحسن الدارقطني: نعم ابن ناجية حدثهم به، والسبيعي ساكت، قلتُ له: عبد الله بن حبيب بن أبي ثابت عن الشعبي، فقال: لا أعرفه.

ثم قال لي: تعرف عبد الله بن حبيب بن أبـي ثابت، عن أبيه، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: أُوحي إلى محمد صلى الله عليه وآله في يحيـى بن زكريا؟ فقلت: حدثناه الشافعي عن المسمعي، عن أبـي نعيم فقال: المِسمعي لا يُذكر، حُدثنا عن حميد بن الربيع الخزاز، قال: حدثنا أبو نعيم، قلت: وقد تُكلم في حُميد، فقال: حدثني محمد بن إبراهيم بن جابر الفقيه، قال: حدثني عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: سألتُ أبـي عن حميد بن الربيع فقال: دعوا المسكين، وعن ماذا يُسئل مِن أمره؟

ثم قال لي السبيعي: تحفظ عن خالد الحذاء عن رجل عن الشعبـي؟ قلت: لا، قال: حُدثنا عن محمد بن يحيـى القطيعي، قال: حدثنا عبد الأعلى عن خالد، فقال له أبو الحسن: ما كتبتُه في الدنيا إلاّ عنك عن ابن ناجية...

قال الحاكم: حضرت مجلس أبـي الحسين القنطري في محلته ببغداد وحضره أبو سعيد بن أبـي بكر بن أبـي عثمان وأبو الحسين بن العطار وأبو بكر القَطِيعي والحسن بن عَلاَّن وغيرهم، فلما فرغنا من القراءة ذكرنا طرق الغار، فدخل الشيخ يذكر معنا، فقال: حدثنا أبو قلابة عن أبـي عاصم، عن ابن جريج، عن موسى بن عقبة، وما ذكر غير هذا.

فلما بلغنا آخر الباب قال لنا الشيخ: عندكم عن جويرية بن أسماء عن نافع؟ فقلنا: لا، فقال: حدثناه معاذ بن المثنى، قال: حدثنا ابن أخي جويرية عن جويرية، فكتبنا بأَجْمُعِنا الحديث وأنا أشهد بالله إنه واهم فيه.

سمعت أبا سعيد عمرو بن محمد بن منصور يقول: سمعت أبا بكر محمد بن إسحاق يقول: لما دخلتُ بخارى ففي أول مجلس حضرت مجلس الأمير إسماعيل بن أحمد في جماعة من أهل العلم، فذكرتُ بحضرته أحاديث.

فقال الأمير: حدثنا أبـي قال: حدثنا يزيد بن هارون عن حميد، عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «أمتي أمة مرحومة» الحديث، فقلت: أيَّد الله الأمير، ما حدث بهذا الحديث أنس ولا حميد ولا يزيد بن هارون، فسكتَ، وقال: وكيف؟ قلتُ: هذا حديث أبـي موسى الأشعري ومداره عليه.

فلما قمنا من المجلس قال لي أبو علي صالح بن محمد البغدادي: يا أبا بكر جزاك الله خيراً، فإنه قد ذكر لنا هذا الإسناد غير مرة، ولم يجسر واحد منا أن يَرُدَّه عليه.

قال أبو عبد الله: وإنما أراد الأمير إسماعيل رحمه الله حديث يزيد بن هارون عن المسعودي، عن سعيد بن أبـي بردة بن أبـي موسى، عن أبيه، عن جده.

مالك عن عمرو بن دينار:

في المنتقى من فوائد أبـي إسحاق إبراهيم المزكي للحافظ الدارقطني نقل لمذاكرة بين ابن الجنيد وعلي بن مسلم.

فقال المزكي[1]: ثنا عبد الرحمن، ثنا أبـي، ثنا داود قال: حدثني عبد العزيز بن محمد عن مالك بن أنس، قال: سمعتُ عمرو بن دينار يذكر أنّ عبد الله بن عباس قال: إذا أوترتَ كفاك، إذا بدا لك أنْ تُصلي فاشفع حتى تُصبح.

قال عبد الرحمن: سمعتُ ابن جنيد المالكي يقول: لقيتُ علي بن مسلم المالكي فقلت له: تعرف عن مالك، عن عمرو بن دينار شيئاً، فقال: لا، فذكرت هذا الحديث، فقال من رواه؟ فقلت: أبو حاتم عن داود الجعفري، فبقي. اهـ.

---

(١) حديث ١١٧ من المزكيات، بتحقيق راقمه.

قلت: ولم أجد لمالك عن عمرو بن دينار شيئاً غير هذا، ومالك أدرك جماعة حدثوا عن الصحابة كعمرة وغيرها، إلاَّ أنه لم يسمع منهم، ولم يحدثه أحدٌ عن صحابي.

وذلك لأن من أدركه من التابعين فإنما أدركه في حال التغير والكبر، فلم يحدث عنهم لذلك.

وقال مالك: دخلت على عائشة بنت سعد بن أبي وقاص فسألتها عن بعض الحديث فلم أرض أنْ آخذ عنها شيئاً لضعفها، قال مالك: وقد أدركت رجالاً كثيراً منهم من أدرك الصحابة فلم أسألهم عن شيء كأنه يضعف أمرهم[1].



(١) رواه الخطيب في الكفاية ص ١٣٢.

فصل
في قصص الحفّاظ وأخبارهم

أول الحفَّاظ المحدِّثين: أبو هريرة:

فأول صاحب حديث هو الصاحب الجليل أبو هريرة رضي الله عنه، سيد الحفاظ[1]، وحافظ الصحابة[2].

رَوى عن النبي ﷺ الكثير الطيب[3].

وكان أبو بكر بن أبي داود السجستاني قد شرع يصنف حديث أبي هريرة وهو بسجستان، قال أبو بكر: فرأيت أبا هريرة بالنوم، كث اللحية، أسمر، عليه ثياب غلاظ، فقلت له: إني أحبك! فقال: أنا أول صاحب حديث كان في الدنيا![4].

حفظ أبي هريرة:

وكان أبو هريرة يقول: لا أعرف أحداً من أصحاب النبي ﷺ أحفظ لحديثه مني.

---

(١) من عبارة الإمام الذهبي.

(٢) كما وصفه بذلك ابن حجر في التقريب.

(٣) تهذيب التهذيب ١٢/٢٦٣، وقال الذهبي: حمل عن النبي ﷺ علماً كثيراً طيباً مباركاً فيه، لم يلحق في كثرته (السير ٢/٥٧٩).

(٤) مقدمة ابن الصلاح، السير ٢/٦٢٧، تذكرة الحفاظ ١/٣٣ ـ ٣٤.

قال الشافعي: أحفظ من روى الحديث في دهره أبو هريرة[1].

قال مقيده: لهذا الحفظ سبب وقصة.

أما السبب: فهو شدة ملازمة أبـي هريرة لرسول الله ﷺ، وحرصه على العلم.

شهد له بهذا الحرص رسول الله ﷺ، وحسبه بهذه تزكية.

قال أبو هريرة: يا رسول الله من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ فقال: لقد ظننتُ يا أبا هريرة ألا يسألني عن هذا الحديث أحد أول منك، لما رأيت من حرصك على الحديث[2].

وقال ابن عمر: يا أبا هريرة إن كنتَ لألزمنا لرسول الله ﷺ، وأعلمنا بحديثه[3]، وقال مرة: أبو هريرة خير مني وأعلم[4].

وقال طلحة بن عبيد الله: ولا أشك أنه سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع[5].

فهذه شهادة إخوانه الصحابه له بالحرص والملازمة.

وأمّا القصَّة: حفظ أبـي هريرة الخارق من معجزات النبوة[6]:

ففي البخاري ومسلم عن أبـي هريرة قال:

يقولون إن أبا هريرة قد أكثر، والله الموعد، ويقولون ما بال

---

(١) الخبران في السير ٢/ ٥٩٩، وتذكرة الحفاظ ١/ ٣٦.

(٢) رواه البخاري، كتاب العلم، باب الحرص على الحديث ١/ ١٩٣.

(٣) رواه الترمذي في جامعه ح ٣٨٣٦، وهو في تذكرة الحفاظ ١/ ٣٦.

(٤) تهذيب التهذيب ١٢/ ٢٦٧.

(٥) السير ٢/ ٦٠٦، وفيه قصة، وتهذيب التهذيب ١٢/ ٢٦٦.

(٦) عبارة الذهبـي في السير ٢/ ٥٩٤.

المهاجرين والأنصار لا يتحدثون مثل أحاديثه، وسأخبركم عن ذلك:

إن إخواني من الأنصار كان يشغلهم عمل أراضيهم، وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم الصفق في الأسواق، وكنت ألزم رسول الله ﷺ على ملء بطني، فأشهد إذا غابوا، وأحفظ إذا نسوا.

ولقد قال رسول الله ﷺ يوماً: «أيكم يبسط ثوبه، فيأخذ من حديثي هذا ثم يجمعه إلى صدره، فإنه لن ينسَ شيئاً سمعه».

فبسطت بردة عليّ، حتى فرغ من حديثه، ثم جمعتها إلى صدري، فما نسيت بعد ذلك اليوم شيئاً حدثني به.

ولولا آيتان أنزلهما الله في كتابه ما حدثت شيئاً أبداً: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ. . . ﴾ إلى آخر الآيتين[1].

ـ وفي سياق آخر رواه سعيد بن أبي هند عنه:

أن النبي ﷺ قال له: «ألا تسألني من هذه الغنائم؟».

فقلت: أسألك أن تعلمني مما علمك الله.

فنزع نمرة على ظهري، فبسطها بيني وبينه، حتى كأنما أنظر إلى القمل يدب عليها، فحدثني حتى إذا استوعبت حديثه، قال: «اجمعها، فصيِّرْها إليك».

قال: فأصبحت لا أسقط حرفاً مما حدثني[2].

قال النووي: وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة لرسول الله ﷺ[3].

وقال ابن حجر: وهو من علامات النبوة، فإن أبا هريرة كان أحفظ من

---

(١) صحيح البخاري (ح ١١٨، ٢٣٥٠، ٧٣٥٤)، ومسلم ١٦/ ٥٣، واللفظ له.

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية ١/ ٣٨١ ورجاله ثقات.

(٣) شرح مسلم ١٦/ ٥٣.

كل من يروي الحديث في عصره، ولم يأت عن أحد من الصحابة كلهم ما جاء عنه[1].

لا يبغض أبا هريرة مؤمن:

ودعا النبي ﷺ لأبي هريرة وأمه، فقال: «اللَّـهُمَّ حبِّب عبيدك هذا وأمه إلى عبادك المؤمنين، وحببهم إليهما»، فكان أبو هريرة يقول: والله ما خلق الله مؤمناً يسمع بي إلاَّ أحبني[2].

الاحتجاج بأبي هريرة:

قال مقيده: جاء عن فقيه أنه قال: كان أصحابنا يَدَعون من حديث أبي هريرة، وقال: ما كانوا يأخذون من حديثه إلاَّ ما كان حديث جنة أو نار.

فقال الذهبي: هذا لا شيء، بل احتج المسلمون قديماً وحديثاً بحديثه، لحفظه وجلالته وإتقانه وفقهه، وناهيك أن مثل ابن عباس يتأدب معه، ويقول: أفت يا أبا هريرة..

وأصح الأحاديث ما جاء عن الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة، وما جاء عن أبي الزناد، عن الأعرج، عن أبي هريرة، وما جاء عن ابن عون وأيوب عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة.

وأين مثل أبي هريرة في حفظه وسعة علمه[3].

أمنية أبي صالح:

وكان من أخص الناس بالصاحب أبي هريرة أبو صالح ذكوان

---

(١) تهذيب التهذيب ١٢/٢٦٦.

(٢) رواه أحمد في المسند ٢/٢١٩، ومسلم في الصحيح ح ٢٤٩١.

(٣) السير ٢/٦٠٩.

السمان، كان يقول: ما أحد يحدث عن أبي هريرة إلاَّ وأنا أعلم: صادقاً هو أم كاذباً[1].

وكان شديد الحرص على صحبة أبي هريرة، سُمع وهو يقول: ما كنت أتمنى من الدنيا إلاَّ ثوبين أبيضين أجالس فيهما أبا هريرة!![2]

الغلام الذي ردَّ حديث أبي هريرة:

قال الحافظ أبو سعد السمعاني: سمعت أبا المعمر المبارك بن أحمد، سمعت أبا القاسم يوسف بن علي الزنجاني الفقيه، سمعت الفقيه أبا إسحاق الفيروزآبادي، سمعت القاضي أبا الطيب يقول: كنا في مجلس النظر بجامع المنصور، فجاء شاب خراساني، فسأل عن مسألة المُصرَّاة[3]، فطالب بالدليل، حتى استُدِلَّ بحديث أبي هريرة الوارد فيها، فقال ـ وكان حنفيّاً ـ : أبو هريرة غير مقبول الحديث!

فما استتم كلامه حتى سقط عليه حية عظيمة من سقف الجامع، فوثب الناس من أجلها، وهرب الشاب منها وهي تتبعه، فقيل له: تُبْ، تُبْ، فقال: تبت، فغابت الحية فلم ير لها أثر.

فهذه كرامة ظاهرة لأبي هريرة بعد موته، وهل يجرأ مسلم أن يقول ذلك في حافظ الصحابة وإمام المحدثين؟

---

(١) طبقات ابن سعد ٥/ ٣٠١، الكامل، لابن عدي ١/ ٥٣ تهذيب الكمال ١/ ٣٩٦، طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٤١.

(٢) النفح الشذي، لليعمري ١/ ٣٥٧، ونحوه في تهذيب الكمال ١/ ٣٩٦.

(٣) المصراة هي الدابة تباع محفلة، بأن يحبس في ضرعها الحليب يوماً أو أكثر، فيظنها المشتري كثيرة اللبن، فإذا حلبها وبان له أمرها فحكمه كما جاء في حديث أبي هريرة مرفوعاً: «فهو بخير النظرين بعد أن حلبها، إن رضيها أمسكها، وإن سخطها ردها وصاعاً من تمر». متفق عليه.

قال الذهبي: إسنادها أئمة، وأبو هريرة إليه المنتهى في حفظ ما سمعه من رسول الله ﷺ، فوجب علينا العمل به، وهو أصل برأسه. .

ثم ساق عن أئمة المذاهب الاحتجاج بحديث أبي هريرة في ما خالف القياس[1].

الحفاظ السبعة:

وكان أبو هريرة يرأس سبعة من أصحاب النبي ﷺ، كلهم جاز حديثه الألف، نظمهم السيوطي في بيتين من ألفية الحديث، فقال:

والمكثرون في رواية الأثر ... أبو هريرة يليه ابن عمر
وأنس والبحر كالخدري ... وجابر وزوجة النبي[2]

فأين مثل هؤلاء الحفاظ الذين أقل ما يحفظ الواحد منهم أكثر من ألف حديث صحيح، مع علو الإسناد، هذا ما ظهر لهم وذاع، وأما الذي مات بموتهم فلا يعلمه إلاَّ الله عزَّ وجلّ.

وقد مر بنا شهادة أبي هريرة لأخيه عبد الله بن عمرو بالإكثار من الحديث، لأنه كان يكتب، ولكن لم يبلغ حديثه الألف، وإنما قلّت الرواية عنه لأسباب، منها: أنه كان يؤثر العبادة والعزلة عن مجالسة الناس، ثم إنه سكن مصر مع أبيه، وتلك ديار بعيدة الشقة، قليلة العلم، تصغر عن علم عبد الله.

وكان أصاب زاملتين من أخبار أهل الكتاب، فكان يحدث منهما، ومع ذلك فقد انتفع به أهل مصر، (وحملوا عنه علماً كثيراً)[3].

---

(١) السير ٢/٦١٨ ــ ٦٢٠.

(٢) أراد بالبحر ابن عباس، وبزوجة النبي عائشة.

(٣) تذكرة الحفاظ ١/٤٢.

الزهري كبير الحفاظ وأعلمهم:

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب القرشي (ت ١٢٥هـ).

سبق الحفاظَ بجمع السنة، فهو أول جامع لها بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رحمه الله[١]. قال فيه عمر بن عبد العزيز: ما رأيت أحداً أحسن سَوْقاً للحديث إذا حدث مثل الزهري[٢].

وكان طلابةً للعلم، متلقفاً للأخبار، جامعاً للفنون، جالس ابن المسيب ثماني سنين، وكان لا يترك أحداً إلاَّ سأله وأخذ عنه.

سأل إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهري أباه: بم فاقكم ابن شهاب؟ قال: كان يأتي المجالس من صدورها، ولا يَلْقَى في المجلس كهلاً إلاَّ ساءله، ولا شاباً إلاَّ ساءله، ثم يأتي الدار من دور الأنصار فلا يلقى فيها شاباً إلاَّ ساءله ولا كهلاً ولا عجوزاً ولا كهلةً إلاَّ ساءلها، حتى يحاور ربات الحجال![٣].

فكان الزهري يقول: مكثت خمسة وأربعين سنة اختلف فيما بين الشام والحجاز ما سمعت أحداً يحدثني بحديث أستظرفه[٤]!.

شيء من الزهريات:

قال أبو الزناد: كنا نطوف مع الزهري على العلماء، ومعه الألواح

---

(١) قال الناظم: أول جامع الحديث والأثر. . . ابن شهاب آمراً له عمر.
وهذه الأولية مصروفة للجمع المطلق.

(٢) الكامل، لابن عدي ١/٥٧.

(٣) تهذيب التهذيب ٩/٤٤٩.

(٤) الكامل ١/٥٩.

والصحف، يكتب كل ما سمع. وكان الزهري يقول: ما صبر أحد على العلم صبري، ولا نشره أحد نشري[١].

وقال: ما استودعت قلبي علماً فنسيته[٢].

قال الذهبي: من حفظه أنه حفظ القرآن في ثمانين ليلة، روى عنه ذلك ابن أخيه[٣].

وعن الزهري قال: ما استعدت عالماً قط[٤]، وقال ابن شهاب: ما استعدت حديثاً قط، وما شككت في حديث إلاَّ حديثاً واحداً، فسألت صاحبي فإذا هو كما حفظت![٥].

قال خالد بن نزار: أقام هشام بن عبد الملك كاتبين يكتبان عن الزهري فأقاما سنة يكتبان عنه[٦]. قال مالك: مات يوم مات الزهري وإن كتبه حملت على البغال ما لم يخرجها[٧].

كتابته العلم:

قال صالح بن كيسان: كنت أنا وابن شهاب نطلب العلم، فاجتمعنا على أن نكتب السنن، فكتبنا كل شيء سمعناه عن النبي ﷺ، ثم قال: اكتب ما جاء عن أصحابه، فقلت: لا، ليس بسنة، وقال هو: بل سنة، وكتب ولم

(١) الكامل ١/٥٨، تذكرة الحفاظ ١/١٠٩.
(٢) الكامل ١/٥٧، تهذيب التهذيب ٩/٤٤٧.
(٣) السير ٥/ ٣٣٢.
(٤) التذكرة ١/١١٠.
(٥) التذكرة ١/١١١.
(٦) جامع بيان العلم، لابن عبد البر ١/ ٣٣٤.
(٧) الكامل ١/٥٨.

أكتب، فأنجح وضيعت[1].

بعد سنتين لم يخرم حرفاً:

جرير بن عبد الحميد عن عمارة بن القعقاع قال: قال لي إبراهيم النخعي: إذا حدثتني فحدثني عن أبي زرعة بن عمرو بن جرير فإنَّه حدثني مرة بحديث ثم سألته عنه بعد سنتين فما خرم منه حرفاً[2].

الشعبي نمط صعب من الحفاظ:

قال عامر بن شراحيل الشعبي (ت ١٠٤هـ) محدثاً بنعمة ربه: ما كتبتُ سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث إلاَّ حفظته، ولا أحببت أن يعيده علي، ولقد نسيت من العلم ما لو حفظه أحد لكان عالماً.

قال عبد الملك بن عمير: مرّ ابن عمر بالشعبي وهو يحدث بالمغازي، فقال: شهدت القوم، ولَهذا أحفظ لها وأعلم بها مني[3].

المغيرة بن مقسم شديد الحفظ مع أنه كان أعمى:

وُلِدَ المغيرة بن مقسم الضبي الكوفي ضريراً (ت ١٣٦هـ)، لكنه كان عجباً في الذكاء[4]، قال شعبة: كان المغيرة أحفظ من الحكم[5]، وقال جرير بن عبد الحميد: قال مغيرة: ما وقع في مسامعي شيء فنسيته!

---

(١) التقييد، للخطيب ١٠٦ ــ ١٠٧، جامع بيان العلم وفضله ١/ ٣٣٢ ــ ٣٣٣.

(٢) الكامل، لابن عدي ١/ ٢٣.

(٣) تهذيب التهذيب ٥/ ٦٧، طبقات الحفاظ ص ٤٠.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ١٤٣.

(٥) السير ٦/ ١١، وفي تذكرة الحفاظ: أحفظ من حماد بن أبي سليمان، وفي تهذيب التهذيب ١٠/ ٢٦٩ جمع بين الروايتين.

قال الذهبي: هذا والله الحفظ، لا حفظ من درس كتاباً مرات عدة، حتى عرضه، ثم تخبط عليه، ثم درسه وحفظه، ثم نسيه أو أكثره[1].

وكان جرير بن عبد الحميد إذا سمع حديثاً يجيء به إلى المغيرة، فيعرضه عليه، فما قال له ألقه ألقاه، وما أثبته له حفظه[2].

الضرارة ليست حائلاً دون الحفظ:

وهذا المغيرة كان أعمى، ولكنه كان نافذ البصيرة، ولم تقف الضرارة بهمَّته، والغالب أنّ من أُخذ نظرُه عوض عنه.

قال الصفدي: قلّ أن وجد أعمى إلاَّ وهو ذكي، منهم: الترمذي الكبير الحافظ، والفقيه منصور المصري الشاعر، وأبو العيناء، والشاطبي المقرىء، وأبو العلاء المعري، والسهيلي صاحب الروض الأنف، وابن سِيدة اللغوي، وأبو البقاء العكبري، وابن الخباز النحوي، والنيلي شارح الحاجبية..

والسبب الذي أراه في ذلك: أن ذهن الأعمى وفكره يجتمع عليه، ولا يعود متشعباً بما يراه، ونحن نرى الإنسان إذا أراد أن يتذكر شيئاً نسيه أغمض عينيه وفكر، فيقع على ما شرد من حافظته.

وفي المثل: أحفظ من العميان[3].

شيء من حفظ قتادة:

روى أحمد عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة أنه قال لسعيد بن أبي عروبة: خذ المصحف، قال: فعرض عليه سورة البقرة، فلم يخطىء

---

(١) السير ٦/١١.

(٢) الكفاية، للخطيب البغدادي ص ٤٧٢.

(٣) نكت الهميان في نكت العميان ص ٨٣، ثم ساق عجائب ما سمع ورأى من أذكياء العميان.

يه حرفا واحداً، فقال: يا أبا النضر: أحكمتُ؟ قال: نعم، فقال: أنا لصحيفة جابر أحفظ مني لسورة البقرة[1].

هذا مع قول قتادة: ما قلت لمحدث قط أعد لي، وما سمعت أذناي شيئاً قط إلاَّ وعاه قلبي[2]. وقال معمر عن قتادة: إعادة الحديث تذهب بنوره، وما قلت لمحدث قط أعد علي، وما سمعت أذناي شيئاً إلاَّ وعاه قلبي[3].

قال أحمد: كان قتادة أحفظ أهل البصرة، لا يسمع شيئاً إلاَّ حفظه، قُرِئت عليه صحيفة جابر مرة فحفظها[4].

قال بكر بن عبد الله: منْ سرَّه أن ينظر إلى أحفظ من أدركناه فلينظر إلى قتادة[5].

تعجب ابن المسيب من حفظه:

عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: أنه أقام عند سعيد بن المسيب ثمانية أيام، فقال له في اليوم الثالث: ارتحل يا أعمى فقد أنزفتني.

قال عمرو بن عبد الله: لما قدم قتادة على سعيد بن المسيب جعل يسأله أياماً، وأكثر، فقال لَه سعيد: كل ما سألتني عنه تحفظه؟ قال: نعم، سألتك عن كذا فقلت كذا، وسألتك عن كذا فقلت كذا، حتى رد عليه حديثاً كثيراً، فقال سعيد: ما كنت أظن أن الله خلق مثلك[6].

---

(١) شرح العلل، لابن رجب ١/ ٤٤٢، تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥٢.

(٢) تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥٤.

(٣) التقييد ٢/ ٢٧٣.

(٤) طبقات الحفاظ ص ٥٥.

(٥) تذكرة الحفاظ ١/ ١٢٣.

(٦) تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥٢.

قال مطر الوراق: كان قتادة إذا سمع الحديث أخذه العويل والزويل.

وكان قتادة شديد الحرص على الحديث، روى عنه شعبة أنه قال: سألت أبا الطفيل عن حديث وهو يطوف بالكعبة، فقال: إن لكل مقام مقالاً، إن هذا ليس موضع مقال[1]!

معمر بن راشد الأزدي:

وكان معمر (٩٦ ــ ١٥٣هـ) يقارب قتادة في الحفظ، وكان تلمذ له وهو صغير. فعن محمد بن كثير عن معمر قال: سمعت من قتادة وأنا ابن أربع عشرة سنة، فما شيء سمعته في تلك السنين إلاَّ وكأنه مكتوب في صدري[2].

قال مقيده: قد مر بنا تقرير الفارق بين حفظ الصغير والكبير، ومثل المحفوظ في الصغر كمثل الإبل المعقلة بوثاق متين، فهي تروغ يميناً وشمالاً ثم تقر، ومثل المحفوظ في الكبر كمثل الإبل المعقلة بحبل بالي، كيف تحركت انقطع ومضت، وقد كان معمر لا يحدث إلاَّ من حفظه، لأنه حفظ على الصغر.

قال هشام بن يوسف: أقام معمر عندنا عشرين سنة، ما رأينا له كتاباً ــ يعني كان يحدثهم من حفظه ــ .

وقد تراخت الهمة من معمر بن راشد مرة فأخذ صحيفة الأعمش ــ التي هي سماعه ــ ولم يحفظها مكتفياً بحفظ القمطر، فضاعت منه الصحيفة في بعض تنقلاته، فسقط حديثه عن الأعمش إلاَّ قليلاً، وجعل يتذكر الحديث بعد الحديث.

---

(١) التقييد ٢/ ٢٧٣.

(٢) السير ٧/ ١٦، التذكرة ١/ ١٩٠، التهذيب ١٠/ ٢٤٤.

قال معمر: سقطت مني صحيفة الأعمش، فإنما أتذكر حديثه وأحدث من حفظي[1].

أمير المؤمنين في الحديث:

وممن حاز شرف التلقب بأمير المؤمنين في الحديث الإمام المؤرخ محمد بن إسحاق المطلبي مولاهم، صاحب السيرة، لقبه بذلك إمامان كبيران من أئمة النقد.

قال يزيد بن هارون: لو كان لي سلطان لأمَّرت ابن إسحاق على المحدثين، وقال شعبة: ابن إسحاق أمير المؤمنين لحفظه[2].

قال هارون بن معروف: سمعت أبا معاوية يقول: كان ابن إسحاق من أحفظ الناس، فكان إذا كان عند الرجل خمسة أحاديث أو أكثر، استودعها عند ابن إسحاق، قال: احفظها علي، فإن نسيتها كنت قد حفظتها علي[3].

أولية لأبي بسطام في العراق:

أما أمير المؤمنين في الحديث، وشيخ الإسلام فيه فهو: أبو بِسطام شعبة بن الحجاج الواسطي (ت ١٦٠هـ). كان أول من فتش عن الحديث في العراق، وجرح وعدل، وارتحل في سبيل ذلك.

قال ابن منجويه: كان من سادات أهل زمانه حفظاً وإتقاناً وورعاً

---

(١) السير ٧/ ٨.

(٢) السير ٧/ ٤١، ٤٧، ٥٤، التذكرة ١/ ١٧٣، هدية المغيث في أمراء المؤمنين في الحديث، للشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ص ٢٥، حيث يقول:

ثم ابن إسحاق إمام السيرة ... من كان ذا بصيرة منيرة
قد قال ذاك الذهبي في التذكرة ... وغيره إذ حاز تلك المفخرة

(٣) الإرشاد، للخليلي ١/ ٢٨٩، التهذيب ٩/ ٤٠.

وفضلاً، وهو أول من فتش بالعراق عن أمر المحدثين وجانب الضعفاء والمتروكين، وصار عَلَماً يقتدى به، ويتبعه عليه بعده أهل العراق[1].

قال الشافعي: لولا شعبة ما عُرف الحديث بالعراق، كان يجيء إلى الرجل فيقول: لا تحدث وإلا استعديت عليك السلطان.

قال شعبة: في صدري أربعمائة حديث لأبي الزبير، والله لا حدثت عنه[2].

من كانت حياته حاجزاً بين الناس والكذب على رسول الله:

وكان شعبة رحمه الله حاجزاً بين الناس وبين الكذب على رسول الله، وكان يقول: ما أعلم أحداً فتَّش الحديث كتفتيشي.

قال وكيع: إني لأرجو أن يرفع الله لشعبة في الجنة درجات، لذبِّه عن رسول الله ﷺ[3].

وكان عبد الله بن إدريس يقول: شعبة قبان المحدثين[4].

وقد كان هناك جماعة من الحفاظ قيل فيهم: إن حياتهم حاجزة بين الناس والكذب على رسول الله ﷺ، منهم شعبة.

ومنهم: أبو حامد ابن الشرقي، قال أبو بكر الجوزقي: سمعت غير واحد من مشايخنا يذكرون عن محمد بن إسحاق بن خزيمة أنه قال: ما دام أبو حامد ابن الشرقي في الأحياء لا يتهيأ لأحد أن يكذب على رسول الله ﷺ.

---

(١) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ٩٠.

(٢) السير ٧/ ٢١٣، وفي التذكرة أنها مائة حديث ١/ ١٩٥.

(٣) تهذيب التهذيب ٤/ ٣٤٥.

(٤) الكامل، لابن عدي ١/ ٧١، والقبان: الميزان.

ونظر إليه مرة فقال: حياة أبي حامد تحجز بين الناس والكذب على رسول الله ﷺ[1].

ومنهم: جبل الحفظ الإمام الدارقطني، نظر مرة إلى أهل بغداد فقال لهم: يا أهل بغداد، لا تظنون أنّ أحداً يقدر أن يكذب على رسول الله وأنا حي[2].

ومنهم: الحافظ الحجة المؤتمن الساجي (ت٥٠٧هـ)، قال أبو الوقت السجزي: كان شيخ الإسلام ـ يعني أبا إسماعيل الهروي ـ إذا رأى المؤتمن قال: لا يمكن لأحد أن يكذب على رسول الله ﷺ ما دام هذا حيًا[3].

ومنهم: أبو صالح المؤذن أحمد بن عبد الملك النيسابوري (ت٤٧٠هـ)، قال فيه أبو بكر محمد بن يحيى المزكي: ما يقدر أحد أن يكذب في الحديث هنا، وأبو صالح حي.

شدة حرص شعبة وحسده في العلم[4]:

قال محمد بن جابر السحيمي: قدمت البصرة فأتاني شعبة بن الحجاج فسألني فحدثته بحديث قيس بن طلق في مس الذكر، فقال: أسألك بالله ألا تحدث بهذا الحديث ما كنت بالبصرة!

إبراهيم بن الحجاج ابن بنت أبان بن أبي عياش قال: مر أبو عوانة (الوضاح اليشكري) على شعبة وهو عند عمرو بن مرة، وكان لعمرو وفرة، فقال أبو عوانة لشعبة: من هذا الشيخ؟ قال: شيخ يروي أبيات للحطيئة، فلما مات قال شعبة لأبي عوانة: يا وضاح ذلك الشيخ الذي رأيتني عنده هو

(١) تاريخ بغداد ٤/ ٤٢٧، الموضوعات، لابن الجوزي ١/ ٢١.
(٢) الموضوعات لابن الجوزي ١/ ٢١.
(٣) التذكرة ٤/ ١٢٤٧.
(٤) من تبويب ابن عدي في الكامل ١/ ٦٩ ـ ٧٠، وهذا الفصل منقول منه.

عمرو بن مرة.

أبو داود عن شعبة قال: خرجتُ أنا وهشيم إلى مكة، فلما قدمنا الكوفة، رآني هشيم مع أبـي إسحاق، فقال: مَن هذا؟ فقلت: شاعر السبيع! فلما خرجنا جعلت أقول: حدثني أبو إسحاق، قال: وأين رأيته؟ قلت: هو الذي قلت لك شاعر السبيع.

فلما قدمنا مكة مررت به وهو قاعد مع الزهري، فقلت: أبا معاوية من هذا؟ قال: شرطي لبني أمية! فلما قفلنا جعل يقول: حدثنا الزهري، فقلت: وأين رأيته، قال الذي رأيته معي، قلت: أرني الكتاب فأخرجه، فحرقته[1].

وكانت به عادة ولَّدَها الشره في طلب الحديث، إذا ذُكر لَه حديث ليس عنده يمرض من ألم فواتِه، قال شعبة: إني لأذاكر بالحديث يفوتني فأمرض.

وقال مظفر بن مدرك: ذكروا لشعبة حديثاً لم يسمعه فجعل يقول: واحزناه[2]!.

قُراد وابن عيينة قالا: سمعنا شعبة يقول: من طلب الحديث أفلس، لقد أفلستُ حتى بعت طستاً لأمي بسبعة دنانير.

علي بن عاصم قال: جاء شعبة إلى خالد الحذاء فقال له: يا أبا منازل عندي حديث، حدثني به، قال: وكان خالد عليلاً، فقال: أنا وَجِـع، فقال شعبة: إنما هو حديث واحد، فحدث به، فلما فرغ قال له: مت إذا شئت!

(١) السير ٧/ ٢٢٦.

قلت: ولم يكن هشيم بعدُ حفظ تلك الأحاديث، فلذلك تأخر في مراتب أصحاب الزهري على جلالته وتقدمه في غيره، ولا يعرف لشعبة رواية عن الزهري، وقد حدث عمن هو أقدم منه.

(٢) السير ٧/ ٢٢٨.

وقال علي: ذاكرت شعبة بحديث، فقال: دلني على صاحبه، فقلت: بالغداة، قال: لا، الساعة، لا أدري ما يكون غدوة[1].

فإلى هذا يكون المنتهى في الحرص على طلب الحديث، ألا تعجب من رجل يتأوه لفوات حديث واحد تأوه المريض لفوات صحته.

وقد روى أحمد بن سنان عن عبد الرحمن بن مهدي قال: حدثت شعبة بحديث عن سفيان بن عيينة، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه قال: سمعت عمر يقرأها ﴿فامضوا إلى ذكر الله﴾، فقال شعبة: عندك مثل هذا الحديث ولم تحدثني به إلى اليوم، وجب عليك جلد مائة[2].

ابن أبي رواد عن شعبة قال: وأي شيء ألذ من أن تخلو بشيخ قد لقي الناس، فأنت تستثيره وتستخرج منه علماً[3].

قلت: هكذا حال من غلبته شهوة الحديث، واستطعم حلاوته، وكان شعبة يقول: إذا كان عندي دقيق وقصب ما أبالي ما فاتني من الدنيا[4].

وقد كان شعبة رضي الله عنه معدوداً في العبَّاد، فقال أبو عبد الله الذهبي: كان أبو بسطام إماماً ثبتاً حجة ناقداً جهبذاً صالحاً زاهداً قانعاً بالقوت، رأساً في العلم والعمل، منقطع القرين، وهو أول من جرح وعدل، أخذ عنه هذا الشأن يحيى بن سعيد القطان وابن مهدي وطائفة، وكان سفيان الثوري يخضع له ويجله، ويقول: شعبة أمير المؤمنين في الحديث[5].

---

(١) الكامل ١/ ٧٥.

(٢) العلل، للدارقطني ٢/ ٢٥٣.

(٣) الجرح والتعديل ١/ ١٧٥.

(٤) تاريخ بغداد ٩/ ٢٦١، السير ٧/ ٢٠٧.

(٥) السير ٧/ ٢٠٦.

قال أبو بحر البكراوي: ما رأيت أحداً أعبد لله من شعبة، لقد عبد الله حتى جف جلده على عظمه واسوَدَّ!

قلت: هكذا فليكن العالم، وهذه ثمرة العلم، فإن لم يفدك العلم ذلك فأنت الضال المعثر، وقد كان الأولون يتعلمون للعلم العمل.

عن يزيد بن هارون قال: لما حدثنا شعبة بحديث المقدام أبي كريمة في حق الضيف قال شعبة: فيكم أحد سمعه من حَريز بن عثمان؟ قال يزيد: قلت: أنا، قال: حدثني، قال: لا أحفظه، قال: صحفيون، فضحك يزيد[1].

قلت: ما رؤي لشعبة كتاب يحدث منه، إنما كان ديوانه في صدره، وقد قدمنا أنه كان لا يكتفي بسماع مرة ولا مرتين.

قال عبد الصمد: سمعت شعبة يقول: أتيت طلحة بن مصرف مائة مرة أو خمسين مرة، فإن بلغكم أني حدثت عنه غير هذا الحديث فإني كذاب[2].

رأس مال شعبة:

كان رأس مال شعبة ثلاثة أحاديث غريبة، كل حديث ثلث رأس ماله.

عن سعيد بن الربيع قال: أخبرنا شعبة عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر: «نهى رسول الله ﷺ عن بيع الولاء وهبته»، قال شعبة: هذا الحديث ثلث رأس مالي.

قال: أخبرنا شعبة عن إسماعيل بن رجاء، عن أوس بن ضمعج، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ: «يؤم القوم أقرؤهم...» فذكره، قال شعبة:

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ١٧٤.

(٢) الجرح والتعديل ١/ ١٧٤، والحديث هو: عنه عن عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء في الذكر.

وهذا الحديث ثلث رأس مالي.

قال: أخبرنا شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن علي قال: «كان النبي ﷺ لا يحجبه عن قراءة القرآن غير الجنابة»، قال شعبة: وهذا الحديث ثلث رأس مالي[1].

مقايضة بين شعبة وقتادة:

واختص شعبة بمعرفة أحاديث قتادة وما سمع منها وما لم يسمع، وكان شعبةُ رحمه الله من أعلم الناس بالشعر، وحسبك بحديثي يقول فيه أمير الأدباء الأصمعي: لم نر قط أعلم من شعبة بالشعر![2].

فكان يقايض قتادة، يحدثه بحديث، فينشد له شعبة بيتاً.

قال علي بن نصر الجهضمي: قال شعبة: كان قتادة يسألني عن الشعر، فقلت له: أنشدك بيتاً، وتحدثني حديثاً[3].

الثوري قرين شعبة في الطلب:

وكان سفيان بن سعيد الثوري قرين شعبة في الطلب، وكان إماماً في السنة، ورعاً زاهداً عابداً، به خوف مقلق، ربما أقعده عن العمل.

قال ابن المبارك: لا أعلم على وجه الأرض أعلم من سفيان الثوري، وقال أيضاً: ما رأيت أحداً خيراً من سفيان، وقال: ما رأيت مثله، كأنه خلق لهذا الشأن[4].

---

(١) الكامل، لابن عدي ١/ ٧٦ ـ ٧٧.

(٢) السير ٧/ ٢١٢.

(٣) السير ٧/ ٢١٢.

(٤) الجرح والتعديل ١/ ٥٦.

وفيه عن ابن المبارك قال: كنت إذا أعياني الشيء أتيت سفيان أسأله، فكأنما =

قلت: هكذا كان ابن المبارك مُجِلاً للثوري، معظماً له، وهو أهل لذلك وأكثر، وقد فاق الثوريُّ شعبةَ في الفقه، وفاق شعبةُ الثوريَّ في الصناعة الحديثية.

مذاكرات على القبر:

ولحرص الثوري على العلم، ولغلبة العلم على طبعه، كان ربما تذاكر العلم مع أصحابه في موضع لا يصلح لذلك.

عن إسماعيل بن عبد الرحمن الأزدي قال: سمعت أبا عاصم يقول: ظننت أني قد حملتُ كل شيء عند ابن جريج، فلما مات كنا على القبر، فنظر إليّ سفيان فقال: يا ضحاك، تحفظ عن عطاء كره الصلاة المكتوبة في قلب الكعبة؟ قلت: لا، قال: حدثني صاحب القبر!

قال: فحدثت ابن داود بذلك بهذا الحديث فقال: كان سفيان صاحب ذا، ظننت ــ أي أنا ووكيع ومحمد بن بشر ــ لم نبق عند مسعر شيئاً، فلما مات مسعر أخبرنا سفيان بثلاثة أحاديث عن مسعر، ليس مع أحد منا شيء[1].

زاد غير إسماعيل، قال أبو عاصم: فعجبت من سفيان وورعه، غلب عليه الحديث في ذلك الموضع.

يحيى القطان قال: مات ابن أبي خالد وأنا بالكوفة، فجلس إلى

= أغتمسه من بحر، وكان ابن المبارك يغلو في الثوري لأنه أستاذه، وعنه أخذ العلم والعمل، وبه تخرج.

فكان ابن المبارك يقول: تباً لمن خالف سفيان الثوري في الحديث، وإن كان محقاً (الجرح والتعديل ١/ ٦٨).

(١) الكامل ١/ ٨٣.

جنبي سفيان ننتظر الجنازة، فقال: يا يحيى، خذ حتى أحدثك عن إسماعيل بعشرة أحاديث لم تسمع منها بشيء، فحدثني بعشرة! وكنت بمكة وبها الأوزاعي، فلقيني سفيان الثوري على الصفا، فقال: يا يحيى خرج الأوزاعي الليلة؟ قلت: نعم، قال: اجلس لا تبرح حتى أحدثك عنه بعشرة لم تسمع منها بشيء، قلت: وأي شيء سمعت أنا منه، فلم يدعني حتى حدثني بعشرة أحاديث لم أسمع منها بشيء[1].

قال يحيى بن سعيد القطان: كنت إذا حدثت سفيان بشيء ليس عنده اغتم[2].

شيء من حفظ الثوري:

قال عبد الرزاق ــ وغيره ــ عن الثوري: ما استودعت قلبي شيئاً فخانني[3].

وقال الأسدان ابن مهدي والقطان ــ وهما تلميذا سفيان ــ : ما رأينا أحفظ من الثوري[4].

قال ابن حميد: سمعت مهران الرازي يقول: كتبت عن سفيان الثوري أصنافه، فضاع مني كتاب الديات، فذكرت ذلك له، فقال لي: إذا وجدتني

---

(١) السير ٧/ ٢٤٨.

(٢) الكامل ١/ ٨٤.

(٣) الجرح والتعديل ١/ ٦٣، السير ٧/ ٢٣٦.
قال مقيده: كان لحفظه ينكر على من يكتب العلم، ذكر عقبة بن خالد أنه سمع هو والثوري من عبيد الله العمري سبعين حديثاً في مجلس، قال عقبة: ما كتب منها شيئاً، وأخرجت ألواحاً معي نحو من ذراع فلم يفتني منها شيء، فما صبر أن قال: إنما قلب أحدكم ألواحه، الجرح والتعديل ١/ ٦٨.

(٤) الكامل ص ٥٨، السير ٧/ ٢٣٦.

خالياً فاذكر لي حتى أُمِلَّه عليك، فحج فلما دخل مكة طاف بالبيت وسعى ثم اضطجع، فذكّرته، فجعل يملي علي الكتاب باباً في إثر باب حتى أملاه جميعه من حفظه[1].

القواريري عن القطان قال: كنا على باب إسماعيل بن أبي خالد، فقال سفيان: يا يحيى، تعال حتى أُحَدِّثك عنه بعشرة أحاديث لم تسمعها، فسرد ثمانية كأنه علم أني لم أسمعها![2].

قلت: وكان لصلابة حفظه لا يبال من خالفه، قال ابن مهدي: لما حدَّث سفيان عن حماد، عن عمرو بن عطية التيمي، عن سلمان قال: إذا حككت جسدك فلا تمسحه ببزاق، فإنه ليس بطهور.

قلت له: هذا حماد يروي عن ربعي بن حراش، عن سلمان، قال: من يقول ذا؟ قلت: حدثنا حماد بن سلمة، قال: امضه، قلت: حدثنا شعبة، قال: امضه، قلت: حدثنا هشام الدستوائي، قال: هشام؟ قلت: نعم، فأطرق هنيهة ثم قال: امضه، سمعت حماداً يحدثه عن عمرو بن عطية عن سلمان.

قال عبد الرحمن: فمكثت زمناً أحمل الخطأ على سفيان، حتى نظرت في كتاب غندر عن شعبة، فإذا هو: عن حماد، عن ربعي بن حراش، عن سلمان، قال شعبة: وقد قال حماد مرة: عن عمرو بن عطية التيمي، عن سلمان، فعلمت أن سفيان إذا حفظ الشيء لم يبال من خالفه[3].

---

(١) السير ٧/ ٢٤٧.

(٢) الجرح والتعديل ١/ ٦٠، وليس العجب من حفظه هذه الأحاديث، بل من معرفته أنها ليست عند الناس.

(٣) الجرح والتعديل ١/ ٦٥.

الوليد بن عقبة الشيباني قال: قيل لسفيان بن سعيد: لو جلست لنا مجلساً، وذاك قبل خروجه من البصرة، فاستقبل القبلة ثم ابتدأ، فكتبت بيدي ثلاثمائة حديث[1].

ابن المديني عن يحيى قال: قال لي سفيان بعد ثماني عشرة سنة أو تسع عشرة سنة في حديث عمرو بن مرة: هذا أليس قد حدثتك به مرة؟[2].

حافظ يملي على حفاظ:

الفسوي عن الفضل بن زياد عن أبي عبد الله قال: كان سفيان يحدث بالكوفة ثلاثمائة حديث، أربعمائة حديث في اليوم من حفظه، ولم يكن له كتاب، فكان الحفاظ يحفظون ثم يقومون فيكتبون.

وكان يحيى بن يمان يأخذ حفظاً، فإذا حدث بحديث عقد في الخيط عقدة، فإذا قام من عند سفيان حل عقدة وكتب حديثاً، وحل عقدة وكتب حديثاً.

وكان أبو نعيم يكتب في الألواح، فكان يحمل عنه ما وقع في ألواحه. وكان الأشجعي لا يحمل عنه إلاَّ أن يكتب كتاباً، فهو أصح ما يكون[3].

الثوري ينتصف من أبي معاوية في الأعمش:

وكان أبو معاوية الضرير مختصًّا لحديث الأعمش، فذاكره سفيان في حديث الأعمش فانتصف منه. قال أبو معاوية: ما رأيت رجلاً قط أحفظ للحديث من الثوري، كان يأتي فيذاكرني بحديث الأعمش فما رأيت أحداً أعلم منه بها.

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٦٦.

(٢) الجرح والتعديل ١/ ٦٦.

(٣) المعرفة والتاريخ ١/ ٧٢١.

أحمد بن سنان عن أبي معاوية قال: لقيني سفيان الثوري بعد موت الأعمش، فقال لي: كيف أنت يا محمد؟ كيف حالك؟ ثم قال لي: سمعت من الأعمش كذا وكذا؟ قلت: لا، قال: فسمعت منه كذا؟ قلت: لا، فجعل يحدثني بأحاديث كأنه يعلم أني لم أسمعها![1].

من كان يبكي على قبر لمنزلة　　فابكي الغداة على الثوري سفيانا

شيخ واسط:

أنجبت واسط إمامين في الحديث، كانا لدتين، الأول: شعبة وقد مضى ذكره، وكانت وفاته سنة ١٦٠هـ، والثاني: هشيم بن بشير الواسطي تأخرت وفاته إلى سنة ١٨٣هـ.

قال إسحاق الأزرق: ما رأيت مع هشيم قط لا ألواح ولا غير، إنما يجيء يسمع ثم يقوم[2]، قيل له: يا أبا معاوية: كم كنت تحفظ؟ قال: كنت أحفظ في مجلس مائة، ولو سئلت عنها بعد شهر لأجبت[3].

النفيلي سمع هشيماً يقول: من لم يحفظ الحديث فليس هو من أصحاب الحديث، يجيء أحدهم بكتاب يحمله، كأنه سجل مكاتب[4].

نمط جديد في التوثيق:

قال علي بن معبد: لما قدم هشيم العراق قال شعبة: إن قال لكم حدثني ابن عمر فصدِّقوه! فجعل ـ أي هشيم ـ يُغرب على شعبة، فقال شعبة: من حدثكم بهذه الأحاديث؟ فقالوا: هشيم، فقال: أكثرَ هشيم،

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٦٠ ـ ٦١.

(٢) الكامل ١/ ٩٣.

(٣) الكامل ١/ ٩٥.

(٤) الكامل ١/ ٩٥.

فقالوا له: نحن نأخذ بقولك الأول!.

وفي لفظ: قال شعبة: إذا حدثكم عن عيسى بن مريم فصدقوه!![1].

مسعر بن كدام يلقب المصحف:

وكان مسعر بن كِدَام الهلالي (ت ١٥٥هـ) يلقب المصحف، لقَّبه بذلك شعبة لجودة حفظه وإتقانه.

وقال الثوري: كنا إذا اختلفنا في شيء سألنا عنه مسعراً[2].

عُكّازة جدِّه:

كان إسرائيل بن يونس بن أبي إسحاق السبيعي (ت ١٦٠هـ) طالباً للعلم، نهماً، لازم جده أبا إسحاق عشرين سنة، وكان يقوم مقام عكازته[3].

قال أبو إسحاق: ما ترك لنا إسرائيل كوة ولا سفطاً إلاَّ دحسها كتباً[4].

قلت: يستعين بذلك على الحفظ، فقد كان يقول: كنت أحفظ حديث أبي إسحاق كما أحفظ السورة من القرآن[5].

وقال يحيى بن آدم: كنا نكتب عن إسرائيل من حفظه[6].

---

(١) الكامل ١/ ٩٤.
(٢) السير ٧/ ١٦٦، طبقات الحفاظ ص ٨٨.
(٣) وصفه الذهبي في تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥٩ (عكازة جده) لأجل هذه الملازمة الطويلة.
(٤) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٥.
(٥) السير ٧/ ٣٥٦.
(٦) تهذيب التهذيب ١/ ٢٦٢.

علمه في صدره:

وكان سعيد بن عبد العزيز الدمشقي (ت ١٦٧هـ) يساوي الأوزاعي في الجلالة، بل قدَّمه أبو مسهر عليه.

سُمِعَ يقول: ما كتبت حديثاً قط[١]، يعني كان يحفظ حديثه، وكان لا يأخذ العلم عن صحفي.

قال مروان بن محمد الطاطري: كان علم سعيد بن عبد العزيز في صدره[٢].

قلت: كثير من الحفاظ لم يكن لهم كتاب، منهم من المتأخرين: سعيد بن أبي عروبة مهران (ت ٢٥٦هـ)، أحد الثقات الحفاظ، قال أحمد بن حنبل: لم يكن له كتاب إنما كان يحفظ ذلك كله[٣].

وقفة مع محدث حمص:

هو العلامة المحدث الحافظ إسماعيل بن عياش الحمصي، مات سنة ١٨٢هـ، وله بضع وسبعون سنة.

قال أبو اليمان: كان إسماعيل جارنا، فكان يحيي الليل، وربما قرأ ثم قطع ثم رجع، فسألته عن ذلك، فقال: أذكر الحديث في الباب فأقطع الصلاة وأعلقه[٤].

قال داود بن عمرو الضبي: كان إسماعيل يحدثنا من حفظه، ما رأيت معه كتاباً قط، فقال له عبد الله بن أحمد: أكان يحفظ عشرة آلاف حديث؟ فقال: وعشرة آلاف وعشرة آلاف، فقال له أحمد بن حنبل: هذا مثل وكيع.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/٢١٩.

(٢) تهذيب التهذيب ٤/٦٠.

(٣) طبقات الحفاظ ص ٨٥.

(٤) تذكرة الحفاظ ١/٢٥٣.

ولا غرو أن يحفظ هذا المقدار من أتلف ماله في هذا الشأن، قال إسماعيل: ورثت عن أبي أربعة آلاف دينار أنفقتها في طلب العلم[1].

وكان إسماعيل يستعين على الحفظ بالكتابة، فكتب عن الشاميين ثم حفظ حديثهم فأتقنه، وكتب عن الحجازيين فضاع كتابه قبل أن يحفظ فخلط فيه.

قال يحيى بن معين: أما روايته عن أهل الحجاز فإن كتابه ضاع، فخلط في حفظه عنهم[2].

الحافظ الجواد المجاهد العابد:

اجتمعتْ في عبد الله بن المبارك المروزي (ت ١٨١هـ) أمور، فقد كان ثقةً ثبتاً فقيهاً عابداً جواداً مجاهداً، وأشياء وأشياء.

قال أبو زرعة: ابن المبارك اجتمع فيه فقه وسخاء وشجاعة وغزو وأشياء، قال أبو حاتم: كان ابن المبارك رَبَع الدنيا بالرحلة في طلب الحديث، لم يدع اليمن ولا مصر ولا الشام ولا الجزيرة ولا البصرة ولا الكوفة[3].

طلب وحفظ وأخذ عن أربعة آلاف شيخ، حدَّث عن ألف منهم، وكان أبوه يتأفف من طلبه الحديث، ويتضجر من تشاغله به، فقال له يوماً: إني لئن وجدت كتبك حرقتها! فأجابه عبد الله: وما عليّ، هو في صدري[4].

---

(١) الخبران في: تهذيب التهذيب ١/ ٣٢٢، وطبقات الحفاظ ص ١١٤.
(٢) طبقات الحفاظ، للسيوطي ص ١١٥.
(٣) الجرح والتعديل ١/ ٢٦٤، هذا فضلاً عن بلاد خوارزم ونيسابور وما وراء النهر، إذ من هناك منشأه.
(٤) تاريخ بغداد ١٠/ ١٦٦، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧٦، تهذيب التهذيب ٥/ ٣٨٥.

قال ابن معين: حدّث نحواً من عشرين ألف حديث. وكانت نسبة ما حدث به من مجموع مسموعاته الربع، فعلى تحديد ابن معين يكون مجموع ما يحفظ من حديثه: ثمانين ألف حديث.

ولسعة علمه، وتنوُّقه في المسائل كان يحيى يقول: كنت إذا طلبت الدقيق من المسائل فلم أجده في كتب ابن المبارك أيست منه(١).

وبالجملة فهو كما قال أحمد: لم يكن في زمانه أطلب للعلم منه (وكان صاحب حديث حافظاً)(٢).

شيء من حفظه:

النضر بن مساور قال: قلت لابن المبارك: هل تتحفظ الحديث؟ فتغير لونه، وقال: ما تحفظت حديثاً قط، إنما آخذ الكتاب فأنظر فيه، فما اشتهيته علق بقلبي(٣).

قال الحسن بن عيسى: أخبرني صخر صديق ابن المبارك قال: كنا غلماناً في الكتَّاب فمررت أنا وابن المبارك، ورجل يخطب، فخطب خطبة طويلة فلما فرغ، قال لي ابن المبارك: قد حفظتها، فسمعه رجل من القوم، فقال: هاتها، فأعادها وقد حفظها(٤).

مذاكرة عند الباب:

قال علي بن الحسن بن شقيق: قمت لأخرج مع ابن المبارك في ليلة

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧٦، السير ٨/ ٣٨٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٣٩٧، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧٥، وما بين القوسين من طبقات الحفاظ ص ١٢٣.

(٣) تاريخ بغداد ١٠/ ١٦٥.

(٤) تاريخ بغداد ١٠/ ١٦٥ ــ ١٦٦.

باردة من المسجد، فذاكرني عند الباب بحديث أو ذاكرته، فما زلنا نتذاكر، حتى جاء المؤذن للصبح![1].

في بيته يؤتى الحكم:

قال فضالة النسائي: كنت أجالسهم بالكوفة، فإذا تشاجروا في حديث قالوا: مروا بنا إلى هذا الطيِّب حتى نسأله، يعنون ابن المبارك[2].

قال سفيان: ما بالمشرق ولا بالمغرب له نظير[3].

حافظ أعمى:

أبو معاوية محمد بن خازم الكوفي الضرير، كان مختصاً لأحاديث الأعمش، لازمه عشرين سنة، فقال له الأعمش بعد صحبة طويلة: أما أنت فقد ربطتَ رأس كيسك[4].

قيل: إنَّ شعبة كان إذا حدَّث بحضرة أبـي معاوية يراجعه في حديث الأعمش، يقول: أليس كذا أليس كذا؟[5].

قال ابن حنبل: كان أبو معاوية إذا سئل عن حديث الأعمش يقول: قد صار في فمي علقماً ـ يعني من كثرة ترداده والتحديث به ـ [6].

قال ابن المديني: كتبت عن أبـي معاوية عن الأعمش ألفاً وخمسمائة حديث، وقال جرير: كنا نخرج من عند الأعمش فلا يكون أحفظ منا لحديثه من أبـي معاوية.

---

(١) السير ٨/ ٤٠٨، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٧٧.

(٢) السير ٨/ ٤٠٤.

(٣) الإرشاد، للخليلي ١/ ٢٧٢.

(٤) السير ٩/ ٧٥.

(٥) التذكرة ١/ ٢٩٤.

(٦) التذكرة ١/ ٢٩٥.

قال أبو معاوية: لقد رأيتهم (!) يجيئون كلهم إلى بابي فأملي عليهم ما سمعوا من الأعمش، وقال: كل حديث قلت فيه حدثنا فهو ما حفظته من فيّ المحدث[1].

قاضي يحدث بأربعة آلاف حديث من حفظه:

كان حفص بن غياث النخعي قاضي الكوفة (ت ١٩٥هـ)، وكان يتردد إلى بغداد. قال يحيى بن معين: جميع ما حدث به حفص ببغداد والكوفة إنما هو من حفظه، لم يخرج لهم كتاباً، كتبوا عنه ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف حديث من حفظه[2].

يزيد بن هارون من أحفظ الناس:

قد مرَّ ليزيد بن هارون ذِكرٌ في من اجتزأ بسمعة واحدة، وكان يقول: أحفظ أربعة وعشرين ألف حديث بالإسناد ولا فخر، وأحفظ للشاميين عشرين ألفاً لا أُسأل عنها[3].

قال زياد بن أيوب: ما رأيت ليزيد كتاباً قط، ولا حدثنا إلاَّ حفظاً[4]. وقال علي بن المديني: ما رأيت رجلاً قط أحفظ منه[5].

قال أحمد بن الطيب: سمعت يزيد يقول في هارون ـ يعني مستمليه ـ: بلغني أنك تريد أن تُدخل عليَّ في حديثي، فاجهد جهدك، لا أرعى الله تعالى عليك إن رعيت، أحفظ ثلاثة وعشرين ألف حديث.

---

(١) تهذيب التهذيب ٩/ ١٣٩.
(٢) وفيات الأعيان ٢/ ٢٠٠، تذكرة الحفاظ ١/ ٢٨٩.
(٣) تاريخ بغداد ١٤/ ٣٣٩، السير ٩/ ٣٦٠.
(٤) تاريخ بغداد ١٤/ ٣٤٠، تهذيب التهذيب ١١/ ٣٦٨.
(٥) تاريخ بغداد ١٤/ ٣٣٩.

بكى حتى عمي:

قال مقيده: كان يزيد رحمه الله من أئمة العلم والعمل، وكان هو وهُشيم يُعرفان بطول الصلاة، وقد مضت له عادة ــ لنيف وأربعين سنة ــ يصلي الغداة بطهور العتمة، وهذا غاية في التعبد والقنوت.

وكانت لَه هيبة وجلالة يتصدع منها قلب السلطان، وما استطاع المأمون إظهار بدعته ويزيد حي، وترى تفصيل ذلك في تاريخ الخطيب[١].

وكان يزيد قد عمي في أخرة، وذهب نور عينيه لسبب شريف، وكان قبلُ موصوفاً بحسن العينين، قال الحسن بن عرفة: قلت ليزيد بن هارون: ما فعلت تلك العينان الجميلتان؟ فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار!.

قال مقيده: ألا فليقر عيناً ــ يزيد بن هارون ــ وليبشر بالحبور، فعينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله، فكيف بمن ذهب الخوف والخشية بناظريه؟

وللقصة تتمة تُذكر في ترجمة المحدث الكبير محمد بن المسيب الأرغياني.

قال الحاكم في تاريخه: كان من العباد المجتهدين، سمعت أبا الحسين بن يعقوب الحافظ يقول: كان محمد بن المسيب يقرأ علينا، فإذا قال: قال رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه.

قال: وسمعت محمد بن علي الكلابي يقول: بكى محمد بن المسيب الأرغياني حتى عمي، وسمعت أبا إسحاق المزكي سمعت محمد بن المسيب سمعت الحسن بن عرفة يقول: رأيتُ يزيد بن هارون بواسط وهو من أحسن الناس عينين، ثم رأيته بعين واحدة، ثم رأيته قد عمي! فقلت له:

---

(١) ١٤/٣٤٢.

يـا أبـا خـالـد، مـا فعلـت العينـان الجميلتـان؟ قـال: ذهـب بهمـا بكـاء الأسحار!![1].

قال: وإنما هو مثل ضربته للأرغياني، فإنه بكى حتى عمي!

تحديث بدون كتاب:

من أعيان أهل البصرة، وممن نبغ في العلم والحفظ سليمان بن داود بن الجارود أبو داود الطيالسي القرشي البصري، قال ابن أبـي حاتم: سمعت عمر بن شبة يقول: كتبوا عن أبـي داود بأصبهان أربعين ألف حديث وليس معه كتاب[2].

وقد سبق أنه شرب البلاذر للحفظ فجُذم منه.

قال العجلي: أبو داود الطيالسي كثير الحفظ، رحلت إليه فأصبته مات قبـل قـدومي بيـوم، كـان قـد شـرب البـلاذر، فجـذم وحفـظ أربعيـن ألـف حديث.

قال بندار: سمعت أبا داود الطيالسي يقول: حدثت بأصبهان بأحد وأربعين ألف حديث ابتداء من غير أن أسأل. وقال علي بن المديني: ما رأيت أحفظ منه.

إبراهيم الأصبهاني قال: سمعت بنداراً محمد بن بشار يقول: ما بكيت على أحد من المحدثين ما بكيت على أبـي داود الطيالسي، قال: فقلت له: وكيف؟، قال: لما كان من حفظه ومعرفته وحسن مذاكرته[3].

---

(١) السير ١٤/ ٤٢٤.

(٢) التقييد ٢/ ٢.

(٣) تاريخ بغداد ٩/ ٢٧، التقييد ٢/ ٢ ـ ٣.

أبو زكريا الفراء رأس في الحفظ:

هو العلامة اللغوي الأخباري المحدث يحيى بن زياد بن عبد الله الأسدي الكوفي، أبو زكريا الفراء (ت ٢٠٧هـ)، كان رأساً في قوة الحفظ[١]، أملى تصانيفه كلها حفظاً.

قال هناد: كان الفراء يطوف معنا على الشيوخ ولا يكتب، فظننا أنه كان يحفظ[٢].

قال سلمة: أملى الفراء كتبه كلها حفظاً، لم يأخذ بيده نسخة إلَّا في كتابين: كتاب ملازم، وكتاب يافع ويافعة[٣].

قلت: ذكر العلماء أن تصانيفه تكون في ثلاثة آلاف ورقة.

وإنما قيل له الفراء لأنه كان يفري الكلام[٤]، وقد ساق الخطيب قصة إملائه كتابيه: معاني القرآن، والحدود من حفظه، وملخصها:

أن الفراء لما اتصل بالمأمون أمره أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العربية، وأمر أن يفرد في حجرة من الحجر، ووكل به جواري وخدماً يقمن بما يحتاج إليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوف نفسه إلى شيء، حتى إنهم كانوا يؤذنونه بأوقات الصلاة، وصيَّر له الوراقين، فكان يملي عليهم وهم يكتبون، حتى صنف الحدود في سنتين، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن، فبعد أن فرغ من ذلك خرج إلى الناس وابتدأ بكتاب المعاني.

قال أبو بريدة الوضاحي: أردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا لإملاء

---

(١) كما وصفه بذلك الذهبي في التذكرة ١/ ٣٧٢.

(٢) تاريخ بغداد ١٤/ ١٥٢، السير ١٠/ ١٢٠.

(٣) وفيات الأعيان ٦/ ١٨١.

(٤) وفيات الأعيان ٦/ ١٨١، السير ١٠/ ١٢٠.

كتابه فلم نضبطهم، فعددنا القضاة فكانوا ثمانين، فلم يزل يمليه حتى أتمه، ولما فرغ منه خزنه الوراقون عن الناس ليكسبوا به، وقالوا: لا نخرجه إلاَّ لمن أراد أن ننسخه له على خمس أوراق بدرهم، فشكا الناس إلى الفراء، فدعا الوراقين فقال لهم في ذلك، فقالوا: إنما صحبناك لننتفع بك، وكل ما صنفته فليس بالناس إليه من الحاجة ما لهم إلى هذا الكتاب، فدعنا نعيش به، فقال: قاربوهم تنتفعوا وتنفعوا، فأبوا عليه، فقال: سأريكم، وقال للناس: إني ممل كتاب معان أتم شرحاً وأبسط قولاً من الذي أمليت، فجلس يملي، فأملى الحمد في مائة ورقة، فجاء الوراقون وقالوا: نحن نبلغ الناس ما يحبون، فنسخوا كل عشرة أوراق بدرهم.

سبب إملاء كتاب المعاني:

وكان سبب إملائه أن أحد أصحابه ــ وهو عمرو بن بكير ــ كان يصحب الحسن بن سهل، فكتب إلى الفراء: إن الأمير الحسن لا يزال يسألني عن أشياء من القرآن فلا يحضرني عنها جواب، فإنْ رأيت أن تجمع لي أصولاً وتجعل ذلك كتاباً يُرجع إليه فعلت.

فلما قرأ الكتاب قال لأصحابه: اجتمعوا حتى أملي عليكم كتاباً في القرآن، وجعل لهم يوماً، فلما حضروا خرج إليهم وكان في المسجد رجل يؤذن فيه، وكان من القراء، فقال له: اقرأ، فقرأ فاتحة الكتاب، ففسرها حتى مر في القرآن كله على ذلك، يقرأ الرجل والفراء يفسر[1].

قال ابن خلكان: كتابه هذا نحو ألف ورقة، وهو كتاب لم يعمل مثله، ولا يمكن أحد أن يزيد عليه[2].

---

(١) انظر قصة الإملاء في: تاريخ بغداد ١٤/ ١٤٩، معجم الأدباء ٥/ ٢٠، وفيات الأعيان ٦/ ١٧٧، السير ١٠/ ١١٩.

(٢) وفيات الأعيان ٦/ ١٧٨.

الفراهيدي يهذُّ حديثه هذًّا:

قال أبو داود السجستاني: كان مسلم بن إبراهيم ـ الفراهيدي ـ يحفظ حديث قرة وحديث هشام وحديث أبي خلدة وحديث أبان العطار، يهذُّه هذًّا[1].

وهذا مسلم بن إبراهيم من شيوخ البصرة، وهو أكبر شيوخ أبي داود السجستاني، توفي سنة ٢٢٢هـ.

شيخ الإسلام في البصرة:

هو الحافظ الكبير الملقب شيخ الإسلام: سليمان بن حرب الواشحي الأزدي البصري.

قال أبو حاتم الرازي: سليمان بن حرب إمام من الأئمة، كان لا يدلس، ويتكلم في الرجال وفي الفقه، وليس بدون عفَّان، ولعله أكبر منه. وقد ظهر له نحو من عشرة آلاف حديث، وما رأيت في يده كتاباً قط، وهو أحب إلي من أبي سلمة التبوذكي في حماد بن سلمة وفي كل شيء.

ولقد حضرت مجلس سليمان بن حرب ببغداد، فحزروا من حضر مجلسه أربعين ألف رجل، وكان مجلسه عند قصر المأمون، فبنى له شبه المنبر، فصعد سليمان، وحضر حوله جماعة من القواد عليهم السواد، والمأمون فوق القصر، وقد فتح بابه، وقد أرسل ستر شف وهو خلفه، وكتب ما يملي.

فسئل سليمان أول شيء حديث حوشب بن عقيل، فلعله قد قال: حدثنا حوشب أكثر من عشر مرات، وهم يقولون: لا نسمع، فقام مستمل

---

(١) سؤالات أبي عبيد الآجري ٢/ ٦٤.

ومستمليان وثلاثة، كل ذلك يقولون: لا نسمع، حتى قالوا: ليس الرأي إلاَّ أن يحضر هارون المستملي.

فلما حضر قال: من ذكرت؟ فإذا صوته خلاف الرعد، فسكتوا وقعد المستملون كلهم، فاستملى هارون.

وكان لا يُسئل عن حديث إلاَّ حدّث من حفظه، وسئل عن حديث فتح مكة، فحدثنا به من حفظه، فقمنا، فأتينا عفان، فقال: ما حدثكم أبو أيوب؟ فإذا هو يعظمه[1].

قلت: انصرف هذا الحافظ الكبير إلى مكة قاضياً، ثم صُرف عنها، فعاد إلى البصرة، فتوفي فيها سنة ٢٢٤هـ.

القرينان:

قال مقيده: أول من تصدى للجرح والتعديل وتفرغ له: شعبة بن الحجاج رضي الله عنه، ثم تلمذ لَه عالمان جليلان من أهل البصرة هما: يحيى بن سعيد القطان وعبد الرحمن بن مهدي، وكانا قرينين، وكلامهما في الرواة كثير صائب.

وقع بين أسدين:

قال يزيد بن هارون: وقعت بين أسدين؛ عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن سعيد القطان[2].

وقال ابن المديني: ما رأيت أحداً أعلم بالرجال من يحيى بن سعيد، ولا رأيت أحداً أعلم بالحديث من عبد الرحمن بن مهدي[3].

---

(١) الجرح والتعديل ٤/١٠٨ ـ ١٠٩.

(٢) المجروحين، لابن حبان ١/ ٥٤

(٣) تاريخ المقدمي ص ١٦٨.

قلت: تقاسما شطري علم الحديث، فواحد في الرّجال وآخر في المتون.

تجريح في المنام:

قال ابن أبـي حاتم: حدثنا أبو سعيد أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد القطان قال: سمعت يزيد بن هارون يقول: يحيى بن سعيد وعبد الرحمن بن مهدي لما أسقطا جابر الجعفي؟ أما يخافان أن يَأخذهما في القيامة فيقول لهما: لم أسقطتما عدلي؟

قال أبو سعيد: رأيت جدي في المنام فقصصت عليه ما سمعت من يزيد بن هارون، فلما بلغ ذكر جابر الجعفي قال: سبحان الله لم يكن بعدل[1].

ما ذكر من حفظ يحيى بن سعيد[2]:

لازم يحيى بن سعيد شعبةَ عشرين سنة، كان يخرج في طلب الحديث من البيت فلا يرجع إلاَّ بعد العتمة.

عمرو بن علي عن يحيى بن سعيد قال: . . كنت أخرج أنا وخالد بن الحارث ومعاذ إلى ابن عون فيخرج فيقعدان ويكتبان، وأجيء فأكتبها في البيت.

خصم من عَرْض الناس:

قال أبو بكر بن خلاد: دخلت على يحيى بن سعيد في مرضه فقال لي: يا أبا بكر ما تركت أهل البصرة يتكلمون؟ قلت: يذكرون خيراً إلاَّ أنهم يخافون عليك من كلامك بالناس، فقال: احفظ عني، لأنْ يكون خصمي في

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٢٣٤

(٢) هذا الفصل ملخص من الجرح والتعديل، لابن أبـي حاتم ١/ ٢٤٨.

الآخرة رجل من عرض الناس أحب إلي من أن يكون خصمي في الآخرة النبي ﷺ، يقول: بلغك عني حديث وقع في وهمك أنه عني غير صحيح ـ يعني فلم تنكره ـ[1].

يمين برة:

قال علي بن المديني: لو أُخذتُ فأُحلفتُ بين الركن والمقام لحلفت بالله عزَّ وجلّ أني لم أر أحداً قط أعلم بالحديث من عبد الرحمن بن مهدي[2].

وقال: ما رأيت أعلم بالحديث من عبد الرحمن، وما كنت أشبه علمه بالحديث إلاَّ بالسحر، قال: وما تعلمنا هذا الشأن إلاَّ من عبد الرحمن[3].

قلت: اختص عبد الرحمن بالثوري ولازمه كثيراً، كملازمة صاحبه يحيى القطان لشعبة.

فقال مهدي أبو عبد الرحمن: كان عبد الرحمن يكون عند سفيان عشرة أيام، خمسة عشر يوماً، بالليل والنهار، فإذا جاءنا ساعة جاء رسول سفيان في أثره، فيقول: سفيان يدعوك، فيدعنا ويذهب[4].

يعرف ما تحفظه مما لا تحفظه:

قال ابن المديني ـ وكان مختصًّا بابن مهدي ـ: أتيت عبد الرحمن بن مهدي فقلت له: أخرج إليّ صحيفة ابن المبارك عن معمر، عن همام، قال: فأخرجها، فقلت: ادفعها إليَّ، قال: دعني حتى أملي

---

(١) الكامل ١/٩٨.

(٢) الجرح والتعديل ١/٢٥٢، الكامل ١/١٠٩.

(٣) تاريخ المقدمي ص ١٦٣.

(٤) الجرح والتعديل ١/٢٥٦.

عليك ما تحتاج إليه منها، فأملى علي منها أربعة أحاديث، ثم دفعها إلي فلم يكن فيها شيء غير الأربعة[1].

إسحاق بن عَرْعَرة عن علي بن المديني قال: لما قدمتُ من عند جرير جعلت أتتبع بالكوفة حديث الأعمش من عند أبي معاوية وأصحاب الأعمش، حتى تتبعت من عند يحيى بن آدم عن قطبة وغيره.

فلما قدمت البصرة أخبرت بعنايتي بحديث الأعمش عبد الرحمن بن مهدي، فقال لي: اكتب ما ليس عندك، فأملى علي بضعة عشر حديثاً، لم أحفظ منها شيئاً، فجعلت أتعجب من فهمه بما ليس عندي[2].

وجاءت القصة عند أبي عبد الله المقدمي هكذا: قال المقدمي: سمعت أبي يقول: سمعت عليًا يقول: خرجت إلى الكوفة قاصداً في تتبع حديث الأعمش، فجعلت أكتب النسخ التي بالكوفة عن الأعمش، وأتتبع حديث الأعمش تتبعاً شديداً، فأقمت مدة، ثم قدمت البصرة وأنا أرى أني قد بلغت في حديث الأعمش مبلغاً.

فأتيت عبد الرحمن أسلِّم عليه، فصادفته يملي على جماعة، فجلست ساعة حتى فرغ، ثم قمت فسلَّمت عليه، فقال: بلغني أنك كتبت بالكوفة حديث الأعمش، فقلت: قد كتبت منها ما أمكن، فقال: خذ عني ما أمليه مما ليس عندك، قال: فأملى عليَّ نيفاً وعشرين حديثاً، فلم أجد عندي منها إلّا واحداً، فإذا هو قد غاص عليها في مواضع خفية، لم أكن متعقباً[3].

---

(١) الكامل ١/١٠٩، وهي في تاريخ المقدمي عن أبيه عن علي بسياق آخر ص ١٦٢.

(٢) الكامل ١/١١٠.

(٣) كتاب التاريخ وأسماء المحدثين وكناهم، للمقدمي ص ١٦٣.

الفسوي قال: قال علي: قال عبد الرحمن: أي شيء تحفظ في الشرب في الطواف؟ فقلت له: عبد المؤمن عن سعيد بن جبير، قال: ليس من ذا شيء، فقلت: بل حدثني به ثقة، قال: من هو؟ فكرهت أن أخبره.

فلما رجعت إلى البيت نظرت فإذا قبله حديث في هذه المسألة، وبعده: عبد المؤمن رأيت سعيداً يتكلم في الطواف!

قال علي: وحدثنا روح بن عبادة يوماً عن هشام بن حسان حديثين عن محمد، عن شريح في الموضحة، وشيء آخر، فأنكرناهما على روح، وقلت فيهما، فانصرفت إلى عبد الرحمن، فذكرتهما له، فقال لإنسان: مسه، أمحموم هو؟ فقال: ليس من ذا شيء، قال: فلما رجعت إلى روح قال: اضرب على الحديثين اللذين حدثتك فإنهما خطأ، إنما هما عن الحسن ومحمد.

وقلت له حين رجعنا من عند جرير: ليس أحد يفيدنا عن الأعمش! فقال: لا تقل ذا، قال: فاتكأ فحدثني بثلاثين حديثاً ما عرفت منها شيئاً على الناس، تَتَبَّعها[1].

أنَّى لأهل الكوفة مثل هذا:

قال أبو عبد الله المقدمي: سمعت أبي يقول: سمعت علي بن المديني يقول: قيل لنا إنّ جماعة من أصحابنا الكوفيين يقدمون، فأتاني سليمان الشاذكوني يوماً في الصيف قبل نصف النهار في يوم صائف، فدق علي الباب، فخرجت إليه، فقلت: في هذا الوقت يا أبا أيوب؟ فقال: نعم، امض بنا إلى عبد الرحمن بن مهدي، فإنَّ أصحابنا هؤلاء الكوفيون قادمون علينا، والساعة يلقون علينا ما أعدوه للمذاكرة، فامض بنا حتى نذهب إلى

---

(١) المعرفة والتاريخ ١/ ٧١٥.

عبد الرحمن، فنسأله أن يحدثنا بما نرد به مما ليس عندهم وبما يغرب به عليهم.

قال: فأتيناه، فدققنا عليه الباب، فخرج علينا في ملحفة حمراء يمسح عينيه من النوم، فقال: في هذا الوقت؟ فأخبرناه بما قصدنا له، فقال: اكتبوا، فأملى علينا قريباً من مائة حديث، فنظرت أنا وسليمان فإذا ليس عندنا منها خمسة أحاديث، والباقي كلها نستفيدها، ثم قام فقال: الساعة تفوتنا الظهر.

فلما جزنا باب عبد الرحمن قال لي سليمان: لعن الله مهدي! فقلت: من مهدي؟ قال: أبو هذا الشيطان، كما خرج هذا من صلبه! ترى لو أنه كان قد نظر في كتبنا زاد على هذا؟![1]

وفي الجنازة أيضاً:

حميد بن الربيع: حدثني أحمد بن حنبل عن علي بن المديني، عن عبد الرحمن بن مهدي، عن معاذ بن معاذ. . فساق حديثاً.

قال حميد: سألت عليًّا عنه فقلت: حديث حدثني به عنك أحمد بن حنبل قال: نعم، كنت في جنازة معاذ أنا وعبد الرحمن بن مهدي وهو آخذ بيدي فقال: ألا أحدثك حديثاً ما طن بأذنك؟ قلت: بلى، قال: فحدثني به، فقال: حدثني صاحب السرير[2].

وقد ساق ابن أبـي حاتم له وليحيـى بن سعيد فصولاً في معرفتهما بالعلل، وهذا أمر مُسَلَّم لهما، ومكانتهما عند أهل الحديث أشهر من أن تذكر، وعنهما أخذ هذا العلم جماعة من الكبراء: كيحيـى بن معين وعلي بن المديني وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم.

---

(١) تاريخ المقدمي ص ١٧٠.

(٢) الكامل ١/ ١٢٢.

على مائدة علي بن الجعد:

قد مر ذكر الحافظ علي بن الجعد فيمن اجتزأ بسمعة واحدة، وقد كان مشهوراً بالحفظ، قال فيه أبو حاتم: ما كان أحفظه لحديثه.

قال خلف بن سالم: صرت أنا وأحمد وإسحاق وابن معين إلى علي بن الجعد، فأخرج إلينا كتبه وذهب، ظننا أنه يتخذ لنا طعاماً، فلم نجد في كتبه إلاَّ خطأً واحداً، فلما فرغنا من الطعام قال: هاتوا، فحدث بكل شيء كتبناه من حفظه[1].

وقال ابن أبـي الدنيا: أخبرت عن موسى بن داود قال: ما رأيت أحفظ من علي بن الجعد، وكنا عند ابن أبـي ذئب فأملى علينا عشرين حديثاً، فحفظها وأملاها علينا[2].

ابن الطباع يحفظ أربعين ألفاً:

هو محمد بن عيسى ابن الطباع البغدادي الحافظ الكبير (ت ٢٢٤هـ) الثقة المأمون، قال أبو حاتم: ما رأيت من المحدثين أحفظ منه للأبواب، وقال أبو داود: كان يحفظ نحواً من أربعين ألف حديث[3].

زكريا بن عدي يملي أحاديث عبيد الله بن عمرو:

قال المنذر بن شاذان: ما رأيت أحفظ من زكريا بن عدي، جاءه أحمد بن حنبل ويحيى فقالا: أخرج إلينا كتاب عبيد الله بن عمرو ـ الرقِّي ـ فقال: ما تصنعون به؟ خذوا حتى أملي عليكم كله[4].

---

(١) تاريخ بغداد ١١/ ٣٦١، السير ١٠/ ٤٦٢.
(٢) تاريخ بغداد ١١/ ٣٦١، السير ١٠/ ٤٦٢.
(٣) سؤالات أبـي عبيد ٢/ ٢٤٦.
(٤) الجرح والتعديل ٣/ ٦٠٠، تذكرة الحفاظ ١/ ٣٩٦.

وكان يحدث عن عدة من أصحاب الأعمش فيميز ألفاظهم. توفي زكريا بن عدي سنة ٢١١هـ.

ما سمع شيئاً إلاَّ حفظه:

وهذا الوكيعي أحمد بن جعفر الكوفي الضرير الإمام الحافظ، ما قرع شيء سمعه إلاَّ وعاه قلبه، قال أبو نعيم فيه: ما رأيت أحفظ منه، وقال إبراهيم الحربي: كان الوكيعي يحفظ مائة ألف حديث، ما أحسبه سمع حديثاً قط إلاَّ حفظه، وقال أبو داود: كان الوكيعي يحفظ العلم على الوجه[1].

فهذا الحفظ وهذه الشهرة به لرجل ضرير أمر يخضع له، وعلى كثرة ما حدث، فلم يوجد له ما ينكر، وتوفي الوكيعي سنة ٢١٥هـ.

سعيد بن منصور لا يرجع عما في كتبه:

هو الحافظ المتثبت سعيد بن منصور الطالقاني (ت ٢٢٧هـ).

قال الحافظ ابن حجر: ثقة مصنف، كان لا يرجع عما في كتابه لشدة وثوقه به[2].

قال حرب الكرماني: أملى علينا نحواً من عشرة آلاف حديث من حفظه[3].

---

(١) هذه المقتبسات من تاريخ بغداد ٤/ ٥٩، وسير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٧٥.
ومع هذا الحفظ الباهر فإن الذهبي لم يذكره في تذكرة الحفاظ، ولم يتعقبه السيوطي.

(٢) من التقريب.

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/ ٤١٦، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥٨٧.

وكيع بن الجراح يسمع فيحفظ:

قال ابن معين: سمعت وكيعاً يقول: ما كتبت عن الثوري حديثاً قط، كنت أحفظ فإذا رجعت إلى المنزل كتبته[1].

قاضٍ حافظ:

قال العباس بن مصعب: سمعت أحمد بن يحيى الكشميهني يقول: سمعت أحمد بن عمر الوكيعي القاضي يقول: وُلِّيت المظالم بمرو اثنتي عشرة سنة، فلم يَرِد عليّ حكم إلاَّ وأنا أحفظ فيه حديثاً، فلم أحتج إلى الرأي ولا إلى أهله[2].

قلت: كان أحمد بن عمر الوكيعي فقيهاً حافظاً محدثاً مقرئاً، روى الحروف عن يحيى بن آدم بروايته عن أبي بكر، عن عاصم، وتوفي سنة ٢٣٥هـ.

مع شيخ البخاري البِيْكندي:

وكان الحافظ الثقة محمد بن سلاَّم البيكندي أحد شيوخ البخاري في الصحيح، جاء عنه أنه قال: أحفظ نحواً من خمسة آلاف حديث.

ولا عجب في ذلك فهو القائل: أنفقت في طلب العلم ونشره ثمانين ألفاً[3].

ابن راهويه يملي الكتب من حفظه:

هو شيخ الإسلام إسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلي أبو محمد

---

(١) المعرفة والتاريخ ١/٧١٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٣٧.

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/٤٢٢.

المروزي الثقة الحافظ، الجهبذ الفقيه.

قال أبو داود الخفاف: سمعته يقول: كأني أنظر إلى مائة ألف حديث في كتبي، وثلاثين ألفاً أسردها.

قال الخفاف: وأملى علينا إسحاق من حفظه أحد عشر ألف حديث من حفظه، ثم قرأها علينا فما زاد حرفاً ولا نقص حرفاً[1].

فهذا والله الحفظ، وقد كان إسحاق مبرزاً فيه، حتى قال أبو زرعة: ما رُئي أحفظ من إسحاق.

وقال أبو حاتم: العجب من إتقانه وسلامته من الغلط، مع ما رزق من الحفظ[2].

فهذان جبلان في الحفظ يتعجبان من حفظ إسحاق فما عساه يكون؟

قال السيوطي: أملى المسند والتفسير من حفظه، وكان لا يحدث إلاَّ حفظاً[3]. وقال الذهلي: اجتمع في الرصافة أعلام أصحاب الحديث، منهم أحمد وابن معين وغيرهما فكان صدر المجلس لإسحق، وهو الخطيب[4]. قال ابن خزيمة: لو إسحاق كان في التابعين لأقروا له بحفظه وعلمه وفقهه.

وقد سُمِع إسحاق يقول: ما سمعت شيئاً إلاَّ حفظته ولا حفظت شيئاً فنسيته، وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث في كتبي.

ففي الكامل لابن عدي[5]: عن علي بن خشرم أنه حدث بإسناده عن

---

(١) الكامل ١/ ١٢٧، التقييد ١/ ٢٣٣، سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٧٣.
(٢) النقولات السابقة من التذكرة ٢/ ٤٣٤.
(٣) طبقات الحفاظ ص ١٩٢.
(٤) طبقات الحفاظ ص ١٩١ ـ ١٩٢.
(٥) ١/ ١٢٧.

الشعبي قال: ما كتبت سوداء في بيضاء إلى يومي هذا، ولا حدثني رجل بحديث قط إلاَّ حفظته، ولا أحببت أن يعيده علي.

قال: فحدثت بهذا الحديث إسحاق بن راهويه، فقال: تعجب من هذا؟ قلت: نعم، قال: كنت لا أسمع شيئاً إلاَّ حفظته، وكأني أنظر إلى سبعين ألف حديث، أو قال: أكثر من سبعين ألف في كتبي[1].

وقال: ما سمعت شيئاً إلاَّ وحفظته، ولا حفظت شيئاً قط فنسيته. وقال: أعرف مكان مائة الف حديث كأني أنظر إليها.. وأحفظ أربعة آلاف حديث مزورة، قيل له: ما معنى حفظ المزورة؟ قال: إذا قرىء منها حديث في الأحاديث الصحيحة فلَّيته منها فَلْياً[2].

قال: أحمد بن سلمة: سمعت أبا حاتم الرازي يقول: ذكرت لأبي زرعة حفظ إسحاق بن راهويه، فقال أبو زرعة: ما رئي أحفظ من إسحاق.

ثم قال أبو حاتم: والعجب من إتقانه وسلامته من الغلط مع ما رزق من الحفظ، فقلت لأبي حاتم: إنه أملى التفسير عن ظهر قلبه! فقال: وهذا أعجب، فإنّ ضبط الأحاديث المسندة أسهل وأهون من ضبط أسانيد التفسير وألفاظها[3].

قال إبراهيم بن أبي طالب الحافظ: فاتني عن إسحاق مجلس من مسنده، وكان يمله حفظاً، فترددت إليه مراراً ليعيده، فتعذر، فقصدته يوماً لأسأله إعادته، وقد حملت إليه حنطة من الرستاق، فقال لي: تقوم عندي،

---

(١) التقييد، لابن نقطة ١/ ٢٣٢.

(٢) طبقات الحفاظ ص ١٩٢.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٧٣.

وتكتب وزن هذه الحنطة، فإذا فرغت أعدت لك، ففعلت ذلك، فسألني عن أول حديث من المجلس، ثم اتكأ على عضادة الباب، فأعاد المجلس حفظاً، وكان قد أملى المسند كله حفظاً[1].

مسائل معقدة:

قال أبو داود السجستاني: كان عبيد الله بن معاذ يحفظ عشرة آلاف، أحاديث أشعث بمسائله المعقدة، وأحاديث معتمر، وأحاديث خالد، ورأيته يملي أحاديث سفيان على ابنه، وكان فصيحاً[2].

قلت: هذا هو أبو عمرو عبيد الله بن معاذ البصري الحافظ الثقة، توفي سنة ٢٣٧هـ.

عودة إلى حية الوادي:

سبق أن ذكرنا سيد الحفاظ علي بن المديني في من امتحن فأفلح، وهذا طرف من حفظه، وشيء من سيرته، فإذا ذكر الحفاظ فحيهلاً بابن المديني.

قال الأعين: رأيت علياً مستلقياً، وأحمد عن يساره، وابن معين عن يمينه، وهو يملي عليهما. وقال الطوسي أبو أمية: سمعت علياً يقول: ربما أذكر الحديث في الليل فآمر الجارية تسرج السراج فأنظر فيه.

قال الرباطي أحمد بن سعيد ـ شيخ البخاري ـ: قال علي: ما نظرت في كتاب شيخ فاحتجت إلى السؤال به عن غيره[3]!

(١) التقييد ١/ ٢٣٥، سير أعلام النبلاء ١١/ ٣٧٤.
(٢) مسائل الآجري ٢/ ٥٥.
(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ٥٠.

بعدما شاخ:

يعقوب الفسوي قال: سمعت علياً وقوم يختلفون إليه، يقرأ عليهم أبواب السجدة، كان يُذكر له طرف حديث، فيمر على الصفحة والورقة، فإذا تعايى في شيء لقنوه الحرف والشيء منه، ثم يمر فيقول: الله المستعان! هذه الأبواب أيام نطلب كنا نتلاقى بها المشايخ، ونذاكرهم بها، ونستفيد ما يذهب علينا منها، وكنا نحفظها، وقد احتجنا اليوم إلى أن نلقن في بعضها[1]!

الحفاظ الأربعة:

قال أبو عبيد القاسم بن سلام الإمام رحمه الله: انتهى الحديث إلى أربعة: أحمد بن حنبل وهو أفقههم فيه، وإلى يحيى بن معين وهو أكتبهم له ــ وفي لفظ: أجمعهم له ــ، وإلى علي بن المديني وهو أعلمهم له، وإلى أبي بكر بن شيبة وهو أحفظهم له.

فهؤلاء شيوخ زمانهم، وسادات أقرانهم، وقد أصاب أبو عبيد رحمه الله في وصفهم، فكل واحد منهم كما قال.

أسطوانة ابن مسعود:

حافظ الكوفة الأول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، كان يجلس إلى أسطوانة في مسجده يحدث الناس.

ثم خلفه في الجلوس إليها علقمة بن قيس النخعي، ثم خلفه إبراهيم بن يزيد النخعي، ثم خلفه منصور بن المعتمر السلمي، ثم خلفه سفيان بن سعيد الثوري، ثم خلفه وكيع بن الجراح الرؤاسي، ثم خلفه

---

(١) المعرفة والتاريخ، للفسوي ٢/ ١٣٧، سير أعلام النبلاء ١١/ ٥١.

أبو بكر بن أبـي شيبة الكوفي، ثم خلفه مطيَّن، ثم ابن عقدة.

ثم خرب المسجد ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله، فهذه سلسلة أهل الكوفة وهذا إسنادهم.

وقال الحاكم أبو عبد الله بن البيع: قد كنتُ دخلتُ الكوفة أول ما دخلتها سنة إحدى وأربعين وكان أبو الحسن بن عقبة الشيباني يدلني على مساجد الصحابة، فذهبت إلى مساجد كثيرة منها وهي إذ ذاك عامرة، وكنا نأوي إلى مسجد جرير بن عبد الله في بَجيلة.

ثم دخلتها سنة خمس وأربعين وثلاثمائة، ومسجد ابن عقبة قد خَرب، فكان أبو القاسم السكوني يأخذ بيدي في الجامع فيدور معي على الأسطوانات، فيقول: هذه أسطوانة جرير، وهذه أسطوانة عبد الله، وهذه أسطوانة البراء، وقد عرفتُ منها ما عرفنيه ذلك الشيخ رحمه الله[1]. اهـ.

أملى ثم قام:

قال الفلاَّس: ما رأيت أحداً أحفَظ من أبـي بكر بن أبـي شيبة، قدم علينا مع علي بن المديني، فسرد للشيباني أربعمائة حديث حفظاً ثم قام!

قال الذهبـي: كان أبو بكر بن أبـي شيبة بحراً من بحور العلم، وبه يضرب المثل في قوة الحفظ[2].

قال عبدان: كان أبو بكر يقعد عند الأسطوانة ــ أسطوانة ابن مسعود ــ وأخوه ومشكدانة وعبد الله بن البراد وغيرهم كلهم سكوت، إلاَّ أبا بكر فإنه يهدر[3].

---

(١) معرفة علوم الحديث ح ٤٩٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٢٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٢٤.

قلت: الثناء عليه كثير، وهو مترجم في الكمال وفروعه، وهو صاحب المصنف المشهور، الذي يدل على تبحره وسعة علمه وفقهه.

وقفات مع أبي عبد الله أحمد بن حنبل:

وللإمام أحمد بن حنبل رحمه الله معرفة تامة بالحديث النبوي، وحفظ باهر له، وهو من أعلام المسلمين المشهورين، وهذه نبذة من حفظه استخلصتها من الرسائل التي قدم بها العلامة القاضي الشرعي: أحمد شاكر رحمه الله لتحقيق المسند[١].

قال أبو الحسن اللبناني: سمعت عبد الله بن أحمد يقول: كتب أبي عشرة آلاف ألف حديث، ولم يكتب سواداً في بياض إلاَّ قد حفظه[٢].

قال عبد الله: سمعت أبا زرعة يقول: كان أبوك يحفظ ألف ألف حديث، قيل وما يدريك: قال: ذاكرته فأخذت عليه الأبواب[٣]. قال الذهبي: هذه حكاية صحيحة في سعة علم أبي عبد الله[٤].

ومن تاريخ الإسلام للذهبي[٥] حيث ذكر القصة السابقة ثم قال: وقال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول: حفظت كل شيء سمعته من هشيم وهشيم حي.

وقال عبد الرحمن بن أبي حاتم: قال سعيد بن عمرو البرذعي: يا أبا زرعة أنت أحفظ أم أحمد بن حنبل؟ قال: بل أحمد، قلت: وكيف

---

(١) وهي: خصائص المسند، لأبي موسى المديني، والمصعد الأحمد، لابن الجزري، وترجمة الإمام من تاريخ الإسلام، للذهبي.

(٢) خصائص المسند، للمديني ص ٦.

(٣) المصعد الأحمد ص ٢٠.

(٤) سير أعلام النبلاء ١١/ ١٨٧.

(٥) ص ٤٦.

علمت؟ قال: وجدت كتبه ليس في أوائل الأجزاء ترجمة أسماء المحدثين الذين سمع منهم، فكان يحفظ كل جزء ممن سمعه، وأنا لا أقدر على هذا.

وعن أبـي زرعة قال: حُزِرَت كتب أحمد يوم مات فبلغت اثني عشر حملاً وعدلاً، ما كان على ظهر كتاب منها (حديث فلان) ولا في بطنه (حدثنا فلان) وكل ذلك كان يحفظ على ظهر قلبه.

وقال الحسن بن منبه: سمعت أبا زرعة قال: أخرج إلي أبو عبد الله أجزاء كلها (سفيان) (سفيان) ليس على حديث منها حدثنا فلان، فظننتها عن رجل واحد، فانتخبت منها، فلما قرأ علي جعل يقول: حدثنا وكيع ويحيى حدثنا فلان، فعجبت من ذلك، وجهدت أن أقدر على شيء من هذا فلم أقدر.

قال الدورقي: عن أبـي عبد الله: نحن كتبنا الحديث من ستة وجوه، وسبعة، ولم نضبطه، فكيف يضبطه من كتبه من وجه واحد؟!

مذاكرة على باب المسجد:

قال قتيبة بن سعيد: كان وكيع إذا كانت العتمة ينصرف معه أحمد بن حنبل، فيقف على الباب فيذاكره، فأخذ وكيع ليلة بعضادتي الباب، ثم قال: يا أبا عبد الله: أريد أن ألقي عليك حديث سفيان، قال: هات، قال: تحفظ عن سفيان عن سلمة بن كهيل كذا؟ قال: نعم، حدثني يحيـى، فيقول: سلمة كذا وكذا، فيقول حدثنا عبد الرحمن، فيقول: وعن سلمة كذا وكذا، فيقول أنت حدثتنا حتى يفرغ من سلمة.

ثم يقول أحمد: فتحفظ عن سلمة كذا وكذا، فيقول وكيع: لا، ثم يأخذ في حديث شيخ شيخ، قال: فلم يزل قائماً حتى جاءت الجارية فقالت: قد طلع الكوكب، أو قالت: الزهرة.

قال المروذي: سمعت أبا عبد الله يقول: مات هشيم ولي عشرون سنة، فخرجت أنا والأعرابي رفيق كان لأبي عبد الله، قال: فخرجنا مشاة، فوصلنا الكوفة، يعني في سنة ثلاث وثمانين، فأتينا أبا معاوية وعنده الخلق، فأعطى الأعرابي حجة بستين درهماً، فخرج وتركني في بيت لوحدي، فاستوحشت، وليس معي إلاّ جراب فيه كتبي، كنت أضعه فوق لبنة وأضع رأسي عليه.

وكنت أذاكر وكيعاً بحديث الثوري، وذكر مرّة شيئاً فقال: هذا عند هشيم، فقلت: لا، وكان إذا صلى العشاء الآخرة خرج من المسجد إلى منزله فكنت أذاكره، فربما ذكر تسعة، عشرة أحاديث فأحفظها، فإذا دخل قال لي أصحاب الحديث: أملِ علينا، فأمليها عليهم[1].

قلت: هذا يسجل فيمن حفظ من سمعة واحدة، وهذا السياق أصح من سياق قتيبة بن سعيد، فإنَّ وكيعاً أثبت الناس في سفيان وكل حديث سفيان عند وكيع، وقد يكون الكبر قد أثر في وكيع، والله أعلم.

وقال عبد الله: قال لي أبي: خذ أي كتاب شئت من كتب وكيع، فإن شئت أن تسألني عن الكلام حتى أخبرك الإسناد، وإن شئت بالإسناد حتى أخبرك عن الكلام[2].

الديوان السامي:

قال مقيده: تمخض عن هذا الحفظ الباهر ـ الذي متّع به أحمد بن حنبل ـ مسند جليل عظيم من أحفل مسانيد الإسلام، وهو مسنده المنسوب إليه.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١١/١٨٦.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/١٨٦.

ولما أملاه قال لابنه: احتفظ بهذا المسند، فإنه سيكون للناس إماماً[1].

فكان كما قال، وكان كما وصف أبو عبد الله الذهبي (ديواناً سامياً) في قوله: فلعل الله تبارك وتعالى أن يقيض لهذا الديوان السامي من يخدمه ويبوب عليه، ويتكلم على رجاله، ويرتب هيئته ووضعه، فإنه محتو على أكثر الحديث النبوي، وقلّ أن يثبت حديث إلاَّ وهو فيه[2].

الإشادة بمسند أحمد:

قال أبو موسى المديني الحافظ: هذا الكتاب أصل كبير ومرجع وثيق لأصحاب الحديث، انتُقي من حديث كثير، ومسموعات وافرة، فجعله إماماً ومعتمداً، وعند التنازع ملجأً ومستنداً. . . عن حنبل بن إسحاق قال: جمعنا عمي لي ولصالح ولعبد الله وقرأ علينا المسند، وما سمعه منه يعني تاماً غيرنا، وقال لنا: إن هذا الكتاب قد جمعته وأتقنته من أكثر من سبعمائة وخمسين ألفاً، فما اختلف المسلمون فيه من حديث رسول الله ﷺ فارجعوا إليه فإنْ كان فيه وإلا فليس بحجة[3].

وذكر الأسدي قال: سمعت أبا بكر بن مالك يقول: رأيت أبا بكر أحمد بن سليمان النجاد في النوم، وهو على حالة جميلة فقلت: أي شيء كان خبرك؟ قال: كل ما تحب، فالزم ما أنت عليه وما نحن عليه، فإنّ الأمر هو ما نحن عليه وما أنتم عليه.

ثم قال: بالله إلاَّ حفظت هذا المسند، فهو إمام المسلمين، وإليه

---

(١) مناقب أحمد، لابن الجوزي ص ١٩١.

(٢) المصعد الأحمد ص ٢٣.

(٣) خصائص المسند ١/ ٥.

يرجعون، وقد كنت قديماً أسألك بالله إن أعَرتَ منه أكثر من جزء لمن تعرفه ليبقى[1].

الحاكم أبو عبد الله يقع في قلبه سماع المسند:

قال أبو بكر بن مردويه: كتب إلي أبو حازم العبدوي يذكر أنه سمع الحاكم أبا عبد الله عند منصرفه من بخارى يقول: كنت عند أبي محمد المزني فقدم عليه إنسان علوي من بغداد، وكان أقام في بغداد على كتابة الحديث، فسأله أبو محمد المزني ــ وذلك في سنة ست وخمسين وثلاثمائة ٣٥٦هـ ــ عن فائدته ببغداد وعن باقي إسناد العراق، فذكر في جملة ما ذكر: سمعت مسند أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى من أبي بكر بن مالك في مائة جزء وخمسين جزءاً.

فعجب أبو محمد المزني من ذلك، وقال: مائة وخمسون جزءًا من حديث أحمد بن حنبل، كنا ونحن بالعراق اذا رأينا عند شيخ من شيوخنا جزءًا من حديث أحمد بن حنبل قضينا العجب من ذلك، فكيف في هذا الوقت هذا المسند الجليل.

فعزم الحاكم على إخراج الصحيحين ولم يكن عنده مسند إسحاق الحنظلي ولا مسند عبد الله بن شيرويه ولا مسند أبي العباس السراج، وكان في قلبه ما سمع من أبي محمد المزني، فعزم على أن يخرج إلى الحج في

(١) خصائص المسند ص ٨.

قد قيل إن المسند على حفاوة العلماء به كاد يفنى ويضيع ولم تبق منه نسخة كاملة، اللّـٰهُمَّ إلاَّ قطع متناثرة هنا وهناك في مكتبات العالم الإسلامي، حتى قام بجمعه وتلفيقه محمد بن سالم البصري، وثمة نسخة كاملة من المسند في ثلاث مجلدات كبيرة في مكتبة الحرم المكي، أظنها هي نسخة هذا البصري، فالله أعلم.

موسم سنة سبع وستين ٣٦٧هـ، فلما ورد في سنة ثمان وستين أقام بعد الحج ببغداد أشهراً وسمع جملة المسند من أبي بكر بن مالك وعاد إلى وطنه، ومد يده إلى إخراج الصحيحين على تراجم المسند[١].

من حفظ المسند حفظ ما سواه من دواوين السنة:

وهذا الديوان السامي قد تجاوزت أحاديثه الثلاثين ألفاً، وهو مشتمل على عامة متون السنة، وما فاته إلَّا النزر اليسير بالنسبة لما يحتاجه المسلم في شئون دينه، ولكن لعظمته وصعوبة ترتيبه تهيب الناس اقتحام لجته.

فما كان ليقدم على النقل منه أو على تحقيق رواية فيه إلَّا فرد بعد فرد، وعامتهم ينقلون عن من قبلهم، ويقلدون في نسبة الحديث إليه من سبقهم.

قال العلامة أحمد شاكر: إلَّا بضعة رجال كانوا كأن المسند كله على أطراف ألسنتهم، كانوا يعرفونه حقاً، ولا أكاد أجزم بتسمية أحد من هؤلاء إلَّا ثلاثة: شيخ الإسلام أبو العباس تقي الدين بن تيمية، وتلميذاه الحافظان الكبيران شمس الدين ابن القيم، وعماد الدين بن كثير[٢].

---

(١) خصائص المسند ص ٥، قال أبو موسى: وفي هذه السنة مات ابن مالك في آخر السنة ثمان وستين، وأبو محمد المزني من كبار الحفاظ.

قال مقيده: كلمة وقعت في قلب الحاكم، بعثته بعد إحدى عشرة سنة على تجشم الرحلة إلى بغداد لأجل سماعه من أبي بكر بن مالك راويه عن عبد الله ابن الإمام أحمد.

وما طابت نفس أبي عبد الله بعد أن سمع كلمة شيخه أبي محمد المزني بتخريج المستدرك على الصحيحين حتى حصل سماع المسند، ومخرجه بغدادي، وزهد في مسانيد أخرى مخرجها من بلده، وما ذاك إلَّا لعظمة هذا المسند الحافل، وقد شحن الحاكم مستدركه بروايات منه، بحيث يمكن عده من موارد الحاكم في مستدركه.

(٢) مقدمة المسند ١/٦.

=

وقال أبو الخير ابن الجزري: حدثني شيخنا الإمام العالم شيخ الفقهاء شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الخطيب الشافعي رحمه الله تعالى قال: سئل الشيخ الإمام الحافظ أبو الحسين علي ابن الشيخ الإمام الحافظ الفقيه محمد اليونيني رحمهما الله تعالى: أنت تحفظ الكتب الستة؟ فقال: أحفظها وما أحفظها، فقيل له: كيف هذا؟ قال: أنا أحفظ مسند أحمد، وما يفوت المسند من الكتب الستة إلاَّ قليل.

أو قال: وما في الكتب هو في المسند يعنّي إلاَّ قليل، وأصله في المسند فأنا أحفظها بهذا الوجه[1].

أملى ألفين فأخطأ في ثلاثين:

وكان محدث بغداد أبو معمر إسماعيل بن إبراهيم الهذلي الهروي القطيعي ثقة ثبتاً ديِّناً، إذا أخطأ رجع إلى الصواب وانصاع له.

حدث أبو يعلى الموصلي قال: حدث أبو معمر بالموصل بنحو ألفي حديث من حفظه، فلما رجع إلى بغداد كتب إليهم بما أخطأ فيه نحو ثلاثين حديثاً[2].

الجوهري واسع الرواية جدًّا:

قال الحافظ ابن حجر: إبراهيم بن سعيد الجوهري البغدادي.. ثقة حافظ، تكلم فيه بلا حجة.

= وأكثرهم تعاملاً مع المسند ابن كثير، حتى يكاد يكون فرقه في تفسيره، وثمة آخرين لهم الإحاطة التامة بالمسند، من المتقدمين والمتأخرين، ولا تنس أن الحافظ ابن حجر رتب أسانيده على الأطراف في كتاب حافل سماه: إطراف المسند المعتلي بأطراف المسند الحنبلي.

(١) المصعد الأحمد ص ١٦.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٤٧١، ونحوه في طبقات الحفاظ ص ٢٠٨.

قلت: تكلم فيه من حيث سعة روايته، وما هذا بشيء، فكل ذي نعمة محسود، والذي يعلم حجة على من لا يعلم.

قال عبد الله بن جعفر بن خاقان: سألت إبراهيم بن سعيد عن حديث لأبي بكر رضي الله عنه فقال لجاريته: أخرجي لي الجزء الثالث والعشرون من مسند أبي بكر، فقلت: أبو بكر لا يصح له خمسون حديثاً فمن أين هذا؟ فقال: كل حديث لا يكون عندي من مائة وجه فأنا به يتيم[1]!

التَّنُوخي يملي أربعين ألفاً لا يخطىء منها في شيء:

هو الحافظ الناقد إسحاق بن بهلول بن حسان التَّنُوخي الأنباري.

قال ابنه: حدث أبي من حفظه بأربعين ألفاً ــ وفي رواية: بخمسين ألفاً ــ لم يخطىء في شيء منها[2].

ابن عميرة يحفظ سبعين ألفاً:

قال أبو عبد الله الذهبي رحمه الله تعالى في ترجمة محمد بن عميرة الجرجاني، نزيل هراة: بلغني أنه كان يحفظ سبعين ألف حديث[3].

البخاري إمام المحدثين:

ذكرت لأبي عبد الله البخاري قصة في الاختبار، وشأن أبي عبد الله أكبر من أن ينبه عليه بقصة أو قصتين، فقد كان رحمه الله عالماً بالحديث وعلله، مميزاً بين الصحيح والضعيف، وكتابه الصحيح شاهد على حفظه وإمامته.

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٥١٦، طبقات الحفاظ ص ٢٢٩.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/٥١٨، طبقات الحفاظ ص ٢٣٠.

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/٥٤٠.

سُمِع أبو عبد الله يقول: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، ومائتي ألف حديث غير صحيح.

وسئل الفضل بن العباس الرازي: أيهما أحفظ أبو زرعة أو محمد بن إسماعيل؟ فقال: لم أكن التقيت مع محمد بن إسماعيل فاستقبلني ما بين حلوان وبغداد، قال: فرجعت معه مرحلة وجهدت جهدي على أن أجيء بحديث لا يعرفه فما أمكنني، قال: وأنا أغرب على أبي زرعة عدد شعره[1].

أبو قلابة الرقاشي يحدث من حفظه:

وقد حدث أبو قلابة عبد الملك بن محمد الرقاشي بستين ألف حديث عن ظهر قلب، وَهِم منها في أشياء قليلة غفرت له في سعة ما روى. وكان جرير بن عبد الحميد يقول: ما رأيت أحفظ منه[2].

وتوفي سنة ٢٧٦هـ.

يفرق بين الواو والفاء:

قال ابن عُقْدَة: سمعت أحمد بن ملاعب يقول: ما أحدث إلاَّ بما أحفظه كحفظي للقرآن.

قال ابن عُقْدَة: ورأيته يفصل بين الفاء والواو[3].

قلت: إلى هذا المنتهى في التثبت والتحري في الرواية، وكان

---

(١) التقييد، لابن نقطة ١/ ١٢.
كذا قال الفضل: أغرب على أبي زرعة عدد شعره، ونكله إلى قوله، فما أبو زرعة بهذه المنزلة.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٨٠.

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/ ٥٩٥، طبقات الحفاظ ص ٢٧٠.

أحمد بن ملاعب بغدادياً ثقة، مشهوراً بالحفظ والمعرفة، توفي سنة ٢٧٥.

ما رأى أبو داود أحفظ منه:

وكان أبو داود معجباً بحفظ عبد الله بن محمد بن علي النفيلي.

قال أبو عبيد الآجري: قال أبو داود: ما رأيت أحفظ من النفيلي، قلت: ولا عيسى بن شاذان؟ قال: ولا عيسى بن شاذان، وكان الشاذكوني لا يقر لأحد في الحفظ إلاَّ للنفيلي، وكان أحمد إذا ذكره يعظمه.

قال أبو داود: وما رأينا له كتاباً قط، وكل ما حدثنا فمن حفظه..، كتب عنه أحمد وهو شاب.

قال أبو داود: أشهد علي أني لم أر أحفظ من النفيلي[١].

دابة عفان أم سِيفنة الطائر؟

وكان الحافظ ابن ديزيل يلقب: (دابة عفّان) لملازمته عفّان بن مسلم الصفار الحافظ الناقد الثقة الثبت.

جاء في بعض الأخبار الصحيحة أنه سمع من عفان حديث أبـي جمرة عن ابن عباس (يعني وفد عبد قيس) أكثر من أربعمائة مرة[٢]!

قال صالح بن أحمد: سمعت علي بن عيسى يقول: الإسناد الذي يأتي به ابن ديزيل لو كان فيه ألا يأكل (الخبز لوجب ألا يأكل) لصحة إسناده![٣].

---

(١) سؤالات أبـي عبيد ٢/ ٢٦٢.

(٢) وثمة آخر من المحدثين عرف بملازمة بعض شيوخه وإكثاره عنه، فلقب به، وهو الحافظ الرحالة عبد الصمد بن هارون القيسي (ت ٢٨٤)، كان يلقب قاتل قتيبة، وقتيبة: هو الحافظ الكبير قتيبة بن سعيد البغلاني شيخ أصحاب الكتب الستة. وإنما سمي قاتل قتيبة لأنه سمع عامة حديثه منه، والله أعلم.

(٣) تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٠٩، وما بين القوسين من طبقات الحفاظ ص ٢٧٤.

وابن ديزيل هو الحافظ الثقة الثبت إبراهيم بن الحسين الكسائي، له جزء مشهور، لقبه سِيفَنَّة لقب بذلك لكثرة نسخه الحديث، وكتابته إياه[1].

هجاء على طريقة المحدثين:

ومما يستملح ذكره، ما رواه الحاكم عن محمد بن إبراهيم بن تومرد الدامغاني قال: كنا في مجلس إبراهيم بن الحسين بن ديزيل الهمذاني، وكان يلقب بسيفنَّة، فتقدم إليه بعض الغرباء يسأله في أحاديث، فامتنع عليه فيها إبراهيم، فقال: إنْ حدثتني بهذه الأحاديث، وإلا هجوتك! فقال إبراهيم: كيف تهجوني؟ قال: أقول:

قـــائـــل مـــا لـــك فـــي رنـــة فقلـــت ذا مـــن فعـــل سيفنَّـــة

قال: فتبسم إبراهيم، وأجابه في تلك الأحاديث.

قال ابن تومرد: وإنما لقب.. بسِيفَنَّة لكثرة كتابته الحديث، بسِيفَنَّة طائر بمصر لا يقع على شجرة إلاَّ أكل ورقها، حتى لا يبقي منها شيئاً، وكذلك كان إبراهيم، إذا وقع إلى محدث لا يفارقه، حتى يكتب جميع حديثه[2].

في ضيافة إبراهيم بن عبد الله الكجي:

وكان أبو مسلم إبراهيم بن عبد الله بن مسلم الكجي حافظ البصرة، يملي أحاديثه على طالبيها دون مذاكرة أو مراجعة، ومع ذلك لم يعرف له خطأ.

---

(١) سيفنَّة: ضبطه في القاموس بكسر السين وفتح الفاء والنون المشددة، قال: طائر بمصر لا يقع على شجرة إلاَّ أكل جميع ورقها، ولقب... ابن ديزيل... لقب به لأنه إذا أتى محدثاً كتب جميع حديثه.

(٢) معرفة علوم الحديث ح ٥٣٥.

قال جعفر بن محمد الطبسي: كنا ببغداد عند أبـي مسلم الكجي فعرف أننا من أصحاب صالح جزرة الحافظ، فعظمه وقال: ألا تقولون سيد المسلمين؟ وأكرمنا وقال: ما تريدون؟ قلنا: أحاديث ابن عرعرة وحكايات الأصمعي، فأملى علينا عن ظهر قلب.

مجلس الكجي فاق الأربعين ألفاً:

ولأجل هذا الحفظ والإتقان ازدحم الطلاب على مجلسه.

فجاء في تاريخ أبـي بكر[1] عن أحمد بن جعفر الختلي قال:

لما قدم الكجي بغداد أملى في رحبة غسان فكان في مجلسه سبعة مستملين، يبلغ كل واحد منهم الآخر، ويكتب الناس عنه قياماً، ثم مسحت الرحبة، وحسب من حضر بمحبرة فبلغ ذلك نيفاً وأربعين ألف محبرة سوى النظارة[2].

قال الذهبـي: هذه حكاية ثابتة[3].

الحافظ المزّاح:

أما صالح جزرة الذي عظمه الكجيّ فهو الحافظ الناقد: صالح بن محمد بن حبيب الأسدي البغدادي (ت ٢٩٣هـ)، كان إمام عصره بلا مدافعة، مع دعابة غلبت عليه، فأصبح لا يعرف إلاَّ بها.

قال أبو سعيد الإدريسي: ما أعلم بالعراق ولا بخراسان في الحفظ مثله، دخل ما وراء النهر فحدث مدة من حفظه، وما أعلم أخذ عليه خطأً فيما

---

(١) تاريخ بغداد ٦/ ١٢٠.
(٢) التقييد ١/ ٢٢٢
(٣) تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٢١.

حدث، رأيت ابن عدي يفخم أمره ويعظمه[1].

قال أبو بكر الخطيب: حدث من حفظه دهراً طويلاً، ولم يكن استصحب معه كتاباً، وكان صدوقاً ثبتاً، ذا مزاح ودعابة، مشهوراً بذلك[2].

ومن دعاباته مع كبار الحفاظ: قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي يقول لأبي زرعة: حفظ الله أخانا صالح بن محمد البغدادي، لا يزال يضحكنا شاهداً وغائباً، كتب إلي أنه لما مات محمد بن يحيى الذهلي أجلس للتحديث شيخ لهم يعرف: بمحمش، فحدث أن النبي ﷺ قال: يا أبا عمير ما فعل البعير؟[3] وأن النبي ﷺ قال: لا تصحب الملائكة رفقة فيها خرس[4].

أبو عمرو الخفاف يذاكر وهو صائم:

قال الصبغي: كنا نقول إن أبا عمرو الخفاف يفي بمذاكرة مائة ألف حديث، وصام الدهر نيفاً وثلاثين سنة.

قال ابن خزيمة: لم يكن بخراسان أحفظ منه.

وهو أبو عمرو أحمد بن نصر الخفاف توفي سنة ٢٩٩، قال فيه السراج: ما رأيت أحفظ من أبي عمرو الخفاف، وكان يسرد الحديث سرداً حتى المقاطيع والمراسيل[5].

---

(١) طبقات الحفاظ ص ٢٨٦.

(٢) تاريخ بغداد ٩/ ٣٢٢.

(٣) الرواية: ما فعل النغير، وهو طائر صغير!

(٤) معرفة علوم الحديث ح ٣٧٦، والرواية (جرس) فصحف هذا الشيخ، وفي مصادر ترجمة صالح جزرة شيء نحو هذا كثير.

(٥) من تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٥٥ ـ ٦٥٦، وطبقات الحفاظ ص ٢٩٠.

جدد الرحلة ولا تضيع حديثاً:

كان أبو محمد عبد الله بن أحمد بن موسى الأهوازي ـ الملقَّب عبدان ـ رحالة في طلب الحديث، وعني بهذا الشأن أتم عناية، وجمع ما لم يجمع غيره. دخل البصرة ثماني عشرة مرة من أجل حديث أيوب السختياني، وحصل حفظاً عظيماً.

قال حمزة الكناني: سمعت عبدان يقول: دخلت البصرة ثمان عشرة مرة من أجل حديث أيوب السختياني، وجمعت ما لم يجمعه أصحاب الحديث، قال: وسمعته يقول: جمعت لبشر بن المفضل ستمائة حديث، من شاء يزيد علي[1].

قال أبو علي النيسابوري: كان عبدان يحفظ مائة ألف حديث، ما رأيت في المشايخ أحفظ منه[2].

حديث أيوب السختياني يجمع في جزء:

قال مقيده: ما غبن عبدان في دخوله البصرة هذه المرات الكثيرة من أجل جمع حديث أيوب، ومِن دأب أهل الحديث جمع أحاديث بعض الأعلام المكثرين كسفيان ومالك ونافع والزهري.. وأيوب أيضاً.

وقد كان أبو حامد ابن الشرقي أفرد حديث أيوب في جزء، قال ابن عدي: لم أر أحفظ ولا أحسن سرداً من أبـي حامد ابن الشرقي، كتبت جمعه لحديث أيوب السختياني، فكنت أقرأ عليه من كتابـي فيقرأ معي حفظاً من أوله إلى آخره[3].

---

(١) السير ١٤/ ١٧٠.

(٢) تذكرة الحفاظ ٢/ ٦٨٩.

(٣) الإرشاد، للخليلي ٣/ ٨٣٧.

ذهبت كتبه فأملاها من حفظه:

ذكر ابن أبي حاتم أن كتب الحافظ الكبير أبي بكر أحمد بن عمرو بن النبيل الشيباني الشهير بابن أبي عاصم ذهبت في فتنة الزنج عام ٢٢٥هـ، وقال: فلما ذهبت كتبه أعادها من حفظه، خمسين ألف حديث.

قال ابن الأعرابي: كان من حفاظ الحديث والفقه[١]، وتوفي سنة ٢٨٧هـ.

يسرد الحديث كسرد التلاوة:

من عجائب من أخرجت بغداد من الحفاظ أبو بكر محمد بن محمد الواسطي البغدادي الباغندي، قال أبو بكر الخطيب: بلغني أنّ عامة ما رواه حدَّث به من حفظه.

وكان يقول: أجبت في ثلاثمائة ألف مسألة في حديث النبي ﷺ.

قال اللالكائي: إن الباغندي كان يسرد الحديث من حفظه، ويهذه مثل تلاوة القرآن السريع القراءة، وكان يقول: حدثنا فلان، قال: حدثنا فلان، وحدثنا فلان، وهو يحرك رأسه حتى تسقط عمامته[٢].

يصلي بالحديث:

عمر بن شاهين قال: قام أبو بكر الباغندي ليصلي فكبر ثم قال: حدثنا محمد بن سليمان لُوين، فسبَّحنا به فقال: بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين[٣]!

---

(١) طبقات الحفاظ ٢/ ٢٨٥.

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ٢٠٩، السير ١٤/ ٣٨٤، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٣٧.

(٣) تاريخ بغداد ٣/ ٢١١.

فهذا حال من ذهب الحديث بلبه، وغلب على طبعه، يذهل الواحد منهم فيذهب لسانه إلى ما اعتاده من دهره، وستأتي لهذه الحادثة أخوات.

طريقة في الحفظ غريبة:

قال أبو العباس بن عقدة: سمعت داود بن يحيى يقول: الناس يقولون أبو زرعة وأبو حاتم في الحفظ، والله ما رأيت أحفظ من ابن قرطمة، دخلت عليه فقال لي: ترى هذه الكتب، خذ أيها شئت حتى أقرأ، قلت: كتاب الأشربة، فجعل يسرد من آخر الباب إلى أوله، حتى قرأه كله[1].

قلت: ابن قرطمة هو محمد بن علي البغدادي، كان آية في الحفظ، يعد من عجائب الدنيا في ذلك، توفي سنة ٢٩٠هـ.

السوداء في البيضاء:

قال أبو أحمد حسينك: سمعت إمام الأئمة أبا بكر يحكي عن علي بن خشرم عن ابن راهويه أنه قال: أحفظ سبعين ألف حديث. . فقلت لابن خزيمة: كم يحفظ الشيخ؟ فضربني على رأسي وقال: ما أكثر فضولك، ثم قال: يا بُني ما كتبت سوداء في بياض إلاَّ وأنا أعرفه!

قال أبو علي الحافظ: كان ابن خزيمة يحفظ الفقهيات من حديثه كما يحفظ القارىء السورة[2].

قلت: وفي صحيح ابن حبان قوله عن شيخه ابن خزيمة: ما رأيت على وجه الأرض من يحفظ صناعة السنن، ويحفظ ألفاظها الصحاح وزياداتها، حتى كأن السنن كلها بين عينيه إلاَّ محمد بن إسحاق بن خزيمة. . .

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ٦٦، تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٤٥، السير ١٤/ ٨٢.
(٢) السير ١٤/ ٣٧٢.

ابنا الخال إماما خراسان:

من محاسن الري، ومن مفاخر أهل الحديث فيها:

ابنا الخال أبو زرعة وأبو حاتم.

طلبا العلم جميعاً، وحصّلا من الحفظ والمعرفة ما تفرّدا به على أهل الزمان، وصارا شيخي خراسان.

قال يونس بن عبد الأعلى: أبو زرعة وأبو حاتم إماما خراسان، ودعا لهما. وقال: بقاؤهما صلاح للمسلمين[١].

قال علي بن إبراهيم الخطيب الرازي المجاور بمكة: كان أبو زرعة أبوه خال أبي حاتم، وكانا كالأخوين، ليس بينهما عداوة ولا شحناء ولا بغضاء كما يكون بين الناس[٢].

وهذه نبذ من حفظهما، وقطوف من معرفتهما، استلبتها مما كتبه تلميذهما عبد الرحمن بن أبي حاتم في تقدمة الجرح والتعديل[٣]، ومما كتبه ابن عساكر في تاريخ دمشق.

آية من الآيات:

قال يونس بن عبد الأعلى ـ سنة تسع وخمسين ومائتين ـ: وذكر أبا زرعة الرازي رحمه الله: أبو زرعة آية وإذا أراد الله أن يجعل عبداً من عباده آية جعله[٤].

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٣٤.

(٢) تاريخ دمشق ٥٢/ ١٠.

(٣) الجرح والتعديل ١/ ٣٢٨، فما بعد.

(٤) تاريخ دمشق ٣٨/ ١٨.

كتاب ابن راهويه إلى أبي زرعة:

. . . إني أزداد بك كل يوم سروراً، فالحمد لله الذي جعلك ممن يحفظ سنته، وهذا من أعظم ما يحتاج إليه طالب العلم اليوم[1]. وأحمد بن إبراهيم لا يزال في ذكرك الجميل حتى يكاد يفرط، وإن لم يكن فيك بحمد الله إفراط. . . وإني أسمع من إخوانك القادمين مَا أنت عليه من العلم والحفظ فأسر بذلك.

غلام حافظ:

محمد بن إسحاق الثقفي قال: لما انصرف قتيبة بن سعيد إلى الري سألوه أن يحدثهم فامتنع، وقال: أحدثكم بعد أن حضر مجلسي أحمد بن حنبل ويحيى بن معين، وعلي بن المديني، وأبو بكر بن أبي شيبة، وأبو خيثمة؟ فقالوا له: فإنّ عندنا غلاماً يسرد كل ما حدثت به، مجلساً مجلساً، قم يا أبا زرعة، فقام أبو زرعة فسرد كل ما حدث به قتيبة، فحدثهم قتيبة[2].

علّة قلّ من يعرفها:

سعيد البرذعي عن محمد بن يحيى النيسابوري قال: لا يزال المسلمون بخير ما أبقى الله عزَّ وجلّ لهم مثل أبي زرعة، وما كان الله عزَّ وجلّ ليترك الأرض إلاَّ وفيها مثل أبي زرعة، يعلم الناس ما جهلوه.

ثم جعل يعظم على جلسائه خطر ما حكى له من علة حديث ابن إسحاق عن الزهري عن عروة عن عائشة عن النبي ﷺ قال: «ركعتان بسواك أفضل من سبعين ركعة بغير سواك».

---

(١) فكيف اليوم، والجهل أكثر والعلم أقل؟ سبحانك فعلّمنا يا رب.

(٢) معرفة علوم الحديث ح ١٦٠.

قال سعيد: وكنت حكيت له عن أبـي زرعة أن محمد بن إسحاق اصطحب مع معاوية بن يحيـى الصدفي من العراق إلى الري، فسمع منه هذا الحديث في طريقه.

وقال ـ يعني ابن يحيـى ـ لم أستفد منذ دهر علماً أوقع عندي ولا آثر من هذه الكلمة، ولو فهمتم عظيم خطرها لاسْتَحْلَيتموه كما استَحْلَيْتُه، وجعل يمدح أبا زرعة بكلام كثير..

قال الحافظ المعلمي رحمه الله في تعليقه على الجرح والتعديل[1]: الحديث رواه ابن إسحاق عن الزهري، وكان محمد بن يحيـى قد جمع حديث الزهري وشرح علله، فاستنكر هذا الحديث، ولم تتبين له علة، فلما بلغه عن أبـي زرعة هذا الكلام سر به لأنه بين أن ابن إسحاق إنما سمعه من الصدفي فدلسه على عادته، والصدفي تالف.

قلت: لأبـي زرعة القدح المعلى في معرفة العلل وآفات الحديث، وهو مع أبـي حاتم فرسي رهان في هذا الباب، وفي غيره من أبواب المعرفة، وقد أودعا علمهما التلميذ النجيب الورع التقي شيخ الإسلام عبد الرحمن بن أبـي حاتم، ونعم المستودع هو، فصان هذا العلم وأودعه كتابه الحافل: العلل..

وهذه العلة قلّ من يعرفها، فقد خفيت على مختص بعلل أحاديث الزهري، وهو ابن يحيـى، بل فاتت على إمام الأئمة ابن خزيمة فذكر الحديث في الصحيح، وهذا فضل الله يؤتيه من يشاء، وفوق كل ذي علم عليم.

وقريب من إغراب أبـي زرعة على محمد بن يحيـى فيما اختص بجمعه

---

(١) ١/ ٣٣٠.

والعناية به ما وقع له مع أبـي حاتم.

قال أبو حاتم: قدم محمد بن يحيـى النيسابوري الري، فألقيتُ عليه ثلاثة عشر حديثاً من حديث الزهري، فلم يعرف منها إلاَّ ثلاثة أحاديث، وسائر ذلك لم يكنِ عنده، ولم يعرفها[1].

هذا مع تقدم ابن يحيـى في الزهريات، وتبجحه بذلك بين الحفاظ.

وكان أبو زرعة رحمه الله كثيراً ما يراسله الإمام أحمد بن حنبل، ويستعد للقياه، ويتذاكران الحديث، بالرغم من حداثة سن أبـي زرعة رحمه الله، وكان أحمد يجله ويُقبل عليه.

قال أبو زرعة: سمعت أحمد بن حنبل وذكر عن عبد الله بن واقد، عن عكرمة بن عمار، عن الهرماس قال: رأيت النبـي ﷺ يصلي على راحلته نحو الشام..

فقال أحمد: ما ظننت أن الهرماس روى عن النبـي صلى الله عليه سوى حديث العضباء حتى جاء أبو قتادة ــ يعني عبد الله بن واقد ــ بهذا الحديث، قلت له: وههنا حديث آخر سوى هذين، قال: ما هو؟ قلت: حدثنا عمرو بن مرزوق عن عكرمة بن عمار، عن الهرماس قال: سلمت على النبـي ﷺ فمد يده، قال أبو زرعة: فسكت ولم ينكره.

وصف مجلس أبـي زرعة:

قال أبو محمد بن أبـي حاتم: كان أبو زرعة قلَّ يوم إلاَّ يخرج معه إلى المسجد كتابين أو ثلاثة كتب، لكل قوم كتابهم الذي سألوا فيه، فيقرأ على كل قوم ما يتفق له القراءة من كتاب، ثم يقرأ للآخر كتابه الذي قد سأل فيه أوراق، ثم يقرأ للثالث كمثل ذلك.

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٥٨.

فإذا رجعوا أولئك في يومهم يكون قد أخرج معه كتابهم فيجيء إلى الموضع الذي كان قرأ عليهم إلى ذلك المكان فيبتدىء، فيقرأ من غير أن يسألهم: إلى أين بلغتم؟ وما أول مجلسكم؟ فكان ذاك دأبه كل يوم لا يستفهم من أحد منهم أول مجلسه، وهذا بالغداة وبالعشي كمثل، ولا أعلم أحداً من المحدثين قدر على هذا.

شيء من حفظه:

قال أبو زرعة: قعدت إلى أبي الوليد يوماً فحملت عنه ثمانية عشر حديثاً، وحدثنا مذاكرة من غير أن كتبت منه حرفاً وحفظت عنه كله.

أحمد بن محمد بن الحسن العطار يذكر عنّ محمد بن أحمد بن جعفر الصيرفي، نا أبو جعفر أحمد بن محمد بن سليمان التستري قال: سمعت أبا زرعة يقول: إن في بيتي ما كتبته منذ خمسين سنة ولم أطالعه منذ كتبته، وإني أعلم في أي كتاب هو، في أي ورقة هو، في أي صفحة هو، في أي سطر هو.

قال: وسمعت أبا زرعة يقول: ما سمع أذني شيئاً من العلم إلاَّ وعاه قلبي، وإني كنت أمشي في سوق بغداد فأسمع من الغرف صوت المغنيات، فأضع أصبعي في أذني مخافة أن يعيه قلبي[1].

عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: حضر عند أبي زرعة محمد بن مسلم والفضل بن العباس المعروف بالصايغ فجرى بينهما مذاكرة، فذكر محمد بن مسلم حديثاً، فأنكر فضلك الصايغ، فقال: يا أبا عبد الله ليس هكذا هو، فقال: كيف هو؟ فذكر رواية أخرى، فقال محمد بن مسلم: بل الصحيح ما قلتُ، والخطأ ما قلتَ، قال فضلك: فأبو زرعة الحاكم بيننا.

(١) تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٤.

فقال محمد بن مسلم لأبي زرعة: أيش يقول، أيُّنا المخطىء؟ فسكت أبو زرعة ولم يجب، فقال محمد بن مسلم: ما لك تسكت؟ تكلم، فجعل أبو زرعة يتغافل، فألح عليه محمد بن مسلم وقال: لا أعرف لسكوتك معنى، إنْ كنتُ أنا المخطىء فأخبر، وإن كان هو المخطىء فأخبر.

فقال أبو زرعة: هاتوا أبا القاسم ابن أخي فدعي به، فقال: اذهب فادخل بيت الكتب، فدع القمطر الأول والقمطر الثاني والقمطر الثالث، وعدَّ ستة عشر جزءًا، وائتني بالجزء السابع عشر، فذهب فجاءنا بالدفتر، فدفعه إليه، فأخذ أبو زرعة فتصفح الأوراق وأخرج الحديث، ودفعه إلى محمد بن مسلم، فقرأه محمد بن مسلم، فقال: نعم، غلطنا، فكان ماذا؟[1].

أبو زرعة لا يُختبر:

قال أبو زرعة: سمعت من بعض المشايخ أحاديث فسألني رجل من أصحاب الحديث، فأعطيته كتابي فرد علي الكتاب بعد ستة أشهر، فأنظر في الكتاب فإذا إنه قد غير في سبعة مواضع، قال أبو زرعة: فأخذت الكتاب وصرت إلى عنده، فقلت: ألا تتقي الله، تفعل مثل هذا؟ قال أبو زرعة: فأوقفته على موضع موضع، وأخبرته، وقلت له: أما هذا الذي غيرت، فإنه هذا الذي جعلت عن ابن أبي فديك فإنه عن أبي ضمرة مشهور، وليس هذا من حديث ابن أبي فديك، وأما هذا فإنه كذا وكذا، فإنه لا يجيء عن فلان وإنما هذا كذا، فلم أزل أخبره حتى أوقفته على كله.

ثم قلت لَه: فإني حفظت جميع ما فيه في الوقت الذي انتخبت على الشيخ، ولو لم أحفظه لكان لا يخفى علي مثل هذا، فاتق الله عزَّ وجلّ يا رجل.

---

(١) تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٤.

قال أبو محمد: فقلت له من ذلك الرجل الذي فعل هذا؟ فأبى أن يسميه.

قال أبو محمد: وسمعت أبا زرعة يقول: دفعت كتاب الصوم إلى رجل بغدادي فرد علي، فإذا أنه قد غير حرفاً من الإسناد على جهته، قال أبو زرعة: فتعجبت منه، فقلت في نفسي: سبحان الله من يريد أن يفعل هذا بي؟ أي شيء يظن؟ وقلت في نفسي: إنه يظن أنه عمل شيئاً[1].

لا يغلب في المذاكرة:

أبو عثمان سعيد بن عمرو قال: سمعت أبا زرعة الرازي يقول: دخلت البصرة فصرت إلى سليمان الشاذكوني يوم الجمعة، وهو يحدث، وهو أول مجلس جلست إليه، فقال: حدثنا يزيد بن زريع عن محمد بن إسحاق، عن عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن جابر، عن النبي قال: ما من رجل يموت له ثلاثة من الولد فتمسه النار إلَّا تحلَّة القسم، فقلت للمستملي: ليس هذا من حديث عاصم بن عمر، إنما هذا رواه محمد بن إبراهيم، فقال له: فرجع إلى محمد بن إبراهيم.

قال: وذكر في هذا المجلس أيضاً، فقال: حدثنا ابن أبي غنية عن أبيه عن سعد بن إبراهيم عن نافع بن جبير عن أبيه أنه قال: لا حلف في الإسلام، فقال: هذا وهم أوهم فيه إسحاق بن سليمان، وإنما هو سعد بن إبراهيم عن أبيه عن جبير، قال: من يقول هذا؟ قلت: حدثنا إبراهيم بن موسى الفراء، نا ابن أبي غنية عن أبيه، عن سعد بن إبراهيم، عن أبيه، عن جبير.

قال: فغضب ثم قال لي: ما تقول فيمن جعل الأذان مكان الإقامة؟ قلت: يعيد، قال: من قال هذا؟ قلت: الشعبي، قال: من عن الشعبي؟

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٣٣.

قلت: حدثنا قبيصة عن سفيان عن جابر عن الشعبي، قال: ومن غير هذا؟ قلت: إبراهيم، قال: من عن إبراهيم؟ قلت: نا أبو نعيم، نا منصور بن أبي الأسود، عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: أخطأت، قلت: حدثنا أبو نعيم، أنا أبو كدينة عن مغيرة، عن إبراهيم، قال: أصبت.

قال أبو زرعة: كتبت الأحاديث الثلاثة عن أبي نعيم، فما طالعتها منذ كتبتها، فاشتبه عليّ.

ثم قال: وأي شيء غير هذا؟ قلت: معاذ بن هشام عن أشعث، عن الحسن، قال: هذا سرقته مني، وصدق؛ كان ذاكرني به رجل ببغداد فحفظته عنه.

قال محمد بن عبد الله الحافظ:

سمعت أبا عبد الله محمد بن العباس الضبي يقول: سمعت أبا الفضل ابن إسحاق بن محمود يقول: سمعت صالح جزرة يقول: قال لي أبو زرعة الرازي: مر بنا سليمان الشاذكوني يوماً حتى نذاكره، قال: فذهبنا إليه فما زال يذاكره حتى عجز الشاذكوني عن حفظه، فلما أعياه الأمر ألقى عليه حديثاً من حديث الرازيين، فلم يعرفه أبو زرعة، فقال الشاذكوني: يا سبحان الله ألا تحفظ حديث بلدك، هذا حديث مخرجه من عندكم ولا تحفظه؟! وأبو زرعة ساكت، والشاذكوني يُخجله، ويُري من حضر أنه قد عجز عن الجواب.

فلما خرجا رأيت أبو زرعة قد اغتم، ويقول: لا أدري من أين جاء بهذا الحديث؟

فقلت له: إنه وضعه في الوقت كي لا يمكنك أن تجيب عنه فتخجل، فقال أبو زرعة: هكذا! قلت: نعم، فسُري عنه[1].

---

(١) تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٥.

يحفظ ما حدث به وما لم يحدث به:

قال عبد الرحمن: وسمعت أبا زرعة يقول ودفع إليه رجل حديثاً فقال: اقرأ، فلما نظر في الحديث قال: من أين لك هذا؟ قال: وجدته على ظهر كتاب ليوسف الوراق، قال أبو زرعة: هذا الحديث من حديثي غير أني لم أحدث به، قيل له: وأنت تحفظ ما حدثت به مما لم تحدث به؟ قال: بلى، ما في بيتي حديث إلاَّ وأنا أفهم موضعه.

اشدد حيازيمك للموت:

من هيبة أبي زرعة في قلوب المشايخ وتخوفهم منازلته ما جاء في ترجمة ابن بنت شرحبيل بن مسلم، سليمان بن عبد الرحمن التميمي الحافظ الصدوق (ت ٢٣٣هـ) فقد اعتزل أياماً في مقصورته يستعد للقاء أبي زرعة.

قال أبو إسحاق الجوزجاني: لم يأذن لنا سليمان ابن بنت شرحبيل أياماً، فلما دخلنا، قال: بلغني ورود هذا الغلام الرازي ــ يعني أبا زرعة ــ فدرستُ للقائه ثلاثمائة ألف حديث[١]!

وكان لما ورد على أحمد بن حنبل يستعيض أحمد بمذاكرته عن جملة النوافل، وكتب عنه الحديث، وصحح عليه بعض ما أوهم فيه، وبيان ذلك في تاريخ دمشق.

وكان أحمد يقول: صح من الحديث سبع مائة ألف حديث وكسر، وهذا الفتى ــ يعنى أبا زرعة ــ قد حفظ ستمائة ألف حديث[٢].

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٤٣٨.

(٢) تاريخ دمشق ٣٨/ ٢٠.

تصحيح من وراء الباب:

قال أبو زرعة: أتينا أبا عمر الحوضي وقد دخل قوم عليه وهو يحدثهم، وأنا وأبو حاتم وجماعة منا خارج نتسمع، فوقع في مسامعنا وهو يقول: حدثنا جرير بن حازم عن مجالد، عن الشعبي، عن النعمان بن بشير، عن النبي ﷺ: إني مكاثر بكم الأمم.

فصحنا من وراء الباب فقلنا: يا أبا عمر هذا عن جابر، فقال: صدقتم، ادخلوا.

يمين طلاق:

ومن تاريخ دمشق: قال أبو يعلى أحمد بن علي بن المثنى الموصلي: رحلتُ إلى البصرة للقاء المشايخ، أبي الربيع الزهراني وهدبة بن خالد وسائر المشايخ، فبينا نحن قعود في السفينة فإذا أنا برجل يسأل رجلاً، فقال: ما تقول رحمك الله في رجل حلف بطلاق امرأته ثلاثاً إنك تحفظ مائة ألف حديث، فأطرق رأسه ملياً، ثم رفع، فقال: اذهب يا هذا وأنت بارٌّ في يمينك، ولا تعد إلى مثل هذا، فقلت: من هذا الرجل؟ فقيل لي: أبو زرعة الرازي، كان يتحدر معنا إلى البصرة.

أبو العباس محمد بن جعفر بن حمكويه قال: سئل أبو زرعة الرازي عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مائتي ألف حديث، هل حنث؟ فقال: لا، ثم قال أبو زرعة: أحفظ مائتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾، وفي المذاكرة ثلاثمائة ألف حديث.

عبد الله بن عدي قال: سمعت أبي عدي بن عبد الله يقول: كنت بالري وأنا غلام في البزازين، فحلف رجل بطلاق امرأته أن أبا زرعة يحفظ مائة ألف حديث، فذهب قوم إلى أبي زرعة بسبب هذا الرجل، هل طلقت

امرأته أم لا؟ فذهب معهم، فذكر لأبـي زرعة ما ذكر الرجل، فقال: ما حمله على ذلك؟ فقيل له: قد جرى الآن منه ذلك، فقال أبو زرعة: قل له يمسك امرأته، فإنها لم تطلق عليه، أو كما قال[1].

هكذا يموت الحفاظ:

قال أبو حاتم: مات أبو زرعة مطعوناً مبطوناً بعرق جبينه في النزع، فقلت لمحمد بن مسلم: ما تحفظ في تلقين الميت؟ فقال: يروى عن معاذ بن جبل، فمن قبل أن يستتم رفع أبو زرعة رأسه وهو في النزع، فقال: روى عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبـي عريب عن كثير بن مرة، عن معاذ، عن النبـي ﷺ: من كان آخر كلامه لا إلـٰه إلاَّ الله دخل الجنة، فصار البيت ضجة ببكاء من حضر[2].

---

(١) تاريخ دمشق ٣٨/١٩.

(٢) الجرح والتعديل ١/٣٤٦.

وإنما ضج البيت بالبكاء لأن أبا زرعة مات عقبها، رحمه الله.

وللقصة إسناد آخر عند الحاكم في المعرفة ح ١٦١، قال الحاكم: سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله الوراق بالري يقول: سمعت إسحاق بن محمد بن علي السَّاويّ وراق أبـي زرعة يقول: حضرتُ أبا زرعة بماشَهْرَان، وكان في السَّوْق، وعنده أبو حاتم ومحمد بن مسلم بن وارة والمنذر بن شاذان وجماعة من العلماء، فذكروا قول النبـي ﷺ: «لقِّنوا موتاكم لا إلـه إلاَّ الله»، فاستحيوا من أبـي زرعة، وقالوا: تعالوا نذكر الحديث، فقال أبو عبد الله بن وارة: حدثنا الضحاك بن مخلد أبو عاصم قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح وجعل يقول ابن أبـي ولم يجاوز، وقال أبو حاتم: حدثنا بندار قال: حدثنا أبو عاصم، حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح ولم يجاوزه، والباقون سكتوا.

فقال أبو زرعة: ــ وهو في السَّوْق ــ حدثنا بندار قال: حدثنا أبو عاصم قال: حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن صالح بن أبـي عَرِيب عن كثير بن مُرّة الحضرمي =

عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: سمعت أحمد بن إسماعيل ابن عم أبي زرعة يقول: سمعت أبا زرعة يقول في مرضه الذي مات فيه: اللَّـٰهُمَّ إني اشتاق إلى رؤيتك، فإن قال لي: بأي عمل اشتقت إليّ؟ قلت: برحمتك يا ربّ!.

لئن كان أبو زرعة في هذا التأدب مع ربه، والافتقار إليه، والتذلل بين يديه، وهو الذي قطع الأرض راجلاً في طلب الحديث، وأنفق عمره في الدفاع عن سنة أبي القاسم ﷺ، لم يحمله كل ذلك على أن يدل بعمله، ولا أن يغتر بنفسه، فما عسى يقوله المعثرون أمثالنا من أبناء هذا الزمان؟

فاللَّـٰهُمَّ ربنا أنت غني عن تعذيبنا، لئن لم ترحمنا وتغفر لنا لنكونن من الخاسرين.

مبشرات لأبي زرعة:

قال الحافظ الثقة محمد بن مسلم بن وارة: رأيت أبا زرعة رحمه الله في المنام، فقلت: ما فعل بك ربك؟ قال: قرَّبني وأدناني، وقرَّبني وأدناني، حتى هكذا، وأومأ بيده، ثم قال لي: يا عُبيد الله تدرعت بالكلام؟ قلت: إنهم حاولوا دينك، قال: ألحقوه بأبي عبد الله وأبي عبد الله وأبي عبد الله.

قال ابن وارة: فوقع في نفسي في النوم أن أبا عبد الله سفيان الثوري، وأبا عبد الله مالك بن أنس، وأبا عبد الله أحمد بن حنبل[1].

وفي تاريخ دمشق جملة نحو هذا.

= عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: من كان آخر كلامه لا إله إلاّ الله دخل الجنة، ومات رحمه الله.

(١) الجرح والتعديل ١/٣٤٦.

تأبين أبي زرعة:

قال أبو حاتم الرازي: لم يكن في أمة من الأمم منذ خلق الله آدم أمناء يحفظون آثار الرسل إلاَّ في هذه الأمة، فقال له رجل: يا أبا حاتم، ربما رووا حديثاً لا أصل له، ولا يصح، فقال: علماؤهم يفرقون الصحيح من السقيم، فروايتهم ذلك للمعرفة، ليتبين لمن بعدهم أنهم ميزوا الآثار وحفظوها.

ثم قال: رحم الله أبا زرعة، كان والله مجتهداً في حفظ آثار رسول الله.

قلت: بقي كثير نحو هذا في تاريخ دمشق تركته إيثاراً للاختصار، وبالجملة فهو أحد أركان الحديث في هذه الأمة، يصنف مع الدارقطني في المنزلة.

أغرب عليه يتصدق بدرهم:

قال ابن أبي حاتم: سمعت أبي رحمه الله يقول: قلت على باب أبي الوليد الطيالسي: من أغرب عليَّ حديثاً مسنداً صحيحاً لم أسمع به فله علي درهم يتصدق به، وقد حضر على باب أبي الوليد خلق، من الخلق أبو زرعة فمن دونه، وإنما كان مرادي أن يُلقى علي ما لم أسمع به، فيقولون: هو عند فلان فأذهب فأسمع، وكان مرادي أن أستخرج منهم ما ليس عندي.

فما تهيأ لأحد منهم أن يغرب عليَّ حديثاً.

ما أقل من يحسن هذا:

قال مقيده: لم يكن يشفي أبا حاتم في المذاكرة غير أبي زرعة، وكذلك أبو زرعة، فكأنَّ الله خلقهما لهذا الشأن.

قال أبو حاتم: جرى بيني وبين أبي زرعة يوماً تمييز الحديث ومعرفته، فجعل يذكر أحاديث ويذكر عللها، وكذلك كنت أذكر أحاديث

خطأ عللها وخطأ الشيوخ، فقال لي: يا أبا حاتم قلَّ من يفهم هذا، ما أعزَّ هذا، إذا رفعت هذا من واحد واثنين[1] فما أقل من تجد من يحسن هذا.

وربما أشك في شيء أو يتخالجني شيء في حديث فإلى أن ألتقي معك لا أجد من يشفيني منه، قال أبو حاتم: وكذلك أمري[2].

مذاكرة:

صالح بن أحمد بن محمد الحافظ قال: حدثنا القاسم بن أبي صالح قال: سمعت أبا حاتم يقول: قال لي أبو زرعة: ترفع يديك في القنوت؟ قلت: لا، فقلت له: فترفع أنت؟ قال: نعم، فقلت: ما حجتك؟ قال: حديث ابن مسعود، قلت: رواه ليث بن أبي سليم، قال: حديث أبي هريرة، قلت: رواه ابن لهيعة، قال: حديث ابن عباس، قلت: رواه عوف.

قال: فما حجتك في تركه؟ قلت: حديث أنس أن رسول الله كان لا يرفع يديه في شيء من الدعاء إلاَّ في الاستسقاء، فسكت[3].

ويحفظ التفسير:

فاق أبو حاتم أهل زمانه في الحفظ والمعرفة، وكان كثيراً ما يغرب على ذوي الاختصاص في اختصاصهم، كما مر من شأنه مع محمد بن يحيى الحافظ.

وقال أبو حاتم: كان محمد بن يزيد الأسفاطي يحفظ التفسير، وولع به، وكان يلق عليَّ وعلى أبي زرعة التفسير، فإذا ذاكرته بشيء لا يحفظه، قال: يا بني أفدني.

---

(١) يريد أبو زرعة نفسه وأبا حاتم.

(٢) الجرح والتعديل ١/٣٥٦.

(٣) تاريخ دمشق ١٥/٥٢.

قال لنا يوماً: ما تحفظون في قول الله عزَّ وجلّ: ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾، فبقي أصحاب الحديث ينظر بعضهم إلى بعض، فقلت أنا: حدثنا أبو صالح عن معاوية، عن ابن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله عزَّ وجلّ: ﴿ فَنَقَّبُواْ فِي ٱلْبِلَٰدِ ﴾، قال: ضربوا في البلاد، فاستحسن[1].

قلت: هذا الأثر من صحيفة علي بن أبي طلحة في التفسير، وهي صحيفة تقع في مجلد، وكان أبو حاتم يحفظها.

سؤال مختبر أم متعلم:

قال أبو حاتم: قال لي هشام بن عمار: أي شيء تحفظ عن الأذواء؟ قلت له: ذو الأصابع، وذو الجوشن، وذو الزوائد، وذو اليدين، وذو اللحية الكلبي، وعددت لَه ستة، فضحك، وقال: حفظنا نحن ثلاثة وزدتنا أنت ثلاثة!

اتخذ نعلاً من حديد[2]:

لأبي حاتم رحلة طويلة، تعرض فيها لأنواع من الأهوال، ولأصناف من الخطوب، ولم أشأ تخلية هذا الموضع دون تعريج على رحلته ـ وإن لم تكن من مقصودنا ـ لعظمها وطولها، وليعلم القارىء أنه ما نال هذه النهاية المشرقة إلاَّ ببداية محرقة، وكد في الطلب، واجتهاد فيه.

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٥٧.

(٢) هذه العبارة مقتبسة من قول الصاحب الجليل العالم الحافظ عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: قل لصاحب العلم يتخذ نعلاً من حديد، رواه الحاكم في المعرفة ح ١٧.

قال أبو حاتم: أول سنة خرجت في طلب الحديث أقمت سبع سنين أحصيت ما مشيت على قدمي زيادة على ألف فرسخ، ولم أزل أحصي حتى لما زاد على ألف فرسخ تركته.

وما كنت سرت أنا من الكوفة إلى بغداد فما لا أحصي كم مرة، ومن مكة إلى المدينة مرات كثيرة، وخرجت من البحرين من قرب مدينة صلا إلى مصر ماشياً، ومن مصر إلى الرملة ماشياً، ومن الرملة إلى بيت المقدس، ومن الرملة إلى عسقلان، ومن الرملة إلى طبرية، ومن طبرية إلى دمشق، ومن دمشق إلى حمص، ومن حمص إلى أنطاكية، ومن أنطاكية إلى طرسوس، ثم رجعت من طرسوس إلى حمص، وكان بقي عليّ شيء من حديث أبي اليمان، فسمعت ثم خرجت من حمص إلى بَيْسان ومن بيسان إلى الرقة، ومن الرقة ركبت الفرات إلى بغداد، وخرجت قبل خروجي إلى الشام من واسط إلى النيل ومن النيل إلى الكوفة، كل ذلك ماشياً.

كل هذا في سفري الأول وأنا ابن عشرين سنة أجول سبع سنين!

خرجت من الري سنة ثلاث عشرة ومائتين، قدمنا الكوفة في شهر رمضان سنة ثلاث عشرة والمقرىء حي بمكة، وجاءنا نعيه ونحن بالكوفة، ورجعت سنة إحدى وعشرين ومائتين.

وخرجت المرة الثانية سنة اثنتين وأربعين، ورجعت سنة خمس وأربعين، أقمت ثلاث سنين.

وقدمت طرسوس ــ يعني في رحلته الأولى ــ سنة سبع عشرة أو ثماني عشرة، وكان واليها الحسن بن مصعب، وكنت تنظر إلى الحسن كأنه محدث، أحمر الرأس واللحية، عليه قلنسوة حبرة، وكنت أشبهه بسُنَيد بن داود، وربما رأيت الوالي فأظن أنه سُنَيد، وربما اجتمعا فلا أميز

بينهما، وفي هذه السنة فتحت لؤلؤة وأنا بطرسوس[1].

قلت: وفي سنة ٢١٤هـ أملق أبو حاتم في البصرة، فباع ثياب بدنه، وأنفق ذلك في الطواف على المشيخة، وبقي ليومين بلا طعام، حتى فطن له رفيقه، فواساه بنصف درهم كان معه.

ولما خرجوا من المدينة من عند داود الجعفري ركب هو وأبو زهير المروذي وآخر البحر، فهاجت بهم الريح وبقوا ثلاثة أشهر على غير هدى، فخرجوا إلى البر، وفني ما معهم من زاد، فلما كانت بعد ثلاث سقط أبو زهير من الجوع، وأكمل الرجلان، ثم سقط أبو حاتم مغشياً عليه، وأكمل النيسابوري حتى لاح له قوم في مركب جاءوا ليستقوا من بئر موسى عليه السلام، فأشار لهم فأتوه وسقوه، وأرسلوا إلى أبي حاتم وأبي زهير من يسعفهم، وبقوا أياماً حتى عادت لهم أنفسُهم.. في قصة ساقها ابنه[2].

وجعلها الشيخ عبد الفتاح أبو غدة ختام كتابه: الصفحات..

قال مقيده: كاد أبو حاتم يتلف، وتزهق روحه، لولا أن تداركته العناية الربانية فأوصلته مصر سالماً، ولم يتب الرجل بعدها، وإنما استأنف رحلاته راجلاً على مدى عشر سنين، اتخذ فيها التطواف راحلة، حتى كأنه وكل بأرض الله يذرعها شبراً، وهكذا فلتكن الهمة، فرحمه الله على ما بذل، ورحمه على ما قدَّم، وما كان لينال ما تمنى، لولا أنه تعب وتعنَّى.

على فراش الموت:

قال ابن أبي حاتم: باب ما ظهر لأبي من سيد عمله عند وفاته:

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٠، وكان فتح لؤلؤة سنة ٢١٧، أفاده الطبري في تاريخه ٣/ ١١٠٩ ـ من تعليقة المعلمي ـ فيكون دخوله إلى طرسوس سنة ١٧ لا ١٨.

(٢) ١/ ٣٦٦.

حضرتُ أبـي رحمه الله وكان في النزع ــ وأنا لا أعلم ــ فسألته عن عقبة بن عبد الغافر يروي عن النبـي ﷺ: له صحبة؟ فقال برأسه: لا، فلم أقنع منه، فقلت: فهمتَ عني: له صحبة؟ قال: هو تابعي.

قلت: فكان سيد عمله معرفة الحديث وناقلة الآثار، فكان في عمره يقتبس منه ذلك، فأراد الله أن يظهر عند وفاته ما كان عليه في حياته[1].

وفي تاريخ دمشق: عن أحمد بن علي الرقام قال: سمعت الحسن بن الحسين الدرستيني يقول: سمعت أبا حاتم يقول: قال لي أبو زرعة: ما رأيت أحرص على طلب الحديث منك يا أبا حاتم، فقلت: إن عبد الرحمن لحريص، فقال: من أشبه أباه فما ظلم.

قال الرقّام: سألت عبد الرحمن عن اتفاق كثرة السماع له وسؤالاته من أبيه، فقال: ربما كان يأكل وأقرأ عليه، ويمشي وأقرأ عليه، ويدخل البيت في طلب شيء وأقرأ عليه.

قال علي بن إبراهيم: وبلغني أنه كان يسأل أباه أبا حاتم في مرضه الذي توفي فيه عن أشياء من علم الحديث وغيره، إلى وقت ذهاب لسانه فكان يشير إليه بطرفه نعم ولا[2].

قلت: ورث علم أبـي زرعة وأبـي حاتم ابنهما عبد الرحمن بن أبـي حاتم، وبلغ منزلة عظيمة من العلم والعمل، والزهد والتأله، وكان يؤثر الخمول والتفرد فأبـى الله إلاَّ رفعته، وبالجملة فابن أبـي حاتم من أصحاب المقامات الرفيعة، وله ترجمة في تاريخ دمشق مشرقة، لولا خشية الإطالة لنوَّرت الكتاب بها، فطالعها[3] فإنَّ فيها فوائد، وهذا البيت الرازي من

---

(١) الجرح والتعديل ١/ ٣٦٨.

(٢) تاريخ دمشق ٥٢/ ١١ ــ ١٢.

(٣) تاريخ دمشق ٣٥/ ٣٦٦.

بيوتات العلم والشرف.

الحافظ يلد حافظاً:

قال مقيده: ورث أبو بكر بن أبي داود الحفظ والعلم من أبيه أبي داود، كما ورث سليمان داود عليهما السلام.

وكان أبو بكر عبد الله بن أبي داود ذا همة عالية، ودأب على الطلب شديد، برع وساد الأقران صغيراً، وأول سماعه وعمره عشر باعتناء والده. ثم امتد به العمر، وعلت به السن، وتراخت به الحياة، فحصّل علماً وحفظاً، وصار يحسب في جلالة والده، بل ربما فاقه، فقد كان رحمه الله باقعة في الحفظ لا يُجارى، ومتحدثاً لا يُبارى.

قال أبو محمد الخلال: ابن أبي داود أحفظ من أبيه.

ثلاثون مد باقلاء بثلاثين ألف حديث:

قال أبو بكر: دخلت الكوفة ومعي درهم واحد، فاشتريت به ثلاثين مداً باقلاء، فكنت آكل منه وأكتب عن الأشج، فما فرغ الباقلاء حتى كتبت عنه ثلاثين ألف حديث ما بين مقطوع ومرسل.

ابن أبي داود وأصل:

قال أبو بكر بن شاذان: قدم ابن أبي داود أصبهان (وفي نسخة: سجستان) فسألوه أن يحدثهم، فقال: ما معي أصل، فقالوا: ابن أبي داود وأصل! قال: فأثاروني، فأمليت عليهم من حفظي ثلاثين ألف حديث.

فلما قدمت بغداد، قال البغداديون: مضى إلى سجستان ولعب بهم، ثم فيّجوا فيْجاً اكتروه بستة دنانير إلى سجستان ليكتب لهم النسخة، فكتبت وجيء بها وعرضت على الحفاظ، فخطأوني في ستة أحاديث، منها ثلاثة أحاديث حدثت بها كما حُدِّثت، وثلاثة أخطأت بها.

قال الذهبي: هكذا رواه أبو القاسم الأزهري عن ابن شاذان، ورواها غيره فذكر أن ذلك كان في أصبهان، وكذا روى أبو علي النيسابوري، فكأن الأزهري وهم[1].

قلت: سواء كانت القصة في أصبهان أو سجستان، فهذا شيء عجب، لا أظن أن أحداً من الحفاظ يطيقه.

قال أبو عبد الله الحاكم: سمعت أبا علي الحافظ يقول: سمعت أبا بكر يقول: حدثت من حفظي بأصبهان بستة وثلاثين ألفاً، ألزموني الوهم فيها في سبعة أحاديث، فلما انصرفت وجدت في كتابي خمسة منها على ما كنت حدثتهم به.

بعدما عمي:

قال ابن شاهين: أملى علينا ابن أبي داود وما رأيت في يده كتاباً، إنما كان يملي حفظاً، وكان يقعد على المنبر بعدما عمي، ويقعد دونه بدرجة ابنه أبو معمر، بيده كتاب، فيقول له: حديث كذا، فيسرده من حفظه، حتى يأتي على المجلس.

فقرأ علينا يوماً حديث الفتون من حفظه، فقام أبو تمام الزينبي وقال: لله درك، ما رأيت مثلك إلاَّ أن يكون إبراهيم الحربي، فقال: كل ما كان يحفظ إبراهيم فأنا أحفظه، وأنا أعرف النجوم وما كان يعرفها.

يُغرب على أبي زرعة:

قال أبو أحمد الحاكم: قال أبو بكر: قلت لأبي زرعة ألق عليَّ حديثاً غريباً من حديث مالك، فألقى عليَّ حديث وهب بن كيسان عن أسماء:

---

(١) تذكرة الحفاظ ٢/٧٦٨.

لا تحصي فيحصى عليك، رواه لي عن عبد الرحمن بن شيبة وهو ضعيف. فقلت له: يجب أن تكتبه عني عن أحمد بن صالح عن عبد الله بن نافع عن مالك، قال: فغضب وشكاني إلى أبي، وقال: انظر ما يقول لي أبو بكر(١).

ابن زياد النيسابوري شديد الاستحضار:

قال مقيده: من الحفاظ المشهورين أبو بكر عبد الله بن زياد النيسابوري الفقيه الشافعي، أكثر عنه الدارقطني في السنن وغيرها، وقال: ما رأيتُ أحفظ من ابن زياد، كان يعرف زيادات الألفاظ في المتون، ولما قعد للتحديث قالوا: حدِّث، قال: بل سلوا أنتم، فسئل عن أحاديث فأجاب فيها وأملاها.

وقال أيضاً: كنا ببغداد يوماً جلوساً في مجلس اجتمع فيه جماعة من الحفاظ يتذاكرون، أبو طالب الحافظ والجعابي وغيرهما، فجاء رجل من الفقهاء فسأل الجماعة: من روى عن النبي ﷺ؟ «وجعل لي تربتها طهوراً»، فلم يجيبوه، ثم ذكروا وقاموا فسألوا أبا بكر بن زياد، فقال: نعم، حدثنا فلان فسرد الحديث(٢).

ولأبي بكر كتاب (الزيادات على كتاب المزني) يدل على حفظ باهر، ودراية واسعة، ومن طالعه يعرف اختصاص ابن زياد بعلم الزوائد، وقد امتدحه بمعرفتها الإمام أبو عبد الله الحاكم، فقال في النَّوْع الحادي والثلاثين من معرفة علوم الحديث:

هذا النَّوْع من هذه العلوم: معرفة زيادات ألفاظ فقهية في أحاديث

(١) تذكرة الحفاظ ٢/ ٧٧٠.

(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ١٢١ ــ ١٢٢، السير ١٥/ ٦٦ ــ ٦٨، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٠، طبقات الحفاظ ص ٣٤٣.

ينفرد بالزيادة راو واحد، وهذا مما يَعزّ وجوده، ويَقِلُّ في أهل الصنعة من يحفظه، وقد كان أبو بكر عبد الله بن محمد بن زياد النيسابوري الفقيه ببغداد يُذكر بذلك.

آية في الكوفة:

من عجائب من أنجبت الكوفة: الحافظ أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد الكوفي، يعرف بابن عُقْدَة.

قال أبو عبد الله الذهبي: كتب العالي والنازل، والحق والباطل، حتى كتب عن أصحابه، وكان إليه المنتهى في قوة الحفظ وكثرة الحديث، وصنف وجمع، وألف الأبواب والتراجم.. ولو صان نفسه وجوّد لضربت إليه أكباد الإبل، ولضرب بإمامته المثل، لكنه جمع فأوعى، وخلط الغث بالسمين، والخرز بالدر الثمين، ومُقت لتشيعه[1].

الحفظ بالقبان:

قال أبو أحمد الحاكم: قال لي ابن عُقْدَة: دخل البرديجي الكوفة فزعم أنه أحفظ مني، فقلت له: لا تطول، نتقدم إلى دكان وراق ونزن بالقبان من الكتب ما شئت، ثم يلقى علينا فنذكره، قال: فبقي، يعني انقطع.

قال أبو علي الحافظ: ما رأيت أحفظ لحديث الكوفيين من

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٣٩.

قلت: هذا التشيع الذي كان به لم يوصله إلى الغلو، فقد وجدناه يروي مناقب الشيخين، والأمر فيه كما قال الذهبي: من بلغ في الحفظ والآثار مبلغ ابن عُقْدَة ثم يكون في قلبه غل للسابقين الأولين فهو معاند أو زنديق (السير ١٥/ ٣٤٤) وحاشا ابن عُقْدَة أن يكون كذلك، ولولا أنه كان كوفياً لرأيته على الجادة، ولكن الكوفة موطن الرفض منذ قديم.

أبـي العباس ابن عُقْدَة[1]. قال الدارقطني: أجمع أهل الكوفة أنه لم ير من زمن ابن مسعود إلى زمن ابن عُقْدَة أحفظ منه. فحسبك بهذا من إمام مثل الدارقطني عَلِم الرجال، وخبر أحوالهم.

وقال الذهبـي بعدها: يمكن أن يقال: لم يوجد أحفظ منه وإلى يومنا وإلى قيام الساعة بالكوفة، فأما أن يكون أحد نظيراً له في الحفظ فنعم، فقد كان بها بعد ابن مسعود وعلي: علقمة ومسروق وعَبيدة، ثم أئمة حفاظ كـإبـراهيـم النخعي ومنصـور والأعمـش ومسعـر والثـوري وشـريـك ووكيـع وأبــي نعيـم وأبــي بكـر بـن أبــي شيبـة ومحمـد بـن عبـد الله بـن نميـر وأبـي كريب، ثم هؤلاء يمتازون عليه بالإتقان والعدالة التامة، ولكنه أوسع دائرة في الحديث منهم[2].

قال ابن عُقْدَة: أنا أجيبُ في ثلاث مائة ألف حديث من حديث أهل البيت وبني هاشم، وقال: أحفظ مائة ألف حديث بأسانيدها[3].

قال الدارقطني: كان ابن عُقْدَة يعلم ما عند الناس ولا يعلم الناس ما عنده. وقال أبو سعد الماليني: أراد ابن عُقْدَة أن ينتقل فكانت كتبه ستمائة حمل!

قال أبو الحسن العلوي: حضر ابن عُقْدَة عند أبـي فقال له: قد أكثر الناس في حفظك للحديث فأحب أن تخبرني بقدر ما تحفظ! فامتنع أولاً، وأعاد العلوي المسألة، فقال: أحفظ مائة ألف حديث بالإسناد والمتن، وأذاكر بثلاث مائة ألف حديث.

---

(١) تاريخ بغداد ٥/١٦.

(٢) السير ١٥/ ٣٤٥ ـ ٣٤٦.

(٣) تاريخ بغداد ٥/١٦.

قلت: هذه رواية أبي العلاء محمد بن علي بن يعقوب عن العلوي، وفي رواية أبي القاسم التَّنُوخي عن العلوي قال: كانت الرياسة بالكوفة في بني الغدان قبلنا، ثم فشت رئاسة بني عبيد الله، فعزم أبي على قتالهم، وجمع الجموع، فدخل إليه أبو العباس بن عقدة وقد جمع جزءًا فيه ست وثلاثون ورقة، وفيها حديث كثير في صلة الرحم، فاستعظم أبي ذلك واستكثره، فقال له: يا أبا العباس بلغني من حفظك للحديث ما استكثرته، فكم تحفظ؟ قال: أحفظ بالأسانيد والمتون خمسين ومائتي ألف حديث، وأذاكر بالأسانيد وبعض المتون والمراسيل والمقاطيع بست مائة الف حديث[1].

قاضي الحفاظ:

وكان الحفاظ يحتكمون إلى ابن عُقْدَة في ما يقع بينهم من اختلاف، كما جاء في ترجمة محدث الشام خيثمة بن سليمان الطرابلسي (المتوفَّى سنة ٣٤٣هـ) قال: رويت بدمشق حديث الثوري عن طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: اطلبوا الخير عند حسان الوجوه...، فأنكر القاضي زكريا البلخي هذا، وبعث فَيْجاً إلى الكوفة يسأل ابن عُقْدَة، فكتب إليه قد كان السري بن يحيى حدث به في تاريخ كذا وكذا، قال: فطلب البلخي مني الأصل فوجد تاريخه موافقاً[2].

قلت: وهذا غاية في الحفظ، فقد سلمنا للحفاظ حفظ الحديث بإسناده، أما تاريخ تحديث كل راوٍ متى حدث؟ فغاية في العجب!

وقد طوَّل الخطيب ترجمة ابن عُقْدَة، وكذا الذهبي في السير، ونقلا

---

(١) تاريخ بغداد ٥/ ١٧، وعنه في السير ١٥/ ٣٤٦ ـ ٣٤٧.

(٢) تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٥٩.

طرفاً من معرفته، وهذا أمر لا يرتاب فيه، وابن عُقْدَة عظيم القدر جدًّا في هذا الباب.

ابن عُقْدَة في الشام:

ومن أقران ابن عُقْدَة في العلم والحفظ: الحافظ ابن جوصا، أحمد بن عمير بن يوسف الدمشقي، قيل هو مولى بني هاشم (ت ٣٢٠هـ). قال عبد الغني بن سعيد: حدثنا محمد بن إبراهيم الكرجي قال: ابن جوصا بالشام كابن عُقْدَة في الكوفة.

حديث بدرهم:

أبو ذر الهروي عن مسعود الدمشقي قال: جاء رجل بغدادي يحفظ إلى ابن جوصا، فقال له ابن جوصا: كلّما أغربتَ عليَّ حديثاً من حديث الشاميين أعطيتُك درهماً، فلم يزل الرجل يلقي عليه ما شاء الله ولا يغرب عليه، فاغتم، فقال للرجل: لا تجزع، وأعطاه لكل حديث ذاكره به درهماً، وكان ابن جوصا ذا مال كثير[1].

حافظ ولا سوق!

وكان العلامة المقرىء الحافظ أبو الحسن محمد بن أحمد بن أيوب بن الصلت بن شَنَبُوذ المتوفَّى سنة ٣٢٨هـ واسع المحفوظات جدًّا، ارتحل وسمع الحديث، وقرأ بروايات كثيرة، ثم عاد إلى بغداد وتصدر للإقراء فيها، فنافسه في ذلك أبو بكر بن مجاهد العطشي مُسبع السبعة، وكان ابن مجاهد لم يرحل كرحلة ابن شنبوذ إنما قنع بشيوخ العراق، وله رحلة واحدة للحج قرأ فيها على البزي، فأقبلت الدنيا على ابن مجاهد وأدبرت عن ابن شَنَبُوذ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٥/١٦.

وكان بينهما ما يكون بين الأقران، حدّث أبو الفرج المُعَافى النهرواني قال: دخلت يوماً على ابن شَنَبُوذ وهو جالس بين يديه خزانة الكتب، فقال لي: يا مُعافى، افتح الخزانة، ففتحتها وفيها رفوف، عليها كتب، وكل رف في فن من العلم، فما كنت آخذ مجلداً وأفتحه إلاَّ وابن شَنَبُوذ يهذه كما يقرأ الفاتحة، ثم قال: يا مُعافى، والله ما أغلقتها حتى دخلت معي إلى الحمَّام، هذا، والسُّوق للعطشى ــ يريد ابن مجاهد ــ[1].

وكانت وقعت له محنة عظيمة، أوقعها به الوزير ابن مقلة، وشرحها يطول، وقد بينت ما فيها في تقدمتي لكتاب المقرىء الشاب ابن وهبان الحموي (أحاسن الأخبار)، واستوفاها أبو شامة في المرشد الوجيز[2]، ثم استجيبت في الوزير دعوة ابن شنبوذ سريعاً، فعزل وعُذب، وقطعت يده، ومات شر ميتة.

ولم يكن صاحب ابن شنبوذ المعافى بن زكريا النهرواني خيراً منه حالاً، ولا أحسن جِدَةً وحظًّا، مع أنه كان بحراً في العلوم كلها، عالماً بالنحو واللغة، والفقه على مذهب محمد بن جرير رضي الله عنه، وبالأخبار والأشعار والآثار، ثبتاً ثقة مصنفاً.

قال أبو حيان التوحيدي: رأيته قد نام مستدبر الشمس في جامع الرصافة في يوم شاتٍ، وبه من أثر الفقر والبؤس والضر أمر عظيم، مع غزارة علمه، واتساع أدبه، وفضله المشهور، ومعرفته بصنوف العلوم، خاصة علم الآثار والأخبار، وسير العرب وأيامها، فقلتُ لَه: مهلاً أيها الشيخ وصبراً، فإنك بعين الله ومرأًى منه ومَسمع، وما جمع الله لأحد شرف العلم وعز

---

(١) غاية النهاية، لابن الجزري ٢/ ٥٥.

(٢) ص ٤١٠ ــ ٤١٧.

المال، فقال: ما لا بدَّ منه من الدنيا فليس منه بد، ثم قال:

يـــا محنـــة الله كفِّـــي إن لـــم تكفـــي فخفِّـــي
قـــد آن أن تـــرحـمينـــا مـــن طـول هـــذا التشفِّـــي
طلبـــتُ جـــدًّا لنفســـي فقِيـــل لـــي قـــد تُـــوفِّـــي
فـــلا علـــومـــيَ تجـــدي ولا صنـــاعـــةُ كفِّـــي
ثـــورٌ يَنـــال الثُّـــريـــا وعـــالِـــمٌ مُتخفِّـــي[1]

مولد المعافى سنة خمس وثلاثمائة، ومات سنة تسعين وثلاثمائة، وقد أكل الناس بعلمه، وبتحقيق كتبه خيراً كثيراً!

الحفظ بالصندوق:

وهذا العلامة اللغوي المحدث محمد بن القاسم بن محمد الأنباري كان من أكثر الناس حفظاً، حتى إنّ محفوظاته لتُحرز بالصناديق.

قال الذهبي: يروي بأسانيده، ويملي من حفظه، وكان من أفراد الدهر في سعة الحفظ مع الصدق والدين. وقال التَّنُوخي: كان ابن الأنباري يملي من حفظه وما أملى من دفتر قط[2].

وفي وفيات الأعيان للقاضي ابن خلكان، قال: قال أبو علي القالي ـ وكان تلميذاً للأنباري ـ: كان يحفظ فيما ذكر ثلاثمائة ألف بيت شاهد في القرآن الكريم.

أبو العباس الأصم يحدث ستاً وسبعين سنة:

هو محدث الإسلام: أبو العباس محمد بن يعقوب الأصم النيسابوري

---

(١) بغية الوعاة ٢/ ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٢) نشوار المحاضرة ٤/ ٢١١، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٤٢.

(ت ٣٤٦هـ)، سميَ محدث الإسلام لأنه حدث ستًّا وسبعين سنة، لم يختلف في صدقه وصحة سماعه، وله الفضل في جمع مسند الشافعي، وكان مليح الخط كأبيه يعقوب الوراق.

استحكم به الصمم وله بضع وعشرون سنة، لما عاد من الرحلة، وروى عنه الكبار، ولأبي عبد الله ابن البيِّع الحاكم النيسابوري إكثار عنه، وخصوصية به.

يؤذن أم يملي:

قال ابن البيِّع: حضرتُ الأصمَّ يوما فخرج ليؤذِّن للعصر، فاستقبل، وقال بصوتٍ عالٍ: أنبأنا الربيع بن سليمان أنبأنا الشافعي.. ثم ضحك، وضحك الناس، ثم أذَّن.

نهاية رجل محدث:

قال: وقد خرج علينا في سنة أربع وأربعين ـ يعني وثلاثمائة ـ فلما نظر إلى كثرة الناس والغرباء، قد امتلأت بهم السكة، وهم يطرقون له ويحملونه، فجلس على جدار المسجد وبكى، ثم نظر إلى المستملي وقال: اكتب، نا الصاغاني سمعت أبا سعيد الأشج يقول: سمعت ابن إدريس يقول:

أتيتُ باب الأعمش بعد موته فدققتُ بابه، فأجابتني امرأة، هاي هاي، تبكي، وقالت: يا عبد الله ما فعل جماهير العرب التي كانت تأتي هذا الباب؟ ثم بكى الكثير.

وقال: كأني بهذه السكة لا يدخلها أحد منكم، فإني لا أسمع، وقد ضعف البصر، وحان الرحيل، وانقضى الأجل. فما كان بعد أشهر أو أقل حتى كفَّ بصره، وانقطعت الرحلة، ورجع أمره إلى أن كان يُنَاول قلماً، فإذا

أخذ بيده علم أنهم يطلبون الرواية، فيقول نا الربيع، ويسرد أحاديث يحفظها، وهي أربعة عشر حديثاً، وسبع حكايات[١].

يتعاطى الحفظ:

وكان الحافظ الختّلي أبو عبد الله عبد الرحمن بن أحمد البغدادي (ت ٣٣٥هـ) يتعاطى الحفظ ويمارسه، حتى اشتهر به وغلب عليه، قال الدارقطني: كان يذاكر ويصنف ويتعاطى الحفظ.

قال أبو القاسم التَّنُوخي: حدثني أبـي قال: دخل إلينا أبو عبد الله الختلي إلى البصرة، وهو صاحب حديث جلد، مشهور بالحفظ، فجاء وليس معه شيء من كتبه فحدث شهوراً إلى أن لحقته، فسمعته يقول: حدثت بخمسين ألف حديث من حفظي إلى أن لحقتني كتبـي[٢].

القاضي المحدث:

وكان أبو أحمد محمد بن أحمد الأصبهاني العسَّال (٢٦٩ ـ ٣٤٩هـ) محدثاً كبيراً، ينوب في القضاء عن الطبري، قال ابن منده: كان العسال يخلف الطبري في القضاء، وكان أحد الأئمة في الحديث[٣]. جاء في تذكرة الحفاظ[٤]، وطبقات الحفاظ[٥]: أن أبا أحمد أملى تفسيراً كبيراً من حفظه،

---

(١) الأنساب، للسمعاني ١/ ٢٩٦، السير ١٥/ ٤٥٩، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٦٢.

(٢) تاريخ بغداد ١٠/ ٢٩٠ ـ ٢٩١، السير ١٥/ ٤٣٦ ـ ٤٣٧، تذكرة الحفاظ ٣/ ٨٧١.

(٣) هذا القاضي الطبري هو: عبد الرحمن بن أحمد الطبري الفقيه، وليس محمد بن جرير صاحب التفسير، فهذا كانت الدنيا عنه مدبرة.

(٤) ٣/ ٨٨٧.

(٥) ص ٣٦٣.

ويقال: إنه أملى أربعين ألف حديث بأردستان، فلما رجع إلى بلده أصبهان قابل ذلك، فإذا به كما أملى..

قال أبو بكر بن مردويه: سمعت أبا أحمد العسال يقول: أحفظ في القرآن خمسين ألف حديث.

كتب أبو غالب هبة الله بن محمد بن هارون قال: سمعت بعض أصحاب الحديث يقول: إنَّ محدثاً حضر القاضي أبا أحمد قال: إني حلفت أنك تحفظ سبعين ألف حديث..

أربعة آلاف جزء عن أربعة مشايخ:

قال مقيده: وممن تلمذ للعسَّال الحافظ الكبير أبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن منده الأصبهاني.

قال الذهبي: عدة شيوخه الذين سمع وأخذ عنهم ألف وسبعمائة شيخ... ولما رجع من الرحلة الطويلة كانت كتبه عدة أحمال، حتى قيل إنها كانت أربعين حملاً، وما بلغنا أنَّ أحداً من هذه الأمة سمع ما سمع، ولا جمع ما جمع، وكان ختام الرُّحَّالِين، وفرد المكثرين، مع الحفظ والمعرفة والصدق وكثرة التصانيف[١].

وكان ابن منده يقول: طفت المشرق والمغرب مرتين.

وقال ابنه عبد الرحمن: إن أبي كتب عن أربعة مشايخ أربعة آلاف جزء، وهم: ابن الأعرابي، والأصم، وابن خيثمة، والهيثم بن كليب[٢].

وسمعته يقول: كتبت عن سبعمائة وألف شيخ.

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٠٣٢.

وقد ذكر ابن حجر جماعة ممن روى عن ألف فأكثر في أول كتابه التهذيب ١/ ٤، وانظر فيه أيضاً ٤/ ١١٣.

(٢) التقييد، لابن نقطة ١/ ٢٠ ـ ٢١.

وأما علي بن الحسن الإسكاف فروى عن ابن منده قال: رأيت ثلاثين ألف شيخ، فعشرة آلاف ممن أروي عنهم، وأقتدي بهم، وعشرة آلاف أروي عنهم ولا أقتدي بهم، وعشرة آلاف من نظرائي، وليس من الكل واحد إلاَّ وأحفظ عنه عشرة أحاديث أقلها[1].

وسأل أبو علي الحسين بن فنجويه أبو عبد الله بن منده فقال: كم روايات عكرمة عن عائشة؟ فأجابه: خمسون حديثاً. اهـ[2].

باقِعة الحفظ:

هو شيخ الإسلام: أبو علي حسين بن علي النيسابوري الحافظ (٢٧٧ ـ ٣٤٩هـ)، لازمه الحاكم وأكثر عنه، وإذا قال في تآليفه: حدثنا أبو علي الحافظ، أو: قال الحافظ، فهو المراد، وقد ترجمه في تاريخه فأطنب في وصفه وأطال، وكان مما قال: هو واحد عصره في الحفظ والإتقان والورع والمذاكرة والتصنيف..

كان أبو علي باقعة في الحفظ لا تطاق مذاكرته، ولا يفي بمذاكرته أحد من حفاظنا، خرج إلى بغداد.. وقد صنف وجمع فأقام ببغداد وما بها أحد أحفظ منه إلاَّ أن يكون أبو بكر الجعابي، فإني سمعت أبا علي يقول: ما رأيت ببغداد أحفظ منه. قال وسمعته يقول: كتب عني أبو محمد بن صاعد غير حديث في المذاكرة، وكتب عني ابن جوصاء جملة.

ونقل الخليلي عن الحاكم قوله: لا أقوله تعصباً لأنه أستاذي، ولكن لم أر مثله قط ـ فهذا يقوله الحاكم مع أنه رأى الدارقطني وأبا أحمد الحاكم وغيرهما من الكبار، ولكنه انتفع بأبي علي أكثر.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٣٥.

(٢) التقييد ١/ ٢٢.

وقال ابن المقرىء الأصفهاني: أدعوا لَه في أدبار الصلوات، لأني كنت أتبعه في شيوخ الشام ومصر حتى حصَّلت ما أرويه[1].

مجلس مع الحفاظ:

قال أبو علي: اجتمعت ببغداد مع أبي أحمد العسال وأبي إسحاق بن حمزة، وأبي طالب بن نصر، وأبي بكر الجعابي[2]، فقالوا: أملِ من حديث نيسابور مجلساً، فامتنعت، فما زالوا بي حتى أمليت عليهم ثلاثين حديثاً، ما أجاب واحد منهم في حديث منها، سوى ابن حمزة في حديث واحد[3].

هذا هو الإغراب المذكور في تراجم الحفاظ، ولأجله كان الحفاظ يتذاكرون، يطلبون مثل هذه الفوائد الشاردة، التي تثار بالمذاكرة.

وكان الدارقطني يقول عن أبي علي: إمام مهذب، لطيب أخلاقه، وحلو شمائله.

أبو علي يتحير من الجُعابي:

ومرَّ أن الحاكم ما رأى ببغداد أحفظ من أبي علي إلاَّ أن يكون الجعابي، يريد: أبا بكر محمد بن عمر التميمي الجُعاَبي الحافظ البارع، قاضي الموصل، تخرج بأبي العباس ابن عقدة، وكان باقِعة في الحفظ.

ولإنْ أغرب عليه أبو علي شيئاً من أحاديث النيسابوريين فلأن أبا علي منهم، وهو خبير بدفائن أخبارهم، وغرائب أحاديثهم، وقد اعترف لأبي بكر بالحفظ، وتحيَّر من حفظه.

---

(١) الإرشاد، للخليلي ٣/ ٨٤٣.

(٢) المذكورون هم أساطين الحفظ في زمانهم.

(٣) تذكرة الحفاظ ٤/ ٩٠٤.

قال أبو علي: ما رأيتُ في أصحابنا مثل الجعابي، حيرني حفظه. قال ابن البيِّع: فذكرت ذلك لأبي بكر، فقال: يقول أبو علي هذا، وهو أستاذي على الحقيقة[1].

قال أبو علي: ما رأيت في المشايخ أحفظ من عبدان، ولا رأيت في أصحابنا أحفظ من أبي بكر بن الجعابي، وذاك أني حسبته من البغداديين الذين يحفظون شيخاً واحداً، وترجمة واحدة، أو باباً واحداً، فقال لي أبو إسحاق بن حمزة يوماً: يا أبا علي لا تغلط، ابن الجعابي يحفظ حديثاً كثيراً.

قال: فخرجنا يوماً من عند ابن صاعد، فقلت له: يا أبا بكر إيش أسند الثوري عن منصور؟ فمر في الترجمة، فما زلت أجره من مِصر إلى حديث الشام إلى العراق إلى أفراد الخراسانيين، وهو يجيب، إلى أن قلت: فإيش روى الأعمش عن أبي صالح وأبيٌ سعيد بالشركة (أي مشتركين) فذكر بضعة عشر حديثاً، فحيرني حفظه[2].

لا تغتم لفقد الكتب:

قال أبو الفضل القطان: سمعت ابن الجعابي يقول: دخلت الرقة وكان لي ثَمَّ قمطر من كتب، فجاء غلامي مهموماً وقال: ضاعت الكتب، فقلت: يا بني لا تغتم، فإنّ فيها مائتي ألف حديث، لا يشكل عليّ حديثاً منها، لا إسناده ولا متنه[3].

قال أبو علي التَّنُوخِي: ما شاهدنا أحداً أحفظ من أبي بكر الجعابي،

---

(١) تذكرة الحفاظ ص ٩٠٥.

(٢) تاريخ دمشق ٥٤/ ٤٢٢، تذكرة الحفاظ ص ٩٢٥، طبقات الحفاظ ص ٣٣٦.

(٣) تاريخ دمشق ٥٤/ ٤٢٣.

وسمعت من يقول إنه يحفظ مائتي ألف حديث، ويجيب في مثلها، كان يفضل الحفاظ بأنه كان يسوق المتون بألفاظها وأكثر الحفاظ يتسمَّحون في ذلك.

وكان إماماً في معرفة العلل وثقات الرجال وتواريخهم، وما يطعن على الواحد منهم، لم يبق في زمنه من يتقدمه[1]. وكان الجعابـي يقول: أحفظ أربعمائة ألف حديث، وأذاكر بستمائة ألف حديث[2].

ألق عليه متناً يلق عليك إسناده:

قال أحمد بن عبدان الحافظ: وقع إليّ جزء من حديث ابن الجعابـي فحفظت منه خمسة أحاديث فأجابني فيها، ثم قال لي: من أين لك هذا؟ قلت: من جزئك، قال: إن شئت ألق عليّ المتن وأجيبك في إسناده، أو ألق علي الإسناد وأجيبك في المتن[3].

الجعابـي مع الدارقطني:

قال ابن المظفر والدارقطني: كنا نذاكر الجعابـي الحافظ فيقع ويقوم، إلى أن يذاكرنا بحديث عبد الله بن وهب الدينوري، فإذا روى عن ابن وهب يغلبنا[4].

الجعابـي مع الطبراني:

وكان أبو بكر من الحفاظ المشهورين، وكان يقصده للمذاكرة كبراء الحفاظ، وقد جمعته المذاكرة مع الطبراني في مجلس ابن العميد فانتصف منه الطبراني.

---

(١) التذكرة ص ٩٢٦

(٢) طبقات الحفاظ ص ٣٧٧.

(٣) التذكرة ٣/ ٩٢٧.

(٤) الإرشاد، للخليلي ٢/ ٦٣٧.

قال الإمام العلامة الأديب أبو الحسين أحمد بن فارس رحمه الله تعالى: سمعت الأستاذ ابن العميد يقول: ما كنتُ أظنُّ في الدنيا كحلاوة الوزارة والرياسة التي أنا فيها، حتى شاهدتُ مذاكرة الطبراني وأبي بكر الجعابي بحضرتي، وكان الطبراني يغلبه بكثرة حفظه، وكان أبو بكر يغلبه بفطنته، حتى ارتفعت أصواتهما، حتى قال الجعابي: عندي حديث ليس في الدنيا إلاَّ عندي، فقال: هات، قال: أنا أبو خليفة أنا سليمان بن أيوب.. وحدث بحديث، فقال الطبراني: أنا سليمان بن أيوب، ومني سمعه أبو خليفة، فاسمعه مني عالياً، فخجل الجعابي.

فوددت أن الوزارة لم تكن، وكنت أنا الطبراني وفرحت كفرحه[1].

قال مقيده: لم يسلم أصحاب الحديث من حسد كثير من الأمراء والكبراء وأهل الترف، وقد سجل لنا التاريخ تمني هؤلاء أحوال أهل المحابر والدفاتر، هذا وهم لم يذوقوا لذة الحديث ولا طعم الاشتغال به، فكيف لو قارفوها؟

ولعل القاضي يحيى بن أكثم تكلم على لسان هؤلاء حين قال: كنت قاضياً وأميراً ووزيراً، ما ولج في سمعي أحلى من قول المستملي: من ذكرت رضي الله تعالى عنك![2].

وأنا أتعجب من هذه القصة، كيف خفي على الجعابي ــ وهو الموصوف بالفطنة ــ أن سليمان بن أيوب في الإسناد هو غريمه، ولكنه استبعد ذلك لأن أبا خليفة الفضل بن الحباب شيخهما على السواء. وإسناد القصة ثابت، فأحمد بن فارس إمام ثقة، وابن العميد أنبل من أن يكذب، والله أعلم.

---

(١) التذكرة ٣/ ٩١٧.

(٢) تهذيب التهذيب ١١/ ١٨٣.

تلٌّ من رماد:

قال ابن رزقويه: كان ابن الجعابي يمتلىء مجلسه، وتمتلىء السكة التي يملي فيها والطريق، ويحضره ابن المظفر والدارقطني، ويملي الأحاديث وطرقها من حفظه. وقبل أن يتوفى سنة ٣٥٥هـ جمع كتبه فحرقها، فكانت تلة من رماد، وكان رحمه الله ثقة في الحديث، لكنهم تكلموا في رقة دينه، والله يغفر له ويرحمه.

قال الدارقطني: سمعت بِعِلَّة أبي بكر الجعابي فقمت إليه في الوقت، فدخلت داره فرأيته يحرق كتبه بالنار، فأقمت عنده حتى ما بقي منه سينه (!)، ثم مات من ليلته[1].

لم يمتع بالشباب:

اغتالت المنية شابًّا كان آية في الحفظ، ولم تمهله حتى يُمتع بحفظه، هو عبد الله بن مظاهر الأصبهاني، المتوفَّى سنة ٣٠٤هـ. كان يضرب به المثل في الحفظ، فهو من الحفاظ الذين لم يبلغوا الأشد، قال أبو نعيم: لم نر بعد ابن مظاهر مثل ابن حمزة..

قال محمد بن أحمد التركماني: كان آية في الحفظ، بلغنا أنه حفظ المسندات كلها، ثم شرع في حفظ الموقوفات.. رحل وتعب، مات شاباً لم يمتع بعلومه رحمه الله تعالى[2].

---

(١) سؤالات السجزي، للحاكم ص ٢٢٨.
وقد كان كثير من الحفاظ يحرق كتبه عند وفاته خشية أن تقع إلى من لا يحسن الأمر، ذكر منهم الحاكم في هذا الموضع من السؤالات: الذهلي وابن راهويه ويحيى بن يحيى وابن المبارك.

(٢) التذكرة ٣/ ٨٨٩، طبقات الحفاظ ص ٣٤٦.

وأما ابن حمزة الذي ذكره أبو نعيم الحافظ فإنه إبراهيم بن محمد بن حمزة بن عمارة بن حمزة بن يسار بن عبد الرحمن بن حفص أخي أبي مسلم صاحب الدولة، كنيته أبو إسحاق، ويعرف بالأصبهاني.

قال أبو نعيم: هو أوحد زمانه في الحفظ، لم نر بعد ابن مظاهر مثله في الحفظ، جمع الشيوخ وصنف المسند.. وقال أبو عبد الله بن منده: لم أر أحفظ منه، وقال أيضاً: كتبت عن ألف شيخ لم أر فيهم أحفظ من إبراهيم بن محمد بن حمزة[1].

قلت: وفاة ابن حمزة سنة **٣٥٣**هـ.

حدث سنتين من حفظه:

كان بعض الحفاظ جوالاً في الأرض، لا تكاد تضمه أرض حتى تلفظه إلى أخرى، يبتغي من وراء ذلك كسب طريف، ومذاكرة تالد، فربما اضطروا إلى التحديث بما لم يحملوا معهم، فلا يصمد لهذا إلاَّ الحفاظ.

ومنهم: الحافظ ابن حَرَارَة، وهو أبو الحسن محمد بن أحمد بن علي البرذعي الأسدي، المتوفَّى سنة **٣٤٨**هـ. قال الخليلي: ارتحل محمد إلى العراق ومصر والشام.. وورد قزوين والري فحدث من حفظه سنتين زيادة على ثلاثين ألف حديث، ولم يكن معه ورقة من الأصول، وفي أماليه غرائب وكلام يستفاد[2].

---

(١) من التقييد، لابن نقطة ١/ ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

(٢) الإرشاد، للخليلي ٢/ ٧٨٣.

وقد وقع لابن حرارة بعض الأخطاء في إملائه، وهذا لا بد منه لابن آدم، (انظر الإرشاد ٢/ ٦٢٩).

يطالع كتبه في مجلس القضاء:

قال مقيده: لي مع الحاكِمَيْن أبي أحمد محمد بن محمد الحاكم النيسابوري، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن البيِّع الحاكم النيسابوري وقفة، كل واحد على حدة، الأول في تحقيقي لِمَا وَصَلَنا من فوائده، والثاني في شرحي لكتابيه معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه، والمدخل إلى معرفة كتاب الإكليل، وقد ترجمت لهما هناك، وتناولت جانب الحفظ عندهما، فمما ذكرته في ترجمة أبي أحمد الحاكم:

قال أبو عبد الله بن البيِّع: كنَّا مع أبي علي في الجامع سنة أربعين وثلاثمائة، فقال أبو الحسين الحجاجي[1]: يا أبا علي، قد وافى أبو أحمد الكرابيسي على قضاء طوس، قال: متى؟ قال: أمس، فينبغي أن تزوره، فتكلم أبو علي بشيء فقالوا لَه: لا بد من زيارته، فقام ومعه أبو الحسين وأبو العباس الدقاق وأبو إسحاق الأبزاري وأحمد بن طاهر وجماعتنا، فلما دخلنا على أبي أحمد، قال لهم أبو أحمد: قد غبتُ عنكم سبع عشرة سنة، اذكروا بكل سنة منها حديثاً أستفيده، فاستعجل بعضهم فقال: عن شعبة، عن حبيب بن عبد الرحمن، عن حفص بن عاصم، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ: «سبعة يظلهم الله في ظله».

فقال أبو أحمد: حدثنا أبو أحمد بن عمير الدمشقي، ثنا أحمد بن موسى بن صاعد، ثنا مؤمل بن إسماعيل، عن شعبة، فقال السائل: عندنا عن عمرو بن مرزوق عال، فقال أبو أحمد: عمرو بن مرزوق طريق غير معتمد، وقد أجبت في الحديث.

(١) هو الحافظ الكبير الفهم محمد بن محمد النيسابوري ولد سنة ٢٨٥ وتوفي سنة ٣٦٨، كان يلقب عفان لفهمه وحفظه، لازمه أبو عبد الله الحاكم نيفاً وعشرين سنة، وهو من شيوخه في العلل.

فأخذ أبو علي يذكر الباب وكلنا سكوت، حتى فرغ منه. ثم أخذوا جماعتهم يعيّرون أبا أحمد بأنّك لم تدخل مصر، فقال أبو أحمد: أنتم كلكم قد دخلتم مصر، اذكروا ما فاتني بمصر.

فقال بعضهم: الليث عن عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر، عن النبي ﷺ: «قصة الغار»، فقال أبو أحمد: يا سبحان الله، حدثنا الكَيّس أبو بكر بن أبي داود، نا عيسى بن حماد، ثم ذكر أبو علي أحاديث استفادها، فقلتُ: أنبأنا عن أبي العميس عن الشعبي، عن فاطمة بنت قيس قصة الجساسة، فقال أبو أحمد: هذا نعم، هذا من غرر الحديث وقد فاتني؛ فلما خرجنا قلت لأبي علي: ليس فيما ذكرتم أضيق من حديثي الذي ذكرته، ولم يذكره لَه، فضحك وقال: هو كما قلت يا أبا عبد الله، إنما أمسكت عنه لأن الحديث ليس عندي عن علاّن، حدثنيه جعفر المراغي عن علان، فإنه مما فاتني بمصر[1].

حديث في الصدقات:

قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت أبا أحمد الحافظ يقول: حضرنا مع الشيوخ عند نوح بن نصر أمير خراسان، فقال للشيوخ: من يحفظ منكم حديث أبي بكر في الصدقات؟ فلم يكن فيهم من يحفظه، وكان عليَّ خَلقان في آخر الناس، فقلتُ للوزير: أنا أحفظ الحديث، فقال: ها هنا فتى من نيسابور يحفظه، قال: فخطوني على أصحاب الطيالسة، فرويت الحديث، فقال: مثل هذا لا يضيَّع وولاّني قضاء الشاش[2].

---

(١) تاريخ دمشق ٥٥/ ١٥٧ ــ ١٥٨.
وقد اختصرت في بعض مصادر ترجمته الأخرى فوقع فيها إخلال ببعض المقصود (السير ١٦/ ٣٧٣ ــ ٣٧٤).

(٢) تاريخ دمشق ٥٥/ ١٥٧، السير ١٦/ ٣٧٢، اللسان ٧/ ٥ ــ ٦.

قال أبو عبد الله الحافظ: دخلت طوس وهو على قضائها، فكنت أدخل عليه والمصنفات بين يديه، فيقضي بين اثنين فإذا تفرغ أقبل على التصنيف[1].

عزاء أم مذاكرة!

قال مسعود السجزي: سألته ــ يعني أبا عبد الله الحاكم ــ عن اسم أبي سنان الذي يروي عنه حماد بن سلمة، فقال: فيه حكاية، جمعني وأخانا محمد بن إسحاق بن منده الأصبهاني ــ يرحمنا الله وإياه ــ مجلس حضره عبد الله بن حامد الأصبهاني، فذكر لي وفاة ابنه، وبكى.

فقلتُ له: أُبشرك بما بشر به أبو طلحة الخولاني أبا سنان: أخبرنا أبو بكر بن إسحاق الفقيه، أنا أحمد بن إبراهيم بن ملحان، أخبرنا أبو نصر التمار، أخبرنا حماد بن سلمة عن أبي سنان قال: دفنت ابني سناناً فقعدت على شفير القبر، فأخذ بيدي أبو طلحة الخولاني فقال: ألا أبشِّرك! حدثني الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب أن أبا موسى الأشعري حدث أن النبي ﷺ قال: «إذا قبض ولد العبد قال الله تعالى لملائكته: قبضتم ولد عبدي وثمرة فؤاده، فماذا قال؟ قالوا: حمدك وقال خيراً، قال: فابنوا له بيتاً في الجنة وسموه بيت الحمد».

فقال ــ أي ابن منده ــ: نعم هذا حديث مشهور بحماد بن سلمة، فقلت: أبو سنان هذا من؟ قال: ليس بالشيباني ولا القزويني، فقلت: فمن هو، وما اسمه، ومن أي بلد هو؟ قال: أظنه من أهل البصرة! فقلت: هذا رجل من أهل فلسطين واسمه عيسى بن سنان، وقد روى عنه غير حماد بن سلمة.

---

(١) تاريخ دمشق ٥٥/١٥٦، والسير ١٦/ ٣٧٢، اللسان ٧/ ٦.

أخبرني الحسين بن محمد الدارمي، أخبرنا عبد الرحمن بن أبي حاتم قال: ـ أبو سنان القسملي اسمه عيسى بن سنان، هو فلسطيني شامي، قدم البصرة، روى عن الضحاك بن عبد الرحمن بن عرزب ووهب بن منبه وعلي بن عبد الله بن عباس وأبي طلحة الخولاني وعثمان بن أبي سودة، روى عنه حماد بن سلمة وجعفر بن سليمان[١].

مائة ألف حديث عن الباغندي:

للحافظ الكبير أبو الحسن محمد بن المظفر البغدادي مائة ألف حديث عن الباغندي يحفظها عن ظهر قلب.

قال ابن أبي الفوارس: سألت ابن المظفر عن حديث الباغندي عن ابن زيد المنادي عن عمرو بن عاصم عن شعبة؟ فقال: ما هو عندي، قلت: لعله عندك، قال: لو كان عندي لكنت أحفظه، عندي عن الباغندي مائة ألف حديث ما فيها هذا[٢].

جهبذ الحفاظ:

قال ابن فارس: لم أر في تراجم الحفاظ ولا في سِيرهم من بلغ مبلغ الدارقطني في الحفظ والمعرفة، فقد كان نمطاً صعباً من الحفاظ قلَّ أن يوجد مثله، بل إني أجزم أنه أحفظ أمة الإسلام وأعلمها بحديث رسول الله ﷺ، وبما يمت إليه من علوم تتعلق به كالجرح والتعديل ونحوها، ولو شئت أن أسرد من محاسنه وثناء الحفاظ عليه، واعترافهم بالقصور دونه، لسردت صفحات كثيرة، وهو في مقام من لا يحتاج إلى تزكية أحد، بل كل من عاصره أو سبقه يحتاج إلى تزكيته، رحمه الله ورضي عنه.

---

(١) سؤالات مسعود السجزي ص ١٣٧ ـ ١٣٩.

(٢) السير ١٦/ ٤١٩، التذكرة ٣/ ٩٨١، طبقات الحفاظ ص ٣٩٠.

قال القاضي أبو الطيب طاهر بن عبد الله الطبري: كان الدارقطني أمير المؤمنين في الحديث، وما رأيت حافظاً ورد بغداد إلاَّ مضى إليه وسلَّم له، يعني سلَّم له التقدمة في الحفظ وعلو المنزلة في العلم[1]. وقد مَرَّ ذكره من قبل وبيان جملة من العلوم التي تضلع منها سوى الحديث.

وهذه نبذ من حفظه رضي الله عنه، أسوقها من تاريخ الخطيب[2]، وابن عساكر[3]، وسير الذهبي[4]:

تعرّف على الدارقطني:

هو الإمام الحافظ المجود شيخ الإسلام عَلَم الجهابذة أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود البغدادي، من أهل محلة دار قطن في بغداد (ولد سنة ٣٠٦هـ، وتوفي سنة ٣٨٥هـ).

كان رحمه الله معجباً بحفظ الإمام النسائي، مقدِّماً لأقواله في الجرح والتعديل، ينوِّه بذكره وكتبه، بل إنه كان يقدمه على صاحبي الصحيحين، ولم أر في ما عانيت من أحوال المجرحين والمعدلين متوافِقَين مثل الدارقطني والنسائي، والعجيب أن بعض النقاد يعد النسائي متشدداً، والدارقطني معتدلاً أو متساهلاً!

رغبة منذ الصغر:

قال القوَّاس: كنا نمر إلى ابن منيع والدارقطني صبيّ يمشي خلفنا، بيده رغيف عليه كامِخ، فدخلنا إلى ابن منيع ومنعناه، فقعد على الباب يبكي!

---

(١) تاريخ دمشق ٤٣/ ١٠١.

(٢) ١٢/ ٣٤ ـ ٤٠.

(٣) جزء ٤٣ صفحة ٤٠ فما بعد.

(٤) ١٦/ ٤٤٩ ـ ٤٦٠.

مع ابن عُقْدَة:

قال الخطيب: وأنا البرقاني قال: سمعت أبا الحسن الدارقطني يقول: كتبتُ ببغداد من أحاديث السوداني أحاديث يتفرد بها، ثم مضيت إلى الكوفة لأسمع منه، فجئتُ إليه وعنده أبو العباس بن عقدة، فدفعت إليه الأحاديث في ورقة، فنظر فيها أبو العباس ثم رمى بها واستنكرها، وأبى أن يقرأها، وقال: هؤلاء البغداديون يجيئونا بما لا نعرفه.

قال أبو الحسن: ثم قرأ أبو العباس عليه فمضى في جملة ما قرأ حديث منها، فقلت له: هذا الحديث من جملة الأحاديث، ثم مضى آخر، فقلت له: وهذا أيضاً من جملتها، ثم مضى ثالث، فقلت: وهذا أيضاً منها، وانصرفت وانقطعت عن العود إلى المجلس لحُمَّى نالتني، فبينا أنا في الموضع الذي كنتُ نزلته إذا بداقٍّ يدقُّ على الباب، فقلت: من هذا؟ فقال: ابن سعيد، فخرجت وإذا بأبي العباس، فوقعت في صدره أقبِّله، وقلت: يا سيدي لم تجشمت المجيء، فقال: ما عرفناك إلاَّ بعد انصرافك، وجعل يعتذر إليَّ، وقال لي: ما الذي أخَّرك عن الحضور، فذكرت له أني حُممت، فقال: تحضر المجلس لتقرأ ما أحببت.

فكنت بعدُ إذا حضرت أكرمني ورفعني في المجلس، أو كما قال[1].

الخبر ليس كالمعاينة:

قال الحاكم ــ وكان حفيًّا بأبي الحسن الدارقطني ــ: حجَّ شيخنا أبو عبد الله ابن أبي ذهل، فكان يصف حفظه وتفرده بالتقدم في سَنَة ثلاث وخمسين، حتى استنكرت وصفه، إلى أن حججت في سنة سبع وستين، فجئت بغداد، وأقمت بها أزيد من أربعة أشهر، وكثر اجتماعنا بالليل

---

(١) نقله ابن عساكر أيضاً ٤٣/ ٩٩.

والنهار، فصادفته فوق ما وصفه ابن أبي ذهل، وسألته عن العلل والشيوخ، وله مصنفات يطول ذكرها[1].

ثم سئل الحاكم: هل رأيت مثل الدارقطني؟ فقال: هو ما رأى مثل نفسه، فكيف أنا.

لا أحد يعرف العلة غيري:

قال الأزهري: كان الدارقطني ذكيًّا، إذا ذكر شيئاً من العلم أي نوع كان، وجد عنده منه نصيب وافر. لقد حدثني محمد بن طلحة النعالي أنه حضر مع أبي الحسن دعوة عند بعض الناس ليلة، فجرى شيء من ذكر الأكلة، فاندفع أبو الحسن يورد أخبار الأكلة وحكاياتهم ونوادرهم، حتى قطع أكثر ليلته بذلك، وقال: رأيت ابن أبي الفوارس سأل الدارقطني عن علة حديث أو اسم فأجاب، ثم قال: يا أبا الفتح ليس بين الشرق والغرب من يعرف هذا غيري!

حفظ من الصغر:

الخطيب عن الأزهري قال: بلغني أن الدارقطني حضر في حداثته مجلس إسماعيل الصفار فجعل ينسخ جزءًا كان معه، وإسماعيل يملي، فقال رجل: لا يصح سماعك وأنت تنسخ، فقال الدارقطني: فهمي للإملاء خلاف فهمك، كم تحفظ مما أملى الشيخ؟ فقال: لا أحفظ، فقال الدارقطني: أملي ثمانية عشر حديثاً الأول عن فلان ومتنه كذا...

ومر في ذلك حتى أتى على الأحاديث..

---

(١) سؤالات الحاكم، للدارقطني سؤالات عالم لعالم فيها فوائد جليلة، والكتاب مطبوع بتحقيق الشيخ موفق بن عبد الله بن عبد القادر.

أحفظ أهل الدنيا:

قال مقيده: من أنواع علوم الحديث بل من أجلِّها وأصعبها: معرفة علل الحديث، وهو علم النخبة من الحفاظ، لا يضطلع به إلاَّ الكامل منهم.

وللإمام الدارقطني مصنف في العلل مشهور، هو من أعظم المصنفات في هذا الفن، وهو كتاب مبارك ميسر للمستفيد. وصعوبة هذا الفن من حيث إنه لا بد للحديثي من جمع عامة طرق الحديث في مكان واحد، ولا تتحقق معرفة العلل بدون هذا الجمع، وكلما استوفى الجمع كان أقرب للإصابة، ثم ينظر الحديثي بعد ذلك في الترجيح.

فهذا مما يحتاج إلى عمر كي يحرره، ثم هو لن يسلم بعدُ من الأخطاء، والعجيب أن الدارقطني وضع كتاب العلل إملاء دون سابق تحضير، بل بحسب سؤال العالم العارف أبي بكر البرقاني، فقال أبو بكر البرقاني الحافظ: كان الدارقطني يملي عليَّ العلل من حفظه.

وسأله الخطيب: هل كان أبو الحسن يملي عليك العلل من حفظه؟ قال: نعم، أنا الذي جمعتها وقرأها الناس من نسختي.

شرح قصة الإملاء:

قال: وسألت البرقاني قلت لَه: هل كان أبو الحسن الدارقطني يملي عليك العلل من حفظه؟ فقال: نعم، ثم شرح لي قصة جمع العلل، فقال: كان أبو منصور ابن الكرخي يريد أن يصنف مسنداً معلَّلاً، فكان يدفع أصوله إلى الدارقطني يعلِّم لَه على الأحاديث المعللة، ثم يدفعها أبو منصور إلى الوراقين فينقلون كل حديث منها في رقعة.

فإذا أردت تعليق كلام الدارقطني على الأحاديث نظر فيها أبو الحسن ثم أملى علي الكلام من حفظه، فيقول: حديث الأعمش عن أبي وائل، عن

عبد الله بن مسعود الحديث الفلاني، اتفق فلان وفلان على روايته وخالفهما فلان، ويذكر جميع ما في ذلك الحديث، فأكتب كلامه في رقعة مفردة.

وكنت أقول لَه: لم تنظر قبل إملائك الكلام في الأحاديث، فقال: أتذكر ما في حفظي بنظري. ثم مات أبو منصور والعلل في الرقاع، فقلت لأبي الحسن بعد سنين من موته: إني قد عزمت على أن أنقل الرقاع إلى الأجزاء وأرتبها على المسند، فأذن لي في ذلك وقرأتها عليه في كتابي، ونقلها الناس من نسختي.

فقال الذهبي: إنْ كان كتاب العلل الموجود قد أملاه الدارقطني من حفظه كما دلت هذه الحكاية، فهذا أمر عظيم، يقضى به للدارقطني أنه أحفظ أهل الدنيا.

وكان أبو عبد الرحمن السلمي يقسم ويقول: شهدت بالله أن شيخنا الدارقطني لم يخلق على أديم الأرض مثله في معرفة حديث رسول الله ﷺ، وكذلك الصحابة والتابعين وأتباعهم..

ما في الدارقطني غلو:

قال أبو بكر البرقاني: وكنت أكثر ذكر الدارقطني والثناء عليه بحضرة أبي مسلم بن مهران الحافظ، فقال لي أبو مسلم: أراك تفرط في وصفه بالحفظ، فسله عن حديث الرضراض عن ابن مسعود.

فجئت إلى أبي الحسن فسألته عنه، فقال: ليس هذا من مسائلك، وإنما قد وُضِعتَ عليه، فقلت: نعم، فقال: ومن الذي وضعك على هذه المسألة؟ فقلت: لا يمكنني أن أسميه، فقال: لا أجيبك أو تذكره، فأخبرته، فأملى علي أبو الحسن حديث الرضراض باختلاف وجوهه، وذكر خطأ البخاري فيه، فألحقته بالعلل، ونقلته إليها.

مداعبة حديثية:

الخطيب عن العتيقي قال: حضرت أبا الحسن وجاءه أبو الحسين البيضاوي بغريب ليقرأ له شيئاً، فامتنع، واعتلَّ ببعض العلل، فقال: هذا غريب، وسأله أن يملي عليه أحاديث، فأملى عليه من حفظه مجلساً تزيد أحاديثه على العشرين، متن جميعها: «نِعم الشيء الهدية أمام الحاجة».

قال: فانصرف الرجل ثم جاءه بعد وقد أهدى له شيئاً، فقرَّبه وأملى عليه سبعة عشر حديثاً، متون جميعها: «إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه».

ثم إنّ الذهبي طرب لها وقال: هذه حكاية صحيحة، وهي دالة على سعة حفظ هذا الإمام..

ثناء واعتراف:

قال أبو بكر: وقرأت بخط حمزة بن محمد بن طاهر الدقاق في أبي الحسن الدارقطني:

جعلناك فيما بيننا ورسولنا ... وسيطاً فلم تظلم ولم تتحوبِ
فأنت الذي لولاك لم يعلم الورى ... ولو جهدوا ما صادق من مكذبِ

خذ متناً يعطك إسناداً:

قال الأزهري: كنت أحضر عند ابن بكير (هو: أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن عبد الله الصيرفي) وبين يديه أجزاء، فأنظر فيها، فيقول: أيما أحب إليك، تذكر لي متن ما تريد من هذه الأجزاء حتى أخبرك بإسناده، أو تذكر إسناده حتى أخبرك بمتنه؟!

قال: فكنت أذكر لَه المتون فيحدثني بأسانيدها كما هي حفظاً، فعلت ذلك معه مراراً كثيراً، وكان ثقة لكنهم حسدوه وتكلموا فيه[1].

(١) تاريخ بغداد ٨/ ١٣، تذكرة الحفاظ ٣/ ١٠١٧، طبقات الحفاظ ص ٤٠٤.

شهادة زكية:

ممن عُنيَ بالسنة حفظاً وفهماً أبو بكر محمد بن أحمد الإسفرائيني (ت ٤٠٦هـ)، قال فيه أبو عبد الله بن البيِّع: أشهد على أبـي بكر أنه يحفظ من حديث مالك وشعبة والثوري ومسعر أكثر من عشرين ألف حديث[1].

عبيدٌ العجل:

من تلاميذ يحيـى بن معين، ومن خلفائه في الحفظ والمعرفة: الحافظ الكبير المجود الحسين بن محمد البغدادي (ت ٢٩٤هـ)، لقّبه شيخه: عبيدٌ العجل، كان ينتخب لأقرانه، وله في الانتخاب عادة غريبة.

قال أبو أحمد بن عدي: حدثنا ابن عُقْدَة قال: كنا نحضر مع عبيد فينتخب لنا، فإذا أخذ الكتاب بيده طار ما في رأسه! فنكلمه فلا يرد، فإذا فرغ قلنا: كلَّمناك فلم تجبنا؟! قال: إذا أخذت الكتاب بيدي يطير عني ما في رأسي، يمر بـي حديث الصحابـي، وأنا أحتاج أن أفكر في مسندِ ذلك الصحابـي، من أوله إلى آخره، هل الحديث فيه أم لا؟ أخاف أن أزل في الانتخاب، وأنتم شياطين قد قعدتم حولي![2].

يحفظ الغريب المصنف:

قال مقيده: لم تقتصر عناية هؤلاء السادة على حفظ المتون والأسانيد، بل تجاوزتها إلى كتب الغريب والشروح.

وهذا الحافظ المقرىء علي بن الحسن بن علي بن ميمون الدمشقي الربعي، يعرف بابن أبـي رزوان (ت ٤٣٦هـ)، كان يحفظ ألف حديث

---

(١) التذكرة ٣/ ١٠٦٤، طبقات الحفاظ ص ٤١٦.

(٢) السير ١٤/ ٩٠ ــ ٩١.

بإسنادها من حديث الحافظ ابن جوصاء الدمشقي.. وكان يحفظ كتاب الغريب لأبي عبيد[1]، أخبر بذلك الكتاني.

والغريب كتاب حافل جليل القدر، وحفظه ليس بالأمر الهين، لما فيه من وحشي الكلام، وغريب التراكيب.

وممن كان يحفظ غريبي أبي عبيد وابن قتيبة: أبو عمر أحمد بن عبد الله ابن محمد اللخمي الإشبيلي، يعرف بابن الباجي، توفي سنة: **٣٩٦هـ**[2].

وكتاب غريب الحديث من مصنفات الحافظ المقرىء الفقيه اللغوي أبي عبيد القاسم بن سلاَّم الهروي، وقد أفردتُه في دراسة مستقلة عنوانها: جهود الإمام أبي عبيد القاسم بن سلام في علوم القراءات وتحقيق اختياره فيها، ولم أذكره هنا لأني ترجمته هناك.

وكان أبو عبيد حافظاً كبيراً، سُمِع يقول: ليس عليّ في حفظ خمسين حديثاً مؤونة!

زر قميص الحافظ:

قال الخليلي في سرد مناقب أبي أحمد بن عدي الجرجاني ــ صاحب الكامل ــ:

عديم النظر حفظاً وجلالة، سألت عبد الله بن محمد، قلت: كان ابن عدي أحفظ أم ابن قانع؟ قال: ويحك، زر قميص ابن عدي أحفظ من عبد الباقي بن قانع.

وسمعت أحمد بن أبي مسلم الفارسي الحافظ يقول: لم أر مثل أبي أحمد بن عدي الجرجاني، فكيف فوقه في الحفظ؟ وكان قد لقي

---

(١) التذكرة ٤/١١٠٨

(٢) التذكرة ٣/١٠٥٨.

أبا القاسم الطبراني وأبا أحمد الكرابيسي (الحاكم) والحفاظ، وقال لي: كان حفظ هؤلاء تكلُّفاً، وكان أبو أحمد بن عدي حفظه طبعاً[١].

حافظ من الأندلس:

هو عُليم بن عبد العزيز الأندلسي، الإمام الحافظ، العمري النسب.

قال الأبار: كان أحد العلماء الزهاد، أقرأ القرآن والفقه، وكان صاحب فنون، كثير المحفوظ جدًّا، لا سيما الموطأ والصحيحين، وكان يقول: ما حفظت شيئاً فنسيته. اهـ[٢]، توفي عُليم سنة ٥٦٤ في ذي القعدة.

اقرأ الإسناد يقرأ المتن:

في صفر سنة ٥٠٠هـ ولد الحافظ الكبير عبد الرحيم بن محمد بن أحمد، أبو الخير الأصبهاني. قال ابن النجار: من حفاظ الحديث، قال جماعة: كان يحفظ الصحيحين، وكانوا يفضلونه على أبي موسى المديني في الحفظ[٣].

قال الضياء المقدسي: سمعت عبد الله الجبائي يقول: كان أبو الخير يحفظ صحيح البخاري، ويقول: من أراد أن يقرأ المتن حتى أقرأ له الإسناد، ومن أراد أن يقرأ الإسناد حتى أقرأ المتن[٤].

وممن اشتهر بحفظ الصحيحين: الشيخ العالم عبد الله بن عيسى السرقسطي، كان يحفظ الصحيحين، وسنن أبي داود.

---

(١) الإرشاد ٢/ ٧٩٤ ـ ٧٩٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥١٩.

(٣) المستفاد ص ١٥٩.

(٤) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٣٢٢، سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٥٧٥.

فقيه حافظ:

الشيخ الفقيه أبو علي الحسن بن إبراهيم الفارقي، شيخ الشافعية. قال الذهبي: لزم الشيخ أبا إسحاق حتى برع وفاق، وحفظ المهذب، ثم تفقه على أبي نصر بن الصباغ وحفظ عليه الشامل كله.

قال عمر بن الحسن الهمذاني: كان أبو علي الفارقي يقول لنا: كررت البارحة الربع الفلاني من المهذب، كررت البارحة الربع الفلاني من الشامل[١]!

حافظ الشام:

من مَصَادِري في تَعْليقِ هذا المجموع كتاب: تاريخ دمشق للحافظ ابن عساكر، وهذه إلماعة من سيرة مؤلفه:

هو مؤرخ الشام وحافظها الكبير علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين أبو القاسم ابن عساكر، صاحب التاريخ العظيم، وقد طبع مؤخراً في عشرات المجلدات.

ولد سنة ٤٩٩هـ، وسمع باعتناء أخيه وهو ابن ست، وعدد شيوخه فاق الألف وخمسمائة، قال فيه الذهبي: كان فهماً حافظاً، متقناً ذكيًّا، بصيراً بهذا الشأن، لا يلحق شأوه، ولا يشق غباره، ولا كان له نظير في زمانه[٢].

قال الحافظ ابن الدمياطي: سمعت شيخنا عبد الوهاب بن علي الأمين يقول: كنتُ يوماً مع الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وأبي سعد ابن السمعاني نمشي في طلب الحديث ولِقاء الشيوخ، فلقينا شيخاً، فاستوقفه

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/٦٠٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢٠/٥٥٦.

ابن السمعاني ليقرأ عليه شيئاً، وطاف على الجزء الذي هو سماعه في خريطته، فلم يجده، وضاق صدره، فقال لَه ابن عساكر: ما الجزء الذي هو سماعه؟ فقال: كتاب البعث والنشور لابن أبي داود، سمعه من أبي النضر بن الزينبي، فقال له: لا تحزن، وقرأه عليه من حفظه أو بعضه، الشك من شيخنا[١].

وقال أبو الفتح المختار بن عبد الحميد: قدم علينا أبو علي بن أبي الوزير، فقلنا: ما رأينا مثله، ثم قدم علينا أبو سعد السمعاني، فقلنا: ما رأينا مثله، حتى قدم علينا هذا ــ وأشار إلى ابن عساكر ــ فلم نر مثله[٢].

وكان أبو العلاء الهمذاني العطار المقرىء المحدث الحنبلي يقول لمن استأذنه أن يرحل في طلب العلم: إن عرفت أستاذاً أعلم مني أو في الفضل مثلي فحينئذ آذن إليك أن تسافر إليه، اللَّهُمَّ إلاَّ أن تسافر إلى الحافظ ابن عساكر، فإنه حافظ كما يجب. قال التاج المسعودي: فقلت: من هذا الحافظ؟ فقال العطار: حافظ الشام أبو القاسم ابن عساكر وأثنى عليه[٣].

توفي ابن عساكر سنة ٥٧١هـ، في رجب.

أبو العلاء العطار:

هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد بن سهل، أبو العلاء العطار الهمذاني، مقرىء جليل، وحافظ نبيل، ولغوي علامة، نبغ في هذه العلوم الثلاثة، وألف فيها، مع الزهد والديانة وحسن الاعتقاد.

---

(١) المستفاد من ذيول تاريخ بغداد ١١/ ١٨٧، وهو انتقاء من كتاب الحافظ محب الدين ابن النجار ذيل تاريخ بغداد.

(٢) طبقات ابن السبكي ٧/ ٢١٧.

(٣) طبقات ابن السبكي ٧/ ٢١٨.

قال الحافظ عبد القادر الرهاوي: . . أبو العلاء العطار أربى على أهل زمانه في كثرة السماعات، مع تحصيل أصول ما سمع، وجودة النسخ وإتقان ما كتب بخطه، فإنه ما كان يكتب إلاَّ منقوطاً معرباً. . وبرع على حفاظ عصره في حفظ ما يتعلق بالحديث من الأنساب والتواريخ والأسماء والكنى والقصص والسير. .

ولقد كان يوماً في مجلسه وجاءته فتوى في أمر عثمان رضي الله عنه، فأخذها وكتب فيها من حفظه ــ ونحن جلوس ــ درجاً طويلاً، ذكر فيه نسبه ومولده، وأولاده وما قيل فيه إلى غير ذلك.

ثم ذكر مؤلفاته في القراءات وهي كثيرة، ثم قال: وبرع عنده جماعة كثيرة في القراءات، وكان إذا جرى ذكر القراء عنده يقول: فلان مات عام كذا، ومات فلان في سنة كذا، وفلان يعلو إسناده على فلان بكذا.

قال: وكان إماماً في النحو واللغة، سمعتُ أن من جملة ما حفظ في اللغة كتاب الجمهرة. وخرج لَه تلامذة في العربية أئمة يقرأون بهمذان، وبعض أصحابه رأيته فكان من محفوظاته كتاب الغريبين للهروي.

قال: وسمعت من أثق به يحكي قال: رأى السلفي طبقة بخط الحافظ يعني أبا العلاء فقال: هذا خط أهل الإتقان، وسمعته يحكي عنه أنه ذكر له فقال: قدمه دينه.

قال: وسمعت ابن عساكر يقول ــ وذكر رجلاً من أصحابه سافر في طلب الحديث ــ فقال: إن رجع ولم يلق الحافظ أبا العلاء ضاعت سفرته. .

سيرته أيام الطلب:

قال عبد القادر: سمعته يقول: كنت ببغداد وأبيت في المساجد، وآكل خبز الدُّخْن.

وسمعت شيخنا أبا الفضل بن يمان بهمذان يقول: رأيت الحافظ أبا العلاء في مسجد من مساجد بغداد يكتب وهو قائم على رجليه، لأن السراج كانت عالية!

قال: ثم نشر الله ذكره في الآفاق، وعظم شأنه في قلوب الملوك وأرباب المناصب.. قال: كان يُقرىء نصف نهاره الحديث، ونصفه القرآن والعلم. توفي في جمادى سنة ٥٦٩هـ[١].

قلت: كتاب أبي العلاء في القراءات المسمى: غاية الاختصار من أعظم كتب القراءات وأنفعها، وهو كتاب مطبوع، ومنه نسخة مخطوطة كتبها حنبلي نجدي فيما أظن موجودة في الرياض.

وله جواب في العقيدة أرسله لأهل الشام جواباً لفتوى وردت إليه منهم، فيها أحاديث يرويها بالإسناد أملاها من حفظه، ومن هذه العقيدة نسخة في ظاهرية دمشق بخط الحافظ عبد الغني المقدسي فيما أحسب، والله أعلم.

الكنز المخفي:

هو الحافظ الفهم محمد ابن المقرىء الكبير أبي بكر عمر بن أحمد بن عمر الأصبهاني، مولده سنة ٥٠١هـ، ووفاته سنة ٥٨١هـ. مسموعاته كثيرة، حصل من الكتب والأجزاء ما لم يحصله غيره من أهل زمانه، مع الحفظ والإتقان، وله كتب وتعاليق مفيدة.

كان ربما قرأ على الشيوخ مروياتهم من حفظه، وكان يحفظ كل شيء يحتاجه، حتى إنه حفظ معرفة علوم الحديث وكمية أجناسه لأبي عبد الله الحاكم، وعرضه على إسماعيل التيمي، ونسخة إسماعيل من الأصول التي اعتمدتها في إخراج المعرفة.

---

(١) ترجمة عبد القادر، لأبي العلاء نقلها ابن نقطة في التقييد ١/ ٢٩٠ ـ ٢٩٢، والذهبي في السير ٢١/ ٤٠.

ترجم لأبي موسى الحافظ عبد القادر الرهاوي في ورقات، جاء فيها:

... حصل من المسموعات بأصبهان ما لم يحصل لأحد في زمانه فيما أعلم، وانضم إلى كثرة مسموعاته الحفظ والإتقان.

سمعته يقول: قرأت كتاب علوم الحديث على الحافظ إسماعيل بن محمد بن الفضل من حفظي.

وفيه من التواضع بحيث إنه يقرىء كل من أراد ذلك من صغير أو كبير، ويرشد المبتدئين، حتى رأيته يحفِّظ صبياناً القرآن في الألواح. ولا يكاد يستتبع أحداً إذا مضى إلى موضع، حتى إنني تبعته مرة فقال لي: ارجع، ثم تبعته مرة أخرى فالتفت إلي مغضباً، وقال لي: ألم أقل لك لا تمش خلفي، أنت إذا مشيت خلفي لا تنفعني، وتنقطع أنت عن النسخ[١].

وكان أبو مسعود كوتاه يقول: أبو موسى كنز مخفي[٢]!

ذكر له الذهبي كرامات ثابتة، ومنامات حسنة، وقال: سمعت شيخنا العلامة أبا العباس بن عبد الحليم ــ هو ابن تيمية ــ يثني على حفظ أبي موسى، ويقدمه على الحافظ ابن عساكر باعتبار تصانيفه ونفعها.

قلت: لو أن أصبهان سلمت من سيف التتار لمَّا اجتاحوها سنة **٦٣٢هـ** لأدرك ابن تيمية وغيره من أهل الطبقة أصحاب أبي موسى المديني.

ولكن في تقديم أبي موسى على ابن عساكر نظر، فقد قال الحافظ عبد العظيم المنذري: سألت الحافظ أبا الحسن المقدسي عن أربع تعاصروا، فقلت: أيما أحفظ، أبو القاسم ابن عساكر أو أبو الفضل بن ناصر؟ فقال: ابن عساكر، قلت: أيما أحفظ أبو موسى المديني أو ابن

---

(١) التقييد، لابن نقطة ١/٧٩ ــ ٨٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٢١/١٥٦.

عساكر؟ فقال: ابن عساكر، فقلت: أيما أحفظ ابن عساكر أو السلفي؟ فقال: السلفي شيخنا، السلفي شيخنا.

قال الذهبي: هذا الجواب محتمل كما ترى، يعني بالتفضيل بين ابن عساكر والسلفي، والظاهر أنه أراد بالسلفي المبتدأ وشيخنا الخبر، ولم يقصد الوصف، وإلا فلا يشك عارف بالحديث أن أبا القاسم حافظ زمانه وأنه لم ير مثل نفسه(١).

حافظ من بعلبك:

من المبرزين من أبناء لبنان في الحفظ والمعرفة: الحافظ الكبير القدوة التقي أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن عيسى البعلبكي الحنبلي، مولده سنة **٥٧٢**هـ، وتوفي سنة **٦٥٨**هـ بدمشق.

نشأ يتيماً في دمشق التي نزح إليها، وفيها حفظ القرآن وجوَّد الكتابة، ثم حفظ الجمع بين الصحيحين للحميدي بأكمله، وقد مر ذلك.

قال الذهبي: ذكره الحافظ عمر بن الحاجب فأطنب في وصفه فأسهب، وأغرب وأعرب، فقال: اشتغل بالفقه والحديث إلى أن صار إماماً حافظاً ــ إلى أن قال ــ: لم ير في زمانه مثل نفسه في كماله وبراعته، جمع بين علمي الشريعة والحقيقة، وكان حسن الخُلق والخَلق، نفَّاعاً للخلق، مطَّرِحاً للتكلُّف.

من جملة محفوظه: الجمع بين الصحيحين للحميدي.

وحدثني أنه حفظ صحيح مسلم جميعه وكرر عليه في أربعة أشهر! وكان يكرر علي أكثر مسند أحمد من حفظه، وأنه كان يحفظ في الجلسة الواحدة ما يزيد على سبعين حديثاً.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢١/ ٢٥.

وقال ولده قطب الدين: حفظ الجمع بين الصحيحين وحفظ صحيح مسلم في أربعة أشهر، وحفظ سورة الأنعام في يوم واحد، وحفظ ثلاث مقامات من الحريرية في بعض يوم(١).

في مجلس الملك الكامل:

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: برع في علم الحديث، وحفظ الجمع بين الصحيحين بالفاء والواو، وحفظ قطعة صالحة من مسند أحمد.

وقد حصلت لَه وجاهة عظيمة عند الملوك.. وقدم الكامل على أخيه الأشرف دمشق فأنزله القلعة وتحول الأشرف لدار السعادة، وجعل يذكر للكامل محاسن الشيخ الفقيه ـ اليونيني ـ فقال الكامل: أحب أن أراه، فأرسل إليه إلى بعلبك بطاقة، واستحضره، فوصل إلى دار السعادة، فنزل الكامل إليه وتحدثا وتذاكرا شيئاً من العلم، فجرت مسألة القتل بالمثقّل، وجرى ذكر حديث الجارية التي قتلها اليهودي، فرضَّ رأسها بين حجرين، فأمر رسول الله ﷺ بقتله.

فقال الكامل: إنه لم يعترف، فقال الشيخ الفقيه: في صحيح مسلم (فاعترف)، فقال الكامل: أنا اختصرت صحيح مسلم ولم أجد هذا فيه.

فأرسل الكامل فأحضر خمسة مجلدات اختصاره لمسلم، فأخذ الكامل مجلداً، والأشرف آخر، وعماد الدين ابن موسك آخر، وأخذ الشيخ الفقيه مجلداً، فأول ما فتحه وجد الحديث، كما قال الشيخ الفقيه، فتعجب الكامل من استحضاره وسرعة كشفه. اهـ(٢).

---

(١) تذكرة الحفاظ ٤/ ١٤٤٠، المقصد الأرشد ٢/ ٣٥٧.

(٢) البداية والنهاية ١٣/ ٢٤١.

النسخة الصحيحة :

من مفاخر دمشق، ومن علمائها الكبار، جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن الزكي المزي، صاحب الكتب المحررة، مثل تهذيب الكمال، وتحفة الأشراف، أخذ عنه أبو عبد الله الذهبي، وتدبَّج مع ابن تيمية والبرزالي، وكان حافظاً عالماً بالنسخ وباختلافاتها.

قال الصفدي: سمعت صحيح مسلم على البندنيجي وهو حاضر ــ أي المزي ــ بقراءة ابن طُغريل، وعدة نسخ صحيحة حاضرة، يقابل فيها، فيرد الشيخ جمال الدين المزي على ابن طغريل اللفظ، فيقول ابن طُغريل: ما في النسخة إلاَّ ما قرأت، فيقول من في يده بعض تلك النسخ الصحيحة: هو عندي كما قال الشيخ، أو هو مظفى عليه، أو مصيب، أو في الحاشية تصحيح ذلك، ولما تكرر ذلك، قلت أنا لَه: ما النسخة الصحيحة إلاَّ أنت[1]!.



(١) أعيان العصر ٨/٣٦٣ أ، بواسطة: ثلاث تراجم نفيسة ص ٤٧، تحقيق ابن ناصر العجمي.

فصل
مع كُتَّاب السنّة

كاتب لا يكاد يخطىء:

قال أبو أسامة حماد بن أسامة القرشي مولاهم: كتبت بأصبعي هاتين مائة ألف حديث، قال أحمد: كان ثبتاً لا يكاد يخطىء[1].

كاتب صغير:

كان الإمام المكي سفيان بن عيينة ممن بدأ بكتب السنة صغيراً، قال شعبة: رأيت هذا الغلام ـ يعني سفيان ـ عند عمرو بن دينار في ألواح طويلة، كألواح السماكين، في أذنه قرط، أو قال: شنف[2].

إبراهيم بن مهدي عن حماد بن زيد قال: رأيت سفيان بن عيينة غلاماً له ذؤابة ومعه ألواح عند عمرو بن دينار[3].

قلت: ابن عيينة أوثق الرواة عن عمرو بل يكاد يكون راويته، وكذلك هو مع شيخه الزهري.

وفي الكامل لابن عدي: عن عقيل قال: جاء سفيان بن عيينة إلى ابن شهاب وهو غلام في أذنه قرط، فأخذه فأدخله على أهله، فجعل يعجبهم تطلبه العلم على الصغر. فهذا يفيد أنه لم يكن بلغ الحلم بعد.

---

(١) تذكرة الحفاظ ١/ ٣٢٢.

(٢) الكامل ١/ ٩٦.

(٣) الكامل ١/ ٩٦.

وفيه أيضاً: عن ابن عيينة قال: قال الزهري: ما رأيت طالباً للعلم أصغر منه، قال: وسمعت منه وأنا ابن خمس عشرة[1].

شيخ المتثبتين:

كان يضرب بعفّان بن مسلم الصفار رحمه الله المثل في التثبت وشدة الأخذ والمعارضة، قال فيه أحمد: عفان أثبت من ابن مهدي، لزمناه عشر سنوات[2]، وقال أبو حاتم: إمام ثقة، متين متقن[3].

قال جعفر الطيالسي: سمعت عفان يقول: يكون عند أحدهم حديث فيخرجه بالمقرعة، كتبت عن حماد عشرة آلاف حديث، ما حدثت منها بألفين، وكتبت عن عبد الواحد بن زياد ستة آلاف حديث، ما حدثت منها بألف، وكتبت عن وهيب أربعة آلاف، ما حدثت منها بألف حديث[4].

مع عَلَم السنة يحيى بن معين:

هو إمام المحدثين وشيخ النقاد على الحقيقة: يحيى بن معين المري الغطفاني مولاهم، خلَّف له أبوه ثروة تزيد على ألف ألف درهم، وخمسين ألف درهم فأنفق ذلك كله على الحديث وطلبه، حتى لم يبق له نعل يلبسه[5].

سئل كم كتبت من الحديث؟ فقال: كتبت بيدي هذه ستمائة ألف حديث.

---

(١) ١/ ٩٧.
(٢) الجرح والتعديل ٧/ ٣٠.
(٣) الجرح والتعديل ٧/ ٣٠.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٢٥٠.
(٥) الكامل، لابن عدي ١/ ١٢٥، وفيات الأعيان ٦/ ١٣٩.

قال أحمد بن عقبة: وأظن أن المحدثين كتبوا له بأيديهم ستمائة ألف وستمائة ألف[1]. قلت: ليس هذا بكثير، فقد كان ربما كتب عن المحدث الواحد أكثر من أربعين ألف حديث.

قال أبو حاتم: لزم يحيى أبا سلمة موسى بن إسماعيل فكتب عنه قريباً من ثلاثين أو أربعين ألف حديث[2]. أما صاحبه علي بن المديني فقال: ما رأيت في الناس مثله، وما نعلم أنّ أحداً من لدن آدم كتب من الحديث ما كتب يحيى بن معين.

قال محمد بن نصر: سمعت يحيى بن معين يقول: كتبت بيدي ألف ألف حديث، قال الذهبي: يعني بالمكرر، ألا تراه يقول: لو لم نكتب الحديث خمسين مرة ما عرفناه[3].

وقال ابن سعد: يحيى بن معين ويكنى أبا زكريا، وقد كان أكثرَ من كتابة الحديث وعُرف به، وكان لا يكاد يحدث، وتوفي بمدينة الرسول وهو متوجه إلى الحج.

تركة يحيى بن معين:

قال صالح بن أحمد الحافظ: خلَّف يحيى بن معين من الكتب مائة قِمَطر وأربعة عشر قمطراً، وأربعة حباب شرابية مملوءة كتباً[4].

---

(١) الكامل، لابن عدي ١/ ١٢٣.

(٢) الجرح والتعديل ١/ ٣١٥.

(٣) السير ١١/ ٧١، التذكرة ٢/ ٤٢٩، وفي التهذيب ١١/ ٢٨٢ قال: من ثلاثين وجهاً، وهي رواية الدوري عنه.

(٤) كذا نقل الذهبي، وفي الوفيات، لابن خلكان ٦/ ١٤٠ (وثلاثين قمطر) بدل أربعة عشر.
والقمطر: السفط الذي تحفظ فيه الكتب، والحب: الجرة الكبيرة.

قال محمد بن نصر: دخلت عليه فوجدت عنده كذا وكذا سفطاً، وسمعته يقول: كل حديث لا يوجد هاهنا وأشار بيده إلى الأسفاط فهو كذب[1].

استطراد في سيرة أبي زكريا رضي الله عنه:

لتقدم يحيى بن معين في علم الجرح والتعديل، ولحيازته قصب السبق من لدن آدم إلى زماننا في كثرة كتابة السنة، لم يجز إخلاء هذا الموضع من استطرد في سيرة هذا الإمام، الذي يقول فيه أحمد بن حنبل: (خلق الله يحيى لهذا الشأن).

هو أبو زكريا البغدادي، مولى بني مرة، ذكر ابن حبان في الثقات أن أصله من سرخس، طاف في البلدان في طلب هذا الشأن، وتخصص في معرفة الأسانيد، وتمييز الثقات من الضعفاء، وكان إليه المرجع في ذلك.

قال العباس الدوري: رأيت أحمد بن حنبل جاثياً بين يدي يحيى بن معين وهو يقول: يا أبا زكريا ما تقول في فلان..

أبيات في الطعن على يحيى والرد عليه:

ولما أراد بعض من لا فقه له الطعن في علم الجرح والتعديل، أخذ في الطعن على يحيى بن معين، وتجهيله في ما تصدى له، لأنه عَلَم هذا الفن ورمزه، فقال أبو حيان:

ويحيى وما يحيى وما ذو رواية	وما إن ليحيى ذكر علم به يحيا
سوى ثلب أقوام مضوا لسبيلهم	سيُسأل عنهم حين يُسئل عن أشيا

إلى غير ذلك مما يمل إيراده، ويقل مفاده، مما لم يعتمد عليه أحد

---

(١) تهذيب التهذيب ١١/ ٢٨٢.

على شيء منه قديماً ولا حديثاً[1].

ولي في الرد على هذا الطاعن:

ويحيى وما يحيى وقد كان عالماً ستحشر يوم الدين آراءه ريّا
ومن قال بالتضليل ما ذو رواية فقد قال إفكاً نبعه غيّا
فيحيى إمام ذبّ عن دين أحمد مقولةَ غالٍ فيه أو منقص شيّا
ولولا قوله قد كان ذا ضعف لمن كان ذا ضعف وتثبيته أشيا
لما عُرف المقبول من دين أحمد وما عُرف المردود واحتارت الأحيا

قاضي المحدثين:

قال علي بن المديني: كنت إذا قدمت إلى بغداد منذ أربعين سنة كان الذي يذاكرني أحمد بن حنبل، فربما اختلفنا في الشيء فنسأل يحيى بن معين، فيقوم فيخرجه، ما كان أعرفه بموضع حديثه.

قلت: إخراج حديث من بين ستمائة ألف وستمائة ألف شيء يخضع له، ولئن كان قد فهرس أحاديثه فهذا أدعى للعجب.

وقال عمرو الناقد: ما كان أصحابنا أعلم بالإسناد من يحيى بن معين، ما قدر أحد أن يقلب عليه إسناداً قط.

---

(١) قله السخاوي في الإعلان بالتوبيخ ص ١٠٥.
حيث شنع على أبي حيان، وترجم محققه المستشرق لأبي حيان الأندلسي، وهذا خطأ بل هو أبو حيان التوحيدي المتفلسف.
وقد شنَّع العلامة محمود شاكر على تحقيق هذا الأعجمي لهذا الكتاب، وقدم عليه تحقيق حسام القدسي، ولم أقف على نسخة القدسي، وكلام الشيخ شاكر في مقدمة تحقيقه لطبقات ابن سلام، وهذا الخطأ من المستشرق يضاف لما ذكره شاكر هناك.

إنصاف المشايخ:

قال ابن الرومي: ما رأيت أحداً قط يقول الحق في المشايخ غير يحيى.

قلت: يقوله ابن الرومي في سياق مدح أبي زكريا، وإلا فنعلم قطعاً عن أحوال غيره من النقاد أنهم ما تكلموا في الرجال بغير الحق.

وقال هارون بن بشير: رأيت يحيى بن معين استقبل القبلة رافعاً يديه يقول: اللَّـٰهُمَّ إن كنت تكلمت في رجل وليس هو كذاباً فلا تغفر لي.

قال أبو حاتم: ابن معين لا يتكلم إلاَّ عن بصيرة وفهم.

هيبة يحيى بن معين عند الشيوخ:

قال هارون بن معروف: قدم إلينا بعض الشيوخ من الشام فكنت أول من بكَّر إليه، فدخلت عليه فسألته أن يملي علي شيئاً، فأخذ الكتاب يملي عليَّ، فإذا بإنسان يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا؟ قال: أحمد بن حنبل، فأذن له والشيخ على حالته، والكتاب في يده لا يتحرك، فإذا بآخر يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا؟ فقال: أحمد الدورقي، فأذن له والشيخ على حالته، والكتاب في يده لا يتحرك، فإذا بآخر يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا؟ فقال: عبد الله بن الرومي، فأذن له الشيخ، والكتاب في يده لا يتحرك، فإذا آخر يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا؟ فقال: أبو خيثمة زهير بن حرب، فأذن له والشيخ على حالته، والكتاب في يده لا يتحرك، وإذا بآخر يدق الباب، فقال الشيخ: من هذا؟ قال: يحيى بن معين، قال: فرأيت الشيخ ارتعدت يده وسقط الكتاب من يده[1].

---

(١) الكامل، لابن عدي ١/ ١٢٢.

قلت: أبو زكريا أعلم هؤلاء بالعلل وبالأحاديث المغلوطة وبأحوال الرواة.

ولما قدم عبد الوهاب بن عطاء بغداد كتب إلى أهل البصرة: قدمت بغداد وقبلني يحيى بن معين والحمد لله[1]!.

فبحق لقد كان يحيى قبان المحدثين، وميزان الرواة.

غاية الأماني:

محمد بن علي بن داود قال: سمعت يحيى بن معين يقول: أشتهي أن أقع على شيخ ثقة، عنده بيت مليء كتباً أكتب عنه وحدي[2].

طريقة في التوثق عجيبة:

محمد بن سليمان المنقري قال: قدم علينا يحيى بن معين، فكتب عن أبي سلمة التبوذكي، فقال له: إني أريد أن أذكر لك شيئاً فلا تغضب، قال: هاتِ، قال: حديث همام عن ثابت، عن أنس، عن أبي بكر حديث الغار، لم يروه أحد من أصحابك، إنما رواه عفان وحبان، ولم أجده في صدر كتابك، إنما وجدته على ظهره، قال: فتقول ماذا؟ قال: تحلف لي أنك سمعته من همام! قال: ذكرت أنك كتبت عني عشرين ألف حديث، فإن كنتُ عندك صادقاً فما ينبغي أن تكذبني في حديث، وإن كنت عندك كاذباً ما ينبغي أن تصدقني فيها، ولا تكتب عني شيئاً، وترمي به، برة بنت أبي عاصم طالق ثلاثاً إن لم أكن سمعته من همام، والله لا كلمتك أبداً[3]!

---

(١) هذه الترجمة مساقة من تهذيب التهذيب ١١/ ٢٨٦.

(٢) الكامل، لابن عدي ١/ ١٢٤.

(٣) سير أعلام النبلاء ١٠/ ٣٦٣.

خاتمة:

قال عبد الرحمن بن أبـي حاتم: سمعت هارون بن محمد الفلاس المخرمي يقول: إذا رأيت الرجل يقع في يحيـى بن معين فاعلم أنه كذاب يضع الحديث، وإنما يبغضه لما يبين أمر الكذب.

سمعت أبـي يقول: توفي يحيـى بن معين بمدينة رسول الله ﷺ، ووضع على سرير النبـي ﷺ، واجتمع في جنازته خلق كثير، وإذا رجل يقول: هذه جنازة يحيـى بن معين الذاب عن رسول الله ﷺ الكذب، والناس يبكون(١).

كتب الحديث ابن اثنتي عشرة سنة:

قال الحافظ الثقة أبو مسعود أحمد بن الفرات بن خالد الضبـي الـرازي: كتبـت عـن ألـف وسبعمـائـة شيـخ، وكتبـتُ ألـف ألـف حـديـث وخمسمائة ألف حديث، فعملت من ذلك في تواليفي خمسمائة ألف حديث(٢).

قال أحمد بن حنبل: ما تحت أديم السماء أحفظ لأخبار رسول الله ﷺ من أبـي مسعود الرازي، وقال مرة: ما أظن بقي أحد أعرف بالمسندات من ابن الفرات.

قال ابن الفرات: كتبت الحديث وأنا ابن اثنتي عشرة سنة، وذُكرت بالحفظ ولي ثمان عشرة سنة.

---

(١) الجرح والتعديل ٣١٦/١ ـ ٣١٧، ورواه الحاكم في المعرفة ح ١٤٦ من طريق أخرى.

(٢) التذكرة ٥٤٤/٢.

وَرَّقَ لألف شيخ:

من كبار الحفاظ والورَّاقين أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوي البغدادي المتوفَّى سنة ٣١٧هـ.

قال أبو أحمد بن عدي: كان أبو القاسم صاحب حديث، وكان ورَّاقاً في ابتداء أمره، يورِّق على جده وعمه وغيرهما، وكان يبيع أصل نفسه كل وقت..

وفي الإرشاد للخليلي عن عبد الرحمن بن محمد عن أبـي أحمد الحاكم قال: سمعت البغوي يقول: ورَّقت لألف شيخ.

وفي تاريخ بغداد[1] قال البغوي: كنت أورِّق فسألت جدي أحمد بن منيع أن يمضي معي إلى سعيد بن يحيـى بن سعيد الأموي يسأله أن يعطيني الجزء الأول من المغازي عن أبيه، حتى أورِّقه عليه، فجاء معي وسأله فأعطاني، فأخذته وطفت به.

فأول ما بدأت بأبـي عبد الله بن المغلس أريته الكتاب وأعلمته أني أريد أن أقرأ المغازي على الأموي، فدفع إلي عشرين ديناراً وقال: اكتب لي نسخة منه. ثم طفت بعده بقية يومي فلم أزل آخذ عشرين ديناراً وإلى عشرة دنانير وأكثر وأقل إلى أن حصل معي في ذلك اليوم مئتا دينار، فكتبت نسخاً لأصحابها بشيء يسير، وقرأتها لهم، واستفضلت الباقي.

المسمار في الساج:

جمع البغوي إلى التوريق المعرفة والحفظ، وقد حسده بعض قرنائه، وحسبه توثيق ابن أبـي حاتم له، وكذلك الدارقطني، وهو أعلم الناس به،

(١) ١٠/١١٤.

وقد شحن مؤلفاته بالرواية عنه، وقال: كان أبو القاسم بن منيع قلّ ما يتكلم على الحديث، فإذا تكلم كان كلامه كالمسمار في الساج[1].

مائة ألف حديث في الكم:

من نساخ السنة وحفاظها الإمام الكبير الجوال محمد بن المسيب النيسابوري الإسفنجي المتوفَّى سنة ٣١٥هـ.

قال أبو عبد الله الحاكم: كان من العباد المجتهدين، سمعت غير واحد من مشايخنا يذكرون عنه أنه قال: ما أعلم منبراً من منابر الإسلام بقي علي لم أدخله لسماع الحديث.

وسمعت أبا إسحاق المزكي يقول: سمعت محمد بن المسيب يقول: كنت أمشي في مصر وفي كمي مائة ألف حديث، كان دقيق الخط، فصار هذا كالمشهور من شأنه. قال الذهبي: هذا يدل على دقة خطه، وإلا فألف حديث بخط مفسر تكون في مجلد، والكم إذا حمل فيه أربع مجلدات فبالجهد[2].

سِيفَنّة العصر:

للحافظ الكبير أبي علي الحسين بن محمد بن أحمد الماسرجسي النيسابوري المتوفَّى سنة ٣٦٥، مسند وصف أنه أكبر مسند صنف في الإسلام.

كتب بخطه المجلدات، وسمع الكثير، وخرج المسند المعلل في ثلاثة آلاف جزء، فقال الذهبي: مسنده الكبير في نحو من وقر بعير[3].

---

(١) السير ١٤/ ٤٥٣.

(٢) السير ١٤/ ٤٢٥.

(٣) السير ١٦/ ٢٨٨.

قال الحاكم: هو سيفنَّة[1] عصره في كثرة الكتابة، ارتحل إلى العراق في سنة ٣٢١هـ، وأكثر المقام بمصر، وصنف المسند الكبير مهذباً معللاً في ألف جزء وثلاث مائة جزء، وجمع حديث الزهري جمعاً لم يسبقه إليه أحد، وكان يحفظه مثل الماء. وصنف الأبواب والشيوخ والمغازي والقبائل وخرَّج على البخاري ومسلم، وأدركته المنية قبل الحاجة إلى إسناده، ودفن علم كثير بدفنه.

قال: صنف أبو علي حديث الزهري فزاد على محمد بن يحيى الذهلي، وعلى التخمين يكون مسنده بخطوط الورَّاقين في أكثر من ثلاثة آلاف جزء، فعندي أنه لم يصنف في الإسلام مسند أكبر منه.

وعقد أبو محمد بن زياد مجلساً عليه لقراءته، وكان مسند أبي بكر الصديق بخطه في بضعة عشر جزءًا بعلله وشواهده، فكتبه النساخ في نيف وستين جزءًا[2].

ألف جزء عن شيخ واحد:

ممن اشتهر بالنسخ والتوريق وكتابة السنة: ابن الفرات، الحافظ البارع أبو الحسن محمد بن العباس البغدادي المتوفَّى سنة ٣٨٤هـ، وهو غير أحمد بن الفرات الذي مر ذكره.

---

(١) وقع في ترجمة الماسرجسي في التذكرة وغيرها تصحيف، وهو قول الحاكم عنه: هو (سفينة) عصره في كثرة الكتابة، ولا معنى يستفاد لهذه الكلمة، وصوابها: سِيْفَنَّة، وهو لقب للحافظ الكبير: إبراهيم بن ديزيل، لقب بذلك لكثرة نسخه الحديث، وكتابته إياه، فشبه الحاكم الماسرجسي بابن ديزيل في كثرة الكتابة.
وسيفنَّة: ضبطه في القاموس بكسر السين وفتح الفاء والنون المشددة، قال: طائر بمصر لا يقع على شجرة إلاَّ أكل جميع ورقها، ولقب... ابن ديزيل... لقب به لأنه إذا أتى محدثاً كتب جميع حديثه.

(٢) السير ١٦/٢٨٨، تذكرة الحفاظ ٣/٩٠٦، شذرات الذهب ٣/ ٥٠.

قال أبو بكر الخطيب: بلغني أنه كان عنده عن الواعظ علي بن محمد المصري ألف جزء، وأنه كتب مائة تفسير ومائة تاريخ.

قال: وحدثني الأزهري: أن ابن الفرات خلف ثمانية عشر صندوقاً مملوءة كتباً أكثرها بخطه، قال: وكتابه هو الحجة في صحة النقل وجودة الضبط(١).

حِبْر بسبعمائة درهم:

من نساخ السنة وكتبتها الحافظ البارع أبو حفص عمر بن أحمد البغدادي المعروف بابن شاهين (٢٩٧ ــ ٣٨٥)، بدأ الكتابة وله إحدى عشرة سنة. وفي تاريخ الخطيب أنه قال: أول ما كتبت سنة ثمان وثلاث مائة، وصنف ثلاثمائة مصنف.

قال الخطيب: سمعت القاضي أبا بكر الداوودي سمعت ابن شاهين يقول: حسبت ما اشتريت به الحبر إلى هذا الوقت فكان سبع مائة درهم، قال الداوودي: كنا نشتري الحبر أربعة أرطال بدرهم، قال: وكتب أبو حفص بعد ذلك زماناً(٢).

قال مقيده: يكون مجموع ما استهلك ابن شاهين في كتابة السنة ثمانمائة رطل وألفا رطل! فيالله العجب، أي قوم كان هؤلاء، وأي جَلَدٍ كان عندهم.

العبدوي يكتب عشرة آلاف جزء:

وللحافظ الكبير أبي حازم عمر بن أحمد بن إبراهيم المسعودي الهذلي الشهير بالحافظ العبدوي (ت ٤١٧هـ) معرفة وإتقان، وكتابة حسنة،

---

(١) تاريخ بغداد ٣/ ١٢٢ ــ ١٢٣.

(٢) تاريخ بغداد ١١/ ٢٦٧.

قال: كتبت بخطي عن عشرة من شيوخي عشرة آلاف جزء عن كل واحد ألف جزء[1].

نساخ السنة من قزوين:

ذكر الخليلي في ترجمة الخضر بن محمد القزويني (ت ٣٧٤هـ) أنه قال: كتبت بيدي ستة آلاف جزء. اهـ.

قلت: قرأ عليه الخليل أجزاء، وكان رحمه الله من العلماء العزاب[2].

وقال في ترجمة أبي سعيد ميسرة بن علي القزويني: سمعت من يحكي عنه يقول: كتبت بيدي ثلاثة آلاف جزء[3]، قال الرافعي: يقال إنه كتب بيده سبعة آلاف جزء[4].

كاتب بفرد عين:

كان الحافظ أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن علي الصوري الساحلي (**٣٧٧ ـ ٤٤١هـ**) صاحب نكتة وضحك، وكان بفرد عين، لكنه كان شديد الحفظ، قال عبد المحسن الشيحي: ما رأيت مثله، كأنَّه كان شعلة نار، بلسان كالحسام القاطع[5].

قال السِّلفي: كتب الصوري صحيح البخاري في سبعة أطباق من

---

(١) الخبر في تذكرة الحفاظ ص ١٠٧٢.
وأبو حازم لقب عليه بهيئة الكنية، وكنيته أبو حفص، وضبط التقي ابن الصلاح «العبدوي» بفتح الدال وضمها، عزا هذه الفائدة للفلكي في كتابه الألقاب (المقدمة ص ٣٣٢)، والعبدوي من نسل ابن مسعود الصاحب.

(٢) الإرشاد ٢/ ٧٥٣.

(٣) الإرشاد ٢/ ٧٦٤.

(٤) التدوين في تاريخ قزوين ص ٧١٠.

(٥) التذكرة ٣/ ١١١٥.

الورق البغدادي، ولم يكن له سوى عين واحدة[1].

وذكر أبو الوليد الباجي في كتاب فرق الفقهاء: حدثنا أبو عبد الله محمد بن علي الوراق ــ وكان ثقة متقناً ــ أنه شاهد أبا عبد الله الصوري وكان فيه حسن خلق ومزاح وضحك، ولم يكن وراء ذلك إلاَّ الخير والدين، ولكنه كان شيئاً جُبل عليه، ولم يكن في ذلك بالخارق للعادة.

فقرأ يوماً جزءًا على أبـي العباس الرازي وعنّ له أمر أضحكه، وكان بالحضرة جماعة من أهل بلده، فأنكروا عليه وقالوا: هذا لا يصلح ولا يليق بعلمك وتقدُّمك أن تقرأ حديث رسول الله ﷺ وأنت تضحك، وكثروا عليه، وقالوا: شيوخ بلدنا لا يرضون بهذا.

فقال: ما في بلدكم شيخ إلاَّ يحب أن يقعد بين يدي، ويقتدي بـي، ودليل ذلك أني قد صرت إليكم على غير موعد، فانظروا إلى أي حديث شئتم من حديث رسول الله ﷺ اقرؤوا إسناده لأقرأ متنه، أو اقرؤوا متنه حتى أخبركم بإسناده[2].

قلت: ما في يسير المزاح شيء، وقد وضع ابن الذهبـي رحمه الله قاعدة في ذلك، فقال في ترجمة شيخ البخاري يحيى بن حماد الشيباني: قال محمد بن النعمان بن عبد السلام: لم أر أعبد من يحيى بن حماد وأظنه لم يضحك.

قلت: الضحك اليسير والتبسم أفضل، وعدم ذلك من مشايخ العلم على قسمين:

أحدهما: يكون فاضلاً لمن تركه أدباً وخوفاً مع الله، وحزناً على نفسه المسكينة.

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٧/ ٦٢٩.

(٢) تذكرة الحفاظ ٤/ ١١١٥، السير ١٧/ ٦٢٩.

والثاني: مذموم لمن فعله حمقاً وكبراً وتصنعاً، كما أن من أكثر الضحك استخف به، ولا ريب أن الضحك في الشباب أخف منه وأعذر منه في الشيوخ.

وأما التبسم وطلاقة الوجه فأرفع من ذلك كله، قال النبي ﷺ: «تبسُّمك في وجه أخيك صدقة»، وقال جرير: ما رآني رسول الله ﷺ إلاَّ تبسَّم. فهذا هو خلق الإسلام، فأعلى المقامات من كان بكَّاء بالليل بسَّاماً في النهار، وقال عليه السلام: «لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجه».

بقي هنا شيء ينبغي لمن كان ضحوكاً بسَّاماً أن يقصر من ذلك ويلوم نفسه حتى لا تمجه الأنفس، وينبغي لمن كان عبوساً منقبضاً أن يتبسَّم ويحسن خلقه ويمقت نفسه على رداءة خلقه، وكل انحراف عن الاعتدال فمذموم، ولا بد للنفس من مجاهدة وتأديب[1].

استطراد في ذكر قصة المازح وما جرَّ عليه مزحه:

قال الحافظ ابن عساكر: أخبرنا أبو محمد ابن الأكفاني، نا عبد العزيز بن أحمد الكتاني، نا أبو الحسين عبد الوهاب بن جعفر الميداني، أنا أبو الخير أحمد بن علي بن سعيد الحمصي الحافظ ـ قدم علينا ـ نا أبو المعمر أحمد بن العباس الكاتب، حدثني أبو عبد الله صالح بن عبيد البغداذي:

أن ثلاثة نفر خرجوا من بغداذ فجمعتهم طريق البصرة فقعدوا في بعض الطريق يتحدثون، فقال أحدهم: أي شيء أجود ما يجتنيه الإنسان في الدنيا؟ فقال بعضهم: المزاح، وقال الآخر: التيه والصلف، وقال الآخر:

(١) سير أعلام النبلاء ١٠/ ١٤٠ ـ ١٤١.

الاستخفاف بالناس، فقال أحدهم: ليخبرنا كل واحد بما لحقه.

فقال صاحب المزاح: أنا أخبركم خبري، وبكى، كنت رجلاً بزازاً في الكرخ، وكان لي فيها غلمان وأُجراء، وأنا بخير من الله عزَّ وجلّ، فخرجت إلى دكاني يوماً فقعدت فيها، فلم أشعر إلاَّ بمخنث قد عبر بـي، فحملني البطر والغرة بالله على المجون، فقلت: كيف أصبحتِ يا أختي، فأجابني بجواب مسكت، فأسقط في يدي وخجلت، وضحك كل من سمعه، فشاع ذلـك فـي البلـد، حتـى تحـدث بـه النسـاء علـى مغـازلهـن، والصبيـان فـي الكتاتيب، وكنت لا أعبر بشارع إلاَّ قالوا: هذا التاجر، وصاحوا خلفي، كيف باتت أختك؟ فلم أطق الكلام، وخرجت على وجهي وتركت كل ما أملكه، وكان ذلك بسبب مزاحي، وها أنا معكم نادم وما تنفعني الندامة.

وقال صاحب التيه والصلف: أخبركم خبري، إني كنت أتقصَّف، وكان علي من الله نِعم، فما أخذتها بشكر، وكان لي ندماء أفضل عليهم، فخرجت يوماً وهم حولي، فرأيت على الطريق أعمى يفسر المنامات، فقلت لأصحابـي: تعالوا بنا حتى نسخر من هذا الأعمى، فسلمت عليه فرد السلام، فقلت: يا أعمى إني رأيت رؤيا أريد أن أفسرها عليك، فقال: سل عما بدا لك، فقلت: رأيت كأني آكل سمكاً طرياً، فلما شبعت منه جعلت كأني أدخله في دبري، فصفق الأعمى بيديه وقال كلاماً قبيحاً، فلما شاع ذلك في الناس وتحدث به الناس فكنت لا أعبر في طريق إلاَّ قالوا لي ذلك الكلام.

فلم أطق الكلام وخرجت على وجهي، وكان ذلك سببه التيه والصلف الذي كان لي، وتركت كل ما أملكه وها أنا معكم.

فقال صاحب الاستخفاف بالناس: إني كنت حاجباً لشداد ــ والي الجسرين ــ وكان إذا أراد أن يأكل أمرني بأخذ بابه، وأن لا يدخل إليه أحد،

فلم أشعر يوماً إلاَّ قد جاءني رجل يريد أن يدخل إليه، فمنعته استخفافاً به، ولما دخل تقدم إلي صاحبي فقال: يا هذا أنا أبو العالية، وصاحبك تقدم إلي أن أجيئه في هذا الوقت، فرددته، فقال: ما أبرح، فحملني استخفافي به أن ضربته بعصا كانت في يدي، فولى عني، وأنشأ يقول:

مدحت شدادا فقال ائتني ... بالله في المنزل يا راويَه

فجئت أسعى فإذا به ... قد شدُّوا الحاجب في زاويَه

فقال من أنت الذي جئته ... وقت الغدا؟ قلت أبو العالية

فقام يجري بعصا ضخمة ... وكاد أن يكسر أضلاعيَه

فطرت مرعوباً وناديته ... أُمَّ الذي يحجبه زانيَه

فسمع غلمانه وردوا عليه، فأمر بضرب عنقي، فخرجت مرعوباً، وتركت كل ما أملكه، وكان ذلك بسبب استخفافي بالرجل، وعجبي بنفسي، وها أنا معكم، ولو كنت رفقت لم يصبني هذا، وكل ما نحن فيه بقضاء الله عزَّ وجلّ.

فقدم القوم وصاروا إلى البصرة وتفرقوا وأغناهم الله عزَّ وجلّ[1].

إطراء الخطيب لشيخه:

قال الخطيب: كان الصوري من أحرص الناس على الحديث وأكثرهم كَتْباً له وأحسنهم معرفة به، لم يقدم علينا أحد أفهم منه لعلم الحديث، وكان دقيق الخط صحيح النقل، حدثني أنه كان يكتب في الوجهة من الكاغد الخراساني ثمانين سطراً، وكان مع كثرة طلبه صعب المذهب في الأخذ، ربما كرر قراءة الحديث الواحد على شيخه مرات[2].

---

(١) تاريخ دمشق ٥/ ٦١ ـ ٦٢.

(٢) تاريخ بغداد ٣/ ١٠٣.

قلت: بالحافظ الصوري تخرَّج جماعة في الحديث كالخطيب البغدادي وأبـي الحسين الطيوري وأبـي الوليد الباجي..

دخل الجنة بجزء حديثي:

من كَتبةِ السنة المشهورين: الحافظ محمود بن الفضل الأصبهاني (ت ٥١٢هـ) كتب بخطه السريع الرفيع ما لا يوصف كثرة، وكان حميد الطريقة، مفيداً للغرباء، نسخ الكتب المطولة.

قال السِّلَفي: كان رفيقنا محمود بن الفضل يطلب الحديث ويكتب العالي والنازل، فعاتبته في كتبه النازل، فقال: والله إذا رأيت سماع هؤلاء لا أقدر على تركه، فرأيته بعد موته، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: غفر لي بهذا، وأخرج من كمه جزءًا(١).

استراح من النسخ:

ولابن الخاضبة نصيب وافر من كتابة السنة، صيَّره ورَّاق السنة على الإطلاق، وهو أبو بكر محمد بن أحمد بن عبد الباقي الدقاق (ت ٤٨٩هـ).

جاء في المستفاد من ذيل تاريخ بغداد: كتب بخطه كثيراً من الحديث والسير والأدب لنفسه وتوريقاً للناس، وكان يكتب خطًّا حسناً وله معرفة بهذا الشأن، ويوصف بالحفظ والصدق والثقة، وكان ورعاً زاهداً محبوباً إلى الناس.

قال أبو الفضل بن طاهر: ما كان في الدنيا أحسن قراءة للحديث من أبـي بكر ابن الخاضبة في وقته، لو سمع بقراءته إنسان يومين لما ملَّ قراءته(٢).

---

(١) التذكرة ٣/ ١٢٥٣.

(٢) المستفاد ١٩/ ٥.

وقال: سمعت ابن الخاضبة يقول: لما كانت سنة الغرق ـ يعني سنة ٤٦٦ ـ وقعت داري على قماشي وكتبي، ولم يكن لي شيء، وكانت لي عائلة: الوالدة والزوجة والبنات، فكنت أورِّق الناس وأنفق على الأهل.

فأعرف أنني كتبت صحيح مسلم في تلك السنة بالوراقة سبع مرات، فلما كانت ليلة من الليالي رأيت في المنام كأن القيامة قد قامت، ومناد ينادي: أين ابن الخاضبة، فأحضرت فقيل لي: ادخل الجنة، فلما دخلت الباب وصرت من داخل استلقيت على قفاي، ووضعت إحدى رجلي على الأخرى، وقلت: آه، استرحت والله من النسخ!![1].

قلت: من أنفس نسخ الترمذي وأصح مخطوطاته نسخة بخط ابن الخاضبة، كان العلماء يعتمدونها في اختلاف النسخ.

ومن نسخ الترمذي الثمينة نسخة بخط مؤتمن الساجي رحمه الله تعالى، وهي نسخة عتيقة، عليها تعليقات للمؤتمن، أشار إليها ابن نقطة في التقييد[2].

ناسخ واعظ:

في تضاعيف ترجمة الناسخ المسند أبي بكر بن أبي طاهر محمد بن عبد الباقي بن محمد الأنصاري البزاز (ت ٥٣٥هـ).

قال أبو سعد السمعاني: هو أسند شيخ بقي على وجه الأرض، وكانت إليه الرحلة.. كان سريع النسخ حسن القراءة للحديث، سمعته يقول: ما أعرف أني ضيعت ساعة من عمري في لهو أو لعب.. وأوصى أن يكتب على لوح قبره: ﴿قُلْ هُوَ نَبَؤٌا عَظِيمٌ ۝٦٧ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ۝٦٨﴾[3].

---

(١) المستفاد ١٩/ ٥، معجم الأدباء ٥/ ١٥٥.

(٢) التقييد ١/ ٩٥.

(٣) ذيل تاريخ بغداد ١٩/ ٢١.

المؤتمن الساجي:

هو الإمام الحافظ المجود الثقة أبو نصر مؤتمن بن أحمد بن علي الربعي البغدادي، المشهور بالمؤتمن الساجي.

قال فيه الشيخ أبو إسماعيل الهروي: لا يمكنِ لأحد أن يكذب على رسول الله ﷺ وهذا حي.

قال السِّلفي: حافظ متقن لم أر أحسن قراءة للحديث منه، تفقه على الشيخ أبي إسحاق، وكتب الشامل عن ابن الصبَّاغ بخطه، وكتب ببغداد كامل ابن عدي عن ابن مسعدة الإسماعيلي، وكتب بالبصرة سنن أبي داود.

قال: كان المؤتمن لا تُمل قراءته، قرأ لنا على ابن الطيوري كتاب: الفاصل للرامهرمزي في مجلس واحد![1].

وقال أبو نضر الفامي الحافظ: أقام المؤتمن بهراة عشر سنين، وقرأ الكثير، ونسخ الترمذي ست كَرَّات[2].

كتابه بخط يده:

كان الحافظ الكبير أبو الفضل محمد بن طاهر المقدسي الأثري ـ صاحب المصنفات المشهورة ـ لا يضم كتاباً إلاَّ بخطه، فورث لابنه الحافظ أبي زرعة المقدسي مكتبة قيمة بخط يده، فجمع أبو زرعة هذه الكتب ثم وجَّه بها إلى الحافظ المقرىء أبي العلاء الهمداني العطار بهمدان، رفعها على جميع أهل العلم وسلَّمها إليه.

قال ابن الدمياطي: سمعت من يذكر أنها كانت في ثلاثين غرارة[3].

---

(١) السير ١٩/ ٣١٠.

(٢) تذكرة الحفاظ ٩/ ٣١٠.

(٣) المستفاد من ذيول تاريخ بغداد ١٩/ ١٣٢.

قال السلفي: سمعت محمد بن طاهر يقول: كتبت الصحيحين وسنن أبـي داود سبع مرات بالأجرة، وكتبت سنن ابن ماجه عشر مرات بالري[1].

قـال شيخـه عبـد الله بـن محمـد الهـروي ــ شيـخ الإسـلام ــ : ينبغـي لصاحب الحديث أن يكون سريع القراءة، سريع النسخ، سريع المشي، وقد جمع الله هذه الخصال في هذا الشاب، وأشار إلى ابن طاهر.

قلت: له سيرة مشهورة، وآثار محمودة، وله رحلة طويلة في طلب الحديث، امتطى فيها قدميه، وبلغ به الحال ما أخبر عن نفسه: بلتُ الدم في طلب الحديث مرتين، مرة ببغداد، ومرة بمكة، كنت أمشي حافياً في الحر فلحقني ذلك..

وقد استوفى ترجمته الذهبـي في السير[2]، وغيره. توفي ابن طاهر سنة ٥٠٧هـ.

اختص لقراءة الخطوط:

مر في ما مضى ذِكرٌ لأبـي بكر بن عبد الباقي الأنصاري الحنبلي، وكان جمهريًّا متفنناً.

قال فيه السمعاني: ما رأيت أجمع للفنون منه، نظر في كل علم، فبرع في الحساب والفرائض، سمعتُه يقول: تُبتُ من كل علم تعلمته إلاَّ الحديث وعلمه.

ورأيتُه ما تغير عليه من حواسه شيء، وكان يقرأ الخط البعيد الدقيق، وكان سريع النسخ، حسن القراءة للحديث، وكان يشتغل بمطالعة الأجزاء التي معي وأنا مكب على القراءة، فاتفق أنه وجد جزءًا من حديث الخزاعي

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٩/ ٣٦٣.
(٢) ١٩/ ٣٦١.

قرأته بالكوفة على عمر بن إبراهيم العلوي بإجازته من محمد بن علي بن عبد الرحمن العلوي، وفيه حكايات مليحة، فقال: دعه عندي، فرجعت من الغد فأخرجه وقد نسخه، وقال: اقرأه حتى أسمعه، فقلت: يا سيدي، كيف يكون هذا؟ ثم قرأته، فقال للجماعة: اكتبوا اسمي[1].

كاتب ولا أصابع!

هو نمط من الكتاب غريب، كان قاضياً فقيهاً محدثاً، هو أبو عبد الله الحسين بن أحمد بن علي بن حسن الخسروجردي الشافعي، قاضي بيهق، يعرف بابن فُطيمة، مولده بعد الأربعين وأربعمائة.

سمع السنن من البيهقي واشتهر بروايتها، قصده ابن السمعاني لذلك، ولسماع فوات الشيخ عبد الجبار بن محمد المنيعي من معرفة الآثار للبيهقي. قال السمعاني: كان كثير السماع، حسن المجالسة، ما رأيت أرهف روحاً منه، مع السخاء والبذل، سمعت منه الكثير وكتب لي أجزاء.

ومن العجب أنه قطعت أصابعه بكرمان من علة، فكان يأخذ القلم ويترك الورق تحت رجله، ويمسك القلم بكفيه، فيكتب خطًّا مليحاً سريعاً.

يكتب في اليوم خمس طاقات خطًّا واسعاً[2]. توفي ابن فطيمة سنة ٥٣٦هـ.

آل بيت كلهم نساخ:

من مشايخ الإسلام في القراءات والحديث ابن الحطيئة أحمد بن عبد الله بن أحمد اللخمي الفاسي، تلا على ابن الفحام وابن بليمة وغيرهما.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٢٧.

(٢) التحبير ١/ ٢٢٢.

قال الذهبي في ترجمته: كان يعيش من الكتابة، وعلم زوجته وبنته الكتابة، فكتبتا مثله، فكان يأخذ الكتاب ويقسمه بينه وبينهما، فينسخ كل منهما طائفة من الكتاب، فلا يفرق بين الخطوط إلاَّ في شيء نادر[1].

وكان ابن الحطيئة لا تعرف لَه ساعة في غير السماع أو القراءة، وكان أمَّاراً بالمعروف نهَّاءً عن المنكر، أخذ على أهله وبنته بالعزيمة، فقرأت ابنته عليه بالسبع، وختمت عليه الصحيحين وغيرهما.

وذكروا أنه لم ينظر إلى ابنته حتى فارقته إلى بيت زوجها، لم يتفق له وقت فراغ يداعبها فيه من حين ولادتها إلى حين زواجها، إما يقرىء أو يسمع أو ينسخ، وهذا من عجيب ما اتفق.

وكان آية في التَّقلل من الطعام، بحيث صار له ذلك كالطبع، وكان يتعجب ممن يأكل ثلاثين لُقْمَة!

ومن كلماته المحفوظة المشهورة: طويت سعادة المسلمين في أكفان عمر رضي الله عنه.

توفي ابن الحطيئة سنة ٥٦٠هـ، رحمه الله تعالى.

مع محدث الإسكندرية:

هو أبو الطاهر أحمد بن محمد بن أحمد السِّلفي بكسر المهملة، الإمام العلامة المحدث الحافظ، حدث بأصبهان وهو أمرد وعمره سبع عشرة سنة، وبقي يحدث إلى أن توفي وقد جاوز المائة سنة ٥٧٦هـ.

قال الذهبي: استَوْطَن الإسكندرية بضعاً وستين سنة، مُكِبًّا عَلى الاشتغال والمطالعة والنَّسخ والتَّحْصيل، ومَكَثَ نيفاً وثمانين سنة يُسمع عليه

---

(١) سير أعلام النبلاء ٢٠/ ٣٤٥، وترجمته فيها فوائد وعجائب، فطالعها في معرفة القراء الكبار ٢/ ٤٢٢، وغاية النهاية ١/ ٧١.

ولا أعلم أحداً مثله في هذا[١].

قلت: حدث عنه شيخه ابن طاهر وقد مات قبله بسبعين سنة، وهذا أيضاً قلَّ أن يتهيأ لأحد سواه.

قال عبد القادر الرهاوي الحافظ: قال أبو الطاهر السلفي: كنت في الكوفة مريضاً، فكان يجعل لي مخاد أستند إليها وأكتب الحديث! قال: ورأيت في كثير من أجـزائه الكبار يقول في آخر الجزء: كتبت هذا الجزء في الليلة الفلانية، وسمعته يقول: كنت أكتب إلى قبيل الفجر ثم أنام. اهـ[٢].

قال أبو الحسن المقدسي الحافظ: لم يزل مقصوداً للسماع منه، والرواية عنه أكثر من ستين سنة، وكتب بخطه شيئاً كثيراً.

وكان أكثر أصوله بخطه سمعته يقول: متى لم يكن أصلي بخطي لم أفرح به، وكان جيد الضبط حسن الخط، كثير البحث عمَّا يشكل عليه إلى أن يجرده على ما يصح لديه، رحمة الله عليه.

قلت: هذا مشهور من أمره، كان لا يحدث إلاَّ من أصوله الموثقة.

فقال الحافظ المنذري: لما أرادوا أن يقرؤا سنن النسائي على السِّلَفي أتوه بنسخة سعد الخير، وهي مصححة، قد سمعها من أبـي محمد الدوني، فقال: ما تريدون تقرأون؟ فقالوا: سنن النسائي، فقال: فيها اسمي أحمد بن محمد؟ قالوا: لا، قال: فاجتذبها من يد القارىء بغيظ ورمى بها، وقال: لا أحدث إلاَّ من أصلي، فقالوا له: هذا بخط سعد الخير وهو ثقة حافظ قد كتبها عن شيخك! فقال: إن كان فيها اسمي وإلا فلا أحدث بها، ولم يحدث بها حتى مات[٣].

---

(١) جزء المائة، للذهبـي ص ٧٨، والسير ٢١/ ٥.

(٢) التقييد، لابن نقطة ١/ ٢٠٧.

(٣) التقييد، لابن نقطة ١/ ٢٠٥.

قال: كنت أسمع الحديث بالحريم فسمعت ليلة ثم جئت إلى مسجد فوضعت الكيس الذي فيه الأجزاء تحت رأسي، فوقع علي شيء ثقيل يشبه الكابوس، فجعل يكبسني حتى ضاقت نفسي وقال: أتدري أيش صنعت؟ تضع أحاديث رسول الله ﷺ تحت رأسك، قال: فقمت فنحيت الكيس ووضعت تحت رأسي آجرة، وجعلت الكيس في حضني ونمت[1].

شيء من حفظ السِّلفيّ:

قال المنذري: قال لي أبو الحسن علي ابن المقدسي: حفظت أسماء وكنى وجئت إلى الحافظ أبي الطاهر السلفي فذاكرته بها، فجعل يذكرها لي من حفظه، وما قال لي: أحسنت، وقال لي: هذا شيء مليح، أنا شيخ كبير لي في هذه البلد هذه السنين لا يذاكرني أحد، وحفظي هكذا[2].

مكتبة السِّلَفي:

قال عبد العظيم المنذري: كان السِّلَفي مغرًى بجمع الكتب والاستكثار منها، وما كان يصل إليه من المال كان يخرجه في شرائها، وكان عنده خزائن كتب، ولا يتفرغ للنظر فيها، فلما مات وجدوا معظم الكتب في الخزائن قد عفنت، والتصق بعضها ببعض لنداوة الإسكندرية، فكانوا يستخلصونها بالفأس، فتلف أكثرها.

النسخة اليونينية:

لشيخ الإمام الذهبي أبي الحسين علي بن محمد اليونيني الحنبلي عناية بالصحيح ومعرفة باهرة به.

---

(١) ذيل تاريخ بغداد ١٩/ ٧١، التقييد ١/ ٢٠٩.

(٢) التقييد ١/ ٢٠٧.

قال الذهبي في مشيخته[1]: هو الإمام المحدث الفقيه الأوحد، بقية السلف، شيخنا ومفيدنا، استنسخ صحيح البخاري وحرره، حدثني أنه قابله في سنة واحدة وأسمعه إحدى عشرة مرة، وروى الكثير وكان شيخاً مهيباً منوَّراً. . دخل في أول رمضان سنة ٧٠١هـ خزانة الكتب ببعلبك فدخل إليه رجل مضطرب العقل فضربه بسكين في دماغه، فتوفي. .

قال مقيده: النسخة اليونينية من أصح نسخ صحيح البخاري وأشهرها في هذا الزمان، وقد اعتمدها الشيخ القسطلاني متناً لشرحه (إرشاد الساري)[2].

وبين سنتي ١٣١١ ـ ١٣١٣هـ صدرت الطبعة السلطانية من صحيح البخاري معتمدة على النسخة اليونينية، بأمر من السلطان عبد الحميد رحمه الله، وذلك في المطبعة الأميرية في مصر، ثم أُعِيد طبعُه في المطبعة نفسها في العام التالي.

وفي سنة ١٣٧٨هـ طبع صحيح البخاري في مطبعة مصطفى البابي الحلبي معتمداً على النسخة السلطانية، وعمل الشيخ أحمد شاكر رحمه الله مقدمة هذه الطبعة.

خاتمة حسنة:

ونختم هذا الكتاب بذكر هذه الخاتمة الحسنة لناسخ من نساخ السنَّة وحفاظها المشهورين.

هو الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن إسحاق ابن السني، صاحب

---

(١) في الورقة ٩٩.

(٢) أما ابن حجر فقد قدمت أنه اعتمد نسخة ابن سكرة الصدفي، وهي أقدم وأسند.

عمل اليوم والليلة، وراوي السنن عن أبـي عبد الرحمن النسائي، توفي سنة ٣٦٤هـ.

قال ابنه أبو علي الحسن: كان أبـي يرحمه الله يكتب الأحاديث، فوضع القلم في أنبوبة المحبرة، ورفع يديه يدعو الله عزَّ وجلّ، فمات[١].

* * *

تم الكتاب والحمد لله.

(١) شذرات الذهب ٣/ ٤٨.



١ - فهرس الفوائد والأبحاث

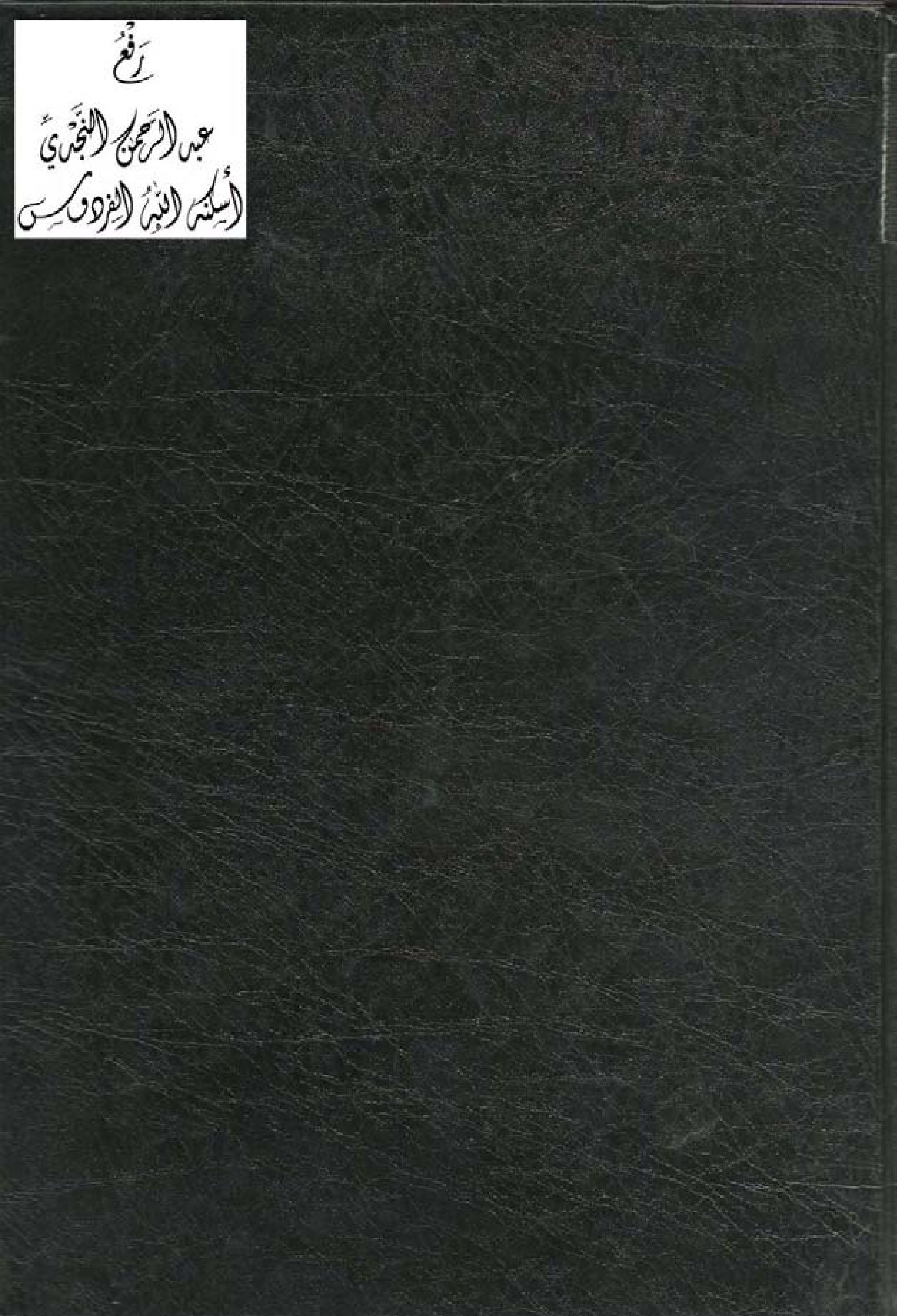
❑ ❑ ❑

٢ ـ فهرس فصول الكتاب

الموضوع	الصفحة

ثانياً: القسم التمثيلي

• • •


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس